

دكتور حمدي شاهين
كلية دار العلوم / جامعة القاهرة

دراسات في

عصر الخلافة الراشدة

الطبعة الأولى

سنة ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

موقع د. حمدي شاهين

www.hamdi-shahin.com

مقدمة:

يعد عصر الراشدين امتداداً للعصر النبوي الكريم في توجهاته وأساليبه وسمته وروحه، فكان ذلك العصر نقلة حضارية ضخمة نقلت العرب . بل العالم جميعه آنذاك . من مرحلة التخلف والهمجية، والانحدار الإنساني، والمظالم الاجتماعية والاقتصادية، والأخلاق النسبية المترددة، والنهج السياسي المنحاز إلى صالح الحاكم الفرد أو الطبقة المتميزة على حساب الكثرة الكاثرة من المستضعفين والمهمّشين، والتدنيّ الكهنوتي المعقد والمحرف الذي غدا صناعة بشرية لا عطاءً إلهياً، إلى مرحلة جديدة عرفت فيها البشرية عقيدة دينية متميزة فعلت فعلها في صياغة البشر وتكوين الأمة والمجتمع في جزيرة العرب، وإخراج نمط مغاير من الحكم السياسي، وكانت هذه العقيدة وما صاغته من تأثيرات واسعة ثورة هزّت العالم المتجمد الأسن وأيقظته على واقع جديد مثير..

ولأول مرة يرى العالم نوعاً من الحكام لم تنهض بهم عصبية القبيلة أو القوة العسكرية؛ ولم يتسلطوا بناءً على امتياز السلالة أو الجنس؛ بل قدمتهم قدراتهم الشخصية والتزامهم القيمي ومحبة رعيّتهم لهم والتفافها حولهم، وارتكزت زعامتهم على وافر العطاء وعظيم الإنجاز الذي يجتمع مع تاريخ ناصع وسير بيضاء، وإذا كان أمرهم عجباً في سياق حضورهم التاريخي فأمر الأمة التي قدمتهم أشدّ عجباً؛ إذ ركنت إليهم وارتضت صدارتهم مع بصيرة واعية ووعي بصير..

وإن الناظر بتجرد إلى تلك النقلة الهائلة في مسيرة التاريخ الإنساني لا يجد لها تعليلاً إلا في طروء متغير جديد كان سيد الموقف والممسك بزمام ذلك التحول الكبير؛ إنه الدين الجديد الذي عرفه العرب فحاربوه أول الأمر حيث لم تقوْ أبصارهم الكليلة على البصر السليم في ضوئه الباهر؛ ثم تكشفت لهم حقيقته

تدرجياً فأقبلوا عليه؛ واتخذوه لهم عقيدة غيرت سلوكهم وبدلت أحوالهم وأطلقت
طموحهم..

فلم يكن للعرب قبل الإسلام وجود سياسي واحد أو حكومة مركزية تضم
شقاتهم ؛ لم يكن هنالك سوى القبيلة وحدة اجتماعية وسياسية ؛ ولم يكن سوى
التقاتل والتشرذم من أجل هوى نفساني أو كلاً حيواني ، أما دويلاتهم الهشة في
جنوب الجزيرة أو شمالها فكانت كيانات ضعيفة لا قيام لها إلا برضا السادة من
الفرس والروم المجاورين ؛ وحسب تحقيقها أهدافهم وخدمتها أطماعهم ؛ ولم يمتد
بأحدها طموح إلى جمع راية العرب جميعاً ؛ ولم يكن ذلك مسموحاً لها لو امتد بها
الطموح ، وأنى لها ذلك ...

ولم يكن هؤلاء النفر الذين عرفهم التاريخ فيما بعد خلفاء راشدين وحكاماً
مهديين وقادة موهوبين وصناعاً لمسيرة العالم من حولهم؛ لم يكونوا سوى أفراد في
مجتمع آسن لا خطر لهم ولا تتجاوز همة أحدهم إلى أبعد من توفير لقمة عيش
كريمة يضرب في سبيلها أكباد الإبل في تجارة مرهقة إلى مواطن الأغنياء
المجاورين في الشام واليمن؛ أو ينحصر أمله في رعي غنيمات له وسياسة
أمورهن؛ وذلك يصدق على خلفائهم الكبار أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ؛ وعلى
قاداتهم الأمجاد كخالد وعمر وأبي عبيدة ومعاوية وسعد بن أبي وقاص والنعمان
بن مقرن...

فليس سوى ثورة الإسلام هي التي غيرت ذلك النفر فهذبت نفوسهم،
وربّت ضمائرهم، وأورثتهم رقابة صارمة من داخل النفس؛ خشية المراقبة والحساب
من إله لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وليس سوى الإسلام
الذي أطلق طموحهم ليتجاوز حدود القبيلة وإطار الجزيرة العربية إلى حدود العالم
وإطار الكون المعمور، وزكّى طاقاتهم وقدراتهم ليصبحوا سادة دول وساسة أمم
مختلفة الأعراق والأديان متباينة العادات والأجناس، وعزّز ثقافتهم ليقهروا الفرس
والروم ويصوغوا واقعاً عالمياً جديداً؛ ولم يكن ذلك يمكنهم لولا تأثير الإسلام في

مادة التغيير العظيم وهم العرب آنذاك؛ ومن دخل في دينهم من الأمم الأخرى؛ فتقبل أبناء القبيلة حكم الدولة المركزية؛ بل سعوا إليها وشاركوا فيها واستهانوا بتوضيحات جليلة ليكونوا دائماً . ولعصر طويل . جنوداً في جيش دائم الحركة سريع البذل مقدم على الغمرات..

وكما كان ذلك التغيير معجزة الإسلام كان أيضاً معجزة النفس البشرية التي خلفها الله تعالى بما تمتلكه من قابلية هائلة على التغيير والارتقاء..

إن البشرية الآن في شقوتها وماديتها الطاغية ومظالمها القاتلة لفي حاجة إلى الوقوف طويلاً أمام عصر النبوة والراشدين؛ وإن المسلمين الآن لفي حاجة أشد إلى ذلك ليدركوا أن أداة التغيير الثوري للنفس والمجتمع والعالم ما زالت في أيديهم؛ وفي أيديهم وحدهم؛ فهم الذين يعرفون الإسلام، وهم الأمناء عليه، وهم حملته إلى الدنيا من حولهم، وهم المحاسبون على ذلك، وأن وسائل ذلك التغيير هي أيضاً ملك يمينهم؛ من فهم الإسلام وإخلاص الاعتقاد به ودعوة الناس إليه وتربية الضمائر عليه؛ ثم إزالة الموانع من سبيله ليعرفه العالم ويتخذ بعد معرفته قراره إزاءه..

ومن هنا كانت ضرورة استمرار دراسة تاريخ الراشدين، ليس فقط لمعرفة الجانب الوضيء الواسع في تاريخ تلك الحقبة الزمنية، وإنما أيضاً لمعرفة جوانب القصور . ولا بد في كل تاريخ من جوانب قصور . والإفادة منها؛ فلم يكن عصر الراشدين ولا غيره من عصور البشرية تاريخاً ملائكياً لا أثر فيه لنوازع النفس وأخطاء السلوك، بل هو تاريخ مجتمع متميز يحاول تسنُّم ذرى الكمال البشري، ولا بد لمن يحاول ذلك أن يكبو حيناً وتزلُّ قدم بعد ثبوتها، ولكن ذلك لا يؤثر على سلامة القصد ونبل التوجه وخطورة الغاية؛ وإن دراسة ما خلفه عصر الراشدين من نجاح باهر في طرق الحكم والإدارة وسياسة الفتح والانتشار وتطوير المجتمع والدولة لا تقل أهمية عن دراسة نماذج الاختلاف السياسي والتقاتل الداخلي الذي

حدث في الفتنة الكبرى لاستجلاء الفائدة واستهداف العبرة؛ لا لإحياء المعارك التاريخية والوقوف عندها وسفح العبرات وإراقة الحسرات...

ولن يتم ذلك بنجاح إلا بمحاولة إحياء المسرح التاريخي كما تمت فيه الحوادث وسارت فيه الوقائع في العصر الراشدي نفسه؛ وذلك عمل عسير؛ إذ لم تصلنا وقائع عصر الراشدين ولا غيره من عصور البشرية بشكل كامل دقيق؛ وتدوين أمين محايد؛ فسوف تقابلنا مشكلة التقييم التاريخي الموضوعي التي نجدها في كل دراسات التاريخ...

وزاد من خطورة ذلك . فيما يخص عصر الراشدين . أن تاريخ ذلك العصر لم يكتب في حينه، فقد أثر الخلفاء . والمسلمون في عصرهم . أن يصوغوا الأحداث الجليلة، ويبدلوا في ذلك الوسع والطاقة، ولم يولوا عناية موازية لكتابة تاريخهم وتدوين وقائعه، وليس ذلك لغفلة منهم؛ بل اتساقا مع الواقع الثقافي الذي كان معهوداً آنذاك؛ فقد كان العلم كله ينتقل شفاهة؛ بدءاً من القرآن الكريم أقدس ما لدى المسلمين؛ ومروراً بالحديث النبوي على عظيم أهميته واحتقائهم به؛ وانتهاءً بشعرهم وأدبهم ونتائجهم الثقافي، ولما انتبه الخلفاء الراشدون إلى أهمية تدوين العلم والثقافة أولوا اهتمامهم الأول لكتابة القرآن الكريم بعدما استحرّ القتل في حفاظه في حروب الردة، ولم يدونوا الحديث الشريف خشية من صرف الناس عن القرآن وفقهه ودراسته وحفظه والاحتشاد من أجله، أما أخبار الإنجاز السياسي والعسكري الضخم الذي كانوا يصنعونه فلم يولوه حقه من التحرير والتحري في الرواية؛ والدقة في النقل؛ كما كانوا يفعلون مع الحديث؛ فضلاً عن أن يهتموا بكتابته وتدوينه.. وربما شغلنتهم الأحداث الجسام عن ذلك، وربما قادهم تواضعهم الجَمِّ وإنكارهم الذات وهضمهم حظ النفس إلى الإعراض عن تسجيل عمل مجيد ظنّوه سيتواصل طالما وُجد الإسلام والمسلمون، ولم يدركوا شدة تعطش البشرية إليه في زمان تال؛ يتلفت فيه الناس إلى مواطن الأسوة والافتداء، أو يصبح همّهم فيه هو الدراسة والتتقيب في تجريد عقلي ومختبر علمي، وإن لم تصحبه رغبة التأسي والافتداء..

وقد وصلنا تاريخ الراشدين عن طريق الرواية الشفهية التي رواها المشاركون في الأحداث - وهم كثرة كثيرة - إلى من عاصروهم ممن لم يشارك فيها، وإلى من أخذ عنهم وأدركهم، فرواه هؤلاء - وهم أقل عدداً - إلى جيل تالٍ، حتى وصل إلى جماعة من الجماعين للأخبار المهمين بها؛ عُرفوا باسم الأخباريين، فتجمعت لديهم روايات شتى بادروا إلى جمع ما يختص منها بواقعة معينة أو حدث بذاته، فرأينا كتاباً عن وقعة الجمل أو موقعة صفين أو كتاباً عن سقيفة بني ساعدة أو حروب الردة أو فتح بلد من البلدان، ورأينا جهوداً لأناس مثل سيف بن عمر والواقدي وأبي مخنف وهشام الكلبي وغيرهم، وجاء بعد هؤلاء الأخباريين جيل من المؤرخين احتشدوا لكتابة تاريخ شامل أوسع مدى مما سبق، يضم متفرقه ويجمع شتاته، فجمع البلاذري أنساب الأشراف في كتاب؛ وجمع فتوح البلدان في كتاب آخر، وكتب الطبري تاريخ الرسل والملوك في موسوعة ضخمة، وعمل جليل، استوعب فيه كثيراً من روايات الرواة التي وصلته فيما يخص كل حادثة تعرض لها؛ وضم ذلك كله في سفر كبير بغض النظر عن صحة هذه الروايات أو ضعفها أو تلفيقها؛ فقد ترك دراسة ذلك للقارئ المثقف في عصره؛ وللدارس الواعي فيما بعد عصره؛ فحفظ لنا بذلك مادة واسعة تصلح لدراسة التاريخ وتكوين تصورٍ ما عنه؛ ولم يقصد إلى كتابة تاريخ محقق يأخذ به من يليه..

وقد كان هؤلاء الرواة الذين رويت لنا أخبارهم بشراً تتعاورهم التأثيرات المتباينة فيخضعون لها حيناً ويتجردون منها حيناً آخر، فمنهم من أثر في مروياته مذهبه الديني مثل الرواة الشيعة والمعتزلة والخوارج، ومنهم من أثر فيه ولاؤه السياسي مثلما يروي الرواية الشيعي أخبار عثمان رضي الله عنه، ويروي الرواية العباسي أخبار معاوية رضي الله عنه..

وفي عصورنا الحديثة تلقف المؤرخون هذه الروايات فصاغوها تاريخاً أثرت فيه أيضاً مذاهبهم وطرق تفكيرهم وعواطفهم؛ فرأينا تيار الاستشراق الذي قاده

جماعة من علماء الغرب اهتموا بدراسة لغات الشرق الإسلامي وعاداته وثقافته وتاريخه، وبدأ متحاملاً على الإسلام مرتبطاً بروافد الاستعمار الغربي والتبشير النصراني، ثم تحرر من ذلك تدريجياً بدرجات متفاوتة، وكان لهؤلاء المستشرقين تلاميذ من المسلمين تأثروا بمنهج تفكيرهم، وطرق بحثهم، ومختلف آرائهم، وكان من هؤلاء وأولئك من التزم بمنهج التفكير الماركسي المادي في النظر للإسلام وتاريخه؛ ففسروا الاختلاف بين بعض الصحابة في أحداث الفتنة الكبرى وما دونها على أنها صراع مادي أفرزته الفوارق بين الطبقات؛ فحاولوا بذلك تطبيق نظريات القرن التاسع عشر الميلادي التي نبتت في بيئات غريبة عن الإسلام. وتشهد الآن تراجعاً كاملاً عن أسسها الفكرية. على حوادث تاريخ سبقها عدة قرون، وأثرت فيه مؤثرات مختلفة هي بنت عصرها ونتاج تفاعلاته..

ومن هنا تبرز أهمية دراسة أحوال رواة التاريخ الإسلامي في عصر الراشدين. وفي غيره. لمعرفة أحوالهم واتجاهاتهم المذهبية والسياسية التي أثرت على تدوينهم وقائع ذلك التاريخ، وتبرز أيضاً أهمية الحذر من دراسات المستشرقين وأتباعهم التي تلون كثير منها بنزعات مصلحة ارتدت ثوب العلم..

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أفيد من روايات الحديث النبوي الشريف وشروحه، وكتابات المتكلمين المسلمين، جنباً إلى جنب مع الروايات التاريخية، حيث أولى رجال الحديث وشراحه بعض أحداث هذه الفترة عناية خاصة، فقدموا لنا مادة علمية بذلوا جهداً كبيراً في توثيقها ودرسها، وقد أهملها أو تجاوزها كثير من الباحثين المعاصرين بغير حق، إذ إن من بدهيات البحث العلمي الرصين استيعاب المادة الواردة بشأنه، وإذا كان كثير من المؤرخين يحتفي بمصادر الأدب واللغة وكتابات الرحالة والجغرافيين وغيرهم فإنه من الأولى الاحتفاء بمرويات الحديث وشروحه، وكتابات المتكلمين وما درسوه من قضايا حدثت في ذلك العصر وشغلت الأمة في زمانها وبعد زمانها.. إن التاريخ الإسلامي جزء من الدراسات

الإسلامية، وبعض هذه الدراسات قدمت مادة موثوقاً بها سنداً وممتناً، أو اجتهادات عقلية متميزة لفهم هذه المادة وقضاياها..

وجاء هذا الكتاب في تمهيد وأربعة فصول: تناول التمهيد دراسة نقدية للمصادر التاريخية الأولى لعصر الخلفاء الراشدين، وتناول الفصل الأول منها خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وفيه دراسة مستفيضة لقضية استخلافه؛ وما ورد فيها من روايات الحديث والتاريخ وآراء العلماء، ثم سيرته ومنهجه حكمه، ثم مواجهته المرتدين ومسيرة الفتوحات الإسلامية في عهده، وتناول الفصل الثاني خلافة الفاروق عمر رضي الله عنه، وبه دراسة لطريقة استخلافه، ولمنهجه في الحكم والإدارة، والفتوحات الواسعة في عصره، ثم تحليل للروايات الواردة عن استشهاده، وهل كان مؤامرة من أعداء الإسلام؟ وفي الفصل الثالث حديث عن خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكيفية استخلافه والشبهات المثارة حوله، ثم بيان لمنهجه في الحكم، والفتوحات في خلافته، ثم دراسة مسهبة للفتنة في عصره وأسبابها المزعومة والحقيقية، وطريقته في مواجهتها حتى استشهاده رضي الله عنه، وفي الفصل الرابع دراسة لخلافة علي كرم الله وجهه، وكيفية استخلافه ومن تخلف عن بيعته وحجتهم في ذلك، وأبرز المشكلات التي واجهته، ومنهجه في التعامل معها، ثم صراع علي ومعاوية، ومبررات كل منهما، مع دراسة تطورات ذلك الصراع، حتى ظهرت الدعوة للتحكيم، وما دار حولها من شبهات وشكوك، ثم ظهور الخوارج واستشهاد علي رضي الله عنه، وتنازل الحسن ابنه عن الخلافة، وبيعة معاوية رضي الله عنه، لتبدأ حقبة جديدة من التاريخ الإسلامي.. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

تمهيد

دراسة نقدية للمصادر التاريخية الأولى لعصر الراشدين

شاع بين المؤرخين أن تدوين العلوم الإسلامية قد بدأ في العصر العباسي الأول، أما قبل ذلك فكانت تنتقل بواسطة الرواية الشفوية من راو إلى راو، ومن جيل إلى جيل^(١)، وقد قال بذلك أيضًا جماعة من علمائنا الأقدمين^(٢). غير أن أدلة كثيرة تؤكد أن للتدوين بدايات مبكرة بعضها يعود إلى زمن النبي ﷺ، وشارك فيها عديد من الصحابة ومن بعدهم التابعون^(٣)، ومن ثم يجب أن نضع في اعتبارنا أن التدوين لم يحدث فجأة، وإنما حدث تدريجيًا، وتم على فترات ومراحل صاحبت تقدم القوم ورفيهم، وسبق التدوين مراحل طويلة من الكتابة^(٤)، كما يجب أن ننوه إلى عدم تمايز العلوم الإسلامية في ذلك الوقت المبكر بعضها عن بعض، فقد كان مفهوم العلم شاملًا^(٥). لقد كانت الأولوية في التدوين للحديث الشريف وأقوال الفقهاء، لكن ثمة إشارات صريحة إلى العناية بتدوين التاريخ أيضًا، من ذلك أن عبيد الله بن أبي رافع - كاتب أمير المؤمنين

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ١/ ٣٣، د. عبد المنعم ماجد: التاريخ

السياسي للدولة العربية ١/ ٢٠

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٩٤، الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ١٥١، ٢٢٩، وانظر السيوطي: تاريخ

الخلفاء ص ٢٦١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١/ ٣٥١

(٣) أحمد بن حنبل: العلل ٢/ ٢٩٦، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٣٧٣، ٧/ ٤٤٨، ٤٩٤، ابن قتيبة:

المعارف ٢٦٠-٢٦١، أبو نعيم: حلية الأولياء ٣/ ٣١٠، ٣٦٦، اليافعي: مرآة الجنان ١/ ٢٦١، ابن

الجوزي: صفة الصفوة ٢/ ١٣٧، أحمد محمد شاكر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن

كثير ص ١١١-١١٢، د. شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ١/ ٩٥، د. محمد فتحي عثمان:

المدخل إلى التاريخ الإسلامي ١٢٣-١٢٦

(٤) د. عثمان موافي: منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوروبي ص ٥٣

(٥) راجع أحمد أمين: ضحى الإسلام ٢/ ٣٦١

علي عليه السلام - كتب رسالة تحت عنوان: "تسمية من شهد مع أمير المؤمنين في حروب الجمل وصفين والنهروان من الصحابة"^(١)، وبعض أخبار معاوية عليه السلام تدل على اهتمامه بتدوين المعارف التاريخية والإفادة منها^(٢)، وقد كانت لديه دفاتر فيها سير الملوك وأخبارهم، يقرأها عليه غلمان له مرتبون كل ليلة^(٣)، كما نُسب إلى زياد بن أبيه أمير العراق (ت ٥٣هـ) أنه ألف كتابًا في "المثالب"، وهو قول مشكوك فيه^(٤)، وأشار خالد القسري أمير العراق الأموي (ت ١٢٦هـ) على الزهري أن يكتب كتابًا عن قبائل العرب، فشرع فيه ولم يتمه^(٥).

وينبغي أن نذكر في هذا المقام جهود التدوين الرسمية التي قامت بها الدولة الإسلامية، وأبرزها قيام عمر عليه السلام بتدوين ديوان العطاء الذي غدا سجلًا رسميًا للمسلمين وأنسابهم وثرواتهم وأماكنهم، وما فعله معاوية من اتخاذ ديوان الخاتم لحفظ مراسلات الدولة، وحمايتها من التلاعب، ثم تعريب الدواوين وتعديلها زمن عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) وابنه الوليد (ت ٩٦هـ)..

تطور التدوين التاريخي:

وقد بدأت بواكير التدوين التاريخي على المستوى العام برواية حادثة بعينها، محدودة في نطاقها الزماني والمكاني، كرواية أحد المواقف التي جرت في غزوة من الغزوات، أو لقائد أو زعيم، وتمتاز هذه المرحلة - فضلًا عن كثرة الرواة - بسيطرة الرواية الشفوية عليها، وقلة ما تم تدوينه منها..

(١) راجع د. شاکر مصطفى: السابق ١ / ١٧٠

(٢) استقدم معاوية إليه عبيد بن شربة، وهو أخباري يمني (ابن النديم: الفهرست ١٣٢، المسعودي: مروج الذهب ٢ / ٨٥)

(٣) المسعودي: السابق ٢ / ٤١

(٤) راجع الأصفهاني: الأغاني ٢٠ / ٢١، حيث ينسب الكتاب إلى زياد

(٥) السابق ١٩ / ٥٩، أبو نعیم: حلیة الأولیاء ٣ / ٣٦٠

وفي المرحلة التالية ظهرت جماعة عرفت بالأخباريين، أي رواة الأخبار وجامعوها، وهم أقل عددًا ممن سبقهم، وكبار هؤلاء الأخباريين مشهورون في الدراسات التاريخية، وهم ينتمون إلى القرن الثاني الهجري، كمحمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ) وعوانة بن الحكم (ت ١٤٧هـ) ومحمد ابن إسحاق (ت ١٥٢هـ) وأبي مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧هـ)، وبعضهم ينتمي إلى القرن الثالث كهشام بن الكلبي (ت ٢٠٤هـ) والواقدي (ت ٢٠٧هـ) والمدائني علي بن محمد (ت ٢٢٥هـ)، وقد جمع هؤلاء الأخباريون أو المؤرخون المبكرون الروايات المتفرقة التي وصلتهم من الجيل السابق؛ والتي تخص موضوعًا بعينه، في كتب أو كتيبات صغيرة الحجم مثل: "حروب الردة" أو "موقعة الجمل" أو "صفين" .. وامتاز بعضهم بغزارة الإنتاج العلمي كالواقدي والمدائني^(١)، غير أن معظم هذا الفيض من الإنتاج العلمي لم يصلنا على النحو الذي خلفه عليه أصحابه، بل وصلنا من خلال ما احتفظ به المؤرخون الكبار الذين جاءوا من بعدهم كالبلاذري (ت ٢٧٩هـ) واليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) والطبري (ت ٣١٠هـ)، ومثلوا المرحلة الثالثة من مراحل التدوين التاريخي.. وقد استطاع بعض الدارسين أن يجمعوا مرويات عدد من هؤلاء الأخباريين المتناثرة في كتب من تلاهم، مما يمكّن من دراستها، ومعرفة مناهجهم في الجمع والتوثيق، واتجاهات الرواية لديهم^(٢)، وقليل من إنتاج هؤلاء الأخباريين أو المؤرخين المبكرين وصلنا كالسيرة النبوية لابن إسحاق، ومغازي للواقدي.

وتعددت اهتمامات هؤلاء المؤرخين، فمن هذه الكتب ما اهتم بالتاريخ العام كتاريخ اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) والأخبار الطوال للدينوري (ت ٢٨٢هـ) ومنها ما اهتم

(١) سيأتي الحديث عن الواقدي لاحقًا، أما كتب المدائني فتبلغ مائتين وأربعين كتابًا (ابن النديم: الفهرست ١٤١-١٥١)

(٢) جمع عبد السلام هارون مرويات نصر بن مزاحم عن "صفين" في كتاب بذات الاسم، وجمع أحمد راتب عرموش مرويات سيف بن عمر عن "الفتنة وموقعة الجمل" من تاريخ الطبري.

بالأنساب كنسب قريش لمصعب الزبيري (ت ٢٣٦هـ) ومنها ما اهتم بالفتوح مثل "فتوح البلدان" للبلاذري (ت ٢٧٩هـ)، و"فتوح مصر والمغرب" لابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ) ومنها ما نظمت مادته حسب الطبقات ككتاب "الطبقات الكبرى" لابن سعد (ت ٢٣٠هـ).

وتوزع هؤلاء المؤرخون جغرافياً، فكان منهم من ينتمي إلى الحجاز كابن إسحاق والواقدي في بدايتهما قبل أن يذهبا إلى العراق، ومنهم من ينتمي إلى العراق كاليقوبي والبلاذري، ومصر كابن عبد الحكم، وكان لكل منهم تلاميذ ومعاصرون، مما ساعد على تكون سمات يمكن استنباطها لكل مدرسة تاريخية تنتمي إلى إقليم من هذه الأقاليم^(١).

ملاحظات عامة على عملية التدوين التاريخي:

ونلاحظ عدة ملاحظات عامة على عملية التدوين التاريخي آنذاك:

١- إن كثيراً من نتائج الأخباريين الأولين لم يصلنا، كما ألمحنا من قبل، ويعود ذلك في جانب منه إلى طريقة الانتقاء من المصادر التي اتبعتها المؤرخون الجماعون الكبار الذين جاءوا من بعدهم، وحفظوا التراث السابق عليهم، وكان نظرة العلماء وطلاب العلم آنذاك إلى الآثار المكتوبة أثرها في عدم العناية ببعضها، ثم ضياعها، إذ كانوا ينظرون إليها كعامل مساعد على التذكر والحفظ، غير أنه لا يعول عليها بشكل أساسي في التدريس أو التعليم، وقد كانوا يقللون من قيمة العلم المكتوب خوفاً مما قد يعرض له من التغيير والتبديل، أو النسخ والإزالة، أو التصحيف والتحريف^(٢)، ولذلك كانوا يقولون: "لا يفتي الناس صحفي، ولا يقرئهم مصحفي"^(٣)..

(١) راجع عن هذه المدارس التاريخية: د. شاکر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون

(٢) راجع د. عثمان موافي: منهج النقد التاريخي الإسلامي ص ٤٤

(٣) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية ص ١٦٢-١٦٣

٢- يغلب على مؤرخي هذه الفترة ضمور النقد التاريخي، ويكتفي أحدهم برواية ما وصله من أخبار مع إسنادها إلى أصحابها، ويدع أمر قبولها أو رفضها على عاتق القارئ أو السامع، وقد تكون هذه الروايات متناقضة أو مختلفة، أو مستغربة معيبة، فمهمته كما يراها تنحصر أولاً في النقل لا النقد، وفي استيعاب الأخبار والمحافظة عليها، وجمعها بشكل منظم بغض النظر عن نصيبها من الصحة والثبوت^(١)، حتى وصلت إلينا هذه التركة لا على أنها هي تاريخنا، بل على أنها مادة غزيرة للدرس والبحث يستخرج منها تاريخنا^(٢)، وقد عبر الطبري عن ذلك الاتجاه أفضل تعبير حين قال: "فما في كتابي هذا من خبر يستنكره قارئه، أو يستشعنه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا في الصحة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وأنه إنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا"^(٣)، ويستلزم ذلك على دارس تاريخ هذه الفترة معرفة أحوال هؤلاء الرواة الذين تذكرهم سلاسل الإسناد، صدقًا وكذبًا، وتجريحًا وتعديلاً، مع الحذر من احتمالات تدخل الوضاعين بصنع سلاسل إسناد موثوق بها ليروج الخبر، ويزيد الأمر صعوبة أن بعض المؤرخين كان يكتفي بذكر أبرز رواته في بدء كتابه، كما نجد عند اليعقوبي في تاريخه، أو يذكرهم بين حين وآخر في صفحات كتابه، مثلما يفعل أبو حنيفة الدينوري في "الأخبار الطوال"، والأمر على ذلك النحو يجعل النقد الداخلي للأخبار ودراسة متونها ومادتها أمرًا بالغ الأهمية، ولا محيص عنه..

٣- إن قصور النقد التاريخي لا يعني عدم وجوده مطلقًا، فقد كانوا يمارسونه بصورة غير ظاهرة، "فمن فيض هائل من الروايات التاريخية كان المؤرخ يمدنا بعدد منها فقط، محدود على أية حال، وكان يقوم بجهد كبير في الانتقاء للروايات

(١) راجع: عبد المنعم ماجد: السابق ٢١/١، ٢٥، شاكر مصطفى: السابق ١٧٣/١، عثمان موافي: السابق

(٢) محب الدين الخطيب: حواشيه على "العواصم من القواصم" لابن العربي، حاشية ٣٠٩ ص ١٧٩

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٨/١

ومقارنتها، ونفي ما لا يقبله منها، أو دمج بعضها في بعض، إن التدوين التاريخي الإسلامي في الحقيقة إنما يتضمن في شكله الوصفي المُعطى تلك العمليات الفكرية من استقراء ومناقشة وتفضيل رواية على أخرى، ولكن دون الإعلان أو التسجيل لكافة تلك المراحل التحضيرية السابقة للكتابة، والتي قلما يكشف عنها المؤلف، وندر جدًا من المؤرخين من كانت كتابته مجرد سرد ساذج لا يحمل ضمن السطور تأويله الخاص، وتفسيره الذاتي"^(١)..

أبرز الرواة والأخباريين:

برز في الفترة موضع البحث عدد من الرواة والأخباريين والمؤرخين كانوا المنهل الذي استقى منه من تلاهم، مما يزيد من أهميتهم، وفي الصفحات التالية دراسة عن أبرز هؤلاء، تتناول مدى صدقهم وعلاقتهم السياسية وانتماءاتهم المذهبية التي أثرت في كتاباتهم، مع عرض نماذج لمروياتهم عن عصر الخلفاء الراشدين، ومحاولة استنباط أبرز السمات المنهجية لديهم..

١- محمد بن إسحاق المطلبي:

اختلف العلماء حول ابن إسحاق^(٢) وروايته اختلافًا كبيرًا، فبعضهم يمتدحه، وبعضهم يتهمه ويكذبه.. والذي يطمئن إليه المرء من ذلك الاختلاف

(١) شاکر مصطفى: السابق ٤٥٧/١، وانظر روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين ٩٢
(٢) هو محمد بن إسحاق بن يسار مولى قيس بن مخزومة بن المطلب بن عبد مناف، ولد حوالي سنة ٧٥هـ وتوفي حوالي سنة ١٥٢هـ، وكان جده يسار من سبي عين التمر، ولما شب طلب العلم من شيوخ المدينة، وأخذ عن أكثر من مائة راوٍ فيها، ثم اتجه إلى العراق، واتصل بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، فأهدى إليه كتابه في المغازي، وسمع منه خلائق بالعراق، وجمع إلى روايته بعض رواياتها (راجع: ابن النديم: الفهرست ١٣٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٩-٤٧، مرجليوث: دراسات عن المؤرخين العرب ص ٩٨، شاکر مصطفى: السابق ١/ ١٦٠-١٦١).

الطويل^(١) أن ابن إسحاق كان لا يسير سيرة المحققين من المحدثين، فأثار ذلك حنقهم، فكان يلجأ أحياناً إلى الإسناد الجمعي، فيروي المعنى الواحد عن طريق عدد من سلاسل الإسناد، فلا يعلم العالم المحقق ما روته كل سلسلة منها على وجه الدقة، وكان أحياناً يروي عن الضعفاء والمجهولين، وكذلك فعل عدد من المحدثين - دون تأثم - ما داموا يذكرون أسماء الرواة، وليس كل محدث يقتصر في روايته على الثقات وحدهم، كما أنه كان يفرق بين الدقة المطلوبة في أحاديث الأحكام - ولا يروي منها إلا قليلاً - وبين التساهل الجائز في رواية الأخبار والسير، وكان بعض كبار الثقات يفرق أيضاً بين هذين النوعين كابن حنبل وغيره^(٢)، إلا أن ابن إسحاق توسع في ذلك الباب؛ فكان يروي أحياناً عن اليهود والنصارى، ويسميه "أهل العلم الأول"، ولا يتورع أن يضع الأشعار المصنوعة في كتبه، حتى صار فضيحة عند رواة الشعر^(٣)، وكان يلجأ أحياناً إلى التدليس بأن يُسقط من بعض الأخبار رجالاً متهمين بالكذب؛ فيندفع بذلك من لا خبرة له

(١) ممن امتدحه ابن شهاب الزهري فقال: "لا يزال بالمدينة علم ما بقي هذا" - يعني ابن إسحاق - وقال عنه شعبة بن الحجاج: "أمير المحدثين" وقال عنه الشافعي: "من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق" .. على حين ضعفه آخرون واتهموه، ومن أشهرهم مالك بن أنس الذي قال عنه: "إنه دجال من الدجاجة"، ولما قيل لهشام بن عروة إنه يحدث عن زوجته فاطمة قال: "كذب الخبيث"، وقال: "العدو لله الكذاب، يروي عن امرأتي، من أين رأها؟" وقال عنه أحمد بن حنبل: كان رجلاً يشتبه الحديث فيأخذ كتب الناس فيضعها في كتبه! وقال: "إنه قدم إلى بغداد فكان لا يبالي بمن يحكي، عن الكلابي وغيره، وقال عنه: "كثير التدليس جداً، أحسن حديثه عندي ما قال: أخبرني وسمعت" (راجع ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ١٩١/٧-١٩٣، ابن القيسراني: تذكرة الحفاظ ١٧٢/١-١٧٤، ابن عدي: الكامل في ضعفاء الرجال ١٠٢/٦-١١٢، العقيلي: ضعفاء الرجال ٢٣/٤-٢٨، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣٣/٧-٥٥، ميزان الاعتدال ٥٦/٦-٦٢، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢١٧/١-٢٣٤، ابن الجوزي: الضعفاء والمتروكين ٤١/٢، ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير ١/٥٤-٦٧)

(٢) راجع ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢٣٧/١

(٣) راجع ابن النديم: الفهرست ص ١٣٦

بالرجال والأسانيد^(١).. وعلى ذلك فإن مرويات ابن إسحاق لا ينبغي أن تؤخذ على علاتها، بل تدرس كل رواية منها على حدة، فما صرح فيه بالسماع أو التحديث وكان رواته ثقات فهو جدير بالثقة، وما خالف ذلك وجب الحذر تجاهه.

وقد كتب ابن إسحاق - فضلاً عن كتابه في السيرة - كتاب "الخلفاء"، وتحدث فيه عن الراشدين والأمويين على الأرجح، وهناك مقتطفات منه لدى الطبري، وهي التي تهمنا في ذلك المقام بالدرجة الأولى، وتوجد في سيرته التي نقحها ابن هشام بعض المرويات عن بدايات عصر الراشدين.

من ذلك أنه يروي ما يوافق الروايات الصحيحة عند البخاري من أن النبي ﷺ أمر أبا بكر في مرض وفاته أن يصلي بالناس، وأصر على ذلك^(٢)، وأنه قُبض ولم يستخلف أحدًا صراحة^(٣)، كما تتفق روايته مع رواية البخاري عن خطبة أبي بكر المسلمين عقب وفاة النبي ﷺ يثبّتهم ويبيّصّهم^(٤)، وذكر ابن إسحاق أيضًا الرواية الصحيحة التي أوردها البخاري عن خطبة عمر التي شرح فيها ظروف استخلاف أبي بكر؛ وأنها كانت فلتة، وتحذيره المسلمين أن يبايع أحدًا على غير شورى من الناس، ومن فعل ذلك فلا يبايع هو ولا الذي بايعه^(٥)، وهذا التوافق يزيد الثقة في ذلك النوع من مرويات ابن إسحاق..

وروايته عن بعض وقائع الردة أقرب إلى القبول، ومنها روايته عن قتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة، وهي تبرر قتل مالك بأنه لم يلتزم الأدب في حديثه

(١) للتدليس معان أخرى هذا أخطرها (راجع: أحمد محمد شاکر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير ص ٤٥-٤٧)

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٦/ ٦٨-٦٩

(٣) السابق ٦/ ٧٢، وللمقارنة انظر صحيح البخاري حديث رقم ٦٦٤، ٥٦٦٦، ٤٤٤٧، صحيح مسلم حديث رقم ٣٢٨٧

(٤) ابن هشام: السابق ٤/ ٢٢٧-٢٢٨، وقارن البخاري: السابق حديث رقم ٣٦٦٧، ٣٦٦٨، ٣٦٦٩

(٥) ابن هشام: السابق ٤/ ٢٢٩-٢٣١، وقارن البخاري: السابق حديث رقم ٦٨٣٠

عن النبي ﷺ فقتله خالد^(١)، وتخلو من مبالغات رواية سيف بن عمر عن هذه الواقعة^(٢).

وقد روى الطبري عن ابن إسحاق أخبارًا عن بدايات فتح العراق تزعم أن الخليفة أبا بكر كلف خالد بن الوليد بغزو العراق من ناحية الحيرة قرب منتصفه^(٣)، وهي تخالف الرواية المشهورة عند سيف بن عمر من أنه أمره أن يغزو العراق من أسفله، وأمر عياض بن غنم أن يغزوه من أعلاه، ثم يستبقا إلى الحيرة، فأيهما سبق إليها فهو أمير على صاحبه^(٤)، وهي الرواية الأقرب إلى التصور الصحيح للأمور، بأن ينافس الخليفة بين القائدين، وأن يشتت قوى الأعداء بينهما، وأن يحترسا فلا يدعا جيوبًا للعدو خلفهما قد تطوق قوات المسلمين، وتهدد سلامتها^(٥). أما روايته عن خطة فتح الشام وترتيب المعارك تاريخيًا فتتفق مع رواية البلاذري والواقدي، وتذكر أن أجنادين هي المعركة الأولى الكبيرة في الشام سنة ١٣هـ، بعد عدة معارك محدودة^(٦)، ثم تليها موقعة فحل، ثم فتح دمشق سنة ١٤هـ^(٧)، ثم تأتي موقعة اليرموك سنة ١٥هـ^(٨)، وهذه الروايات تخالف جميعها ترتيب سيف بن عمر - الرواية الأثير للفتوح عند الطبري - الذي يجعل المعركة الكبرى الأولى هي اليرموك، والأخيرة هي أجنادين^(٩).

(١) الطبري: السابق ٣ / ٢٧٩-٢٨٠

(٢) السابق: ٣ / ٢٧٩، وسيأتي ذكر رواية سيف عند الحديث عنه قريبًا

(٣) الطبري: السابق ٣ / ٣٤٣-٣٤٤

(٤) الطبري: السابق ٣ / ٣٤٧

(٥) راجع محمود شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة ١٢١-١٢٢

(٦) الطبري: السابق ٣ / ٤١٧

(٧) السابق ٣ / ٤٤١

(٨) السابق والصفحة، وانظر روايات الواقدي عند الطبري: السابق والصفحة، فتوح الشام (المنسوب)

للواقدي ١/٨٨، ٩٣، ٢٠٤، ٢٩٦، وانظر رواية البلاذري: فتوح البلدان ص ١٢٠-١٤٢

(٩) راجع هذه المعارك عند الطبري: السابق ج ٣.

٢- الواقدي محمد بن عمر:

هو محمد بن عمر بن واقد، أحد الموالى، ولد سنة ١٣٠هـ وتوفي سنة ٢٠٧هـ، وكان معاصرًا لابن إسحاق، وأخذ العلم من شيوخ عصره بالمدينة المنورة، ثم اتجه إلى العراق، وأخذ عن رواتها، وتوثقت صلته بالعباسيين، ونال عطاياهم وهباتهم^(١).. امتدحه بعض علماء الرجال، في حين ضعفه آخرون، منهم البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي ويحيى بن معين، وقال الشافعي وأحمد عنه: "كتب الواقدي كذب"^(٢).

ويبدو من مجموع ما قيل عنه أنه كان أكثر حرصًا عند رواية أخبار المغازي لاتصالها بالنبي ﷺ^(٣)، وقد كان مع ذلك يتساهل في أمر الإسناد، فيلجأ إلى جمع الأسانيد التي تخص موضوعًا معينًا في سياق واحد، حرصًا على الاختصار، ولما عاب بعض الناس ذلك عليه غاب عنهم أسبوعًا، ثم جاءهم بالأسانيد مفردة لغزوة واحدة، فكانت واحدًا وعشرين مجلدًا، فقالوا: ردنا إلى الأمر الأول^(٤)، ويزيد على ذلك التساهل ولعه بالغرائب، وهو أكثر تساهلًا فيما تلا فترة السيرة من أحداث، فيروي عن الضعفاء والكذابين، كما يروي عن الثقات والصادقين، "وجمع فأوعى، وخلط الغث بالسمين، والخرز بالدر الثمين"^(٥)، وهو

(١) اتصل بالوزير يحيى بن خالد البرمكي، ففضى دينه، ثم لم يزل في ناحيته، وامتدت صلته إلى الخليفة هارون الرشيد وابنه المأمون، وولي للمأمون القضاء في عسكر المهدي.. (ابن النديم: السابق ١٤٤، البغدادي: السابق ٤/٣، ١٩-٢٠، والمصادر التالية)

(٢) راجع في ترجمته وأقوال العلماء عنه: ابن النديم: الفهرست ص ١٤٤، ابن القيسراني: السابق ٣٤٨/١، الخطيب البغدادي: السابق ٣/٤-٢١، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٩/٤٥٤-٤٦٩، ابن الجوزي: الضعفاء والمتروكين ٣/٨٧، المزي: تهذيب الكمال ٢٦/١٨٨-١٩٤، ابن عدي: الكامل في ضعفاء الرجال ٦/٢٤١، ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/٦٧-٧٢

(٣) ابن سيد الناس: السابق ٦٨-٦٩

(٤) السابق ٦٩

(٥) الذهبي: السابق ٩/٤٥٤

يلجأ مع كل ذلك إلى شيء من مجاملة سادته من بني العباس، حتى إنه حذف اسم العباس من قائمة أسرى بدر، إرضاء لهم^(١)..

وقد رماه البعض بالتشيع مع لزوم التقية كيلا ينكشف أمره^(٢)، ويروون عنه قوله: "إن علي بن أبي طالب كان من معجزات النبي ﷺ كالعصا لموسى، وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام"، وله أخبار أخرى تجري في ذات السبيل^(٣)، ويذكر بعض الباحثين أنه كان لا يتعصب للشيعة، وكان بعيداً عن التحزب^(٤)، ووهم بعضهم فذكر أن الشيعة لا يعدونه في رجالهم^(٥)، رغم أن ترجمته موجودة في كتبهم^(٦).

وكان الواقدي غزير الإنتاج^(٧)، وقائمة كتبه تنبئ عن اهتمامات واسعة بالتاريخ، وهي على الأرجح رسائل صغيرة عن أحداث خاصة في التاريخ الإسلامي مثل: "أخبار مكة" و"أزواج النبي" و"السقيفة" و"الردة" و"يوم الجمل" و"صفين" و"مولد الحسن والحسين" و"مقتل الحسين" و"القبائل ومراتبها" و"ضرب الدنانير والدرهم" و"وضع عمر الدواوين".. ولعل أهمها كتاب "التاريخ الكبير" الذي تناول فيه تاريخ الخلفاء حتى سنة ١٧٩ هـ و"كتاب الطبقات"، وهو في طبقات المحدثين بالكوفة والبصرة، ولعله أقدم كتاب نظم على الطبقات، وعلى مثاله كتب

(١) راجع كتابه المغازي ١ / ١٣٨

(٢) ابن النديم: السابق ١٤٤

(٣) السابق والصفحة

(٤) الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ ص ٣١، شاکر مصطفى: السابق ١ / ١٦٥

(٥) شاکر مصطفى: السابق والصفحة

(٦) راجع محسن الأمين: أعيان الشيعة، ق ١ ج ١ ص ١٢٨، الخوانساري: روضات الجنات ٧ / ٢٦٨

(٧) يروى أنه لما انتقل في بعض أسفاره كان يحمل كتبه على عشرين ومائة وقر (البغدادي: السابق ٣ / ٦-٥)، وكان له غلامان مملوكان يكتبان له بالليل والنهار (بن النديم: السابق ١٤٤)، وكان يقول عن نفسه: "ما من أحد إلا وكتبه أكثر من حفظه، وحفظي أكثر من كتبي" (البغدادي: السابق ٣ / ٦)

ابن سعد "الطبقات الكبرى" ... ولم يصلنا من هذه الكتب سوى كتاب "المغازي"^(١)، أما الكتاب المنسوب إليه تحت عنوان: "فتوح الشام" ففي نسبته إليه شك كبير^(٢).
وحين ننظر في مرويات الواقدي عن هذه الفترة نجد أن رواياته عن الفتنة زمن عثمان تنضح بالتحامل الشديد عليه وعلى غيره من الصحابة، حتى أن الطبري - وهو الذي يجتهد أن يقف محايداً أمام روايته - لا يستطيع أن يفعل ذلك مع الواقدي ومروياته عن الفتنة، فيقول إنه من هذه الروايات "ما أعرضت عن ذكره، كراهة مني لبشاعته"^(٣)، ومما رواه الطبري عن الواقدي تلك الرواية التي تزعم أن الصحابة تداعوا لقتال عثمان، ولم يدافع عنه إلا نفر يسير^(٤)، واتهم بالتحريض عليه عائشة^(٥) وعمرو بن العاص^(٦) وطلحة بن عبيد الله^(٧)، ولم يكن شأن الصحابة عند التحقيق كما يزعم الواقدي في تأليبهم على عثمان وتنافسهم على السيادة بعده^(٨).

ويصور الواقدي عثمان شخصاً ضعيف الرأي، يتلعب به مروان بن الحكم، ويثير الناس عليه دفاعاً عن ملك "بني أمية"، حتى قال علي لعثمان: "أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك، مثل جمل

(١) راجع الدوري: السابق ٣١-٣٢، شاکر مصطفى: السابق ١/ ١٦٢-١٦٤

(٢) راجع مرجليوث: السابق ١٠٨، شاکر مصطفى: السابق ١/ ١٦٤، مارسدن جونس: مقدمته لكتاب المغازي للواقدي ص ١٦.

(٣) الطبري: السابق ٤/ ٣٥٦

(٤) السابق ٤/ ٣٦٦-٣٦٩

(٥) السابق ٤/ ٤٠٧

(٦) السابق ٤/ ٣٥٦-٣٥٧

(٧) السابق: ٤/ ٣٧٩

(٨) كتب ابن العربي كتابه العواصم المن القواصم للرد على هذه الشبهة في أكثر من موضع، وكذلك فعل ابن تيمية في كتابه "منهاج السنة النبوية" ..

الظعينة يُقاد حيث يُسار به، والله ما مروان بذى رأي في دينه ولا نفسه"^(١)، والحق أن دور مروان في هذه الفتنة قد تم تضخيمه والإساءة إليه، ليكون مدخلاً للهجوم على أبنائه من خلفاء بني أمية فيما بعد..

٣- أبو مخنف لوط بن يحيى:

هو لوط بن يحيى بن مخنف بن سليمان الأزدي، توفي سنة ١٥٧هـ وكان جده مخنف ممن صحب النبي ﷺ وروى عنه، ثم صحب علي بن أبي طالب فكان من شيعته، وكان حامل لواء قبيلة الأزد في صفين^(٢)، أما حفيده أبو مخنف فهو أخباري عراقي، خلف أكثر من اثنين وثلاثين كتاباً، منها: "كتاب الردة" و"مقتل عثمان" و"أخبار محمد بن أبي بكر" و"فتوح الإسلام" و"فتوح العراق" و"صفين" و"مقتل علي" وغيرها، وأبو مخنف معروف بتشييعه وكذبه، وقد وصفه علماء الجرح والتعديل بأنه تالف لا يوثق به، وأنه شيعي محترق^(٣)، غير أن ابن أبي الحديد - وهو أديب ومؤرخ شيعي - ينفي عنه التشيع^(٤)، وهو خطأ، إذ تدل رواياته على تشيعه كما سيأتي، وتؤكد ذلك شهادات كتّاب الشيعة^(٥)، ورغم ذلك يمتدحه أحد الكتاب المعاصرين ويقول: "إنه يعرف بدقة رواياته"^(٦)، ويتحدث في

(١) الطبري: لسابق ٤ / ٣٦١-٣٦٢

(٢) راجع ابن حجر: تهذيب التهذيب ١٠/٧٠، المزي: تهذيب الكمال ٢٧/٣٤٧

(٣) راجع ترجمته عند ابن حجر: لسان الميزان ٤/٤٩٢، ابن عدي: السابق ٦/٩٣، الذهبي: ميزان الاعتدال: ٥/٥٠٨، سير أعلام النبلاء ٧/٣٠١، ياقوت الحموي: معجم الأديباء ١٨/٤١

(٤) شرح نهج البلاغة ١/١٤٧

(٥) المامقاني: تنقيح المقال ٣/٤٤، وانظر أغابزرك: الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١/٣١٢، محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج ١ ق ١ ص ١٢٧.

(٦) إبراهيم بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية ص ٢٠٩

موضع آخر عن الموضوعية التي اتسمت بها رواياته^(١).. يبدو أن ذبوع اسم أبي مخنف وكتاباته قد أدى إلى الدس عليه^(٢).

ونستطيع بتصفح عناوين كتب أبي مخنف أن ندرك أنها تؤلف تاريخاً متصلاً من عهد أبي بكر حتى أواخر العهد الأموي، لولا بعض الثغرات^(٣)، ومروياته تقدم صورة أخاذة حية للحوادث، مع كثير من الخطب والمحاورات والشعر، وهي تعكس أثر مجالس السمر وأيام العرب المتوارثة منذ الجاهلية^(٤).

وقد أكثر الطبري في النقل من مرويات أبي مخنف منذ استخلاف أبي بكر وحتى أواخر العصر الأموي، وكان اعتماده عليه كاملاً تقريباً في بعض المواطن المتفجرة التي نحتاج إلى تعدد وجهات النظر، بدل الاستسلام لرواية أبي مخنف الشيعية المتحاملة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك - فيما يتصل بعصر الراشدين - موقعة صفين، وقد يرجع ذلك إلى أن روايات أبي مخنف أكثر تفصيلاً، وتمتلىء بالحيوية والمشاهد المؤثرة، والعاطفة الجياشة، وأبيات الشعر، وتلك مواصفات ربما لا توجد بذات القدر عند غيره، إلا أنها تؤثر بالسلب على القيمة التاريخية لهذه الروايات، وحظها من تصوير الحقيقة المجردة، وحجة الطبري في مسلكه واضحة أنه يروي الوقائع، ويذكر أسماء رواتها، بغض النظر عن صدقهم أو كذبهم^(٥)..

(١) السابق ٢٧٩، وهو مؤلف تنضح كتاباته بالتنشيع، فلا عجب في إطرئه أبا مخنف..

(٢) حتى أن قصة مكذوبة عن مقتل الحسين نسبت إليه بكاملها، وتختلف عن أخبار مقتل الحسين التي ساقها الطبري عنه، كما نسبت إليه قصة أخرى عن حركة المختار بن أبي عبيد (راجع فلهورن: الخوارج والشيعية ١٧٩، ١٨٠، ١٨٦، فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي ١/١٢٨)

(٣) د. الدوري: السابق ١/١٧٨

(٤) راجع السابق ١/٣٥

(٥) الطبري: السابق ١/٨

وحين ننظر في مرويات أبي مخنف نفسها نجد أن رواياته عن استخلاف أبي بكر مرسله، وتمتلى بتفصيلات وخطب وحوارات لا نجدها في روايات الحديث الصحيحة للواقعة، وتفترض روايته انتزاع البيعة لأبي بكر في أجواء صراع محمود^(١)، بل يزعم في اجترأ أن أبا بكر احتال لقتل سعد بن عبادة الذي أبا البيعة بعدما توجه إلى الشام^(٢).

وروايته عن بيعة عثمان شبيهة بما رواه عن بيعة أبي بكر في التزيد وتلوين الرواية، وتشيع فيها روح التآمر والانتهازية والمناورة السياسية بين الصحابة، وتزعم أنه لما اختار عبد الرحمن بن عوف عثمان - بعد طول مشاورة، وبعد إدراك بأن الناس لا يعدلون به أحدًا - قال له علي: "حَبَوْتَهُ حَبْوً دَهْرًا، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك"، وتتجمل الرواية كما هو متوقع ببعض الأشعار، وبعض الرؤى المنامية!^(٣).. وهي تختلف - في الروح العام، وفي بعض الوقائع - مع رواية البخاري التي تخلو من هذه التزييدات والأكاذيب وسوء الظن بالصحابة^(٤).

أما مروياته عن الفتنة الكبرى فشديدة التحزب والسوء، فقد قال في كتابه عن موقعة الجمل - فيما يرويها ابن أبي الحديد - أن عليًا بعد انتصاره على طلحة والزبير وعائشة استعرض القتلى، فوجد فيهم طلحة فقال: "ويل أمك طلحة!! لقد كان لك قدم لو نفعك، ولكن الشيطان أضلك فأزلك، فعجلك إلى النار"^(٥)، رغم أن طلحة من العشرة المبشرين بالجنة كما هو معروف^(٦)، ورواياته عن موقعة

^(١) راجع: الطبري: السابق ٣ / ٢١٨-٢٢٣، وقارن البخاري: الصحيح حديث رقم ٦٨٣٠، وانظر يحيى بن إبراهيم:

مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري عصر الخلافة الراشدة ص ١٢٢-١٢٦

^(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ١ / ٥٨٩

^(٣) راجع الطبري: ٤ / ٢٢٧-٢٣٤

^(٤) راجع صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب كيف يبائع الإمام الناس

^(٥) شرح نهج البلاغة ١ / ٢٤٨

^(٦) راجع البخاري: السابق، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر طلحة بن عبيد الله

صفين تفيض بالحيوية والحركة، وهي تنطق بتشييعه المتحمس، فيزعم أن قيس بن سعد أحد أصحاب علي، وأميره على مصر، كتب إلى معاوية رسالة يصفه فيها بأنه: "أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم للزور، وأضلهم سبيلاً، وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله ﷺ وسيلة، ولد ضالين مضلين، طاغوت من طاغيت إبليس!!^(١)، وتزعم رواية أخرى أنه لما طلب أهل الشام تحكيم القرآن بينهم وبين علي ﷺ، رفض علي التحكيم، وخطب أنصاره يحضهم على رفضه، وكان مما قال: "فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم، قد صحبتهم أطفالاً، وصحبتهم رجالاً، فكانوا شر أطفال، وشر رجال.."^(٢)، مع أن الروايات الصحيحة تثبت أن علياً قبل التحكيم، وهو ما يجدر بمثله فقهاً وديناً^(٣)، وبعيد أن يتهم علي ﷺ هؤلاء النفر من الصحابة والتابعين بمثل هذا، وإن اختلفوا وتقاتلوا، ولم يكن التحكيم خدعة كما يصوره أبو مخنف^(٤)، بل كان ضرورة لإنهاء قتال عقيم أدرك المسلمون مرارة نتائجه، وكان للسلام أنصاره في كلا المعسكرين ..^(٥)

غير أننا نجد أبا مخنف يحاول أحياناً أن يبدو متوازناً، وهيهات، فيذكر حجة معاوية في القتال وعدم البيعة أثناء حوار رسله مع رسل علي^(٦) ..

(١) الطبري: السابق ٥٥١ / ٤

(٢) السابق: ٤٨-٤٩ / ٥

(٣) راجع البخاري: الصحيح ١١٦٢/٣، مسلم: الصحيح ٤١١/٣-٤١٣، النسائي: السنن الكبرى

٤٦٣/٦، البيهقي: السنن الكبرى ٢٢٢/٩، الهيثمي: مجمع الزوائد ٢٣٧/٦

(٤) الطبري: السابق ٤٨ / ٥

(٥) نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٤٧-٥٤٩، الدينوري: الأخبار الطوال ١٨٣، ١٨٧-١٨٩،

المسعودي: مروج الذهب ٢٢ / ٣، ابن أبي الحديد: السابق ٢١٤-٢١٥

(٦) الطبري: السابق ٧-٦ / ٥

٤ - سيف بن عمر:

هو سيف بن عمر الضبي التميمي، توفي سنة ١٨٠هـ، و ما يتوافر عنه من معلومات يسير^(١)، بالرغم من أهميته البالغة، إذ إنه أشهر رواة الردة والفتوح وموقعة الجمل عند الطبري، وله فيها كتاب "الردة والفتوح" وكتاب "الجمل ومسير عائشة وطلحة"^(٢)، ويرد اسمه لأول مرة عند الطبري في أحداث سنة ١٠هـ مع أخبار ردة مسيلمة، وينتهي الأخذ منه سنة ٣٦هـ مع بدء خروج عليّ لملاقاة معاوية في صفين، ويبلغ اهتمام الطبري به وإيثاره روايته أن أخذ عنه في أكثر من ثلاثمائة موضع^(٣).

وهو عند علماء الحديث ضعيف^(٤)، واتهمه بروكلمان بأنه كان يحرف الأحاديث والأحداث، وأن الطبري قد اغترّ به وخُذع في روايته^(٥).. ويمكن تفهم وجهة نظر الطبري في الاعتماد على مرويات سيف بن عمر، إذ إنها تمتاز بالحيوية والتفاصيل وكثرة الحوارات وبعض الغرائب والأشعار، فهي تبدو متأثرة بأسلوب "أيام العرب" قبل الإسلام، وهي الأسباب نفسها التي آثر الطبري من أجلها مرويات أبي مخنف عن صراع علي ومعاوية، وحركات المعارضة الشيعية ضد الأمويين، وينضاف إلى ذلك عامل جديد وشديد الأهمية؛ إذ تنزع مرويات سيف

(١) لم يذكره ابن النديم، ولا ياقوت الحموي، ولا ابن سعد، ولا الخطيب البغدادي مثلاً

(٢) حققهما في كتاب واحد د. قاسم السامرائي ونشرهما في ليدن - هولندا - ١٩٩٤م

(٣) شاکر مصطفى: السابق ١/١٨٠، ١٨١

(٤) ضعفه يحيى بن معين وأبو داود، وقال عنه أبو حاتم "متروك"، واتهمه ابن حبان بالزندقة، وقال عنه ابن عدي: عامة حديثه منكر، واتهمه بوضع الأحاديث، غير أن الحافظ الذهبي يزكي معرفته بالأخبار والتاريخ فيقول: "كان أخبارياً عارفاً" (راجع الذهبي: ميزان الاعتدال ٣/٣٥٣، ابن حجر: تقريب التهذيب ١/٤٠٨، حيث يصفه بأنه ضعيف في الحديث، عمدة في التاريخ)

(٥) تاريخ الأدب العربي ٣/٣٦

إلى تنزيه الصحابة رضوان الله عليهم، والتماس الأعذار لهم، وعدم اتهامهم على النحو الذي نجده في مرويات غيره كالواقدي وأبي مخنف عن هذه الفترة نفسها. فسيف بن عمر يرى أنبيعة أبي بكر كانت بإجماع الصحابة "ما تخلف منهم أحد، إلا من ارتد أو من قد كاد يرتد"^(١)، وأن علي بن أبي طالب لم يتأخر عن البيعة، بل سارع فور علمه بجلوس أبي بكر للبيعة إليها، فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء، عجلًا، كراهة أن يبطن عنها حتى يبايعه^(٢)، وهو ما يخالف رواية البخاري الصحيحة التي تنص على أن عليًا لم يبايع مدة ستة أشهر بعد وفاة النبي ﷺ حتى وفاة زوجته فاطمة رضي الله عنها^(٣)، كما ذكر سيف أن سعد بن عبادة - مرشح الأنصار للخلافة - قد أُجبر علىبيعة أبي بكر^(٤)، ولا يصح ذلك، فقد كان سعد عزيزًا في قومه بحيث لا يتصور إجباره على ما لا يريد، كما أن الإسلام لا يعتد تصرفات المكره، وهي بعد ذلك تخالف رواية البخاري السابق ذكرها التي تذهب إلى أن سعدًا لم يبايع يوم السقيفة.

وتنسب رواية سيف إلى العلاء بن الحضرمي - أحد قادة المسلمين في حروب الردة - كرامات مثيرة^(٥)، وتجنح نحو المبالغة في تصوير مقتل مالك ابن نويرة، فيزعم أنه حدث لأن خالد بن الوليد أمر رجاله - وكانوا من كنانة - أن يذفنوا أسراهم، فقتلوهم، إذ إن كلمة "أذفنوا" عند كنانة تعني: "اقتلوا"، وأن المسلمين أحرقوا رءوس مالك وصحبه^(٦)..

(١) الطبري: السابق ٣ / ٢٠٧

(٢) السابق والصفحة

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي، حديث رقم ٤٢٤٠، ٤٢٤١، كتاب الفرائض حديث رقم ٦٧٢٥،

٦٧٢٦، ٦٧٢٧

(٤) الطبري: السابق ٣ / ٢٢٣

(٥) السابق ٣ / ٣٠٧، ٣١٠-٣١١

(٦) السابق ٣ / ٢٧٧-٢٧٩

غير أنه مما يحمد لسيف في روايته عن الردة أنه نبه إلى بروز العامل القلبي بين أسبابها، وروى أن أحد أصحاب مسيلمة قال له: "أشهد أنك كذاب، وأن محمداً صادق، لكن كذاب ربيعة أحب إلي من صادق مضر"^(١).

وفي روايات سيف عن الفتوح بعض المبالغات المثيرة، نتيجة انفعال رواته ببطولات المسلمين، فتنسب إلى خالد بن الوليد قسوة بالغة في قتل الآلاف في فتح بعض بلدان العراق، وأنه أراد أن يجري من دمائهم نهراً^(٢)، وزعم سيف أن خالدًا حج من العراق سرًا بغير أن يُعلم الخليفة أبا بكر، ولم يعرف بذلك إلا نفر من ساقية جيشه^(٣)، وفي مسيره إلى الشام تزعم رواية سيف أنه شق طريقًا صحراويًا - لا عهد للناس به - بمعاونة دليل أرمذ العين^(٤)، وتغريه بطولة خالد أيضًا بأن يصور قيادته المسلمين في معركة اليرموك على أنها اقتراح من خالد بأن يتبادل القادة الإمارة العامة على الجيش، كل منهم يومًا، وأن يؤمروه ذلك اليوم، فأمرّوه وهم يظنون أنه يوم كسائر أيامهم، فهزم الروم وشتت شملهم^(٥).. وذلك أخلق بالرد إذ إن المتصور أن أبا بكر رضي الله عنه أرسل خالدًا قائدًا عامًا للمسلمين بالشام، ولا يصح افتراض أن يترك أمر القيادة العامة في ذلك الوقت الحرج دون تحديد، ليتبادلها القادة، فتتغير بتغيرهم خطط القتال وأساليب المواجهة^(٦)..

كما ينسب سيف إلى عمرو بن العاص مغامرة أشد جراءة حين ذهب بنفسه على أنه رسول لعمرو ليتجسس على أعدائه قبيل موقعة أجنادين، ولقي قائدهم الأرطبون، فكاد يسقط في يد غريمه الداهية، لولا أن خدعه عمرو، وبلغت

(١) السابق ٣ / ٢٨٦

(٢) السابق ٣ / ٣٥٦-٣٥٧.

(٣) السابق ٣ / ٣٨٤

(٤) السابق ٣ / ٤٠٩

(٥) السابق ٣ / ٣٩٥-٣٩٦

(٦) راجع شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة ص ١٤١

الواقعة عمر رضي الله عنه فلم يعترف قائدته الذي أوشك أن يغرر بالمسلمين وبنفسه، بل قال مبتهجًا - فيما يزعم - "خدعه عمرو، لله عمرو"^(١).

أما مرويات سيف بن عمر عن بدايات الفتنة والثورة على عثمان فهي أعدل ما لدى مؤرخينا من روايات، من ناحية حرصه على تنزيه الصحابة، والتماس الأعذار لهم، بخلاف ما نجده عند أخباريين آخرين مثل الواقدي وأبي مخنف من اتهامهم الصحابة بالتآمر والهوى، وتمكّن الأحقاد بينهم، وهو يشير - في تنبّه محمود - إلى الأسباب الاجتماعية الكامنة وراء الثورة على عثمان رضي الله عنه، وإلى أن قوى اجتماعية جديدة في الأمصار قد بدأت في الظهور، وأشار إلى العراق من بينها، وتبحث عن دور بارز لها في الأحداث وإدارة شؤون الدولة، مما ينبئ بانقلاب اجتماعي حاد^(٢)، كما تشير روايته إلى أن حسد قبائل العرب - وهم القوى الجديدة المؤثرة في الأحداث - قريشًا كان من أسباب ثورتها على عثمان وولاته؛ فهم - فيما يرون - ممثلو قريش وسيطرتها السياسية^(٣).

ويسوق سيف الروايات الدالة على عذر الصحابة بالمدينة في عدم مبادرتهم إلى نصرته عثمان^(٤)، ويبرئ عمرو بن العاص من تهمة التحريض على عثمان^(٥)، وحاول تبرئة محمد بن أبي بكر من قتل عثمان، فيروي أنه دخل عليه ليقتله فزجره عثمان فرجع^(٦).

(١) الطبري: السابق ٣ / ٦٠٥-٦٠٦

(٢) السابق ٤ / ٢٧٩

(٣) وذلك يبدو من حديث معاوية إلى النفر المسيّرين من زعماء التمرد بالكوفة إليه، حيث قال لهم: "وقد بلغني أنكم نقمتم قريشًا، وإن قريشًا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم" (راجع السابق: ٤ / ٣١٩)

(٤) السابق ٤ / ٣٥٤

(٥) السابق ٤ / ٥٥٨-٥٥٩

(٦) السابق ٤ / ٣٩١

ويهتم سيف اهتمامًا عظيمًا بدور ابن سبأ في أحداث الفتنة، وهو الدور الذي لم يبرزه -على هذا النحو - غيره من المؤرخين، فينتبع ظهوره في البصرة ثم الكوفة ثم في مصر، ووضع خطة التحرك ضد عثمان، وبدء تأصيله المذهب الشيعي، بغرس أفكار الوصية والرجعة^(١)، غير أن سبأ يبدو مبالغًا في دور ابن سبأ وقدرته على تحريك الناس، وتطوير مسار الأحداث، رغم خطورة دوره الذي يؤدي الاعتراف به إلى تفسير كثير من وقائع هذه الثورة، على خلاف من ذهب إلى إنكار وجوده أصلًا^(٢).

ومن مبالغاته في أمر ابن سبأ أنه يفترض تأثيره على أبي ذر رضي الله عنه، وتحريضه ضد معاوية - أمير الشام - لأنه يقول المال مال الله، ولا يقول إنه مال المسلمين!!^(٣)، وهو افتراض غير صحيح، فإن تلك الرواية تجعل تاريخ هذه الحادثة سنة ٣٠هـ، وبعدها عاد أبو ذر إلى المدينة حيث توفي سنة ٣١هـ^(٤)، بينما تذكر رواية سيف أيضًا أن أول ظهور لابن سبأ بالبصرة كان حوالي سنة ٣٢هـ^(٥)، وقد أمضى بها حينًا، ثم سار إلى الكوفة ثم الشام، حيث لقي أبا ذر.. أي أنه في الوقت الذي سار فيه ابن سبأ إلى الشام لم يكن أبو ذر بها، بل كان قد توفي بالمدينة سنة ٣١هـ قبل أن يظهر ابن سبأ نفسه بالبصرة في السنة التالية^(٦).

(١) لسابق ٤ / ٣٤٠-٣٤١

(٢) ممن أنكر وجوده مرتضى العسكري في كتابه عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، عبد العزيز صالح الهلابي: عبد الله بن سبأ..

(٣) الطبري: السابق ٤ / ٢٨٣

(٤) الطبراني: السابق ٤ / ٣٠٩

(٥) انظر الطبري: السابق ٤ / ٢٦٦-٢٦٦

(٦) راجع محمد حسن شراب: المدينة النبوية ص ٢٢٥

٥ - اليعقوبي:

هو أحمد بن إسحاق بن جعفر بن واضح اليعقوبي، توفي سنة ٢٨٤هـ على ما يقول ياقوت الحموي^(١)، بينما تدل بعض الأخبار الواردة في كتابه "البلدان" على أن تاريخ وفاته يجب أن تتأخر إلى سنة ٢٩٢هـ^(٢)، وكان جده واضح أحد موالي الخليفة العباسي المنصور أو ولده صالح، وقد تولى بعض الأعمال الإدارية المهمة للعباسيين^(٣)، وظل ابنه وحفيده - اليعقوبي المؤرخ - على صلات وثيقة بالأسرة العباسية وأمراء عصره^(٤)..

وفضلاً عن صلاتها القوية بالعباسيين تميزت أسرته أيضاً بالتشيع، بل بالتعصب له^(٥)، وظلت تلك الميول الشيعية ماثلة في اليعقوبي المؤرخ، كما ينطق بها تاريخه الذي يتناول تاريخ العالم منذ بدء الخلق حتى سنة ٢٥٩هـ، وقد جعل كتابه جزأين: الأول منهما يتناول بدء الخلق وأخبار الأوائل من الأمم المتقدمة، ويتناول الجزء الثاني تاريخ المسلمين منذ مولد النبي ﷺ، وقد نظم مادته بعد عصر النبوة على أنه تاريخ خلفاء، يؤرخ لعصر كل خليفة تحت عنوان: "أيام فلان" إلا ما يتصل بخلافة علي بن أبي طالب وابنه الحسن، فقد أرخ لها تحت

(١) معجم الأدياء ٥ / ١٥٤

(٢) راجع: ياسين إبراهيم الجعفري: اليعقوبي المؤرخ والجغرافي ص ٢٤-٢٥، شاعر مصطفى: السابق ١ / ٢٤٩، فييت: مقدمته لكتاب البلدان لليعقوبي.

(٣) تولى إمارة أرمينيا وأذربيجان في خلافة المنصور (اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢ / ٣٧٢)، وعين حاكماً على مصر في خلافة المهدي سنة ١٦٢هـ عدة أشهر (الكندي: ولاية مصر ص ١٤٣، وانظر عن ذلك الجد أيضاً: الطبري: السابق ١٠ / ٥٩١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢ / ٤٠)

(٤) راجع الجعفري: السابق ٢٤-٢٧

(٥) لقد دفع واضح - حد اليعقوبي - حياته ثمناً للعون الذي قدمه لإدريس بن عبد الله - جد الأدارسة - حين هربه إلى المغرب لما كان عاملاً على بريد مصر، فكان ذلك سبباً في قتله على يد العباسيين (الطبري: السابق ١٠ / ٥٩١)

عنوان "خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب" و"خلافة الحسن ابن علي" (١)، ولم يذكر فيه إسناد رواياته، بل أجمل أسماء الرواة الذين اعتمد عليهم في مقدمة كتابه، وجعله مختصرًا، فلا يميل فيه إلى كثرة التفصيلات (٢).

وتبدو الدعايات الشيعية في الكتاب كلما سنحت الفرصة لها، ففي تأريخه لسقيفة بني ساعدة يزعم أن بعض الحاضرين قال إن عليًا ﷺ لو طلب الخلافة لنفسه لم ينازعه فيها أحد، ويصور انزعاج بني هاشم من خبر استخلاف أبي بكر واستبعاد عليٍّ وتناشدهم الأشعار في ذلك، ويضيف اليعقوبي إلى قائمة أسماء من امتنعوا عن مبايعة أبي بكر أسماء النفر الذين قدمهم الشيعة فيما بعد على أنهم أسلاف لهم في تفضيل علي (٣) ..

ويزعم محاولة أبي بكر وعمر والمغيرة بن شعبة رشوة العباس لضمه إلى معسكر أنصارهم وإبائه ذلك (٤)، وتهجمهم على بيت فاطمة وفيه أنصار عليٍّ في مشهد مأساوي (٥) ..

ثم أشرك اليعقوبي أبا سفيان بن حرب - جد الأمويين - في زمرة المعارضين بيعة الصديق، وجعله من المحرضين عليًا على طلب الخلافة، كيدًا منه للإسلام وأهله بزعمه (٦) ..

وتوحي رواية اليعقوبي عن بيعة عليٍّ ﷺ أن الناس بايعوه من غير مخالفة إلا ثلاثة نفر من بني أمية هم: مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد

(١) تاريخ اليعقوبي الجزء الثاني

(٢) راجع مقدمته للجزء الثاني ص ٥-٦

(٣) ومنهم المقداد وسلمان وأبو ذر وعمار والبراء بن عازب (راجع اليعقوبي: السابق ٢/ ١٢٣-١٢٤)

(٤) السابق: ٢/ ١٢٤-١٢٦

(٥) السابق: ٢/ ١٢٦

(٦) السابق والصفحة

بن عقبة، وذلك لأسباب شخصية مشينة^(١)، وذلك يتعارض مع ما رواه الطبري، من أن عددًا من الصحابة أشفق أن يبايع عليًا لما رأوه من قيام الثائرين على عثمان بأمر استخلافه، وإحاطتهم به^(٢).

ويصور اليعقوبي تحالف معاوية وعمرو بن العاص على أنه صفقة نفعية مؤسفة، ونوع من التحالف الميكافيلي من أجل الدنيا ومغانمها^(٣).. ويذكر كتابًا من قيس بن سعد - أمير علي عليه السلام على مصر - إلى معاوية يقول له فيه "إنما أنت وثن من أوثان مكة، دخلت الإسلام كارهاً وخرجت منه طائعا"^(٤)، ثم يصور التحكيم الذي دعا إليه أهل الشام في صفين بأنه حيلة احتال بها عمرو لنصرة معاوية بعدما كادت الهزيمة تتم عليه^(٥)، ويزعم اعتراض علي عليه السلام على التحكيم وقوله: "إنها مكيدة، وليسوا بأصحاب قرآن"^(٦)..

٦ - البلاذري:

هو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، سكن بغداد، وطلب العلم على أيدي كبار مشايخها، وتوفي سنة ٢٧٩هـ^(٧)، وكان قريبًا من العباسيين وامتدح بعض خلفائهم، ونال عطاياهم وهباتهم^(٨). ورغم هذه الصلات القوية بالعباسيين

(١) السابق ١٧٨ / ٢

(٢) راجع الطبري: السابق ٤ / ٤٢٩-٤٣١

(٣) اليعقوبي: السابق ٢ / ١٨٥-١٨٦

(٤) السابق ٢ / ١٨٧-١٨٦

(٥) السابق ٢ / ١٨٨

(٦) السابق ٢ / ١٨٨

(٧) والبلاذري نسبة إلى البلاذر، وهو ثمر شربه جده فوسوس (راجع ياقوت: السابق ٥ / ٩١-٩٢) وقيل: بل شربه هو للحفظ فوسوس، وشُدَّ في البيمارستان حتى مات فيه (الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦٢/١٣)
(٨) امتدح المأمون (ت ٢١٨هـ) - فإن صح ذلك فقد كان البلاذري ما زال في بدء شبابه - والمتوكل (ت ٢٤٧هـ)، وكان من ندمائه، والمستعين (ت ٢٥٢هـ) (راجع ياقوت: السابق ٥ / ٩٩-١٠٠، الذهبي: السابق ١٣/١٦٢-١٦٣، ابن حجر: لسان الميزان ١/٣٢٢، الكتبي: فوات الوفيات: ١ / ١٥٦)

فإن البلاذري مشهود له بالاتزان والحيدة والموضوعية، وأن رواياته لا تتشرد وراء الاستطراد والهوى، وأنه لم يعتمد فقط على مرويات أهل العراق حيث عاش، وحيث تتلون بألوان شيعية غالباً، بل اعتمد أيضاً على مرويات أهل المدينة^(١)، ولا تظهر رواياته لوئاً من الدعاية الفجة للعباسيين إلا أنه في بعض الحالات كان يسمي دولتهم "الدولة المباركة"^(٢)، ولم يسم خصومهم الأمويين "خلفاء" إلا في حالة عمر بن عبد العزيز^(٣).

ووصلنا من مؤلفات البلاذري كتابان: "فتوح البلدان" و"أنساب الأشراف"، أما "فتوح البلدان" فهو سجل شامل للفتوح الإسلامية، فصل فيه صاحبه فتوح كل بلد من البلدان، وقادة الفتح فيها، وتمصير المدن وخططها، وبعض المعلومات عن معالمها، وأخرى عن العملة وأنواعها، والعطاء وأحكام الأراضي، وقدم بعض المعارف حول الكتابة والقراطيس وتعريب الدواوين، ومصادره في هذا الكتاب متنوعة، منها الكتب الخاصة بفتوح كل مصر، ومنها المواد التي استطاع جمعها من خلال زيارته للأمصار، ومن خلال لقائه بعلمائها وأهلها، وقد يورد للخبر الواحد أحياناً أكثر من رواية واحدة، غير أن الاختلاف بين تلك الروايات ليس كبيراً في النهاية^(٤).

أما كتابه "أنساب الأشراف" فهو موسوعة ضخمة اتخذ فيها من النسب إطاراً تاريخياً لتناول التاريخ الإسلامي، وهو يمثل مزيجاً فذاً في الخطة والمادة، فخطته تجمع بين أساليب كتابة كتب الطبقات والأخبار والأنساب، وتشمل سيرة كل خليفة الأحداث التي وقعت في عهده، بما في ذلك فعاليات الأحزاب السياسية،

(١) راجع د. الدوري: السابق ص ٥٠، د. شاکر مصطفى: السابق ١ / ٢٤٥

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ١٥٦

(٣) راجع: محمد جاسم المشهداني: موارد البلاذري عن الأسرة الأموية في أنساب الأشراف ١ / ٦٠

(٤) راجع مرجليوث: السابق ١٣١-١٣٢، الدوري: السابق ٤٩، شاکر مصطفى: السابق ١ / ٢٤٣،

المشهداني: السابق ١ / ٦٢

مع عناوين فرعية للحوادث المهمة، تشبه عناوين كتب الأخباريين، وهو يراعي التسلسل التاريخي عامة، ومع ذلك توجد استثناءات فرضتها ضرورة مراعاة تسلسل النسب، فيورد مثلاً الكلام عن يزيد قبل عثمان بن عفان^(١)، وقد عُني ذلك الكتاب عناية عظيمة بأحداث وشخصيات عصر الراشدين..

وحافظ البلاذري في الكتابين على سلاسل الإسناد، فحفظ لنا بذلك أسماء كثير من المصادر التي لم تصلنا، وهو يحرص على إعطاء صورة متكاملة للواقعة، فيروي عنها ما وصله من روايات تبدو متناقضة، جرياً على سنن الكتابة في عصره التي تعني بكثرة الرواة، وتراها دليلاً على التميز والإحاطة..

فهو يروي رواية الزهري عن تأخر عليّ عنبيعة أبي بكر، ثم مبايعته، وهي الرواية التي رواها البخاري، لكنه يروي في ذات الوقت عن أبي مخنف وهشام الكلبي رواياتهما المنكرة عن صراعات عليّ والصحابة في تلك الأثناء^(٢)، ويتصل بذلك أن البلاذري لا يقف مشدوهاً عند تلك الروايات التي تتصف بالمبالغة والنزعة إلى القصص المثيرة، بل يسردها في اختصار، ثم يروي ما يخالفها من روايات موضوعية، فهو حين يتحدث عن مسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام، لنصرة المسلمين، بها لا يقتصر على رواية سيف ابن عمر المثيرة التي تزعم أنه اخترق طريقاً موحشاً في الصحراء، مغامراً بنفسه وجيشه، بل يسوقها مختصرة، ثم يأتي برواية الواقدي التي يفهم منها أن خالدًا سار إلى الشام عن طريق الفرات الأعلى^(٣)، ويروي كذلك الاختلاف بين الرواة حول قيادة خالد جيش المسلمين في معركة اليرموك هل كانت لأنه أمير عام على الجيش أم لأن القادة أمروه ليمن

(١) د. الدوري: السابق ٤٩

(٢) أنساب الأشراف ١/٥٨٦-٥٨٩

(٣) فتوح البلدان ١١٨-١١٩

نقيبته وبأسه وكيده؟^(١)، وحين يتحدث عن عبور سعد بن أبي وقاص وجيشه نهر دجلة لفتح المدائن يذكر الرواية التي تراهم عبروا على سهوات الخيول، وتلك التي تتحو نحو الموضوعية؛ وتراهم عبروا من مخاضة فيها ماء يسير عند قرية للصيادين^(٢).

٧- الطبري:

ولد محمد بن جرير الطبري في آمل بطبرستان سنة 225 هـ، وتوفى سنة 310 هـ، وهو مؤرخ وفقيه ومفسر كبير، وقد اشتهر بتحرره من الضغوط السياسية التي تؤثر على عمل المؤرخين في أحيان كثيرة^(٣)، كما تحرر من الضغوط المذهبية حيث كان يكفر الخوارج والرافضة ولا يقبل شهاداتهم ولا يجيز التوارث بينهم وبين المسلمين^(٤)، وبالتالي يبدو اتهامه بالتشيع غير ذي قيمة حقيقية^(٥).
ويعد كتابه " تاريخ الرسل والملوك " أغزر مصادرنا التاريخية المتاحة مادة عن تاريخ صدر الإسلام، وقد أتاح إسناده هذه المادة إلى مصادرنا الأصلية ورواتها المتتابعين الفرصة لدراسة اتجاهات هؤلاء الرواة السياسية والمذهبية، غير أن السمة البارزة في تاريخ الطبري هي عنايته الفائقة بتاريخ العراق والمشرق الإسلامي . وبدرجة أقل تاريخ الحجاز . في حين يقل اهتمامه إلى حد كبير بتاريخ مصر والشام وشمال أفريقيا والمغرب والأندلس؛ ولقد ترتبت على ذلك نتائج مهمة، فقد عني عناية عظيمة بالفتوح الإسلامية على جبهة العراق والمشرق، على حين

(١) السابق ١١٧

(٢) السابق ٢٦٣

(٣) السبكي: طبقات الشافعية 137/2 . 138 ياقوت: معجم الأدباء 87/18، السيوطي: طبقات المفسرين

11، الحوفي: الطبري ص 50 . 54

(٤) ابن حجر: لسان الميزان 100/5، د. الحوفي: الطبري 256.252

(٥) ياقوت: السابق 40/18، معجم البلدان، مادة أمل. ابن حجر: السابق 100/5

ضمرت عنايته بحركة الجهاد في مصر وإفريقية، وأفسح مساحات واسعة في تاريخه للرؤى العراقية التي تعبر عن تعاطف شديد مع علي بن أبي طالب عليه السلام وأنصاره، وتتامل على مخالفه في موقعتي الجملة ثم صفيين، وعلا في كتابه صوت الرواة والأخباريين العراقيين الشيعة كأبي مخنف ونصر بن مزاحم ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وغيرهم، مما يترك ظللاً سلبية لدى قارئه عن العلاقة بين كبار الصحابة في ذلك العصر الباكر من تاريخ الإسلام..

غير أن الطبري جماعة ورواية أكثر منه مؤرخ ناقد، والعناية بالرواية على حساب النقد سمة ثقافية عامة في عصره، فنجد لديه الرواية ونقيضها وما يخالفها في سياق واحد، وبعضها لا تخفى نكارتها، وهو يعلل ذلك بقوله: "فما في كتابي هذا من خبر يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وأنه إنما أتى من قبل بعض ناقله إلينا، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا"^(١)..

وعلى ذلك فإنه من الخطأ العلمي الجسيم قبول ما في تاريخ الطبري بحجة أنه ثقة في ذاته، بل يجب أن تُنسب كل رواية عنده إلى قائلها، ويُعزى كل قول إلى صاحبه، ليُعرف نصيبه من الجرح والتعديل، وموقعه من القبول والرد، وحظه من التوثيق والترك.. ولن نسهب هنا في إعطاء أمثلة لمرويات الطبري عن عصر الراشدين، فقد سبق بيان بعض ذلك عند الحديث عن أبرز الرواة السابق ذكرهم، والذين أخذ عنهم رواياتهم، وذكرهم في سلاسل إسناده..

(١) تاريخ الرسل والملوك ٨/١

الفصل الأول

خلافة أبي بكر الصديق ﷺ

المبحث الأول: أبو بكر: إسلامه واستخلافه

أولاً: أبو بكر قبل استخلافه:

هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن كعب بن لؤي؛ القرشي التيمي، أمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد؛ وهي ابنة عم أبيه أبي قحافة^(١).. وغلب على أبي بكر لقب الصديق؛ وذلك لأنه لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث بذلك الناس؛ فارتد ناس ممن كانوا آمنوا وصدّقوا به، وفتنوا، فقال أبو بكر: إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك: أصدقته بخبر السماء غدوة أو روحة^(٢).. وقيل: بل لقب بذلك في الجاهلية لما عرف عنه من الصدق^(٣)..

وكان أبو بكر من رؤساء قريش في الجاهلية محبباً إليهم، عزيزاً فيهم، وكان إليه أمر الأشراف؛ وهي الديات والمغارم؛ فكان إذا احتمل شيئاً منها فسأل فيه قريشاً صدقوه، وأمضوا حمالته^(٤) وحمالة من قام معه؛ وإن احتملها غيره خذلوه

(١) اختلف في اسم أبي بكر فقيل: كان اسمه عبد الله، وقيل كان اسمه عبد الكعبة فسماه رسول الله ﷺ به، ويقال له أيضاً عتيق، وقيل: إنما عرف بذلك لحسن وجهه وجماله، أو لأنه لم يكن في نسبه شيء يعاب به، أو لأن رسول الله ﷺ قال له: " أنت عتيق الله من النار " (رواه الترمذي: كتاب المناقب، وانظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٥٨-٦٠، ابن الجوزي: صفة الصفوة ١/١٢٣، ابن الأثير: أسد الغابة ٣/٢٠٤، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٣، النووي: تهذيب الأسماء واللغات ٢/١٨١)

(٢) ابن الأثير: السابق ٣/٢٠٥، ورواه الطبراني وابن عساكر ونظر السيوطي: السابق ٣٦

(٣) روى الحاكم في مستدركه والطبراني في الأوسط والدارقطني أن الله تعالى هو الذي سمى أبا بكر بالصديق (راجع السيوطي: السابق ص ٣٦)

(٤) الحمالة هي الدية.

ولم يصدقوه^(١)، وكان رجلاً تاجراً مثقف الفكر عالماً بالأنساب وأخبار العرب رغباً عن الدنيا؛ عفيف النفس، حُرْم على نفسه الخمر في الجاهلية^(٢)، رآه ابن الدُّغْنَةَ - سيد الأحابيش بمكة - وهو يتأهب للهجرة إلى الحبشة بعد أن آذاه قومه وضيقوا عليه، فقال: ولم؟ والله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدوم، ارجع فأنت في جوارحي، فرجع إلى مكة؛ ثم ما لبث بعد يسير أن ردَّ على الرجل جواره لما حاول أن يضيق عليه سبيل الدعوة إلى الإسلام، والتأثير في قريش^(٣).

إسلامه وسيرته:

كان أبو بكر أول من أسلم من الرجال^(٤)، وكان إسلامه نسيجاً وحده، فقد روى ابن إسحق بسنده أن رسول الله ﷺ قال: " ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد؛ إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة؛ ما عكَم عنه حين ذكرته له؛ وما تردد فيه " ^(٥) ..

(١) ابن الأثير: السابق ٢٠٥/٣، رقيق العظم: أشهر مشاهير الإسلام ص ١٨

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢٥٨/١، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٨، رقيق العظم: السابق ص ٢٠

(٣) ابن هشام: السابق ٣٥٥/١، والأحابيش هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهون بن خزيمة ابن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة، تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش للحلف والاجتماع (السابق ١ / ٣٥٥-٣٥٤)

(٤) قيل إنه أول من أسلم مطلقاً (ابن سعد: الطبقات الكبرى ٦١/٣، ابن الأثير: السابق ٢٠٥/٣، ٢٠٨، ابن الجوزي: صفة الصفوة ١٢٤، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٠-٤١)، وقيل: بل كان أول من أسلم خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ، ثم علي بن أبي طالب ربيبه، ثم زيد بن حارثة مولاه، ثم أسلم أبو بكر (ابن هشام: السيرة النبوية ٢٥٠/١-٢٥٨)، وجمع السيوطي بين هذه الأقوال بأن أبا بكر أول من أسلم من الرجال، وأن علياً أول من أسلم من الصبيان، وأن خديجة أول من أسلم من النساء، وأن زيدا أول من أسلم من الموالي، وذكر أن أول من جمع هذا الجمع هو الإمام أبو حنيفة رحمه الله (تاريخ الخلفاء ص ٤١)

(٥) ابن هشام: السابق ٢٥٩/١، ومعنى عكَم (وفي رواية ابن الأثير: أسد الغابة ٢٠٥/٣-٢٠٦: عثم): تأخر وتلبث (ابن منظور: لسان العرب ٤١٦/١٢، مادة: ع ك م)

وانطلق أبو بكر داعيًا إلى الدين الجديد فأخلص الدعوة وانتقى الرجال؛ فأسلم بدعوته عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، فكانوا جميعًا من عمد الإسلام والدعوة ومن المبشرين بالجنة^(١)..

ووضع أبو بكر جميع ماله وإمكاناته هو وأسرته تحت تصرف رسول الله ﷺ؛ فأنفق جلَّ ثروته في نصرته الإسلام واستنقاذ المستضعفين من المؤمنين بمكة، فكان له يوم أسلم من المال أربعون ألفًا أنفقها بمكة في سبيل الله؛ حتى لم يبق منها سوى خمسة آلاف؛ ثم كان يفعل فيها بالمدينة مثلما كان يفعل بمكة^(٢).. ولما ندب رسول الله ﷺ أصحابه إلى النفقة وتجهيز الجيوش لموقعة تبوك سنة ٩ هـ جاءه أبو بكر بماله كله؛ فقال له: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله^(٣).. وقد شهد رسول الله ﷺ له بذلك الفضل فقال: " ما نفعتي مال قط ما نفعتي مال أبي بكر"، فبكى الصديق يومئذ وقال: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟^(٤)..

وأصاب أبا بكر ما أصاب المسلمين بمكة من أذى وتضييق واضطهاد؛ من ذلك أنه لما أسلم طلحة بن عبيد الله التيمي على يد أبي بكر أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية . وكان من طغاة أهل مكة؛ يدعى: أسد قريش . فشدهما في حبل واحد؛ فلم تمنعهما بنو تيم؛ ولذلك سُمِّي أبو بكر وطلحة القرينين^(٥)، غير أن ذلك لم يحل بينه وبين أن يدفع عن رسول الله ﷺ الأذى بكل سبيل، وقد رُوي عن علي

(١) ابن هشام: السابق ٢٥٩/١-٢٦٠

(٢) ابن سعد: السابق ٦٢/٣، ابن الأثير: السابق ٢٢٢/٣

(٣) وجاء عمر يومذاك بنصف ماله وهو يرى أنه سيسبق اليوم أبا بكر، فلما رأى صنيعة قال: لا أسبقه إلى شيء أبدًا، رواه الترمذي: كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٧٥، وقال حديث حسن صحيح.

(٤) رواه أحمد بإسناده عن أبي هريرة (المسند ٢/٢٥٣، ٣٦٦)

(٥) ابن سعد: السابق ١١٦/٣

بن أبي طالب ﷺ وصفه أبا بكر بأنه أشجع الناس في دفاعه عن رسول الله ﷺ
..(١)

وكان أبو بكر صاحب رسول الله ﷺ في هجرته إلى المدينة، وثاني اثنين
إذ هما في الغار، وكان بيت الصديق أبي بكر مستنقراً كله لإنجاح هذه الهجرة
على ما هو معروف ومدون في كتب السيرة والتاريخ..

وتزوج رسول الله ﷺ ابنته عائشة رضي الله عنها، فزادته المصاهرة قرباً
ومكانة، وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، فكانت له فيها اليد البيضاء والأثر
الجليل.. وثبت يوم أحد ويوم حنين وقد فرّ الناس؛ وكان ابنه عبد الرحمن يوم بدر
مع المشركين، فلما أسلم قال لأبيه: "لقد أهدفت لي يوم بدر؛ فانصرفت عنك، ولم
أقتلك"، فقال له أبو بكر: "لكنك لو أهدفت لي لم أنصرف عنك!" (٢) ..

وعظمت محبة رسول الله ﷺ له، فإنه لما سئل عن أحب الرجال إليه قال:
أبو بكر (٣) .. وهو ﷺ القائل: "إن من أممّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر،
ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته" ..
وأدرك صحابة النبي ﷺ هذه المكانة العالية للصديق، فكانوا هم أيضاً لا يعدلون به
أحدًا؛ روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر قال: كنا نختار بين الناس في زمن
النبي ﷺ فختير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ﷺ (٤) .. وحتى
عند المقارنة بعمر بن الخطاب كانت لأبي بكر المكانة العظيمة، فتروي كتب
الحديث أن أبا بكر جاء يوماً مسرعاً إلى رسول الله ﷺ وقد بدا عليه الغضب فقال:

(١) البزار: المسند ١٥/٣، وانظر السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٤

(٢) السيوطي: السابق ص ٤٣، ومعنى أهدفت: أشرفت وبرزت، ومنه قيل للبناء المرتفع: هدف..

(٣) البخاري السابق كتاب فضائل الصحابة رقم ٣٦٦٢، مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، حديث
رقم ٢٣٨٤

(٤) البخاري: السابق كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ رقم ٣٦٥٥، وانظر
الحديث رقم ٣٦٩٧.

إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء (وفي بعض الروايات: محاورة) فأسرعت إليه (أي قلت له قولاً أعضبه) ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ، فأقبلت إليك، فقال ﷺ: يغفر الله لأبي بكر، ثلاثاً، ثم إن عمر قد ندم فأتى منزل أبي بكر فلم يجده، فأتى إلى النبي ﷺ فسلم فجعل وجه النبي ﷺ يتمر (أي يتغير من الغضب) حتى أشفق أبو بكر؛ فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله ﷺ والله أنا كنت أظلم، مرتين، فقال النبي ﷺ إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي، مرتين، فما أؤذي بعدها (١) ..

ثانياً: إشارات من الرسول ﷺ باستخلاف أبي بكر:

اختلف العلماء حول وجود نص صريح من رسول الله ﷺ عن استخلاف أبي بكر، فمنهم من رأى في بعض الأحاديث نصاً على ذلك، مثل ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف (٢)، وإنه متى يقيم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، فقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقيم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال رسول الله ﷺ: إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس، فلما دخل في الصلاة وجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة فقام يهادي بين رجلين، ورجلاه تخطان في الأرض، فلما دخل المسجد وسمع أبو بكر حسه ذهب يتأخر، فأومأ إليه رسول الله ﷺ: قم مكانك، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر، فكان رسول الله ﷺ

(١) السابق كتاب فضائل الصحابة رقم ٣٦٦١، ٤٦٤٠.

(٢) أي: رقيق القلب سريع البكاء عند قراءة القرآن (ابن سلام: غريب الحديث ١/١٦٠، ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث ٤٨/١)

يصلي بالناس جالسًا، وأبو بكر قائمًا، يقتدي أبو بكر بصلاة النبي ﷺ، ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر (١) ..

وروى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها في مرض وفاته: "لقد هممت . أو أردت . أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد، أن يقول القائلون، أو يتمنى المتمنون، ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون " (٢) .. وروى مسلم ما يقارب ذلك (٣).

وروى البخاري ومسلم وغيرهما أن امرأة من الأنصار أتت النبي ﷺ فكلمته في شيء، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيت يا رسول الله إن لم أجدك؟ - كأنها تعني الموت - قال: إن لم تجديني فأتي أبا بكر (٤) ..

وروى البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري ؓ قال: خطب النبي ﷺ فقال: إن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده؛ فاختر ذلك العبد ما تَمَّ الله، فبكى أبو بكر ؓ، فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ إن يكن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختر ما تَمَّ الله، فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا، قال: يا أبا بكر لا تبك؛ إن أمنَّ الناس عليَّ في صحبتته وماله أبو

(١) البخاري: الصحيح، كتاب الأذان، حديث رقم ٦٦٤، وانظر أرقام ٦٧٨، ٦٧٩، ٣٣٨٤، ٣٣٨٥، مسلم: الصحيح، كتاب الصلاة رقم ٤١٨، ٤٢٠، وقد فسرت عائشة مراجعتها النبي ﷺ بأنها خشيت ألا يحبَّ الناس من يقوم مقام رسول الله، أو يتشاءموا به، كما في رواية مسلم الأولى، وأحمد: المسند ٢٢٩/٦، لكنها لم تصرح بذلك؛ واحتجت بأنه رجل أسيف، ولذا شبهه الرسول ﷺ بأنهن كصواحب يوسف؛ يظهرن خلاف ما في نفوسهن (راجع: ابن حجر: فتح الباري ١٧٩/٢-١٨٠، المباركفوري: تحفة الأحمدي ١٠٨/١٠)

(٢) صحيح البخاري، كتاب المرضى، حديث رقم ٥٦٦٦، كتاب الأحكام، حديث رقم ٧٢١٧

(٣) مسلم: السابق، كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٣٢٨٧

(٤) البخاري: السابق، كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٣٦٥٩، كتاب الأحكام حديث رقم ٧٢٢٠، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، حديث رقم ٧٣٦٠، مسلم: السابق، كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٣٨٦، الترمذي: السابق كتاب المناقب حديث رقم ٣٦٧٦، الطبراني: المعجم الكبير حديث رقم ١٥٥٧

بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر^(١)، وقد رأى بعض شراح الحديث في الأمر بالإبقاء على باب أبي بكر إشارة إلى الخلافة، أي ليخرج من بابه إلى الصلاة بالمسلمين في المسجد^(٢)..

وروى الشيخان عنه ﷺ: "بينما أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو؛ فنزعت منها ما شاء الله؛ ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوبًا أو ذنوبين، وفي نزعها ضعف، والله يغفر له ضعفه^(٣)، ثم استحالت غريبًا، فأخذها ابن الخطاب، فلم أرَ عبقرًا من الناس ينزع نزع عمر؛ حتى ضرب الناس بعطن^(٤)"

ومن الروايات الحديثية الأخرى التي لم ترد في صحيح البخاري ومسلم ما رواه أحمد وأبو داود والطبراني والحاكم وصححه عن عبد الله بن زمعة قال: لما استُعز برسول الله ﷺ. وأنا عنده في نفر من المسلمين. دعا بلال للصلاة؛ فقال ﷺ: مروا من يصلي بالناس، فخرجت؛ فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائبًا، فقلت: قم يا عمر فصلِّ بالناس، فقام، فلما كبر عمر سمع رسول الله ﷺ صوته، وكان عمر رجلًا مجهرًا، فقال رسول الله ﷺ: فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون، فبعث إلى أبي بكر فجاء، بعد أن صلى

(١) البخاري: السابق، كتاب الصلاة باب الخوخة والممر في المسجد، حديث رقم ٤٦٦، ٤٦٧، الترمذي:

السابق، باب مناقب أبي بكر، حديث رقم ٣٦٧٨، الدارمي: السنن ١/٥١، ابن حبان: السابق

١٥/٢٧٢، حديث رقم ٦٨٥١، الهيثمي: موارد الظمان ١/٥٣٢

(٢) ابن حجر: فتح الباري ١/٦٦٦، ابن كثير: البداية والنهاية ٣/٢٩٣

(٣) قال العلماء في المراد بضعفه، رضي الله عنه: إنها كناية عن قصر مدته، وعجلة موته، وشغله

بحرب أهل الردة عن الفتوح العظام التي بلغها عمر في خلافته (ابن حجر: فتح الباري ٧/٤٤).

(٤) البخاري: السابق، كتاب فضائل الصحابة رقم ٣٦٦٤، ٧٠٢١، ٧٠٢٢، ٧٤٧٥، مسلم: السابق،

كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عمر رضي الله عنه، حديث رقم ٢٣٩٢، ومعنى القليب: البئر،

والذنوب: الدلو الكبيرة إذا كان فيها الماء، ومعنى غريبًا: أي دلوا عظيمة، والعطن: مناخ الإبل إذا

شربت ثم صدرت (راجع: ابن حجر: السابق ٧/٤٧-٤٨)

عمر تلك الصلاة، فصلى بالناس..(١) .. وقد رأى بعض العلماء في الحديث دليلاً على خلافة أبي بكر، وذلك أن قوله: ياأبي الله ذلك والمسلمون "معقول منه أنه لم يرد به نفي جواز الصلاة خلف عمرؓ، فإن الصلاة خلف عمر ومن دونه من المسلمين جائزة، وإنما أراد به الإمامة التي هي دليل الخلافة والنيابة عن رسول الله ﷺ في القيام بأمر الأمة " (٢) ..

وروى أحمد وغيره عن أبي بكره قال كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا الحسنة فيسأل عنها فقال ذات يوم: أيكم رأى رؤيا؟ فقال رجل: رأيت كأن ميزاناً من السماء؛ فوزنت وأبو بكر فرجحت بأبي بكر، ووزن أبو بكر بعمر فرجح أبو بكر بعمر، ثم وزن عمر وعثمان فرجح عمر بعثمان، ثم رفع الميزان فاستاء لها رسول الله ﷺ، فقال: " خلافة نبوة ثم يؤتي الله الملك من يشاء " (٣) ..

في حين احتج القائلون بعدم وجود نص صريح على استخلاف أبي بكر بما رواه البخاري وغيره عن ابن عباس أن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﷺ قال: أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه،

(١) أحمد: المسند، ٣٢٢/٤، ١٠٦/٦، أبو داود: السنن ٢١٥/٤، ٢١٦ حديث رقم ٤٦٦١، ٤٦٦٠، الطبراني: المعجم الأوسط ١١/٢-١٢، حديث رقم ١٠٦٥، الحاكم: المستدرک ٧٤٣/٣، حديث رقم ٦٧٠٣

(٢) محمد شمس الحق العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود ٢٧٢/١٢

(٣) أحمد: المسند ٤٤/٥، ٥٠، فضائل الصحابة ٣٨١/١، حديث رقم ٥٧٣، أبو داود: السنن ٢٠٨/٤، حديث رقم ٤٦٣٥، ابن أبي شيبة: المصنف ١٧٦/٦، الطيالسي: المسند ١١٦/١، حديث رقم ٨٦٦

فأوصى بنا، فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسأله رسول الله ﷺ (١).

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر أن عمر لما طعن قيل له: ألا تستخلف يا أمير المؤمنين؟ قال: إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني؛ أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني؛ رسول الله ﷺ (٢).

وروى النسائي أنه قد سئلت عائشة: من كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلف؟ قالت: أبو بكر، ثم قيل لها: من بعد أبي بكر؟ قالت: عمر، ثم قيل لها: من بعد عمر؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح، ثم انتهت إلى ذا (٣).

وروى الحاكم وغيره أنه قيل لعلي بن أبي طالب ﷺ: استخلف علينا، فقال ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف، ولكن إن يرد الله بالناس خيراً جمعهم على خيرهم؛ كما جمعهم بعد نبيهم ﷺ على خيرهم (٤). وهناك روايات أخرى عند أحمد وغيره عن علي ﷺ تؤكد ما سبق (٥)..

آراء العلماء حول دلالات النص على الاستخلاف:

تعددت رؤى العلماء إزاء دلالة الروايات التي تثبت استخلاف أبي بكر أو تنفيها، ويلخص ابن حزم هذه الآراء بقوله: " قد اختلف الناس في هذا، فقالت طائفة

(١) البخاري: السابق، كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته، حديث رقم ٤٤٤٧، كتاب الاستئذان حديث رقم ٦٢٦٦، أحمد: المسند ٢٦٣/١، ٣٢٥، البيهقي: السنن الكبرى ١٤٩/٨، وقوله: "عبد العصا" كناية عن أنه سيصير تابعاً لغيره ...

(٢) البخاري: السابق، كتاب الأحكام، حديث رقم ٧٢١٨، مسلم: السابق، كتاب الإمارة، حديث رقم ١٨٢٣، الترمذي: السابق، كتاب الفتن، حديث رقم ٢٢٢٥، البيهقي: السابق ١٤٨/٨

(٣) النسائي: فضائل الصحابة ٣٠/١، النووي: شرح النووي على صحيح مسلم ١٥٤/١٥

(٤) الحاكم: السابق ٨٤/٣، حديث رقم ٤٤٦٧، ابن أبي عاصم: السنة ٥٥١/٢-٥٧٥، البزار: المسند ١٨٦/٢،

حديث رقم ٥٦٥، البيهقي: السابق ١٤٩/٨، الاعتقاد ٣٥٧/١، الهيثمي: مجمع الزوائد ٤٧/٩

(٥) المسند ١١٤/١، حديث رقم ٩٢١، عبد الله بن أحمد: السنة ٥٦٦/٢، وفي إسناده رجل لم يسمه، وانظر

الدارقطني: العلل ٨٣/٤-٨٧، ابن أبي حاتم: العلل ٣٧٤/٢-٣٧٥

إن النبي ﷺ لم يستخلف أحداً، ثم اختلفوا فقال بعضهم: لكن لما استخلف أبا بكر ﷺ على الصلاة كان ذلك دليلاً على أنه أولاهم بالإمامة والخلافة على الأمور، وقال بعضهم: لا، ولكن كان أبينهم فضلاً، فقدموه لذلك، وقالت طائفة: بل نص رسول الله ﷺ على استخلاف أبي بكر بعده على أمور الناس نصاً جلياً.. وبهذا نقول " (١) ..

واحتج ابن حزم على وجود النص الجلي على استخلاف أبي بكر ببعض الأحاديث التي سبق بيانها، كما احتج بإجماع الصحابة على تسمية أبي بكر خليفة رسول الله (٢)، فضلاً عن دلالة بعض الآيات القرآنية (٣) ..

ورد ابن حزم على الروايات الصحيحة التي وردت عن عمر وعائشة والتي تنص على أن رسول الله ﷺ لم يستخلف، فقال إنه من المحال أن يعارض إجماع الصحابة بمثل هذين الأثرين الموقوفين على عمر وعائشة، فقد تكون الأحاديث الدالة على الاستخلاف قد خفيت على عمر، كما خفيت عليه بعض الأحاديث الأخر، أو أنه أراد نفي حدوث استخلاف لأبي بكر بنص مكتوب، أما قول عائشة بنفي الاستخلاف " فالحجة في روايتها لا في قولها " (٤)، يعني روايتها أحاديث الاستخلاف الصحيحة السابق بيانها..

كما رد ابن حزم على القائلين بأن أبا بكر "إنما قدمه المسلمون لأنه كان أفضلهم وحكم الإمامة أن يكون في الأفضل"، واحتجاجهم على ذلك بامتناع الأنصار عن بيعته أول الأمر، فقال: " وهذا لا حجة لهم فيه، بل بعضه عائد عليهم؛ لأن الأنصار لم يكونوا لتركوا رأيهم . وهم أهل الدار والمنعة والسابقة الذين

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٠٧/٤

(٢) السابق ١٠٧/٤ - ١٠٨، الإحكام في أصول الأحكام ٢٤/٧

(٣) الفصل ١١٠-١٠٩/٤

(٤) السابق ١٠٩/٤

لم يبالوا بمخالفة أهل المشرق والمغرب، وحاربوا جميع العرب حتى أدخلوهم في الإسلام طوعاً وكرهاً . إلا لنص من النبي ﷺ " (١) ..

ويتفق **ابن حجر الهيثمي** مع رؤية ابن حزم، فيسوق الأدلة على استخلاف أبي بكر من الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة والضعيفة أيضاً (٢) ، ويقف **الإمام النووي** في الجهة المقابلة لأنصار النص الصريح، فيرى أن خلافة أبي بكر ليست بنص صريح من النبي ﷺ، " بل أجمعت الصحابة على عقد الخلافة له، وتقديمه لفضيلته، ولو كان هناك نص عليه أو على غيره لم تقع المنازعة من الأنصار وغيرهم أولاً، ولذكر حافظ النص ما معه، ولرجعوا إليه، لكن تنازعوا أولاً، ولم يكن هناك نص، ثم اتفقوا على أبي بكر واستقر الأمر" (٣) .. وأما قوله ﷺ: "فإن لم تجدني فأتي أبا بكر"، فليس فيه نص على خلافته، وأمر بها، بل هو إخبار بالغيب الذي أعلمه الله تعالى به" (٤) ..

وينفي **فخر الدين الرازي** وجود نص على أبي بكر (٥) .. كما يؤكد **الشهرستاني** عدم وجود نص صريح على أحد، وذلك في رده على ادعاءات الشيعة بوجود النص على استخلاف علي، ويقول: "إن من المحال من حيث العادة أن يسمع الجُم الغفير كلاماً من رسول الله ﷺ ثم لا ينقلونه؛ مع مظنة الحاجة إليه، وعصيان الأمة بمخالفته، والدواعي بالضرورة تتوفر على النقل، خصوصاً وهم في نأنة الإسلام وطراوة الدين وصفوة القلوب وخلوص العقائد عن الضغائن والأحقاد... وإذا كانت الدواعي على النقل موجودة، والصوارف عنه مفقودة، ولم ينقل، دل على أنه لم يكن في الباب نص أصلاً، وأيضاً لو عين شخصاً لكان

(١) الإحكام ٤٢٥/٧

(٢) الصواعق المحرقة ٤٩/١-٥٠، ٦١-٦٤، ٦٦، ٧١

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥٤/١٥

(٤) السابق ١٥٥/١٥، وانظر ٢٠٦/١٢

(٥) أصول الدين ١٦٥-١٦٦

يجب على ذلك الشخص المعين أن يتحدى بالإمامة، ويخاصم عليها، ويخوض فيها، حتى إذا دُفِعَ عن حقه سكت، ولزم بيته، فيظهر الظالم عليه، ولم ينقل أن أحدًا تصدى للإمامة وادعاها نصًا عليه، وتسليمًا إليه..^(١)

وينفي ابن كثير وجود النص الصريح على أبي بكر أو غيره، "ولكن أشار إشارة قوية يفهمها كل ذي لب وعقل إلى الصديق"^(٢)..

ويؤكد القرطبي أنه لا يوجد نص جلي؛ "وهذا قول جمهور أهل السنة، واستند من قال إنه نص على خلافة أبي بكر بأصول كلية وقرائن حالية تقتضي أنه أحق بالإمامة وأولى بالخلافة"^(٣)..

أما ابن تيمية فينظر في النصوص بنظرته الثاقبة؛ ثم يقول: "والتحقيق أن النبي ﷺ دل المسلمين على استخلاف أبي بكر، وأرشدهم إليه بأمر متعددة من أقواله وأفعاله، وأخبر بخلافته إخبار راض بذلك، حامد له، وعزم على أن يكتب بذلك عهدًا، ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه، فترك الكتاب اكتفاءً بذلك"^(٤).. وقال ابن تيمية: "فخلافة أبي بكر الصديق دلت النصوص الصحيحة على صحتها وثبوتها ورضا الله ورسول الله ﷺ له بها، وانعقدت بمبايعة المسلمين له، واختيارهم إياه اختيارًا استندوا فيه إلى ما علموه من تفضيل الله ورسوله، وأنه أحقهم بهذا الأمر عند الله ورسوله، فصارت ثابتة بالنص والإجماع جميعًا، ولكن النص دل على رضا الله ورسوله بها، وأنها حق، وأن الله أمر بهذا وقدرها، وأن المؤمنين يختارونها، وكان هذا أبلغ من مجرد العهد بها"^(٥).. لقد جمع ابن تيمية بذلك بين دلالة النصوص الصحيحة ودور الأمة في الاختيار، يقول: "فالله ولاه قدرًا وشرعًا،

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام ٤٨١

(٢) البداية والنهاية ٣١٨/٣

(٣) ابن حجر: فتح الباري ٣٧/٧ ونسب ذلك إلى القرطبي في كتابه "المفهم"

(٤) منهاج السنة ٥١٦/١-٥١٧

(٥) السابق ٥٢٤/١، وانظر ٥٢٥/١

وأمر المؤمنين بولايته، وهداهم إلى أن ولوه من غير أن يكون طلب ذلك لنفسه" (١) ..

الخلاصة:

والذي نطمئن إليه بعد النظر في النصوص وأقوال العلماء ما يلي:
أولاً: إنه لا سبيل إلى إهمال هذه النصوص الصحيحة الواردة في شأن اختيار أبي بكر خليفة، ولا إلى إهمال دلالتها، وأنه لا أحد من علمائنا القدامى أنكر وجودها؛ وإن اختلفوا حول مدى دلالتها على الأمر باستخلافه..

ثانياً: إن بعضهم بالغ في فهم دلالة هذه النصوص؛ فرأى فيها أمراً صريحاً باستخلاف أبي بكر، كما فعل ابن حزم وابن حجر الهيتمي، ويمكن أن نفهم هذه المبالغة على أنها رد فعل على تشبث الشيعة بدعوى الوصية لعلي بن أبي طالب، وزعمهم أن تلك الوصية دين لا يحل تركه، وطالما اختلطت آراء المتكلمين في استخلاف أبي بكر بأرائهم عن ادعاءات الشيعة في أحقية علي.. ولو كان ثمة نص جلي لكان قد شاع وعلمته الكافة؛ وإلا انتفت الحكمة من وجوده، ولو كان كذلك لما وقع الخلاف بين الصحابة أول الأمر حول من يستخلفونه؛ ولانقادوا إلى ذلك النص، بل لما كانت هناك حاجة إلى اجتماع السقيفة أصلاً، والآراء التي نوقشت فيه (٢) ..

ثالثاً: إن جمهور علماء أهل السنة . وكذلك المعتزلة والخوارج . لا يقولون بالنص الصريح على استخلاف أبي بكر (٣)، ويفهمون النصوص الواردة على أنها "إشارات قوية" إلى استخلافه، أو "قرائن حالية" تقتضي أنه أحق بها، أو إخبار بالغيب الذي سوف يقع باستخلافه، أو بيان لأفضلية الصديق، وأنه أحق الناس بخلافة

(١) السابق ٥٢/٢

(٢) راجع د. محمد سليم العوا: في النظام السياسي للدولة الإسلامية ٨٤-٨٥

(٣) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٣٧/٧، ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة ٦٩/١

المسلمين، وقد فسر بعضهم لجوء النبي ﷺ إلى التلميح دون التصريح بأنه "كان لا ينطق في دين الله بهواه، ولا ينطق إلا بما يوحى إليه فيه، قال الله عز وجل: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)^(١)، ولم يكن يوحى إليه في الخلافة شيء، وكان لا يتقدم بين يدي ربه في شيء، وكان يحب أن يكون أبو بكر الخليفة بعده، فلما لم ينزل عليه في ذلك وحي لم يأمر بذلك، ولكنه أراهم موضع الاختيار، وموضع إرادته، فعرف المسلمون ذلك منه، فبايعوا أبا بكر بعده^(٢)..

رابعاً: تنبئ عبارات ابن تيمية عن فهم عميق ورؤية صافية، حيث ينظر إلى النصوص على أنها موحية باستخلاف أبي بكر ومرشدة إليه، ودليل على أن استخلافه حق يرضى عنه الله ورسوله، غير أنه يقرر أهمية دور الأمة في جلاء حيث يرى أن النبي ﷺ عدل عن العهد المباشر لأبي بكر " لتكون الأمة هي القائمة بالواجب، ويكون ثوابها على ذلك أعظم.."^(٣).

خامساً: إن بعض الاتجاهات الفكرية قد تركت أثرها على نظر بعض العلماء إلى أمر استخلاف أبي بكر، فقد كان ابن حزم ظاهري المذهب؛ لا يؤمن بالقياس في النظر الفقهي، ولذا فقد نفى أن يكون استخلاف أبي بكر قد تم قياساً على استخلافه في الصلاة، واحتج لرأيه بأن أبا بكر لم يستحق وصف "الخليفة" في حياة النبي ﷺ لما كان خليفته على الصلاة، ولأن النبي ﷺ قد استخلف عدداً من الصحابة على المدينة في غزواته، فكانوا خلفاء على الصلاة والأحكام بها، فلم يستحق أحدهم بذلك أن يسمى خليفة رسول الله، ولم يطلق على أحدهم وصف " الخليفة" الذي أجمع الصحابة على وصف الصديق به، والذي يدل دلالة واضحة . فيما يرى . على أن النبي ﷺ قد استخلف أبا بكر، فلفظة "خليفة" فعيلة بمعنى مفعولة، ولا يصح أن تكون بمعنى فاعلة، ولذا فهي تعني أن أبا بكر قد استخلفه

(١) سورة النجم الآيتان ٣، ٤

(٢) ابن عبد البر: التمهيد ١٢٥/٢٢

(٣) منهاج السنة ٣٥٠/٧

الرسول بالفعل، لا أنه خلفه دون أن يستخلفه، "لا يجوز غير هذا البتة في اللغة"^(١)..

فأما استدلاله بإطلاق وصف "ال خليفة" على ثبوت الاستخلاف للصديق فهي حجة نازعه فيها غيره ممن يرى أن لفظ الخليفة "يقال لمن استخلفه غيره؛ ولمن خلف غيره، فهي فعيل بمعنى فاعل"^(٢)، كما أنها بمعنى مفعول، وأما إنكاره قياس الخلافة العظمى على الخلافة في الصلاة فقد رد عليه جماعة من أكابر العلماء؛ وخالصة ردودهم أن ملابسات استخلفه على الصلاة، وكونها قد جاءت في أخريات حياة النبي ﷺ وهو يشارف الموت، مع ما للصلاة من مكانة في دولة الإسلام، وإصرار النبي ﷺ على إمامة أبي بكر لها، ورفضه إمامة عمر في إحدى المرات. كما مر بنا. تلك الملابسات^(٣) هي التي جعلت القياس هنا متبادراً إليه منذ زمن الصحابة أنفسهم، وقد روى أحمد والنسائي والحاكم عن ابن مسعود قال: ثم لما قبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار: منا أمير، ومنكم أمير، قال: فأتاهم عمر رضي الله عنه، فقال: يا معشر الأنصار أستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر يؤم الناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رضي الله عنه؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر^(٤).. وينسبون إلى علي بن أبي طالب أنه قال: "إن نبيكم ﷺ نبي الرحمة لم يقتل قتلاً، ولم يمت فجأة، مرض ليالي وأياماً، يأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة، وهو يرى مكاني، فيقول: أتت أبا بكر فليصل بالناس، فلما قبض رسول الله نظرت في أمري؛ فإذا الصلاة عظم الإسلام، وقوام

(١) الفصل ٤/١٠٧-١٠٨، الإحكام ٧/٤٢٣-٤٢٤

(٢) ابن تيمية: السابق ١/٥٠٨

(٣) راجع: المحب الطبري: الرياض النضرة ٢/١٧٣-١٧٤، ويحاول الشيعة أيضاً التهوين من أمر استخلاف أبي بكر على الصلاة (محمد رضا المظفر: السقيفة ٥٠-٥٣)

(٤) أحمد: المسند ١/٢١، ٣٩٦، النسائي: السنن، كتاب الإمامة رقم ٧٧٧، الحاكم: المستدرک ٣/٧٠، حديث رقم ٤٤٢٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وذكره ابن أبي شيبة: المصنف ٢/١١٨

الدين، فرضينا لدينانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا، فبايعنا أبا بكر"، لكن إسناده إلى عليّ لا يصح^(١)، وفيما ورد من الأخبار الصحيحة في ذات الموضوع ما يعني عن الاحتجاج بغيرها..

سادسًا: إن أحدًا من علمائنا القدامى لم ينكر دور الأمة في استخلاف أبي بكر، حتى أنصار النص الصريح، فقد تحدث هؤلاء عن إجماع الأمة على أحقية أبي بكر بالخلافة وأفضليته.. لكن بعضهم يرى أن الإجماع قد تحقق لوجود النص، وفي ضوءه، لا استقلالاً عنه.. ومؤدى ذلك . فيما يرون . أن ما حدث من تنازع محدود في سقيفة بني ساعدة إنما كان للجهل بالنص الصريح الذي لم يكن عامًا يعلم به جميعهم، ولم يكن مكتوبًا، وقد رأينا أن ذلك غير مسلم لهم به، بل إن بعض ما استشهدوا به من نصوص على استخلاف أبي بكر يدل على أن ذلك الاستخلاف سوف يكون بإرادة الأمة، ويجب أن يتم برضاها، من ذلك قوله ﷺ: "يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر"، وقول أبي بكر لمن حضر السقيفة: "وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم"، يعني: عمر وأبا عبيدة، والدلالة أشد وضوحًا في الأحاديث التي تنفي وجود نص جليّ؛ كقول عليّ للعباس: " والله لئن سألتنا رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده " ..

وفي أقوال ابن حزم . وهو من أبرز القائلين بالنص الصريح . ما يؤكد أنه نظر إلى استخلاف أبي بكر على أنه حالة خاصة، إذ أعقب وفاة النبي ﷺ وكانت أول تجربة استخلاف عامة في الإسلام، كما ورد بشأن أبي بكر أحاديث تخص الرضا باستخلافه أو النص عليه، أما الأصل العام الذي يقول به ابن حزم، والذي يصلح للأمة بعد غياب هؤلاء الأئمة الأعلام الذين قد ترد بشأنهم أحاديث نبوية فهو وجوب ممارسة الأمة حقها في الاختيار، يقول: " فلو قام اثنان فصاعدًا معًا

(١) الخلال: السنة ٢٧٤/١، وقال: إسناد هذا الحديث لا يصح، ابن عبد البر: التمهيد ١٢٩/٢٢، النووي: تهذيب

الأسماء ٤٨٠/٢، وانظر: المحب الطبري: السابق ١٧٧/٢

(أي يطلبان الخلافة) في وقت واحد، ويُؤس من معرفة أيهما سبقت بيعته نُظر أفضلهما وأسوسهما فالحق له، ووجب نزع الآخر... فإن استويا في الفضل فُدم الأسوس... (١)

ولا شك أن إدراك حق الأمة في اختيار خلفائها . كميون أساسي من مكونات النظام السياسي الإسلامي . قد أسهم في استمرار صلاحيته على امتداد الزمان؛ بعد وفاة كبار الصحابة، وغياب أثر النصوص التي قد ترد بشأنهم..

ثالثاً: وفاة النبي واستخلاف أبي بكر رضي الله عنه:

روى الطبري عدة روايات عن كيفية استخلاف أبي بكر رضي الله عنه، غير أن أغلبها منقطع الإسناد، أو مطعون في رواته، وما تحويه من عناصر صدق جاءت به كتب الحديث الصحيح على نحو دقيق، لذلك آثرنا الاعتماد على روايات الحديث الصحيحة، مع الاستئناس بما صح من روايات التاريخ..

وقد روى البخاري بسنده عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبو بكر بالسُّنْح (٢)، فقام عمر فقال: والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان عمر يقول فيما بعد: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك . وليبعثته الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم؛ فجاء أبو بكر فاستوثق من وفاته صلى الله عليه وسلم، ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر؛ فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات؛ ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقرأ قوله تعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) (٣) وقوله: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى

(١) الفصل / ١٧٠

(٢) موضع في عوالي المدينة كان بينه وبين المسجد النبوي نحو ميل (ابن حجر: فتح الباري ٣٦/٧)

(٣) سورة الزمر: آية ٣٠

عَقَبِيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ^(١)، فنشج الناس ليكون، واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة زعيم الخزرج^(٢) في سقيفة بني ساعدة^(٣)، فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم، فأسكته أبو بكر - وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أنني قد هيأت كلامًا قد أعجبنني، خشيت ألا يبلغه أبو بكر - ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس، فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا ولكننا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب دارًا؛ وأعربهم أحسابًا^(٤)، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة بن الجراح، فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس، فقال قائل: قتلت سعد بن عبادة، فقال عمر: قتله الله..

(١) سورة آل عمران: آية ١٤٤

(٢) هو سعد بن عبادة بن دُلَيْم بن حارثة زعيم الخزرج؛ أحد الاثنى عشر نقيبًا يوم بيعة العقبة الثانية، شهد المواقع كلها خلا بدر، ففي شهوده إياها خلاف، وكان صاحب راية الأنصار فيها، وأحسن صحبة رسول الله ﷺ، وتوفي في الشام بحوران سنة ١١ أو ١٤ أو ١٥ أو ١٦ هـ، وتتجه معظم الروايات إلى أنه مات في أوائل خلافة عمر (١٣-٢٣ هـ)، وعليه فإن التاريخ الأول لا يصح (راجع في ترجمته: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٦١٣-٦١٧، ابن الجوزي: صفة الصفوة ١/٥٠٣-٥٠٥، ابن الأثير: أسد الغابة ٢٢١-٢٢٤، ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/٥٩٤-٥٩٩، النووي: تهذيب الأسماء ١/٢٠٧، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١/٢٧٠-٢٧٩، ٢٨١، ابن حجر: الإصابة ٦٦/٣)

(٣) هي ظلة كانت لبني ساعدة؛ بطن من بطون الخزرج، وكانت تقع في الشمال الغربي من المسجد النبوي قريبًا منه (راجع: محمد حسن شراب: المدينة النبوية ١٧/٢).

(٤) أعربهم أحسابًا: أي أعظم العرب أصالة، وأشبههم بشمائل العرب الأصلاء وأفعالهم (راجع: ابن منظور: لسان العرب ١/٥٨٨)

وذكرت عائشة أن خطبتي أبي بكر وعمر قد نفع الله بهما، لقد خوَّف عمر الناس، وإن فيهم نفاقاً، فردَّهم الله بذلك، ثم لقد بصَّر أبو بكر الناس الهدى؛ وخرجوا يتلون قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) (١) ..

وروى البخاري وغيره عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في آخر حجة حجها سمع أن رجلاً يقول: لو قد مات عمر بايعت فلاناً، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة (٢) فتمت، فغضب عمر، لكنه تريث حتى قدم المدينة، فقام خطيباً فكان مما قاله.. ثم إنه بلغني أن فلاناً منكم يقول: "والله لو قد مات عمر بايعت فلاناً"، فلا يغترنَّ امرؤ أن يقول: "إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت"، ألا وإنما كانت كذلك؛ ولكن الله وقى شرها، وليس منكم من تُقَطع الأَعناق إليه مثل أبي بكر (٣)، من بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرّة أن يُقتل (٤)، وذكر خبر وفاة النبي صلى الله عليه وآله واجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة؛ وأنه قال لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار؛ فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجالاً صالحان (٥)، فذكرنا ما تمّألاً عليه القوم؛

(١) البخاري: السابق كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٣٦٦٧، ٣٦٦٨، ٣٦٦٩، ٣٦٧٠

(٢) الفلتة: الفجأة، (ابن سلام: غريب الحديث ٣/٣٥٦، ابن منظور: لسان العرب ٢/٦٧)، وتطلق أيضاً على كل شيء فُعل أو قيل على غير روية وتثبت (ابن قتيبة: غريب الحديث ١/٥٠٦، ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٤٦٧)

(٣) تقطع الأَعناق إليه يعني: السابق الذي لا يلحق في الفضل (ابن حجر: فتح الباري ١٢/١٦٥).

(٤) تغرّة مصدر من أغررته تغريراً أو تغرّة، والمعنى أن من فعل ذلك فقد غرر بنفسه وبصاحبه وعرضهما للقتل (ابن حجر: السابق ١٢/١٦٥)، وقيل: بل المراد أن عقوبتهما أن لا يؤمر واحد منهما (ابن سلام: غريب الحديث ٣/٣٥٥)، وكان في ذلك قتلاً لهما ..

(٥) هما كما يقول ابن إسحاق: عويم بن ساعدة الأوسي (شهد بيعتي العقبة ومات في خلافة عمر، راجع عنه ابن الأثير: أسد الغابة ٤/١٥-١٦) ومعن بن عدي (حليف بني عمرو بن عوف، شهد العقبة والمشاهد كلها، وقتل في معركة اليمامة سنة ١١هـ زمن أبي بكر، راجع السابق ٤/٤٤٥) وراجع ابن هشام: السيرة النبوية ٤/٢٣١

فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار؛ فقالا: "لا عليكم ألا تقربوهم، اقضوا أمركم"، فقلت: "والله لنأتينهم"، فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة؛ ثم ذكر قول خطيب الأنصار: "أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دقت دافّة^(١) من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا؛ وأن يحضنونا من الأمر^(٢)، ثم ذكر أن أبا بكر تكلم، فكان هو أحلم مني وأوقر، ... فقال: ". ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش، هو أوسط العرب نسبًا ودارًا^(٣)، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين؛ فبايعوا أيهما شئتم"، فأخذ بيدي وبيد أبي عبدة بن الجراح، وهو جالس بيننا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فنضرب عنقي - لا يقربني ذلك من إثم - أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسوّل إليّ نفسي عند الموت شيئًا لا أجده الآن، فقال قائل من الأنصار: "أنا جُذيلُها المُحَكِّكُ وعُدَيْقُها المُرَجَّبُ^(٤)، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش"، فكثرت اللغط وارتفعت الأصوات؛ حتى فرقت من الاختلاف، فقلت: "ابسط يدك يا أبا بكر"، فبسط يده، فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة^(٥)، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة، فقلت: قتل الله سعد بن عبادة، قال عمر: فوالله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر؛ خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً

(١) يعني: جاءنا عدد قليل، ويطلق على السير البطيء في جماعة (ابن حجر: السابق ١٢/١٦٧)

(٢) وفي رواية: وأن يختصونا، والمعنى: يخرجونا منه ويحبسوناه عنه (السابق والصفحة)

(٣) أي أشرفهم نسبًا ودارًا، لشرف قريش، وشرف البلد الحرام

(٤) الجذيل بالتصغير: عود ينصب للإبل الجرياء لتحتك به، والعذيق تصغير عذق وهو النخلة، والمرجّب بناء يساعد النخل إذا كثرت حملته (الزمخشري: الفائق في غريب الحديث ٢٠١/١، ابن منظور:

لسان العرب ١/٤١٢)

(٥) نزونا: أي ارتفعنا عليه ووطئناه

منهم بعدنا؛ فإما بايعناهم على ما لا نرضى؛ وإما نخالفهم فيكون فساداً، فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يُبايع هو ولا الذي بايعه تغرّة أن يُقتل^(١)..

لقد قدم هذان الحديثان صورة كلية لما جرى في سقيفة بني ساعدة، بينما قدمت أحاديث أخرى بعض التفاصيل، كأن تنسب قولاً معيناً أو تصرفاً إلى إحدى الشخصيات المشاركة، وسوف نعرض لبعض هذه الأحاديث عند عرض النظرة التحليلية لما حدث في السقيفة ودلالاتها.

وتنوعت روايات المؤرخين عن السقيفة، فشملت روايات صحيحة وضعيفة، وأخرى جمعت بين عناصر الصحة والضعف، وقد تأتي الروايات الصحيحة والضعيفة متعاقبة في الصفحة الواحدة، على عادة كثير من المؤرخين الذين يؤثرون حشد الروايات على دراستها وتمحيصها^(٢)، أما الصحيح منها فكان تكراراً لروايات الحديث السابقة^(٣)، وكان بعضها الآخر موسوماً بالخلل في بنائه الداخلي، أو بالضعف الناشئ عن انقطاع السند، حيث تروى واقعة السقيفة عن أفراد لم يدركوها، كما أن بعض رواة هذه الأخبار متهمون بالتشيع والكذب، مثل هشام بن الكلبي، وأبي مخنف لوط بن يحيى، وقد جاءت تلك الروايات مسهبة تحكي كثيراً من التفاصيل، وتذكر من الأقوال ما يصعب القطع بصحة نسبته

(١) وراجع الحديث في صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، حديث رقم ٦٨٣٠، وانظر أحمد: المسند ١/٥٦، ٥٥، ابن حبان: الثقات ٢/١٥٢-١٥٦، صحيح ابن حبان ٢/١٤٨-١٥١، عبد الرزاق: المصنف ٥/٤٣٩-٤٤٥، المتقي الهندي: كنز العمال، المجلد الخامس، حديث رقم ١٤١٣٤، ١٤١٣٧

(٢) ومن الأمثلة على ذلك ما فعله الطبري في كتابه: تاريخ الرسل والملوك ٣/٢٠٠-٢١١، وابن عساکر: تاريخ دمشق ٢٠/٢٧١-٣٠٦، وبرهان الدين الحلبي في كتابه: السيرة الطلبية ٣/٤٧٩-٤٩٠

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/٢٢٩-٢٣١، الطبري: السابق ٣/٢٠٣-٢٠٦، ابن الأثير: الكامل ٢/١٨٩-١٩١، ابن عساکر: تاريخ دمشق ٢٠/٢٧٩-٢٨٥، ابن الجوزي: صفة الصفوة ١/١٣٢-١٣٣، ابن كثير: البداية والنهاية ٣/٣١١-٣١٤، السيوطي: تاريخ الخلفاء ٦٧-٦٨

إلى أصحابه^(١)، كما أن بعضها يخالف ما في الصحيح كزعم سيف بن عمر أن سعد بن عبادة بايع مجبرًا، وهو على الأرجح لم يبايع^(٢).. كما سنرى.

كما أن وفرة التفصيلات في معظم روايات التاريخ بالمقارنة بروايات الحديث فتحت الباب واسعًا لبيان الانفعالات البشرية؛ في موقف من مواقف التنافس الذي يحدد المستقبل السياسي للأمة وفصائلها، وهي انفعالات لا تعبر بالضرورة عن حقيقة العلاقة بين المهاجرين والأنصار، تلك العلاقة الحميمة التي وصفها الله تعالى بقوله: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا، وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(٣).. لقد كانت هناك اختلافات في الرؤى بين قيادات المهاجرين والأنصار في اجتماع السقيفة، وتباينت طرق المؤرخين والمحدثين في التعبير عنها، فأسهب المؤرخون في تصويرها وتجسيمها، والتزيد فيها، فأضفى ذلك على رواياتهم لونًا من الحيوية والحركة المشكوك في صحتها، بينما جاءت الرواية الحديثية في ذلك الشأن مختصرة، تحفظ لهؤلاء الصحابة الكبار أقدارهم، وترد أمر الانفعال والحدة إلى حالة من الغضب الطارئ.

نظرة تحليلية لواقعة استخلاف أبي بكر رضي الله عنه:

إن النظرة العلمية المتكاملة ينبغي أن تشمل جميع الروايات، ثم تنقدها لننفي زيفها، ثم نفيد مما بقي من روايات غير زائفة في بناء أدنى التصورات الصحيحة للأحداث قبل تحليلها. وإذا نظرنا فيما سبق من أحاديث صحاح، وما

(١) الطبري: السابق ٢١٨/٣-٢٢٣، ابن الأثير: الكامل ١٩١/٢-١٩٤

(٢) الطبري: السابق ٢٢٣/٣

(٣) سورة الحشر: آية ٩

وافقها من روايات التاريخ، التي تلقي تفصيلاتها مزيدًا من الأضواء على الحدث التاريخي، فإنه يتضح لنا عدة أمور تخص واقعة السقيفة واستخلاف الصديق:

١- كانت وفاة رسول الله ﷺ صدمة كبيرة للمسلمين جعلت عمر بن الخطاب - على عظيم قدره وقوة نفسه - يقف مشدوهاً منكرًا مهددًا من يزعم أن رسول الله ﷺ قد مات، حالفًا على ما ظنه يقينًا من أنه ﷺ ما زال حيًّا؛ وأنه سيعود فيقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات^(١)..

٢- كان أبو بكر أعلم الصحابة برسول الله ﷺ وأقربهم إليه، وكانت مكانته العالية عند الصحابة ترشحه لإفاقة من ذهل، وردَّ من غيبتة الصدمة، وكانت وسيلته إلى ذلك تنكير المسلمين ببعيدتهم الحقة في الله ورسوله، وأنه بشر تجري عليه نواميس الكون من الموت والحياة، وتلا عليهم آيات من القرآن؛ بكل ما للقرآن من سلطان على نفوس هؤلاء الصحابة، فقال: "من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات؛ ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت" وقرأ قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ..) فانقادت للقرآن نفوسهم؛ ونشجوا يبكون، حتى روى ابن إسحاق بسنده عن أبي هريرة قوله في تصوير حالهم تلك: "فوالله لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ؛ وأخذها الناس عنه؛ وإنما هي في أفواههم، أما عمر ﷺ فقد قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ففقرت^(٢)، حتى وقعت على الأرض، ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات^(٣).. وعلى كلٍ فقد نفع

(١) ابن هشام: السابق ٢٢٧/٤، وقد فسر عمر موقفه في حديث له فيما بعد مع عبد الله بن عباس ؓ فقال: إن الذي حمله على ذلك أنه كان يقرأ قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) فيظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها (راجع: السابق ٢٣٢-٢٣٣ والآية من سورة البقرة ١٤٣)

(٢) فقرت: دهشت فلم أستطع التقدم أو التأخر (ابن سلام: غريب الحديث ٣٩٨-٣٩٩)

(٣) ابن هشام: السابق ٢٢٨/٤

الله تعالى بمقولة عمر كما نفع بخطبة أبي بكر، فقد حوّت الأولى المناقنين المتربصين؛ وبصّرت الثانية المؤمنين الداهلين ..

٣- إن المسلمين - رغم عظم مصيبتهم في وفاة رسول الله ﷺ - لم يشغلهم ذلك عن النظر في مستقبلهم والحزم في أمرهم، وقد "كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة"^(١)، وهم يعلمون أن وفاة رسول الله ﷺ أمر جلل، له ما بعده من تأثيرات خطيرة في حياتهم وحياة العرب الذين دخلوا قريباً في الإسلام، فلم يستقر بعد في قلوبهم، وتطمئن إليه نفوسهم، وكانت نذر الخطر الداخلي تبدو في أخريات حياة النبي ﷺ نفسه، لما وردت الأنباء بادعاء الأسود العنسي النبوة في اليمن، وتنبؤ مسيلمة في بني حنيفة باليمامة^(٢)، كما كانت نذر للخطر الخارجي ماثلة بين أعينهم في تهديدات الفرس وخطر الروم^(٣)، وكان أول ما ينبغي أن يشغل المسلمين في هذا الوقت العصيب هو أمر خلافة النبي ﷺ، وهي خلافة في الحكم وسياسة الدولة^(٤)؛ لا في النبوة

(١) الطبري: السابق ٢٠٧/٣

(٢) السابق ١٨٠/٤-١٨١

(٣) بدا خطر الفرس قوياً لما مزق كسرى رسالة النبي ﷺ إليه سنة ٧هـ، وأرسل إلى عامله على اليمن ليرسل رجلين جليدين من عنده إلى رسول الله ﷺ ليأتيه بخيره، فأذهب الله ذلك الخطر بهلاك كسرى ودخول البلاد في سلسلة من الاضطرابات الداخلية (ابن سعد: السابق ٣٦٧/١-٣٧٨)، أما الروم فقد واجههم النبي ﷺ في أكثر من موقعة من أشهرها مؤتة سنة ٨هـ وتبوك سنة ٩هـ، وكان ﷺ قد جهز جيشاً لغزو الروم بقيادة أسامة بن زيد؛ إلا أنه ﷺ أدركته الوفاة قبل إنفاذه.

(٤) قال ابن خلدون في معنى "الخلافة": "هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخرى والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به" (المقدمة ٥٧٨/٢)، وعقد القلقشندي فصلاً "في معنى الخلافة" في مقدمته لكتابه "مآثر الإنافة في معالم الخلافة" ٨/١ وما بعدها.. ومن أبرز من كتب في ذلك الموضوع من المحدثين د. عبد الرزاق السنهوري في كتابه: "فقه الخلافة" وتطورها لتصبح عصبية أمم شرقية" راجع الفصل الثاني من الباب التمهيدي.

والرسالة؛ إذ كان محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين^(١)؛ فاجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة للتباحث في الأمر..

٤- غير أن ذلك الاجتماع في سقيفة بني ساعدة شابهُ نوع من التعجل القلق من جانب الذين تداعوا إليه من الأنصار، إذ لم يكن رسول الله ﷺ قد دُفن بعد، وكان أبو بكر ممن اشتغل بتجهيزه لدفنه ﷺ. فهو صاحبه الأثير وحموه. مع آخرين من بني هاشم رهط رسول الله ﷺ كعليّ والعباس بن عبد المطلب^(٢)، فلما وصل خبر اجتماع الأنصار إلى عمر بن الخطاب ﷺ بادر إلى أبي بكر ﷺ فأعلمه بما كان، ورغم انشغال الرجلين بما نزل بهما من أمر رسول الله ﷺ إلا أنهما بادرا - ومعهما أبو عبيدة بن الجراح - إلى لقاء الأنصار في سقيفة بني ساعدة.. ومن الواضح أن هؤلاء النفر من كبار المهاجرين كانوا يؤثرون التريث حتى يدفن النبي ﷺ، وتكتمل دعوة أهل الحل والعقد من الصحابة للنظر في أمر الخلافة، ومما يؤكد ذلك ما ورد في بعض روايات البخاري عن عمر ﷺ قال: فبينما نحن في منزل رسول الله ﷺ إذا برجل ينادي من وراء الجدار: اخرج إليّ يا ابن الخطاب، فقلت: إليك عني فإني مشغول، قال: اخرج إليّ فإنه قد حدث أمر؛ وإن الأنصار اجتمعوا، فأدركوهم قبل أن يحدثوا أمراً يكون بينكم فيه حرب، فأتار ذلك مخاوف عمر^(٣)، فسارع إلى أبي بكر. وفق روايات أخرى. ليخرج إليه، فقال: إني مشتغل، فأعلمه بما حدث، فمضيا نحو السقيفة، فلحقيا أبا عبيدة فكان ثالثهما؛ فساروا جميعاً^(٤)، وعلى ذلك يجب أن نستبعد ما يرويه الشهرستاني دون إسناد من أن أبا بكر خطب المسلمين عقب

(١) قال تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) الأحزاب: الآية ٤٠

(٢) راجع: ابن هشام: السابق ٢٣٣/٤

(٣) ابن حجر: فتح الباري ١٥٦/١٢

(٤) راجع: الطبري: السابق ٢١٩/٣، ابن حبان: الصحيح ١٥٥/٢

وفاة نبيهم ﷺ فقال: " من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات.."، ثم زاد فقال: " وإن محمدًا قد مضى بسبيله، ولا بد لهذا الأمر من قائم يقوم به، فانظروا وهاتوا آراءكم؛ رحمكم الله.. فناداه الناس من كل جانب: " صدقت يا أبا بكر، ولكننا نصبح وننظر في هذا الأمر ونختار من يقوم به.."(١) ..

٥- إن هذه العجلة من الأنصار في الاجتماع والتشاور حول من يخلف رسول الله ﷺ كانت لها دلالتها كما كانت لها نتائجها؛ فهي تدل على ما كان يتخوفه الأنصار من المستقبل القريب والبعيد؛ فقد انتهت معاناتهم من الفرقة والاحتراب الداخلي بالإسلام ورسوله ﷺ فلقوا عنده الكرامة والحظوة؛ ولقي منهم النصر والبذل؛ حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، ففتحت مكة بعد عنادها؛ وكثر المؤمنون من شتى قبائل العرب؛ ومنها قبائل غاية في القوة والمنعة؛ على رأسها قريش؛ وكان الناس في الإسلام يكثرون ويقبل الأنصار بمضي الزمن، مما أثار مخاوفهم؛ وبخاصة بعد غياب شخص رسول الله ﷺ الذي استعلى بطبيعته ورسالته على كل استقطاب قبلي.. فحدا بهم ذلك إلى سرعة الاجتماع ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد؛ لا خطأ من شأن الآخرين، وسلبًا لحقهم في الاختيار والمشاورة؛ ولكن تعبيرًا عن مخاوف مشروعة، واستباقًا لخروج السلطة السياسية إلى يد من يخشون خلافته..

لقد عبّر الأنصار عن مخاوفهم بقولهم - كما في رواية البخاري -: " وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دقت دافة منكم؛ فإذا هم يريدون أن يخزلونا من أصلنا.."، بل إننا لنجد أصل هذا التخوف على مستقبل الأنصار عند رسول الله ﷺ نفسه، حيث قال في آخر خطبة له - في مرض وفاته - بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أما بعد، فإن الناس يكثرون، ويقبل الأنصار، حتى يكونوا

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام ص ٤٧٩

في الناس بمنزلة الملح في الطعام، فمن ولي منكم شيئاً يضر فيه قومًا، وينفع فيه آخرين، فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم" (١).

٦- وقد عبر بعض الناس عن شعوره بهذه العجلة في اجتماع السقيفة بغير دعوة جميع أهل الحل والعقد فيها، فقال في خلافة عمر: "لو قد مات عمر بايعت فلانًا؛ فوالله ما كانت البيعة لأبي بكر إلا فلتة فتمت" .. ولم ينفِ عمر رضي الله عنه. وهو يحذر خطورة ذلك الرأي . أن البيعة كانت فلتة؛ بمعنى أنها وقعت من غير مشاورة مع جميع من ينبغي أن يشاور (٢)، في مثل تلك "الوقائع العظيمة التي ينبغي للعقلاء التروي في عقدها لعظيم المتعلق بها" (٣)، وقد شرح أسبابها، ودوافع التسرع فيها، وكيف أن المهاجرين الحاضرين لم يجدوا بداً من المسارعة ببيعة أبي بكر استباقاً لما أراده الأنصار من بيعة سعد بن عباد، فكان الأمر "مراعاة لمصلحة المسلمين، وخشية اضطراب أمر الأمة" (٤).

وقد أوضح عمر أن ما تم لا يعني أن اختيار الصديق كان في غير محله، أو من غير أهله؛ وإن تم بصورة مفاجئة بغير إعداد واستكمال للمشاورة، ثم وافقت الأمة على اختياره إثر ذلك.. وكانت شخصية أبي بكر وأهليته وسابقته وعطاؤه وإمامته المسلمين في صلاتهم إبان مرض نبيهم صلى الله عليه وسلم هو ما رشحه للخلافة، وجمع حوله القلوب؛ وهي مزايا لم يكن أحد يماثله فيها، أو

(١) البخاري: السابق كتاب المناقب، حديث رقم ٣٨٢٨

(٢) كما قال الداودي من شرح البخاري، وقال ابن حبان: معناه أن ابتداءها كان على غير مأل كثير، والشيء إذا كان كذلك يُقال له: الفلتة، فيتوقع فيه ما لعله يحدث من الشر، بمخالفة من يخالف في ذلك عادة، فكفى الله المسلمين الشر المتوقع في ذلك (ابن حجر: فتح الباري ١٢/١٦٥)، وقال الشهرستاني (السابق ٤٨٣) يعني أني بايعت أبا بكر وما شاورت الجماعة، ووقى الله شرها، فلا تعودوا لمثلها.

(٣) المحب الطبري: الرياض النضرة ٢/٢٠٨-٢١٠

(٤) السابق ٢/٢١٠-٢١١، القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل ج ٢٠ ق ١ ص ٢٨٦

يطاوله إليها، وقد عبر عمر عن ذلك بقوله . كما في رواية البخاري السابق
نكرها :. "وليس منكم من تُقَطع الأَعناق إليه مثل أبي بكر"
وكان من نتائج هذه المسارعة في بيعة الصديق أن تخلف عنها نفر
من المهاجرين والأنصار أول الأمر؛ ليس غصًا من شأن أبي بكر؛ بل لأن
الأمر قد تم في غيبتهم، كما سيأتي بيانه..

٧- كانت معالجة الأنصار مخاوفهم المستقبلية من خلال إجماعهم أول الأمر
على أن تكون الخلافة فيهم، وعلى اختيار سعد بن عبادة زعيم الخزرج ليكون
أول الخلفاء^(١)، ويبدو أن ذلك الإجماع لم يكن كاملاً ولا مستقرًا، إذ سرعان ما
ترادوا الكلام فيما بينهم؛ فتساءلوا: فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا: نحن
المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون؛ ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلام تنازعونا
هذا الأمر بعده؟ فقالت طائفة منهم: فإننا نقول إذن: منا أمير ومنكم أمير، ولن
نرضى بدون هذا الأمر أبدًا، فقال سعد بن عبادة حين سمعها: هذا والله أول
الوهن^(٢).. وكان ما أدركه سعد صحيحًا؛ إذ كان ذلك يحمل بدايات التنازل
عن مطلب الأنصار، والشك في منطلقهم، وأنهم ليسوا صفاً واحداً في حركتهم،
وربما كان سعد يطمح إلى حسم اختياره خليفة للمسلمين في ذلك الاجتماع،
بينما كان بعض الأنصار يستشعرون أن هدف اجتماعهم ينبغي أن يكون
ترشيح سعد للخلافة، ثم إشراك المهاجرين في مرحلة تالية في ذلك الاختيار..

٨- ومما يعزز القول بأن معسكر الأنصار لم يكن صفاً واحداً أن اثنين من كبار
رجالهم - هما: عويم بن ساعدة ومعن بن عدي - التقيا في طريقهما بوفد
المهاجرين الذاهب إلى اجتماع الأنصار، فكانت نصيحتهم للمهاجرين: "لا
عليكم ألا تقرّبوهم؛ اقضوا أمركم".. بل إن الانشقاق الأول في معسكر

(١) الطبري: السابق ٢١٨/٣

(٢) السابق ٢١٨/٣-٢١٩

الأنصار بالسقيفة جاء من داخل الخزرج أنفسهم - رهط سعد بن عبادة المرشح للخلافة - فقام بشير بن سعد أحد الخزرجيين الكبار فقال: "يا معشر الأنصار؛ إنا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا، وطاعة نبينا، والكبح لأنفسنا؛ فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك؛ ولا نبتغي به من الدنيا عرضًا، فإن الله وليّ المنّة علينا بذلك، ألا إن محمدًا ﷺ من قريش؛ وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يراني الله أنزعهم هذا الأمر أبدًا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم"، فلما ذهب عمر وأبو عبيدة لبيابعا أبا بكر سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه، فناداه الحباب بن المنذر - أحد قادة الخزرج المنافحين عن اختيار سعد بن عبادة - فقال: "ما أحوجك إلى ما صنعت؟ أنفست على ابن عمك الإمارة؟" فقال: لا والله، ولكني كرهت أن أنزع قومًا حقًا جعله الله لهم^(١).. إن هذا يؤكد أنه لم تكن ثمة رغبة عند جميع الأنصار في استبعاد المهاجرين من دائرة اختيار الخليفة، أو إنكار حقهم في ذلك، لقد كانت بينهم تيارات تحمل قدرًا من التباين في الرؤى، وليس الأمر كما تصور بعض المستشرقين وغيرهم من مؤرخينا الذين تحدثوا عن تطلع الأنصار إلى التحرر من سلطان المهاجرين^(٢) أو أن دوافع قبلية أو قومية كانت وراء تحركهم السريع^(٣)، أو أن تفكيرهم في صورته الأولى كان يدور في نطاقهم وحدهم، ويتغافل لفترة عن الجماعة الكبرى التي كانوا جزءًا منها^(٤)، إن معطيات الحوار الذي دار بين الأنصار أنفسهم؛ وبينهم وبين المهاجرين لا يدل على أن هذه الانعزالية كانت سمًا عامًا لتفكيرهم..

(١) الطبري: السابق ٢٢١/٣

(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٨٣

(٣) د. عبد الحميد بخيت: عصر الخلفاء الراشدين ص ٣٨، ٤٠-٤١

(٤) د. محمد حلمي: الخلافة والدولة في العصر الأموي ص ٢٢

٩- وربما كان الخلاف القديم - الذي خُصِدَ الإسلام شوكتته - بين الأوس والخزرج مما حدا بالأوس إلى الحذر من استخلاف زعيم الخزرج، ولما رأوا ما صنع بشير بن سعد، وما تدعو إليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض: "والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة؛ ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبًا أبدًا، فقوموا فبايعوا أبا بكر، فقاموا إليه فبايعوه، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم"^(١).

إن الاعتراف بوجود آثار لذلك الخلاف القديم بين الأوس والخزرج. وإن ظل محاصرًا مدانًا. أمر يمكن الاستدلال عليه^(٢)، أما المبالغة في تصور وجوده وتأثيره^(٣) فتخالف حقيقة الأمر وأخوة الدين..

١٠- كان مؤتمر السقيفة مؤتمرًا شوريًا رائعًا، أعلن فيه كلا الفريقين وجهة نظره، مقدمًا الحجج المؤيدة لها؛ فذكر الأنصار فضلهم وقالوا: "نحن أنصار الله وكتيبة الإسلام.."، ثم أعلنوا تصورهم للخلافة ورشحوا لها سعد بن عبادة، فلما رأوا معارضة المهاجرين قالوا: "منا أمير ومنكم أمير"، وردّ المهاجرون بإبطال ذلك؛ فقال عمر رضي الله عنه: هيهات؛ لا يجتمع اثنان في قرن^(٤)، وفي بعض روايات البخاري أنه قال: "سيفان في غمد؟ إذن لا يصلحان"^(٥)، وهل يجتمع أميران في الحكم إلا ومعهما احتمالات التنازع والشقاق!؟

(١) الطبري: السابق ٢٢١/٣-٢٢٢

(٢) مثل تلك الملاحظة التي حدثت بين سعد بن معاذ، سيد الأوس، وسعد بن عبادة زعيم الخزرج بشأن موقف عبد الله بن أبي الخزرجي في حادثة الإفك (راجع البخاري: الصحيح، حديث رقم ٤١٤١)

(٣) مثلما يفعل الشيعي رضا المظفر: السقيفة ١٠٢، وانظر: الجاحظ: البيان والتبيين ٢٩٧/٣-٢٩٨

(٤) الطبري: السابق ٢٢٠/٣

(٥) ابن حجر: السابق ١٢/١٦٨

ثم قدّم المهاجرون تصوّرهم البديل؛ فقال أبو بكر رضي الله عنه: " .. ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا" وأكد عمر على ذلك بقوله: "والله لا ترضى العرب أن يؤمّروكم ونبئها من غيركم، ولكن العرب لا تمنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، ووليّ أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبي من العرب الحجة الظاهرة، والسلطان المبين"^(١)، وفي رواية الزهري أن أبا بكر قال في خطبته: "ولن نصلح العرب إلا برجل من قريش، فالناس لقريش تبع"^(٢).

لقد كان من الضروري استصحاب السبق الإيماني، والواقع العملي، والإلف القبلي . ما لم يخالف مقتضى الإسلام . جنبًا إلى جنب مع التذكير بمعنى حديث النبي صلى الله عليه وآله: "إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كَبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين"^(٣)، وحديث: "الأئمة من قريش"^(٤)، كما احتج المهاجرون بأن رسول الله صلى الله عليه وآله "أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم؛ ونتجاوز عن مسيئكم، ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم"^(٥)، وجاء الاحتجاج بمكانة أبي بكر ومآثره التي لا يشاركه فيها أحد ليحقق الغلبة لمنطق

(١) الطبري: السابق ٢٢٠/٣

(٢) ابن حجر: السابق ٣٥/٧

(٣) البخاري: الصحيح، كتاب المناقب، رقم ٣٥٠٠، وقال ابن حجر: "فإن الخلافة لم تنزل في قريش، والناس في طاعتهم، إلى أن استخفوا بأمر الدين؛ فضعف أمرهم وتلاشى" (فتح الباري ٦/٦١٨)، وهو قريب من رأي ابن خلدون في أن اشتراط القرشية مرتبط بوجود القوة والعصبية (المقدمة ٢/٥٨٥)

(٤) أحمد: المسند ٣/١٨٣.١٢٩، الحاكم: المستدرک ٤/٨٥، النسائي: السنن ٣/٤٦٧، وذكر بعضهم أن المهاجرين احتجوا بحديث "الأئمة من قريش"، ونفى بعضهم ذلك، إلا أن يكون قصد المثبتين أنهم احتجوا بمعنى الحديث لا نصه، كما في قول أبي بكر: "إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش؛ وقد قال ابن حجر عن هذا الحديث: "ولم يقع في هذه القصة (يعني قصة السقيفة) إلا بمعناه، وقد جمعت طرقه من نحو أربعين صحابيًا؛ لما بلغني أن بعض فضلاء العصر ذكر أنه لم يُروَ إلا عن أبي بكر الصديق" (فتح الباري ٧/٩٣، تلخيص الحبير ٤/٤٢)، وذكر السيوطي أنه حديث متواتر (الأزهار

المتناثرة في الأحاديث المتواترة ٢٤)

(٥) ابن خلدون: المقدمة ٢/٥٨٣

المهاجرين وحجتهم؛ وقد عبر عمر عن انزعاجه الشديد لمَّا رشحه الصديق مع أبي عبيدة ليتولى أحدهما الخلافة فقال: "كان والله أن أقدم فتضرب عنقي - لا يقربني ذلك من إثم - أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر"، ومضى عمر يذكر الحاضرين بمكانة أبي بكر فقال: بل نبايعك؛ فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ وقال في رواية ابن إسحاق: "يا معشر الأنصار؛ إن أولى الناس بنبي الله ثاني اثنين إذ هما في الغار"^(١)، وقال أيضًا: "يا معشر الأنصار؛ أستم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يؤم بالناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ فقالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر"^(٢)، وفي بعض الروايات أن عمر أخذ بيد أبي بكر فقال: "من له هذه الثلاثة؟ (إذ هما في الغار) من هما؟ (إذ يقول لصاحبه لا تحزن) من صاحبه؟ (إن الله معنا) مع من؟ ثم بسط يده فبايعه، وبايعه الحاضرون"^(٣)..

١١- كان الصحابة يدركون أصالة حقهم في الشورى، وفي اختيار خليفتهم، كما في قوله تعالى: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)^(٤) وقوله تعالى: (وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ)^(٥). وقد نص على ذلك أبو بكر حين خاطب المجتمعين في السقيفة؛ راجعًا بالأمر إليهم، قائلاً: "ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش..."

(١) ذكر ذلك ابن حجر: فتح الباري ١٢/١٦٩

(٢) رواه أحمد: السابق ١/٢١، حديث رقم ١٣٣، ابن أبي شيبة: المصنف ٧/٤٤٢، الهيثمي: مجمع

الزوائد ٥/١٨٣

(٣) ابن حجر: السابق ٧/٣٦

(٤) سورة آل عمران: من الآية ١٥٩

(٥) سورة الشورى: من الآية ٣٨، وعن أصالة حق الأمة في اختيار خلفائها راجع: د. ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية ١٧٣-١٧٤، وللمقارنة انظر سعدي أبو حبيب: دراسة في منهاج الإسلام السياسي ٧١-٧٥، وهذا بالطبع عند أهل السنة أما الشيعة فيرون ثبوت الإمامة بالنص عليها من الله ورسوله، ويسفهون مبدأ الاختيار، وينفون وجود رأي للأمة في هذه المسألة التي هي عندهم من أصول الدين (راجع: محمد رضا المظفر: السابق ٣٢-٣٩)

وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم"، يعني عمر وأبا عبيدة، وقول عمر . حسب رواية الطبري : "لن ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم"، وأصرح منه أنه حين علم بمقولة من قال: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة، وإنه إن مات عمر بايع فلانًا، فقام عمر خطيبًا في أهل الرأي والفقهاء بالمدينة، يحذرهم من "هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوا أمورهم"، وأكد أنه من بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي يبايعه، تغرة أن يقتلًا" ..

وكان جلوس أبي بكر الصديق في اليوم التالي لسقيفة بني ساعدة من أجل أن يبايعه المسلمون البيعة العامة دليلاً على احترام إرادة الرعية ذاتها، والمحافظة على مظاهر ذلك الاحترام، فكان مما قاله: "...وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه"، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة، ثم تكلم أبو بكر فخطب الناس خطابه الشهير الذي أكد فيه حق الأمة في اختيار خلفائها وعزلهم، فقال: أما بعد؛ أيها الناس، فإنني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني.." (١).

رابعاً: من تخلف عن بيعة أبي بكر:

تختلف الروايات فيما بينها اختلافًا عظيمًا بشأن جماعة من كبار الصحابة قيل إنهم تخلفوا - لأمر رؤواها - عن بيعة أبي بكر، وقيل: بل سارعوا إليها بغير معارضة ولا امتناع، وأول هؤلاء سعد بن عباد زعيم الخزرج ومرشحهم للخلافة في مؤتمر السقيفة، وأبرزهم علي بن أبي طالب ومعه الزبير بن العوام وجماعة من بني عبد مناف، وغيرهم.. وقد اهتم العلماء بدراسة ذلك الأمر

(١) ابن هشام: السابق ٢٣٢/٤، الطبري: السابق ٢١٠/٣، ابن حبان: الثقات ١٥٧/٢، المحب الطبري: السابق ٢١٢/٢، وانظر رواية البخاري في البيعة العامة: الصحيح، حديث رقم ٧٢١٩

وتفسيره، ضمن اهتمامهم ببيان ثبوت خلافة أبي بكر؛ وهل كانت بالإجماع أم بموافقة الجمهور.. وسوف نعرض لذلك؛ ثم نتناول دلالة النصوص المتكاملة من الحديث والتاريخ معاً..

أ) حولبيعة سعد بن عبادَة:

لقد مر بنا أن روايات الحديث الصحيح لا تذكر مبايعة سعدٍ لأبي بكر، بعدما فوجئ بالتراجع السريع للأنصار عن بيعته هو، وتحولهم الكامل إلىبيعة أبي بكر، إذ إنها تنتهي عند ذكر قول بعضهم: قتلت سعد بن عبادَة، وقول عمر: "اقتلوه؛ قتله الله"، على سبيل الدعاء عليه، أو التعبير عن سخطه على موقفه من جمع الأنصار؛ وتعجل البيعة؛ دون علم المهاجرين بها، وهو لم يبايع بالقطع في اجتماع السقيفة، إذ انتهى ذلك الاجتماع وقد كادت الناس تطؤه؛ وهي تحتشد على أبي بكر لمبايعته، على النحو السابق بيانه، ولو كان بايع يوم السقيفة لكان أجدر الناس بالاهتمام ببيعته؛ إذ كان المتصدر للبيعة منذ قليل.. ولا تذكر هذه الروايات أنه بايع بعد ذلك، مما يرجح القول بامتناعه عن البيعة، وذلك الذي تؤكد روايات المؤرخين على نحو أكثر تفصيلاً وجلاءً.

فقد ذكر ابن سعد والطبري أن أبا بكر بعث إلى سعد بن عبادَة أن أقبل فبايع؛ فقد بايع الناس وبايع قومك، فقال: "والله؛ لا أبايع حتى أراميك بما في كنانتي، وأقاتلكم بمن تبغني"، فلما جاء الخبر إلى أبي بكر قال بشير بن سعد: "يا خليفة رسول الله؛ إنه قد أبى ولجّ؛ وليس بمبايعكم أو يقتل، ولن يقتل حتى يُقتل معه ولده وعشيرته؛ ولن يُقتلوا حتى تُقتل الخزرج، ولن تُقتل الخزرج حتى تُقتل الأوس، ولا تحركوه، فقد استقام لكم الأمر؛ فإنه ليس بضاركم؛ إنما هو رجل وحده ما تُرك"، فقبل أبو بكر نصيحة بشير، فترك سعدًا، ثم إنه أبىبيعة عمر بعد ذلك؛ وخرج مهاجرًا إلى الشام أول خلافة عمر فمات بها^(١)، ويؤكد المسعودي أن سعدًا

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٦٣١، الطبري: السابق ٣/٢٢٢، ابن الأثير: أسد الغابة ٢/٢٢٣

خرج من اجتماع السقيفة ولم يبايع، وسار إلى الشام حتى مات هناك^(١).. وذلك ما يقول به أيضًا ابن الأثير و ابن تيمية والمحب الطبري^(٢) وهذا هو ما يتفق مع المعروف من خصال سعد بن عبادة رضي الله عنه، وكانت فيه بعض الحدة، على عظيم قدره، وشريف جهاده، ولعلنا نسترجع في ذلك المقام أن النبي ﷺ نزع من سعد راية الأنصار يوم فتح مكة، لما بلغه أن سعدًا قال - وقد مر به أبو سفيان بعدما أسلم -: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال ﷺ: "كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة"، وأعطى الراية ولده قيس بن سعد^(٣)..

غير أن بعض رواة الحديث والتاريخ يذكرون أن سعدًا بايع أبا بكر، ويكررون في ذلك رواية الإمام أحمد بسنده عن حميد بن عبد الرحمن، وفيها أن أبا بكر قال لسعد يوم السقيفة: "ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر، فَبَرَّ الناس تبع لبرِّهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم، فقال سعد: صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء"^(٤)، وهي رواية مرسلّة؛ إذ لم يدرك حميد بن عبد الرحمن تلك الواقعة^(٥)، ولا شك أنها تخالف رواية البخاري ومن وافقه، إذ تزعم بيعته يوم السقيفة، وهو ما ظهر ضعفه كما سبق، وتبدو تلك الرواية غريبة بين الروايات الكثيرة التي تدل على أن سعدًا لم يبايع، ولو بايع سعد في مثل

^(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ٣٠٨/٢

^(٢) ابن الأثير: السابق ٢٢٧/٣، ابن تيمية: منهاج السنة ١/٥١٨-٥١٩، المحب الطبري: السابق

٢١٦/٢

^(٣) وقيل بل أعطاهما الزبير بن العوام (انظر ابن حجر: فتح الباري ٩/٨، ابن الأثير: أسد الغابة

٢/٢٢٣، ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/٥٩٧-٥٩٨).

^(٤) المسند ٥/١، حديث رقم ١٨، وانظر السيوطي: السابق ص ٨٣، الطبري: السابق ٣/٢٠٢-٢٠٣

^(٥) اختلف العلماء في المراد بحميد، فذهب بعضهم إلى أنه حميد بن عبد الرحمن بن عوف (السيوطي:

السابق والصفحة) وقال آخرون إنه حميد بن عبد الرحمن الحميري (الطبري: السابق ٣/٢٠٢) وهو تابعي

بصري ثقة (ابن حجر: تهذيب التهذيب ٣/٤١)، ولم يحسم الشيخ أحمد محمد شاكر محقق مسند الإمام

أحمد ذلك الخلاف (المسند ١/٥٦ حاشية ١)

مكانته . وهو زعيم الخزرج وأحد نقبائهم . لشاع الأمر وانتشر، وبخاصة بعدما كان منه يوم السقيفة، وما كان هناك سبيل إلى الاختلاف بين الرواة حول بيعته على نحو ما نرى، مما يجعلنا نرجح أن سعدًا لم يبايع، ويؤيد ذلك أننا لا نجد له ذكرًا فيما تلا البيعة من أحداث جسام كحروب الردة، وبداية حركة الفتوحات الكبرى، ومصادمة فارس والروم..

ووقف رواية آخرون موقفًا متوسطًا، فزعموا أنه بايع كرهًا!! من ذلك ما رواه الطبري عن سيف بن عمر من أن سعدًا أجبر على بيعة أبي بكر، وأنه قال له: إنكم يا معشر المهاجرين حسدتموني على الإمارة، وإنك وقومك أجبرتموني على البيعة، فقالوا: إنا لو أجبرناك على الفرقة فصرت إلى الجماعة كنت في سعة، ولكننا أجبرناك على الجماعة؛ فلا إقالة منها، لئن نزعت يدًا من طاعة، أو فرقت جماعة، لنضربن الذي فيه عيناك^(١).. ويكفي للرد على ذلك أن الإسلام لا يعتد بتصرفات المكروه^(٢).. ولا يغيب مثل ذلك عن كبار الصحابة، وما الحاجة إلى إكراه سعد أو غيره وقد انعقدت البيعة لأبي بكر باتفاق جمهور الصحابة وغالبيتهم، ولا يلزم لها الإجماع بحال.. ولا حاجة إلى العنف مع سعد - على النحو الذي تصوره الرواية - فيستشير ذلك غضب عشيرته وعصبيته، ويفتح بابًا من الشر على المسلمين لا ضرورة له، كما أنه لا خطر منه بعد مبايعة الأنصار جميعًا.. على أننا نجد زعمًا آخر مماثلًا عن إكراه علي بن أبي طالب والزبير بن العوام على البيعة^(٣)، وهو يؤكد الحكم بوضع هذه الروايات، فكيف يُجبر هؤلاء الأعلام على

(١) الطبري: السابق ٢٢٣/٣

(٢) كما يتضح من قوله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) النحل من الآية ١٠٦، وروى ابن ماجة في سننه (٦٥٩/١)، حديث رقم (٢٠٤٥) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"، وقد حسنه بعضهم وأكثره آخرون (الزليعي: نصب الراية ٦٤/٢، الصنعاني: سبل السلام ١٧٦/٢-١٧٧)

(٣) الطبري: السابق ٢٠٣/٣

ما لا يريدون؟ وكل منهم سيد عظيم؛ له من عشيرته وقومه من لا يقبلون أبدًا بإكراههم والعنف معهم.. وربما أراد بعضهم أن يغض من شأن بيعة أبي بكر فزعم أن بعض الكبراء لم يرض بها إلا مكرهًا، أو أراد أن يحقق الإجماع عليها؛ فلم يجد السبيل إلا في ذلك الزعم الذي يجافي الحقيقة، ويسيء إلى جميع الأطراف..

ب) حول بيعة علي بن أبي طالب ومن وافقه:

أما موقف علي رضي الله عنه ومن وافقه من بني عبد مناف وغيرهم فقد اختلف حوله الرواة اختلافاً عظيماً.

موقف روايات الحديث:

وتؤكد روايات الحديث الصحيح أن علياً لم يبايع أبا بكر إلا بعد وفاة زوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ بعد وفاة أبيها بستة أشهر، بينما ذكرت مرويات أخرى أن علياً بايع مع جموع المسلمين ومعه الزبير بن العوام، وبقيّة من تخلفوا معه..

فقد روى البخاري عن أم المؤمنين عائشة أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك^(١) وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: "لا نُورث، ما تركنا صدقة"، إنما يأكل آل محمد ﷺ في هذا المال، وإني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التي كان عليها في عهد رسول الله ﷺ ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله ﷺ فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك، فهجرت، فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبي ﷺ ستة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها عليّ ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر، وصلى عليها، وكان لعليّ من الناس وجه حياة فاطمة، فلما توفيت

(١) فدك: بلد بينها وبين المدينة ثلاث مراحل (ابن حجر: فتح الباري ٦/٢٣٠).

استنكر علي وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته، ولم يكن يبائع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر أن اتتنا، ولا يأتنا أحد معك - كراهية لمحضر عمر - فقال عمر: لا والله لا تدخل عليهم وحدك، فقال أبو بكر: وما عسيئهم يفعلون بي؟ والله لآتينهم، فدخل عليهم أبو بكر، فتشهد عليّ فقال: "إنا قد عرفنا فضلك، وما أعطاك الله، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك، ولكنك استبددت علينا بالأمر، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ نصيباً"، حتى فاضت عينا أبي بكر، فلما تكلم أبو بكر قال: "والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي، وأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الأموال فلم آل فيها عن الخير، ولم أترك أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيها إلا صنعته، فقال علي لأبي بكر: موعدك العشية للبيعة، فلما صلى أبو بكر الظهر رقي على المنبر، فتشهد، وذكر شأن علي وتخلّفه عن البيعة، وعذّره بالذي اعتذر إليه، ثم استغفر وتشهد علي، فعظّم حق أبي بكر، وحدّث أنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر وقال: "ولكننا نرى لنا في هذا الأمر نصيباً فاستبدّد علينا، فوجدنا في أنفسنا"، فسُر بذلك المسلمون، وقالوا: أصبت، وكان المسلمون إلى عليّ قريباً حين راجع الأمر بالمعروف^(١).

ويؤكد البخاري في روايات أخرى في صحيحه حقيقة الخلاف الذي حدث بين أبي بكر وفاطمة وموقف كل منهما على النحو الذي مر بنا..^(٢).

غير أن بعض الروايات وجدت طريقها إلى كتب الحديث تثبت بيعة عليّ والزبير مع جموع المسلمين، فقد روى البيهقي عن الحاكم عن أبي سعيد الخدري أنه لما توفى رسول الله ﷺ قام خطباء الأنصار، فجعل الرجل منهم يقول: "يا

(١) البخاري: الصحيح، كتاب المغازي حديث رقم ٤٢٤٠، ٤٢٤١، وانظر كتاب الفرائض حديث رقم

٦٧٢٥، ٦٧٢٦، ٦٧٢٧

(٢) السابق كتاب فرض الخمس رقم ٣٠٩٢-٣٠٩٣، ٣٠٩٤

معشر المهاجرين إن رسول الله ﷺ كان إذا استعمل رجلاً منكم قرن معه رجلاً منا، فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان: أحدهما منكم والآخر منا"، فتتبع خطباء الأنصار على ذلك، فقام زيد بن ثابت فقال: إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، وإن الإمام يكون من المهاجرين، ونحن أنصاره كما كنا أنصار رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر - رضي الله عنه - فقال: جزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار، وثبت قائلكم، ثم قال: أما لو فعلتم غير ذلك لما صالحناكم، ثم أخذ زيد بن ثابت بيد أبي بكر فقال: هذا صاحبكم فبايعوه، ثم انطلقوا، فلما قعد أبو بكر على المنبر نظر في وجوه القوم، فلم ير علياً، فسأل عنه، فقام ناس من الأنصار فأتوا به، فقال أبو بكر: ابن عم رسول الله ﷺ وختته، أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ فبايعه، ثم لم ير الزبير بن العوام فسأل عنه حتى جاءوا به، فقال: ابن عمه رسول الله ﷺ وحواريه، فبايعاه..

وقد قال الإمام مسلم عن ذلك الحديث لما سمعه: هذا حديث يسوى بدنة،

فقال ابن خزيمة - أحد رواة الحديث - يسوى بدنة؟ بل يسوى بدرة^(١).

وسر سعادة الإمام مسلم بذلك الحديث أنه يثبت بيعة علي والزبير مع جموع المسلمين، وأنه لم يخالف أحد على أبي بكر، فهو بذلك يبرئ الصحابة مما ظنه جماعة من الرواة نقيصة الاختلاف السياسي.. لكن الإمام مسلم مع ذلك لم يرو ذلك الحديث في صحيحه، لأنه لم يستوف شروط الرواية عنده، وهو يخالف الثابت في صحيح البخاري، وهو الأصح إسناداً وسيافاً.. وسعادة الإمام مسلم بهذا الحديث تشبه سعادة ابن كثير به حين يرى فيه "فائدة جليلة، وهي مبايعة علي بن أبي طالب إما في أول يوم أو في اليوم الثاني من الوفاة.." ^(٢)

(١) البيهقي: السنن الكبرى ١٤٣/٨، الحاكم: المستدرک ٨٠/٣، ويسوى هنا بمعنى يساوي..

(٢) البداية والنهاية ٣١٧/٣

والرواية على هذا النحو لا تفرق بين ما جرى في سقيفة بني ساعدة من حوار وما حدث في اليوم التالي لها في المسجد الجامع لما اجتمع الصحابة للبيعة العامة، وأغلب الظن أنها تبدأ في رواية وقائع البيعة العامة منذ قولها "ثم انطلقوا فلما قعد أبو بكر على المنبر نظر في وجوه القوم.." وتعطي دورًا بارزًا لزيد بن ثابت وهو لم يقدّم دور بارز حتى ذلك الوقت، وبخاصة في هذه المسائل الكبرى، بينما تصمت عن دور زعماء الأوس والخزرج البارزين مثل أسيد بن حضير وبشير بن سعد وغيرهما، ولا تبرر تخلف علي والزبير أولاً ثم مسارعتهم بالبيعة بمجرد استدعاء أبي بكر لهما، ولا تتحدث عن موقف سعد بن عبادته وامتناعه عن البيعة، ولا عن دور عمر بن الخطاب البارز في هذه الأحداث..

وقد ذكر ابن كثير رواية أخرى عن البيهقي أيضاً تتناقض مع تلك الرواية في عدة نقاط: فهي تذكر أن الاجتماع كان أولاً في دار سعد بن عبادته، على خلاف جميع الروايات التي تنص على أن الاجتماع كان في سقيفة بني ساعدة، وتذكر أن عمر بن الخطاب هو الذي رد على خطيب الأنصار، وليس أبا بكر كما في الرواية السابقة، وأن عمر هو الذي أخذ بيد أبي بكر وقال: هذا صاحبكم فبايعوه، وليس زيد بن ثابت، وأن أبا بكر لما تفقد القوم سأل عن الزبير أولاً فجاء فبايعه، ثم تفقدهم فسأل عن علي فبايعه، بينما تذكر الرواية السابقة بيعة علي قبل الزبير^(١)..

وهكذا تتناقض الروايتان في معظم تفصيلاتهما، فضلاً عن مخالفتهما روايات البخاري في صحيحه.. لذا فما في الصحيح أولى، وهناك محاولة للتوفيق بين ما بالحديث الصحيح من تأخر علي عن البيعة ستة أشهر، وما روي في أحاديث أخرى من أنه بايع مسرعاً مع أوائل من بايعوا بأنه بايع مرتين: مرة مع

(١) السابق ٣١٦-٣١٧

الناس أولاً، ثم جدد تلك البيعة بعد موت فاطمة^(١)، لكنها محاولة متكلفة، إذ إن بيعة رجل مثل عليّ ﷺ لا تخفى على الناس حتى يحتاج إلى تجديدها، كما في رواية الحاكم والبيهقي، فالمفترض أنها كانت بالمسجد ضمن البيعة العامة، وشهدها الجميع، وحتى لو جهلها بعض الناس فقد كان يمكنه الإعلان عنها بدل المبايعة من جديد.. وأشد منها تكلفاً قول البيهقي: "والذي روى أن علياً لم يبايع أبا بكر ستة أشهر ليس من قول عائشة؛ إنما هو من قول الزهري، فأدرجه بعض الرواة في الحديث في قصة فاطمة رضي الله عنها، وحفظه معمر بن راشد فرواه مفصلاً، وجعله من قول الزهري منقطعاً من الحديث"^(٢).. وجوابه: أن معمر بن راشد . وهو الذي روى حديث البخاري عن الزهري عن عروة عن عائشة . قد روى بالفعل عن الزهري رواية مستقلة مؤداها أن رجلاً سأله: "أفلم يبايعه عليّ ستة أشهر؟ قال: لا، ولا أحد من بني هاشم؛ حتى يبايعه عليّ"^(٣)، وهي التي ذكر البيهقي أنها أدرجت في الحديث الصحيح، وليست منه، بل هي من كلام الزهري، ولكننا قد نفهم تلك الرواية على أنها شرح وتأكيد لرواية عائشة رضي الله عنها، وبخاصة أن الذي يوضح تأخر عليّ في روايتها ليس جملة واحدة . قد يزيدا أحد الرواة . بل إن الرواية كلها قائمة على توضيح تأخره عن البيعة، وبيان سببه، فهي تحكي أن علياً أرسل إلى أبي بكر: أن ائتنا؛ ولا يأتنا أحد معك، ثم مضى يعتذر لأبي بكر، ويذكر سبب تأخره عنه، ثم قال: موعداك العشية للبيعة، ثم تذكر الرواية خطبة كل منهما يعذر الآخر، ثم بيعة عليّ، وفرحة المسلمين بذلك.. فأى جزء من هذه الرواية يمكن تصور إقامه عليها؟؟

(١) البيهقي: الاعتقاد ٣٥٢/١، ابن حجر: فتح الباري ٥٦٦/٧، ابن كثير: السابق ٣١٧/٣

(٢) البيهقي: السابق والصفحة، والحديث المدرج هو أن تزداد لفظة في متن الحديث من كلام الراوي، فيحسبها من يسمعها منه مرفوعة في الحديث، فيرويها كذلك (ابن حجر: نزهة النظر ص ٤٢، أحمد

محمد شاكر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير ص ٦١)

(٣) الطبري: السابق ٢٠٨/٣

موقف روايات التاريخ:

ذكر بعض الرواة أن الصحابة لما مات رسول الله ﷺ "كروهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة"، فبايعوا أبا بكر، وما خالف منهم أحد، "إلا من ارتد أو من قد كاد يرتد"، وأنه قد "تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم"^(١)، وأن علياً بايع أبا بكر مع أوائل من بايعوا، فروى الطبري عن سيف بن عمر أن علياً كان في بيته، فجاءه خبر جلوس أبي بكر للبيعة، فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء، عَجَلًا، كراهة أن يبطن عنها، حتى بايعه، ثم جلس إليه، وبعث إلى ثوبه فاتاه فتجلله، ولزم مجلسه"، وهي رواية مرسله عن حبيب بن أبي ثابت المتوفى سنة ١٢٢هـ^(٢).. وذكر ابن سعد ما يؤكد بيعة علي في رواية مرسله أخرى عن الحسن (البصري التابعي توفي سنة ١١٠هـ) قال: "قال علي: لما قبض النبي ﷺ نظرنا في أمرنا، فوجدنا النبي ﷺ قد قدم أبا بكر في الصلاة، فرضينا لدنيانا من رضي رسول الله ﷺ لدينا، فقدمنا أبا بكر"^(٣).. وإن كانت هذه الرواية تتحدث عن موضوع البيعة . وهو أحقية أبي بكر . لا عن موعدها، فلا جدال في أن علياً بايع ، ولكن الحديث هنا عن تأخره عن البيعة..

وذكر ابن كثير أن علياً بايع مبكرًا فلما حدث الخلاف بين زوجه فاطمة وأبي بكر بسبب ميراث النبي ﷺ "احتاج علي أن يراعي خاطرها بعض الشيء، فلما ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها رأى علي أن يجدد البيعة مع أبي بكر"، وقال ابن كثير أن البيعة الأولى لعلي كانت إما في أول يوم أو في اليوم الثاني من الوفاة، ثم أردف قائلاً: "وهذا حق، فإن علي بن أبي طالب لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه.."، واحتج أيضًا بأن

(١) السابق والصفحة

(٢) الطبري: السابق ٢٠٧/٣، وانظر سنة وفاة حبيب عند : الربيعي: مولد العلماء ووفياتهم ٢٨٧/١

(٣) الطبقات الكبرى ٧٧/٣

عليًا شهد مع الصديق والمسلمين قتال أهل الردة لما باغتوا المدينة (١)، وفي ذلك الاحتجاج نظر؛ فعلى فرض تأخر عليّ ﷺ في البيعة فليس ثمة ما يمنع من مشاركته في الصلاة والجهاد مع الصديق، وقد أصبح خليفة واجب الطاعة بمبايعة الجمهور، وإن تأخر هو عن بيعته..

ويضعف تشكك ابن كثير في موعد بيعة عليّ الأولى حجته في أنه بايع في أول يوم أو في اليوم التالي للوفاة، وهو لم يبايع أول يوم مع من بايع في السقيفة؛ إذ لم يكن أحد الحاضرين بها، لانشغاله بتجهيز النبي ﷺ، ولو أنه ترك أمر جهازه لما علم ببيعة السقيفة وسارع بعد انتهاء الاجتماع للبيعة لكان أمرًا مثيرًا يستحق الاهتمام والرواية. وبخاصة أن البيعة كانت عملاً علنيًا لا خفاء فيه. وهو ما لم يروه أحد، ولو كانت بيعته في اليوم التالي للوفاة لكانت ضمن البيعة العامة بالمسجد، وشهدها جموع المسلمين الذين احتشدوا لها، ولو كان ذلك قد حدث لما اختلف الرواة بشأنها، وما احتاج هو إلى تجديدها.

بينما يروي الطبري في مواضع أخرى ما يخالف ذلك، ويوافق روايات البخاري، فيروي أن عليًا لم يبايع أبا بكر أول الأمر، وأنه تلبّث ببيعته حتى ماتت زوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ فبايع بعد ستة أشهر (٢)، ويؤكد ابن الأثير ذلك وأنه هو الصحيح (٣)، وأنه "تخلف عن بيعته عليّ وبنو هاشم والزبير بن العوام وخالد بن سعيد بن العاص وسعد بن عباد الأنصاري، ثم إن الجميع بايعوا بعد موت فاطمة بنت النبي ﷺ إلا سعد بن عباد فإنه لم يبايع أحدًا إلى أن مات" (٤). ويشاركهم المسعودي في ذلك فيقول: "ولم يبايعه أحد من بني هاشم حتى

(١) البداية والنهاية ٣/٣١٧

(٢) الطبري: السابق ٣/٢٠٧-٢٠٨

(٣) الكامل ٢/١٨٩

(٤) أسد الغابة: ٣/٢٢٧

ماتت فاطمة رضي الله عنها^(١).. ويقدم بعضهم تفسيرًا مثيرًا لتأخر علي عن البيعة، ويلتمس عذرًا غير ناهض في أمر يتصل بمحض الحرية السياسية التي يحترمها الإسلام والخليفة، ولا يحوج إلى اعتذار، فيروي رواية مرسله عن محمد بن سيرين (ت ٨٠هـ أو ١٠٦هـ) أن عليًا قال معتذرًا لأبي بكر: "ما كرهت إمارتك، ولكنني آليت ألا أرتدي ردائي إلا إلى الصلاة حتى أجمع القرآن^(٢)!"

أما اليعقوبي - المؤرخ الشيعي - فيسير في ذات الاتجاه الذي يرى تأخر علي عن البيعة، ويسرد رواياته دون ذكر إسنادها، أو بيان مصادره، مما يضعف جدًّا من قيمة هذه الروايات، مع هواه المذهبي، وهو يجعل للمسألة أبعادًا أوسع، فيزعم أن عبد الرحمن بن عوف قد شارك في اجتماع السقيفة وأنه قال: "يا معشر الأنصار إنكم؛ وإن كنتم على فضل؛ فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعلي، وقام المنذر بن أرقم فقال: ما ندفع فضل من ذكرت، وإن فيهم لرجلاً لو طلب هذا الأمر لم ينزعه فيه أحد، يعني عليًا، وأنه بعدما بويع أبو بكر جاء البراء بن عازب فضرب الباب على بني هاشم وقال: يا معشر بني هاشم، بويع أبو بكر، فقال بعضهم: ما كان المسلمون يحدثون حدثًا نغيب عنه، ونحن أولى بمحمد، فقال العباس: فعلوها ورب الكعبة، وكان المهاجرون والأنصار لا يشكون في علي، فلما خرجوا من الدار قام الفضل بن عباس - وكان لسان قريش - فقال: يا معشر قريش إنه ما حقت لكم الخلافة بالتمويه، ونحن أهلها دونكم، وصاحبنا أولى بها منكم"، وأنشد عتبة بن أبي لهب أبياتًا من الشعر منها:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن
فبعث إليه علي فنهاه، وذكر اليعقوبي أسماء جماعة زعم أنهم امتنعوا عن بيعة
أبي بكر تحزبًا لعلي، فأضاف - فضلًا عن بني هاشم والزبير وخالد بن سعيد

(١) مروج الذهب ٣٠٨/٢

(٢) المحب الطبري: الرياض النضرة ٢/٢١٧، والمقصود بجمع القرآن: استكمال حفظه..

وأبي سفيان بن حرب - أسماء المقداد بن عمرو وسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر والبراء بن عازب وأبي بن كعب^(١)..

ج) موقف العباس بن عبد المطلب:

ثم زعم اليعقوبي أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة والمغيرة بن شعبة تشاوروا فيما يواجهون به الموقف، فقر قرارهم على مفاوضة العباس بن عبد المطلب لسلخه من معسكر علي، على أن يجعلوا له في هذا الأمر نصيبًا يكون له ولعقبه من بعده!! فذهبوا إليه، وتكلم أبو بكر فأبان عن وجهة نظره، وقدم عرضهم الذي اتفقوا عليه، فرد عليهم العباس ردًا بليغًا، دحض فيه وجهة نظرهم، وانتصر لكون الإمامة فيهم آل البيت، وأنه ليس لهم أن يتدخلوا فيها، فيجعلوا له نصيبًا منها، فخرجوا من عنده.. وأن عليًا لما رأى تحريض أنصاره له أراد أن يختبر ولاءهم وصمودهم، فقال لهم: "اغدوا على هذا محلقين الرعوس، فلم يغدُ عليه إلا ثلاثة نفر^(٢)..

ولا شك أن الحديث عن حقوق العباس وولده في الخلافة منذ ذلك الوقت المبكر محاولة من أصحاب هذه الروايات التي كتبت في العصر العباسي لخطب ود الخلفاء العباسيين، والتزلف إليهم، وهو عمل لا كلفة فيه، إذ يكفي نسج بعض الروايات التي لا يعرف لها أصل تعود إليه، وتسويد الصفحات بها.. وقد كان اليعقوبي من أسرة ذات صلات وثيقة بالبيت العباسي حيث كان جده أحد مواليتهم، وقد عمل جد اليعقوبي ووالده، وربما هو في بعض المناصب الإدارية في الحكومة العباسية^(٣).

(١) تاريخ اليعقوبي ١٢٣/٢-١٢٤

(٢) تاريخ اليعقوبي ١٢٤/٢-١٢٦، ابن قتيبة: (ينسب إليه) الإمامة والسياسة ١٥

(٣) راجع ياسين إبراهيم الجعفري: اليعقوبي المؤرخ والجغرافي ص ٢١، ٢٤، ٢٦-٢٧

التهجم على بيت فاطمة:

ثم يمضي اليعقوبي في افتراض ذلك الصراع، ثم تضخيمه، فيزعم أن أبا بكر وعمر بلغهما أن جماعة من المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا مع علي في منزل فاطمة - رضي الله عنها - فجاءوا في جماعة حتى أتوا الدار، وخرج علي ومعه السيف، فصارعه عمر، فصرعه وكسر سيفه، ودخلوا الدار، فخرجت فاطمة فقالت: والله لتخرجن أو لأكشفن شعري، ولأعجنن إلى الله، فخرجا، وخرج من كان بالدار، وأقام القوم أيامًا، ثم جعل الواحد بعد الواحد يبايع، ولم يبايع علي إلا بعد ستة أشهر، وقيل أربعين يومًا^(١)..

إن رواية كشف بيت فاطمة قد تركت أصداءها في كتابات بعض أهل السنة، وإن لم تكن على النحو الذي يزعمه اليعقوبي، فقد روى الطبري والطبراني وغيرهما أن أبا بكر في مرض وفاته قال: لا آسى على شيء كما آسى على ثلاثة أشياء؛ ذكر منها أنه ود لو لم يكن كشف بيت فاطمة، وتركه وأن أغلق علي الحرب، وقد ذكر الطبراني أن أحد رواة هذا الحديث - واسمه علوان بن داود البجلي - ضعيف، وأن هذا الأثر مما أنكر عليه، وهو ذات الراوي الذي روى عنه الطبري^(٢)..

(د) حول معارضة أبي سفيان بن حرب:

ويشرك بعض رواة الطبري أيضًا أبا سفيان بن حرب في زمرة من تخلفوا عن البيعة، بل يجعلونه أكبر المحرضين عليًا للامتناع عنها، في حين تجعل رواياتهم عليًا في دور المدافع عن بيعة أبي بكر، المتهم أبا سفيان بالانتهازية السياسية

^(١) اليعقوبي: السابق ١٢٦/٢، المسعودي: مروج الذهب ٣٠٨/٢، ابن قتيبة: (ينسب إليه) السابق ١٢-

١٤

^(٢) الطبري: السابق ٤٢٩/٣-٤٣١، الطبراني: المعجم الكبير ٦٢/١، وانظر ابن حجر: لسان الميزان

١٨٩/٤، العقيلي: ضعفاء العقيلي ٤١٩/٣-٤٢٠، الهيثمي: مجمع الزوائد ٢٠٢/٥-٢٠٣

وإضمار الشر للإسلام.. فيزعم الرواة أن أبا سفيان قال لعلي: ما بال الأمر في أقل حي من قريش؟ والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً، فقال علي: "يا أبا سفيان طالما عادت الإسلام وأهله، فلم يضره ذلك شيئاً، إنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً"، ويزعمون أن أبا سفيان قال - وقد رأى الناس على البيعة -: "والله إني لأرى عاجة لا يطفئها إلا دم، يا آل عبد مناف؛ فيم أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟ أين الأذلان: علي والعباس؟ وقال لعلي: يا أبا حسن ابسط يدك حتى أبايعك، فأبى عليه فأنشد:

ولن يقيم على حَسَف يُراد به إلا الأذلان: عَيْرِ الحَيِّ والوَتِدِ

هذا على الحَسَف معكوس برمته وذا يُشَجُّ فلا يبكي له أحد

فزجره علي وقال: "إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك"، والعجيب أنهم زعموا أن الرجل ظل في ثورته حتى علم أن أبا بكر ولي ولده يزيد قيادة أحد جيوشه لفتح الشام، فرضي وقال: "وصلته رحم" .. وهي روايات يرويها هشام بن محمد الكلبي الذي سبق بيان تشييعه ومعاداته للأمويين وجدهم أبي سفيان^(١) ..

نظرة تحليلية لمواقف المتنعين عن بيعة الصديق:

١- إن الراجح بشأن سعد بن عباد هو امتناعه عن بيعة أبي بكر ثم عمر بن الخطاب، فقد ذكرت روايات الصحيح غضبه بعدما حدث من تحول أنصاره عنه يوم السقيفة؛ ومسارعتهم لبيعة أبي بكر، ولم تذكر بيعته مع جموع الأنصار حتى سخط عليه عمر وقال: "قتله الله"، أما الرواية الحديثية التي رواها الإمام أحمد وأكدت بيعته مع قومه يوم السقيفة - لما ذكره أبو بكر بحديث "قريش ولاة هذا الأمر" - فهي رواية مرسله تخالف الصحيح، ولا

(١) الطبري: السابق ٢٠٩/٣

تورث اطمئنانًا بشأن مدلولها، وكذلك الزعم المردود بأنه بايع مكرهًا، وهو الزعم الذي لحق بغير سعد أيضًا كعلي والزبير وغيرهما، وأمر امتناعه عن البيعة هو ما تؤكد عدة روايات تاريخية، وهو ما يتفق مع حدة سعد بن عباد، ومع طبيعة النفس الإنسانية؛ حتى في حالات ترفعها وتساميتها، قال ابن تيمية: "فتخلف عن بيعته سعد، لأنهم كانوا قد عينوه للإمارة، فبقي في نفسه ما يبقى في نفوس البشر، ولكن هو مع هذا رضي الله عنه لم يعارض ولم يدفع حقا ولا أعان على باطل" (١).. ولكي لا نغمط الإسلام دوره في تركية هذه النفوس فلنتذكر حالة أخرى مماثلة؛ اختلفت نتائجها مع حالتنا هذه؛ هي حالة عبد الله بن أبي بن سلول. وكان سيد الخزرج في الجاهلية مثلما كان سعد سيدهم في الإسلام، وكان أهل يثرب قد عقدوا العزم على تأميره عليهم قبل إسلامهم. فلما قدم النبي ﷺ إليهم وأصبح سيدهم بعد الهجرة، وضاعت عليه فرصة الإمارة، لم يستطع ابن أبيّ أن ينسى له ذلك (٢)، وظل يبغضه ﷺ حتى مات منافقًا خالصًا..

٢- كان اهتمام المؤرخين والمحدثين بأمر بيعة عليّ أعظم من اهتمامهم بأمر بيعة سعد بن عباد ويبدو أن لذلك أسبابًا عدة؛ منها مكانة عليّ في الإسلام، وقرابته من رسول الله ﷺ، ومنها أن موقف عليّ قد ساهم في تشكيل مواقف جماعة من الصحابة، من بني عبد مناف، ومنها أن موقف عليّ من البيعة لأبي بكر كان مثار حديث عند الشيعة فيما بعد، يؤصلون به لدعواهم بفضل عليّ على بقية الصحابة، وفيهم أبو بكر، ورد أهل السنة عليهم بتفضيل أبي

(١) منهاج السنة ١/٥٣٦

(٢) البخاري: الصحيح، كتاب التفسير باب: ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب، مسلم: الصحيح كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ١٧٩٨، أحمد: المسند ٥/٢٠٣

بكر، مما جعل مسألة أحقية علي بالخلافة أو أبي بكر مثار حديث وجدل، فاهتم رواة الحديث من أهل السنة ببيان حقيقة موقف علي من هذه البيعة.. ومن هذه الأسباب التي جعلت رواة الحديث يهتمون بأمر بيعة علي ارتباط ذلك بالخلاف بين فاطمة بنت رسول الله ﷺ وزوج علي وأبي بكر حول ميراثها من رسول الله ﷺ ومطالبتها به، ورفض أبي بكر ذلك لحجج فقهية ظاهرة.. والأمر ليس كذلك بالنسبة لبيعة سعد بن عبادة الذي انتهى خطره بمجرد بيعة رهطه الأنصار، ثم ذهابه هو إلى الشام ووفاته بها بعد قليل..

٣- إن رواية البخاري عن تأخر بيعة علي حتى وفاة فاطمة هي رواية صحيحة الإسناد، وتتفق مع البناء المنطقي للأحداث، وهي ترجح رواية الحاكم والبيهقي في صحة الإسناد وتتسق الوقائع، وقد وافقت بعض روايات التاريخ ما رواه البخاري، غير أن بعضها يخالف ذلك، مثل رواية الطبري عن سيف بن عمر التي تزعم أن عليًا تعجل في بيعة أبي بكر حتى أعجله ذلك فخرج يبايعه في قميص بغير إزار ولا رداء هي رواية ضعيفة منقطعة الإسناد^(١)، علاوة على ما يشوبها من تكلف ومبالغة.. وقد ذهب جماعة من الفضلاء قديمًا . كابن حزم وابن تيمية^(٢). إلى الأخذ برواية البخاري وطرح ما عداها.. في حين كان بعضهم يرويها وما خالفها دون ترجيح، أو يحاول التوفيق بينها وبين تلك الروايات التي تزعم البيعة المبكرة لعلي، مثلما فعل البيهقي و ابن كثير وغيرهما، وذلك بافتراض أن عليًا بايع مرتين: الأولى مع جموع المسلمين، والثانية بعد وفاة زوجه فاطمة، وهو محض افتراض بلا دليل، تحدوه النوايا الطيبة في تنزيه علي عن تأخر البيعة، أو تبرئة كبار الصحابة من شبهة الاختلاف السياسي، مع أنهم

^(١) في مصطلح الحديث: المنقطع هو ما سقط من إسناده أحد الرواة أو كان مبهمًا، أما إذا غاب أكثر من راوٍ فهو حديث معضل (راجع: أحمد محمد شاكر: الباعث الحثيث ص ٤١-٤٣، حسن محمد المشاط: التقريرات الشئبة شرح المنظومة البيقونية في مصطلح علم الحديث ص ٦٦-٦٩).

^(٢) ابن حزم: الفصل ٩٦/٤، ابن تيمية: منهاج السنة ١/٥١٨-٥١٩

قد اختلفوا في حياة النبي ﷺ نتيجة اجتهاد مأجور فما عابهم ذلك، بل عُد دليلاً على حيوية الأمة ومرونة التشريع.. وترك الخلاف بين الأقدمين في ذلك أثره على كتابنا المحدثين فمنهم من قال بتأخر بيعة علي^(١)، ومنهم من ادعى الإجماع على أبي بكر من أول يوم، ومضى يشكك فيما سوى ذلك^(٢)..

٤- إن علياً نفى أن يكون سبب امتناعه عن بيعة أبي بكر أنه كان ينفس عليه خيراً ساقه الله إليه، أي أنه لم يحسده على الخلافة، وإنما وجد عليه لاستبداده مع آخرين بأمر الشورى والاستخلاف، ويمكن أن نتقهم حساسية ذلك الأمر إذا تذكرنا الحوار الذي دار بين عليّ والعباس قبيل وفاة النبي ﷺ، وأن العباس نصح علياً أن يسأله ﷺ إن كان لهم في الأمر شيء؛ فأبى عليّ مخافة أن يمنعه عنهم فيرى الناس في ذلك تشريعاً، فيحرموهم حقاً هو للمسلمين كلهم سواء إذا توافرت فيهم شروطه.. فليس بمستنكر إذن أن يكون علي وبعض بني هاشم يرون أنه قد يكون لهم حق في خلافة رسول الله ﷺ وأن ابتعادهم عن الشورى يوم السقيفة أفقدهم إمكانية الترشح والاختيار..

٥- ومحمّل أن يكون لاختلاف فاطمة مع أبي بكر حول ميراثها من النبي ﷺ أثر في تأخر علي عن البيعة، إذ رأى أن يراعي خاطرها، وفاطمة ليست كغيرها

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام ٢٥٣، الخضري: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١٦٩/١-١٧٠، وانظر د. محمد عمارة: الخلافة ونشأة الأحزاب السياسية ٨٤-٨٦، رفيق العظم: أشهر مشاهير الإسلام في الحروب والسياسة ٢٦

(٢) بل إن أحدهم وصف رواية البخاري بالاضطراب والتكك، وأنها تناقض نفسها، ويدلل على ذلك بأن بها حديثاً عن ميراث فاطمة يختلط بأمر البيعة لأبي بكر، بل يزعم أنها موضوعة، وأن "واضعها من الشيعة الغلاة" (د. عبد الحميد بخيت: عسر الخلفاء الراشدين ص ٥١)، وواضح ألا تناقض في الرواية بين الحديث عن ميراث فاطمة وبيعة زوجها علي أبي بكر الذي روى حديث: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث"، أما القول بتسليم رواية الشيعة إلى صحيح البخاري فهو قول خطير لا دليل عليه..

من النساء؛ فهي سيدة نساء المؤمنين، وهي بضعة من أبيها ﷺ^(١)، وبخاصة أنها مرضت واشتد مرضها في أعقاب ذلك، حتى لحقت بالرفيق الأعلى، وقد أبى الخليفة إعطاءها ما طلبت بسبب ما سمعه من رسول الله ﷺ: "لا نورث؛ ما تركنا صدقة"^(٢)، فغضبت فاطمة، "وأما سبب غضبها مع احتجاج أبي بكر بالحديث المذكور فلاعتقادها تأويل الحديث على خلاف ما تمسك به أبو بكر، وكأنها اعتقدت تخصيص العموم في قوله "لا نورث"؛ ورأت أن منافع ما خلفه من أرض أو عقار لا يمتنع أن تورث عنه، وتمسك أبو بكر بالعموم، واختلفا في أمر محتمل للتأويل"^(٣)، وهجرته فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت^(٤)، وقد روى البيهقي من طريق الشعبي أن أبا بكر عاها وهي مريضة؛ فسألها علي: هذا

(١) حديث: "فاطمة بضعة مني.." (رواه البخاري: الصحيح كتاب المناقب: باب مناقب فاطمة، ورواه مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام، وفيه أيضًا حديث: "أما ترضي أن تكوني سيدة نساء المؤمنين").

(٢) وهذا ما تمسك به من قال إن سهم النبي ﷺ يصرفه الخليفة بعده لمن كان النبي ﷺ يصرفه له، وما بقي منه يصرف في المصالح العامة، وعند الشافعي: يصرف في المصالح العامة، وهو لا ينافي الذي قبله، وفي وجهه: هو للإمام، وقال مالك والثوري: يجتهد فيه الإمام، وقال أحمد: يصرف في الخيل والسلاح، وقال ابن جرير: يرد إلى الأربعة المصارف الأخرى التي نصت عليها الآية (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...) وقال أبو حنيفة: يرد مع سهم ذوي القربى إلى الثلاثة المصارف الأخرى (راجع: ابن حجر: السابق ٢٣١/٦)

(٣) السابق ٢٣٠/٦

(٤) قال بعض العلماء في تفسير ذلك الهجر وهل هو من المنهي عنه في الحديث: "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث.." : "هجرته فلم تكلمه في أمر ذلك المال، وقال بعضهم: بل إن لفظ الحديث في بعض رواياته: "غضبت" تدل على أنها امتنعت عن الكلام جملة، وهذا صريح الهجر، وأما ما رواه أحمد وأبو داود من أنها قالت لأبي بكر: فأنت وما سمعته. أي من رسول الله ﷺ. فلا يعارض ما في الصحيح من صريح الهجران، وقال بعض الأئمة: إنما كان هجرها انقباضًا عن لقائه والاجتماع به، وليس ذلك من الهجران المحرم، لأن شرطه أن يلتقيا فيعرض هذا وهذا، وكان فاطمة لما خرجت غضبي من عند أبي بكر تمادت في الاشتغال بحزنها ثم بمرضها" (السابق ٢٢٩/٦-٢٣٠)

أبو بكر يستأذن عليك، فقالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم، فأذنت له، فدخل عليها؛ فترضّأها حتى رضيت^(١).. وهذا أمر ترجحه روايات أخرى تذكر أن فاطمة لما حضرتها الوفاة سألت أسماء بنت عميس زوج أبي بكر أن تغسلها مع زوجها عليّ - رضي الله عنه - وأن أبا بكر قدم إلى بيتها بعد علمه بموتها، وزعم بعضهم أنه صلى عليها^(٢)، وهذا لا يتعارض بالضرورة مع رواية البخاري التي تنص عن أن عليًا لم يؤذن بوفاتها أبا بكر؛ وأنه دفنها ليلاً؛ وأنه صلى عليها؛ إذ ربما علم أبو بكر بوفاتها من غيره - ومثل ذلك الأمر لا يخفى - فبادر إلى الذهاب إلى بيت زوجها^(٣)، وشارك في الصلاة عليها^(٤)، أما دفنها ليلاً فلم يكن رغبة من علي في الاستتار بذلك عن الخليفة، وإنما كان بوصية من فاطمة رضي الله عنها زيادة في تسترها عن أعين الناس^(٥)..

٦- أما ما رواه اليعقوبي من أن اسم عليّ طرح في اجتماع السقيفة، وأن الأنصار والمهاجرين كانوا لا يشكون في عليّ، فمجرد ادعاء، والسؤال الذي يفرض نفسه: لماذا لم يبايعوه إذن دون انتظار حضوره؟ ولماذا لم يتلبثوا حتى يأتيهم الرجل الذي لا يشكون فيه؟ ولماذا يتنازلون عن قناعتهم بهذه السهولة لصالح أبي بكر؟؟

(١) البيهقي: السنن الكبرى ٣٠١/٦، ابن سعد: السابق ٣٠/٨-٣١، وقال ابن حجر: "فإن ثبت حديث الشعبي أزال الإشكال، وأخلق بالأمر أن يكون كذلك؛ لما عُلم من وفور عقلها ودينها" (السابق ٢٣٠/٦)

(٢) راجع ابن سعد: السابق ٣٢/٨-٣٣، الطبري: السابق ٢٤٠/٣، ابن الأثير: أسد الغابة ٢٢٩/٦، وانظر فيه ترجمة أسماء بنت عميس (١٤/٦)، وقد ولدت لأبي بكر ابنه محمد، ثم مات عنها، فتزوجها علي بن أبي طالب

(٣) راجع ابن حجر: السابق ٥٥٩/٧

(٤) يرى الشافعية أن زوج المرأة هو الأولى بالصلاة عليها، بينما يرى جمهور الفقهاء أن الخليفة أو السلطان هو الأولى بذلك، (راجع عبد الرحمن الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ٤٦٤/١-٤٦٥).

(٥) ابن الأثير: أسد الغابة ٢٢٩/٦، ابن حجر: السابق ٥٦٥/٧

٧- وكذلك الزعم بمحاولة رشوة العباس حتى يوافقهم؛ بأن يجعلوا له نصيباً في الأمر؛ فإنه يثير التساؤل عن ذلك النصيب، وكيف يكون؟ ولماذا لم يتمسك به بنو العباس بعد ذلك في صراعهم ضد الأمويين، بدعوى أن الراشدين الأوائل كانوا يرون لهم نصيباً؟ إنها محض ادعاءات بغير دليل، وروايات لم يذكر صاحبها لها سنداً لننظر فيه.

٨- أما روايات امتناع أبي سفيان عن البيعة وتحريضه علياً على طلب الخلافة لنفسه فهي روايات مظلمة الإسناد تروى عن بعض كبار الكذابين من الشيعة أو الموالين بني العباس من خصوم بني أمية الذين حرصوا على تشويه صورة عميد البيت الأموي لخصومه سياسية أو مذهبية كهشام بن محمد الكلبى.. وقد كان أبو سفيان بمكة منذ أسلم شأن مسلمة الفتح؛ ولا يُعلم أنه أتى المدينة في هذه الأثناء^(١)؛ وقد يكون الرجل امتنع عن بيعة أبي بكر مثل نفر من الصحابة - ويلاحظ أنه لم يُطلب آنذاك من أحد المكين البيعة الخاصة، ولم يكونوا ضمن أهل الحل والعقد، الذين مثلهم كبار الصحابة من السابقين إلى الإسلام - ولكنه كان أحزم من يجهر بخلافه على ذلك النحو الصاخب في هذا الوقت العصيب؛ وقد رأى جمهور الصحابة بايعوا الصديق منذ اليوم الأول لخلافته..

أما الزعم برشوة أبي بكر له بتولية ولده ليضمن بيعته فهو زعم قبيح، ولا ندري أية ولاية تولها ولده؟ لئن كانوا يقصدون تولية ولده يزيد إمارة أحد الجيوش المتوجهة لفتح الشام فإن ذلك لم يحدث إلا بعد القضاء على حركة الردة واستتباب الأوضاع في جزيرة العرب سنة ١٣هـ^(٢)، ولا يظن تأخر بيعة

(١) راجع قصة الدار التي بناها أبو سفيان بمكة فتجاوز في بنائها، فتصدى له عمر بن الخطاب في خلافته (ابن الجوزي: سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ١٢٨)

(٢) الطبري: السابق ٣/٣٨٧

أحد المكيين طوال هذه المدة، أما الزعم الذي تردده بعض كتابات الشيعة المعاصرين بأنه بايع بعدما ولى ولده يزيد إمارة دمشق^(١) فهو أشد ضللاً من القول الأول، لأن ذلك الفتح لم يكن إلا بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه وتولية عمر^(٢)..

٩- أما الأمر المهم هنا فهو التفريق بين الامتناع عن البيعة والاعتراض عليها، وهي تفرقة لم يتنبه إليها كثير من الباحثين في هذا الموضوع، فالامتناع يشبه في زماننا هذا الامتناع عن التصويت عند اختيار شخص ما لمسئولية؛ دون الخروج على طاعته إن اختاره الآخرون، أما المعارضة فهي زيادة عن حد الامتناع بإظهار السخط وعدم الرضا، ويصحبها غالباً تقديم بديل آخر لذلك المرشح للمسئولية، وتلك هي المعارضة السلمية، وهي أدنى كثيراً من المعارضة المسلحة التي تنتهج القوة وسيلة للتعبير عن نفسها، وتخرج على شخص الحاكم، أو تحتج على منهجه في الحكم بالسلاح، ولم يفعل سعد بن عباداً شيئاً من ذلك، وقد وصف بشير بن سعد موقفه من الامتناع عن البيعة في حوار مع أبي بكر كما مر بنا فقال: "إنه ليس بضاركم، إنما هو رجل وحده ما ترك"، ولم يفعل علي رضي الله عنه ومن معه شيئاً من ذلك أيضاً، بل اكتفى بالامتناع عن بيعة الصديق، وقد كان - كما تدل كثير من الروايات يحمل قدرًا كبيرًا من الاحترام والإكبار لأبي بكر رضي الله عنه.. وقد انتبه بعض كبار فقهاءنا إلى ذلك قديماً؛ وذكروا أنه "يكفي في بيعة الإمام أن تقع من أهل الحل والعقد، ولا يجب الاستيعاب، ولا يلزم كل أحد أن يحضر عنده، ويضع يده في يده، بل يكفي التزام طاعته، والانقياد له، بأن لا يخالفه ولا يشق العصا عليه، وهذا كان حال عليّ، لم يقع منه إلا

(١) د. أسعد القاسم: أزمة الخلافة والإمامة ٢٠٢-٢٠٣

(٢) كان فتح دمشق أواخر سنة ١٣هـ أو في سنة ١٤هـ (الطبري: السابق ٤٣٤/٣-٤٣٥)

التأخر في الحضور عند أبي بكر^(١)، ولا يجب أن يكون تأخره دلالة على فقد الرضا، بل كان راضياً ببيعته، من حيث كان بنفذ الأمور قلاً ينكر^(٢).. وعلى ذلك يمكن أن نحمل رواية سيف بن عمر من أنه لم يخالف أحد على بيعة أبي بكر، إلا من ارتد أو من قد كاد يرتد^(٣)..

١٠- وربما كان اعتياد بعض كتابنا في العالم الإسلامي مناهج اختيار الحكام الذين يتسلطون على شعوبهم بالقهر، زاعمين إجماع الناس عليهم، وأنه لم يخالف عليهم أحد - إلا من لا يكاد يُذكر لقلته - وراء مسارعتهم إلى نفي امتناع أحد عن بيعة أبي بكر، ظناً منهم أن الخلاف السياسي تهمة ينبغي نفيها عن هؤلاء السادة الأعلام، وتزويهم عنها، أو أنه حط من مكانة أبي بكر الصديق الذي يستوجب الإجماع المطلق عليه، مع أن الإجماع على بشر مستحيل، بل إن الناس لم يجتمعوا على الإيمان بالله تعالى، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ولم يجتمعوا على رسول الله ﷺ فكانوا معه بين مصدق وجاحد..

هذا الاعتقاد كاد يجعلنا نشوّه روعة هذه الصفحة الوضيئة في تاريخنا الإسلامي، وتلك الممارسة الشورية الجليلة التي اتسعت لتنظم طرق اختيار الخليفة بغير سابقة دستورية أو عملية، وتفسح السبيل لامتناع من شاءوا عن البيعة، دون قهرهم، أو تزيف إرادتهم.. وتعد دليلاً على الرقي السياسي للأمة وقيادتها السياسية التي يتسع صدرها وفهمها الديني لتقبل المعارضة السياسية، وتؤمن بمشروعيتها^(٤).

(١) ابن حجر: السابق ٥٦٥/٧

(٢) القاضي عبد الجبار: المغني ج ٢ ق ١ ص ٢٨٣

(٣) الطبري: السابق ٢٠٧/٣

(٤) كما حدث في المشورة التي سبقت خروج المسلمين للقاء عدوهم يوم أحد، ومعارضة عمر وغيره لصلح الحديبية، فضلاً عما حدث زمن أبي بكر من معارضة عمر حرب المرتدين من مانعي الزكاة أول أمرها،

١١- إن رواية البخاري المسهبة لتشعرنا بمدى الوعي السياسي الناضج عند الصحابة في ذلك العصر الفريد، فقد عذر الناس علياً في فترة مرض فاطمة، فلما توفيت واستمر على عدم الحضور عند الخليفة قصّر الناس في نظرتهم له، لإرادة دخوله فيما دخلوا فيه، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها في الحديث: "وكان الناس إلى علي قريباً حين راجع الأمر بالمعروف" .. "وكانهم كانوا يعذرونه في التخلف عن البيعة في مدة حياة فاطمة، لشغله بها، وتمريضها، وتسليتها عما هي فيه من الحزن على أبيها ﷺ، لأنها لما غضبت من رد أبي بكر عليها فيما سألته من الميراث رأى علي أن يوافقها في الانقطاع عنه"^(١).

١٢- وأخيراً نقول: إن اختيار أبي بكر للخلافة جاء إعلاءً للقيم الإسلامية، وللسلطة المركزية، والدولة الموحدة، على حساب قيم القبيلة ونزعتها الاستقلالية.. ولعلنا نذكر هنا كيف كانت حوارات المهاجرين والأنصار حول أحقيتهم في الخلافة تركز على بيان أسبقية كل منهم في العطاء والفضل.. وقد كان ذلك أمراً مبهرًا للعرب الذين تأخر إسلامهم، فلم يتمثلوا تمامًا قيم الإسلام وعبقريته في البناء والتكوين، لقد قال أبو قحافة - والد الصديق - لما علم باستخلاف ولده: "أرضيت بذلك بنو عبد شمس وبنو المغيرة"؟ قالوا: نعم، قال: "فإنه لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع الله"^(٢).. أما قبائل العرب المنتشرة خارج المثلث الحضري مكة والمدينة والطائف فكان ردهم مريراً ساخرًا، وكان سلوكهم عنيفًا صاخبًا، وتمثل هذا وذاك في حروب الردة

والمعارضة الشديدة التي لقيها عثمان في خلافته ثم تحولت إلى ثورة مسلحة غير مقبولة (راجع لمزيد من التفاصيل: د. نيفين عبد الخالق، المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي).

^(١) ابن حجر: السابق ٥٥٩/٧

^(٢) ابن سعد: السابق ٧٨/٣، ابن الأثير: أسد الغابة ٢٢٧/٣

التي واجهها أبو بكر والمسلمون بكل صرامة وحزم؛ كما تحكي كتب التاريخ..

خامساً: منهج أبي بكر في الحكم والإدارة:

بويح أبو بكر البيعة العامة من جموع المسلمين بالمدينة في اليوم التالي لبيعة السقيفة ووفاة الرسول ﷺ، ثم صعد المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: " أما بعد أيها الناس؛ فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أردّ إليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله فيكم؛ فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم " (١) ..

ونادى مناديه في اليوم التالي: لئنم بعث أسامة . وكان رسول الله ﷺ قد جهزه لغزو القبائل العربية المتاخمة للروم . ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى معسكره بالجرف، ثم قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: " يا أيها الناس؛ إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمتم فتابعوني، وإن زغت فقوموني، وإن رسول الله ﷺ قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة؛ ضربة سوط فما دونها، ألا وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني؛ لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم، وأنتم تغدون وتروحون في أجل قد غُيب عنكم علمه، فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا في

^١ ابن هشام: السيرة النبوية ٢٣٢/٤، الطبري: السابق ٢١٠/٣، السيوطي: السابق ٨٢، ابن الأثير: الكامل ١٩٤-١٩٥ / ٢

مَهْل آجالكم آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال ، فإن قومًا نسوا آجالهم وجعلوا أعمالهم لغيرهم ، فإياكم أن تكونوا أمثالهم ، الجِد الجِد ... فإن وراءكم طالبًا حثيثًا أجلًا مرهٌ سريع ، احذروا الموت ، واعتبروا بالآباء والأبناء والأخوات ، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات " .. وخطب أبو بكر خطبًا أخرى في ذات السياق تحمل معاني الترهيب من الموت ولقاء الآخرة (١) ..

لقد قرر أبو بكر في هذه الخطب الملامح العامة لمنهجه في الحكم؛ وهو

منهج الإسلام كما طبقه الخليفة الأول؛ ويرتكز على المبادئ التالية:

١- مبدأ المساواة بين المسلمين؛ حكامًا ومحكومين، فالحاكم لا يفضل رعيته بأفضلية خاصة، ولا يمتاز بمزية دونهم، ولذا قال الصديق: " إني وليت عليكم ولست بخيركم "، وقال: " إنما أنا مثلكم .."

٢- إن مهمة الحاكم تتجه قبل كل شيء إلى اتباع أحكام الإسلام؛ طاعةً لله ورسوله، وأن طاعة المسلمين له رهن بذلك الاتباع، وذلك هو شرط التعاقد بين الطرفين، كما في قوله: " إنما أنا متبع ولست بمبتدع "، وفي قوله: " أطيعوني ما أطعت الله ورسوله؛ فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .."

٣- إن الحاكم قد يصيب وقد يخطئ، وهذا يستلزم إقامة الشورى، وإنه لا عصمة له، بخلاف رسول الله ﷺ، فقد قال أبو بكر: " إن الله اصطفى محمدًا على العالمين؛ وعصمه من الآفات " ومن هنا تأتي أهمية فرض الرقابة الكاملة من الأمة عليه، وهذه الرقابة فريضة دينية تنظمها أحكام الإسلام، ولذا فقد قال أبو بكر: " فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني "، وكرر ذلك في خطبته التالية؛ فقال: " فإن استقمتم فتابعوني، وإن زغت فقوموني .."

٤- إن للدولة الإسلامية أسسها الأخلاقية التي تعبر عن هويتها الخاصة، وقد ألمح أبو بكر إلى ذلك بقوله: " الصدق أمانة، والكذب خيانة "، وأن الأمة يجب

^١ راجع الطبري: السابق ٢٢٣/٣-٢٢٥

أن تدافع عن بنائها الداخلي . وهو بناء أخلاقي . من خلال شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذا فقد قال: " ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمَّهم الله بالبلاء " ..

٥- والأساس الأخلاقي للأمة والتحاكم إلى منهج الإسلام يقتضي تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة الكاملة بين أفرادها ، على ذلك فإن الخليفة الأول قد تعهد بأن ينحاز إلى جانب الضعفاء حتى ينتصر لهم ، وألا يدعم نهبة للتظالم والاستغلال ، فقال : " .. والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرد إليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله" ..

٦- إن الدولة الإسلامية دولة عقيدة تدافع عن نفسها من خلال شريعة الجهاد، وأنها إن غفلت عن هذه الفريضة عرضت نفسها لسطوة أعدائها، وأصبحت فريسة للتآكل الداخلي، والتصارع بين أبنائها لتفريغ القوى المختزنة في أوصال الأمة الشابة.. وقد عبر الصديق عن ذلك بقوله: " لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل " ..

وسوف نرصد في الصفحات التالية تطبيقاته العملية لذلك المنهج، وكيف اجتهد في تنفيذها على نحو دقيق.. ونحن نستصحب في ذلك حقيقة أن خلافة أبي بكر لم تطل أكثر من سنتين ونحو ثلاثة أشهر^(١)، وأنها شغلت كلها بقمع المرتدين وبدء الفتوحات في العراق والشام، وحرب فارس والروم، وأنها أول تجربة للمسلمين في الحكم والإدارة في دولة مركزية واحدة؛ وليس بينهم رسول الله ﷺ، بوعيه الثاقب، يسدده الوحي، وتلحظه السماء..

^١ ابن الأثير: أسد الغابة ٢٢٩/٣

١-الاتباع لا الابتداع:

أ) موقفه مع فاطمة رضي الله عنها:

وكان أول ما واجه أبا بكر أن جاءته فاطمة تطلب منه ميراثها من أبيها ﷺ؛ فكانت إجابته لها كما مر بنا قريباً، وكان أبو بكر في ذلك متسقاً مع منهجه الذي ارتضاه لنفسه في الحكم أنه " متبع وليس بمبتدع "، وهو ما سوف يبدو لنا جلياً في قضية إنفاذ بعث أسامة ﷺ..

ب) إنفاذ بعث أسامة:

كان رسول الله ﷺ قبيل وفاته قد جهز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام؛ وأمره أن يوطئ خيله تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس ثم باغتهم وفاة رسول الله ﷺ^(١)، وارتدت العرب؛ " إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة، ونجم النفاق، واشربأت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ، وقتلهم وكثرة عدوهم، فقال له الناس: إن هؤلاء . يعنون جيش أسامة . جل المسلمين، والعرب . على ما ترى . قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين فقال أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة؛ كما أمر به رسول الله؛ ولو لم يبق في القرى غيري أنفذته"^(٢)، فلما خرج الجيش إلى معسكره بالجرف وتكامل عددهم أرسل أسامة عمر بن الخطاب ﷺ . وكان معه جندياً في جيشه . إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس ؛ وقال أسامة: "إن معي وجوه الناس وجلتهم، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ وحرمة رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون، وقال من مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب: " إن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ، ألا فامض فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يولي أمرنا أقدم سنأ

^١ ابن هشام: السيرة النبوية ٤/٢١٦

^(٢) الطبري: السابق ٣/٢٢٥، ابن الأثير: الكامل ٢/١٩٩

من أسامة"، فخرج عمر بأمر أسامة إلى أبي بكر فأخبره بما قال أسامة، فقال: " لو خطفتني الكلاب والذئاب لأنفذته كما أمر به رسول الله ﷺ، ولا أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته"، فقال عمر: فإن الأنصار يطلبون رجلاً أقدم سنًا من أسامة، فوثب أبو بكر. وكان جالسًا. وأخذ بلحية عمر، وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أعزله؟ ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم، وشيعهم وهو ماش وأسامه راكب؛ فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله ﷺ لتركبن أو لأنزلن، فقال: والله لا نزلت ولا أركب، وما عليّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله؟ فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له، وسبعمائة سيئة تمحى عنه، فلما أراد أن يرجع قال لأسامة: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل، فأذن له، ثم وصاهم الخليفة فقال: "لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلّوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله.. وأوصى أسامة أن يفعل ما أمر به رسول الله ﷺ، فسار أسامة، فأوقع بقبائل من قضاة التي ارتدت، وغنم وعاد، وكانت غيبته أربعين. أو سبعين. يوماً، وكان إنفاذ بعث أسامة أعظم الأمور نفعاً للمسلمين، فإن العرب قالوا: لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه ..(١)

(ج) جمع القرآن:

(١) الطبري: السابق ٢٢٦/٣-٢٢٧، ابن الأثير: السابق ١٩٩/٢-٢٠٠

فقد المسلمون كثيرًا من قراء القرآن في فتال خالد بن الوليد مسيلمة الكذاب في موقعة اليمامة، فأقبل عمر بن الخطاب على أبي بكر فقال له: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بالناس، وإني لأحشى أن يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن (١)؟ فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعه، وإني لأرى أن يُجمع القرآن، فقال أبو بكر: كيف أفعال شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجع فيه حتى شرح الله لذلك صدره، فرأى مثل رأيه، فقال أبو بكر لزيد بن ثابت: إنك شاب عاقل ولا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، قال زيد: لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن، فسألهما: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجع حتى شرح الله صدري لما شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع (٢) والأكتاف والعُسب (٣) وصدور الرجال... فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها (٤)، فمنه نسخ الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه نسخ المصحف التي وزعت على الأمصار.. فكانت بداية هذا العمل العظيم الذي به حفظ الله كتابه على يد أبي بكر رغم عظيم تحرجه في بداية الأمر من أن يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ، اتباعاً لمنهجه الأصيل "إنما أنا متبع ولست بمبتدع"، وفهماً لحقيقة الاتباع وأنها لا تعني إلغاء الاجتهاد فيما لا نص فيه، وفيما تقتضيه المصالح المتجددة للأمة..

د) محاربة المرتدين:

(١) يعني الحروب والمواقع..

(٢) الرقاع: قطع من جلد كانت تستعمل في الكتابة.

(٣) العسب: جريد النخل.

(٤) راجع البخاري: الصحيح كتاب تفسير القرآن، كتاب الأحكام، كتاب فضائل القرآن، البيهقي: السنن

الكبرى ٤٠/٢، الترمذي: السنن ٢٨٣/٥، أبو يعلى: المسند ٦٦/١

وسوف نفرّد لتلك الحروب حديثاً مسهباً إذ شغلت نحو نصف خلافة الصديق، ولكننا نشير هنا إلى صلابة موقف أبي بكر، وإصراره على حرب المرتدين من مانعي الزكاة، في الوقت الذي كان معظم الصحابة يرون الصبر عليهم، والتراخي عنهم، والانشغال بحرب المتتبئين أولاً، وكان أبو بكر في ذلك واضح الحجة في أنه لا يقبل انتقاصاً لما كان عليه الإسلام في حياة النبي ﷺ، فقد جاءه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم، فإنهم بمنزلة الوحش، فقال أبو بكر: رجوت نصرك وجئتني بخذلانك، جباراً في الجاهلية خوّاراً في الإسلام، بماذا عسيت أن أتألفهم؟ بشعر مفتعل؟ أو بسحر مفتري؟ هيهات هيهات، مضى النبي ﷺ، وانقطع الوحي، والله لأجاهدنيهم ما استمسك السيف في يدي، وإن منعوني عقلاً، قال عمر: فوجدته في ذلك أمضى مني وأحزم^(١)..

٢- لا مزايًا للحاكم:

لما استخلف أبو بكر أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبتة أثواب يتجر بها، فلقية عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فقالا: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ فقال: السوق، قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ قالا له: انطلق حتى نفرض لك شيئاً، فانطلق معهما، ففرضوا له كل يوم شطر شاة؛ وماكسوه في الرأس والبطن^(٢)؟ وروي أن أبا بكر لما تولى الخلافة قال أصحاب رسول الله ﷺ: افرضوا لخليفة رسول الله ما يغنيه، قالوا: نعم؛ برّدها إذا أخلقهما^(٣) ووضعهما وأخذ مثلهما، وظهره^(٤) إذا سافر، ونفقته على أهله كما

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٨٦

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧٨/٣، ومعنى: ماكسوه: شاكسوه يريدون انتقاصهما منه (ابن منظور:

لسان العرب ٢٢٠/٦-٢٢١)

(٣) أخلق الثوب: أبلاه..

(٤) يعني ما يركبه من دابة..

كان ينفق قبل أن يستخلف، قال أبو بكر: رضيت^(١).. وتلك روايات مرسلة^(٢)، وأصح منها ما ذكره ابن سعد عن الزهري عن عروة عن عائشة أن أباها لما ولي الخلافة قال: قد علم قومي أن حرفتي لم تكن لتعجز عن مؤونة أهلي؛ وقد شُغلت بأمر المسلمين؛ وسأحترف للمسلمين في مالهم، وسيأكل آل أبي بكر في هذا المال^(٣)..

وهكذا ترى بعض الروايات أن أبا بكر ﷺ ينوي مواصلة اكتساب رزقه بعدما أصبح خليفة كما كان يكتسبه من قبل، فرأى أصحابه أن ذلك لا يستقيم، فلا يصح أن ينشغل بعمله عن مصالح رعيته، ولا يجوز أن يتجر الخليفة في الأسواق فيتخرج منه الناس، في حين تلمح الرواية الأخرى إلى أن أبا بكر أدرك انشغاله بأمر المسلمين عن اكتساب الرزق؛ فرضي أن يكون أجيراً للمسلمين في أموالهم ومصالحهم التي باتت في رقبته، ولا تعارض بين الأمرين؛ إذ لا يُتصور أن الخليفة كان غافلاً عن مقتضى مسؤولياته الجديدة، ولكنه ربما لم يرد أن يبادر فيطلب لنفسه شيئاً . وهو الذي أنفق ماله كله في سبيل الله . حتى بادره أصحابه بذلك، وهو تقليد جديد على أية حال تواجهه الحكومة الإسلامية، وقد فرضوا له ما يقوم بحاجته وهو ذو عيال، وظل ذلك متسقاً مع منهجه في إثثار الزهد والورع..

ولما حضرت أبا بكر الوفاة رد جميع ما أخذه من أجر مدة خلافته، فقال لابنته عائشة رضي الله عنها: أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا

(١) السابق والصفحة.

(٢) بعضها يروى عن عطاء بن السائب، وهو ثقة اختلط في أخريات حياته (ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ٣٣٣/٦) وبعضها يروى عن حميد بن هلال وهو تابعي بصري زاهد، توفي في إمارة خالد القسري على العراق، والأغلب أنه ثقة (أبو حاتم: الثقات ١٤٧/٤، ابن حجر: لسان الميزان ٤٨٦/٧، والعقيلي: الضعفاء ٢٦٦/١)

(٣) السابق ٧٩/٣

درهماً، ولكننا قد أكلنا من جريش طعامهم (١) في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وليس عندي من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح (٢)، وجرد هذه القطيفة (٣)، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر، وابرئي منهن، ففعلت، فلما جاء الرسول عمر بكى؛ وقال: رحم الله أبا بكر؛ لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر؛ لقد أتعب من بعده، يا غلام ارفعهن، فقال عبد الرحمن بن عوف: سبحان الله، تسلب عيال أبي بكر عبدًا حبشيًا وبعيرًا ناضحًا وجرد قطيفة ثمن خمسة الدراهم؟ قال: فما تأمر؟ قال: تردهن على عياله، فقال: لا والذي بعث محمدًا بالحق، لا يكون هذا في ولايتي أبدًا، ولا خرج أبو بكر منهن عند الموت وأردهن أنا على عياله، الموت أقرب من ذلك (٤).. وهذا الخبر وذلك الجواب أقرب ما يكونان إلى طباع هؤلاء الرجال رضوان الله تعالى عليهم..

وروى ابن الأثير أن عمر رضي الله عنه كان يتعاهد امرأة عجوزًا كبيرة عمياء؛ في بعض حواشي المدينة من الليل، فيستقي لها ويقوم بأمرها، فكان إذا جاء وجد غيره قد سبقه إليها، فرصده عمر فإذا هو أبو بكر؛ فقال: أنت هو لعُمري! (٥)..

وروت امرأة من أهل المدينة أن أبا بكر كان يحلب غنم جوارى حيّهم ثلاث سنوات قبل خلافته وستين بعدها (٦).. وهذه الرواية تتفق مع أخرى تقول إنه ظل بمنزله بالسُّنح. في عوالي المدينة. بعد استخلافه سبعة أشهر، يوافي المدينة فكان يحلب للحي أغنامهم؛ فلما استُخلف قالت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا

(١) أي خشنه..

(٢) الذي يسقي عليه..

(٣) جرد القطيفة: ما تساقط خملها، وخلقت من كثرة الاستعمال (راجع: ابن منظور: لسان العرب

١١٥/٣)

(٤) ابن سعد: السابق ٩٣/٣، وانظر روايات مشابهة ٨٧/٣-٨٨

(٥) ابن الأثير: أسد الغابة ٢٢٢/٣

(٦) السابق والصفحة.

منأئحنا^(١) ؟ فسمعها أبو بكر فقال: بلى؛ لعمرى لأحلبنها لكم، وإنى لأرجو ألا
يغيّرني ما دخلت فيه عن خُلُق كنت عليه، فكان يحلب لهم؛ فربما قال للجارية:
أتحبين أن أرغي لك أو أن أصرّح^(٢)؟ فأى ذلك قالت فعل^(٣).

٣- تحقيق العدالة والمساواة بين الرعية:

كان أبو بكر يسوّي بين المسلمين في العطاء من بيت المال، لا يفرق بين
حر وعبد ولا بين رجل وامرأة ولا بين سابق إلى الإسلام ومتأخر، قالت عائشة
رضي الله عنها: قسم أبي أول عام الفية؛ فأعطى الحر عشرة، وأعطى المملوك
عشرة، والمرأة عشرة، وأمتها عشرة، ثم قسم في العام الثاني فأعطاهم عشرين
عشرين^(٤).. وقال له عمر: تسوّي بين أصحاب بدر وسواهم من الناس؟ قال: إنما
الدنيا بلاغ، وخير البلاغ أوسعها، وإنما فضلهم في أجورهم^(٥).

ولم يجعل على بيت ماله حرسًا؛ إذ لم يكن يُبقي فيه ما يخاف عليه، فكان
يقسم منه، ويشترى الإبل والخيل والسلاح فيجعله في سبيل الله، واشترى عامًا أثوابًا
من البادية ففرقها في أرامل أهل المدينة في الشتاء، فلما توفي أبو بكر دعا عمر
الأمناء، ودخلوا بيت المال فلم يجدوا فيه دينارًا ولا درهمًا، ووجدوا خيشة للمال
فنفقت، فوجدوا فيها درهمًا؛ فرحموا أبا بكر، وسئل الرجل الموكل بوزن ما يرد
إلى بيت المال: كم بلغ المال الذي ورد على أبي بكر؟ قال: مائتي ألف^(٦)..

(١) منائح: جمع منيحة، القطعة من الغنم أو الإبل تُمنح للغير؛ ينتفع بلبنها أو صوفها ووبرها زمانًا ثم ترد
إلى أصحابها..

(٢) أرغي: أي أحلب لبنًا تملوه الرغوة، وأصرّح: أحلبه صريحًا لا رغوة فيه (راجع: ابن منظور: لسان
العرب ٥١٠/٢، ٣٨٥/٣)

(٣) ابن سعد: السابق ٨٠/٣-٨١، ابن الأثير: السابق ٢٢٣/٣

(٤) ابن سعد: السابق ٨٩/٣

(٥) أحمد بن حنبل: الزهد ١٣٧، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٢٢

(٦) الطبري: السابق ١١٣/٣-١١٤

واعتمر أبو بكر وهو خليفة سنة ١٢هـ فزار أباه والتزمه، وقبل بين عينيه، وجاء إليه عتاب بن أسيد أمير مكة ومعه جمع من زعمائها فسلموا عليه وهم يقولون: سلام عليكم يا خليفة رسول الله ﷺ؟ فجعل أبو بكر يبكي حين يذكرون رسول الله ﷺ؟ وأوصاه بهم أبوه فقال: يا عتيق؛ هؤلاء الملاء فأحسن صحبتهم، فقال أبو بكر: يا أبت لا حول ولا قوة إلا بالله، طوّقت عظيمًا من الأمر، لا قوة لي به ولا يدان إلا بالله، فلما خرج تبعه أصحابه؛ فنحّاهم؛ ثم قال: امشوا على رِسلكم.. فلما بلغ قريبًا من دار الندوة جلس؛ فقال: هل من أحد يشتكي من ظلامته أو يطلب حقًا؟ فما أتاه أحد، وأثنى الناس على واليهم خيرًا^(١).

٤- الشورى:

كان أبو بكر يجلُّ أصحابه؛ وبخاصة السابقين منهم؛ ورغم ذلك لم يفضلهم على من سواهم في العطاء، ولم يكن يستعمل كبارهم في الولاية عادة، فلما سُئل عن ذلك قال: إني أرى مكانهم؛ ولكنني أكره أن أَدنسهم بالدنيا^(٢).. واستأثر بهم أبو بكر في جواره، فكانوا مجلس شوره ورأيه، واعتمد على بعضهم في بعض الأعمال المهمة بالمدينة فاستعمل عمر . وزيره الأول . على القضاء، واستعمل أبا عبيدة بن الجراح على توزيع الفيء، فكان عمر يأتي عليه الشهر لا يختصم إليه اثنان^(٣).. ثم جعل أبا عبيدة أميرًا على جيشه الذي وجهه لفتح دمشق كما سنرى..

وكان أبو بكر دائم المشاورة لأصحابه والاستماع إليهم، جادله عمر في حرب مانعي الزكاة وفي إنفاذ بعث أسامة، ثم عاد عمر إلى مثل رأي الخليفة الذي كان يصدر في رأيه عن حزم بصير ويقين لا تزعره النوائب؛ ورفض أبو بكر

(١) ابن سعد: السابق ٨١/٣-٨٢

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٢٢

(٣) ابن سعد: السابق ٧٨/٣

مشورة عمر بعزل خالد بن الوليد، وأبى أن يغمد سيفاً سلّه الله على المشركين، وعذر خالدًا في بعض أعماله؛ وعنّفه في بعضها كما سيأتي بيانه. وأشار إليه عمر بجمع القرآن فتخرج أن يفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ، فلما رأى المصلحة في ذلك العمل نهض إليه حتى أتمه على خير الوجوه ..

هـ- الجهاد والحزم:

أعلن أبو بكر منذ بداية خلافته الجهاد، إذ وافقت بدايتها ردة العرب، وكان في إصراره على حربهم حازمًا غاية الحزم، وكان يرسم لقادته خطط السير والقتال على نحو دقيق^(١) ويوصيهم بالصرامة في حروبهم ضد المرتدين بعدما ارتكبوهم من جرائم وقتل ضد من ثبت على إسلامه من قبائلهم، فلما بلغه ما فعل المرتدون حلف: "ليقتلن في المشركين كل قتلة، وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة"^(٢)، فكان مما أوصاهم به: إذا نزلتم منزلًا فأذّنوا (للصلاة) وأقيموا، فإن أذّن القوم وأقاموا فكفوا عنهم، وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة، ثم اقتلوهم كل قتلة؛ الحرق فما سواه.. " (٣) ..

(١) راجع: الطبري: السابق ٣ / ٢٥١-٢٥٢

(٢) السابق ٣ / ٢٤٦

(٣) السابق ٣ / ٢٧٧

المبحث الثاني

حركات الردة: عرض تاريخي

حروب الردة:

استخدم المؤرخون لفظ حروب الردة لتتطبق على عدة حركات تأبى الالتزام بالإسلام نفسه كدين بادعاء النبوة واتباع المتنبئين؛ أو إنكار بعض أركان الإسلام وبخاصة الزكاة؛ والتمرد على سلطان المدينة المنورة؛ أو السلطة المركزية للدولة الإسلامية^(١)..

فقابلها أبو بكر بحزم حديد، حتى قال ابن مسعود: " لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله منّ علينا بأبي بكر؛ أجمعنا على ألا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون^(٢)، وأن نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين، فعزم الله لأبي بكر على قتالهم؛ فوالله ما رضي منهم إلا بالخطبة المخزية أو الحرب المجلية؛ فأما الخطبة المخزية فأن يقرؤا بأن من قُتل منهم في النار؛ ومن قتل منا في الجنة، وأن يُدوا^(٣) قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم، وأن ما أخذوا منا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم " ^(٤)..

ويختلف المؤرخون في تحليلهم أسباب حركة الردة فيردها بعضهم إلى جانب بعينه ويردها آخرون إلى جانب آخر، والحق أن حركة ضخمة كحركة الردة

(١) راجع: ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٧٩/٢، ابن حجر: فتح الباري ٣٠٦/١٢

(٢) ابنة مخاض: هي ابنة الناقة حين تبلغ عامًا، وابنة لبون: هي ابنتها حين تبلغ عامين (ابن سلام غريب الحديث ٩٤/٣، ابن منظور: لسان العرب ٢٢٩/٧)

(٣) أي يدفعوا دياتهم..

(٤) ابن الأثير: الكامل ٢٠٥/٢

شغلت المسلمين قرابة عام لا يمكن ردها إلى عامل واحد، ولكنها كشأن كثير من حركات التاريخ تترد إلى عدة عوامل متشابكة يمكن إجمالها في العوامل التالية:

عوامل ظهور حركة الردة:

١- العامل الديني:

أسلمت معظم القبائل العربية خارج مثلث مكة والمدينة والطائف في العامين التاسع والعاشر للهجرة، وبقيت في مواطنها بعيدة عن المدينة المنورة، فلم تنهل قسطاً كافياً من المعرفة بالإسلام، ولم تتعرض لقدر مناسب من الدعوة والتربية على مفاهيم الدين الجديد وقيمه.. فلما مات رسول الله ﷺ اهتزت عقائدهم الهشة، لقد أسر عيينة بن حصن . زعيم فزارة الذي عاون طليحة بن خويلد في رده . لما هزمته جيوش خالد، واقتيد إلى المدينة، فكان صبيان المدينة ينخسونه ويقولون: أي عدو الله؛ أكفرت بعد إيمانك ؟ فيقول: والله ما كنت آمنت بالله قط، وصدق الرجل؛ إذ كان إسلامه من قبل قولاً ظاهرياً لا حقيقة وراءه، ولا يرقى إلى درجة الإيمان^(١)..

وادعى بعض رجال القبائل النبوة، وسعى آخرون إلى التخفف من تكاليف الإسلام والزامات التدين، فأنكروا فرضية الزكاة، وحق ولي الأمر في جبايتها، وأطاعوا شح نفوسهم، فاصطدموا بصلافة موقف الصديق الذي أعلن في وضوح " لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه "، وقد أدرك الخليفة الأول أن التهاون في أحد أركان الإسلام وفروضة سوف يفتح الباب لمزيد من التهاون في فرائضه الأخرى، فكانت الزكاة أول هذه التكاليف التي استتقلتها قبائل العرب؛ ولكنها قد لا تكون الأخيرة..

(١) الطبري: السابق ٢٦٠/٣، وقد قال تعالى في وصف إسلام بعض هؤلاء الأعراب: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) (الحجرات: من الآية ١٤).

٢ - العامل السياسي:

ألف جُلُّ العرب في جاهليتهم الطويلة قبل الإسلام النزعة القبلية، فكانت القبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية التي توجه حياتهم وتحدد مصيرهم، فلما عرفوا الإسلام عرفوا الوحدة السياسية والدولة المركزية، غير أن إحساسهم بهذه السلطة المركزية ظل خافتاً، إذ ظلت هذه القبائل تعيش في مضاربها كما كانت قبل الإسلام، ولم يجد في حياتها بعد إسلامها من مظاهر الانتماء السياسي للدولة الإسلامية الواحدة إلا وجود أحد الدعاة الذين كان رسول الله ﷺ يرسلهم لتعليمهم أحكام الدين الجديد، أو ذلك العامل على الصدقات الذي يأتيهم كلما استدار الحول ليجمع زكواتهم، فينفق منها على فقرائهم، ثم يحمل ما زاد عن ذلك إلى المدينة.. ولم يطل عهدهم بتلك المظاهر التي لم يألفوها؛ إذ سرعان ما قبض رسول الله ﷺ فعادت تلح عليهم نزعتهم الاستقلالية، ورأوا أن أبرز مظاهر التبعية السياسية للمدينة هي جباية الزكاة؛ فبادروا إلى التحلل من ذلك الرباط..

إن ذلك العامل السياسي قد حظي باهتمام بالغ من بعض المستشرقين الذين لا يدركون عمق الصلة في الإسلام بين الدين والدنيا، وشمول تشريعه للحياة، فقرر بعضهم أن كثيراً من حركات الردة لا تعد ردة بالمعنى الدقيق للكلمة؛ ولا تعدو أن تكون تمرداً سياسياً على سلطة المدينة والخليفة الجديد، وأن الامتناع عن دفع الزكاة للمدينة هو مظهر لذلك التمرد لا كفراً بفرضيتها ووجوبها^(١)، غير أن بعضهم مثل مونتجمري وات أدرك أن المؤرخين المسلمين كانوا على حق عندما اعتبروا الردة حركة دينية، وأن المستشرقين أخطئوا لما نظروا إلى "الدين" بمفهوم أوربي وليس عربياً، فالردة كانت "حركة ابتعاد عن النظام الإسلامي دينياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، وعليه فهي ضد الإسلام"^(٢)

(١) راجع: إلياس شوفاني: حروب الردة، دراسة نقدية في المصادر ص ١٠١ وما بعدها

(٢) السابق ص ١٠٥

لقد أدرك الصحابة أن هناك اختلافاً بين من ادعى النبوة كمسيلمة والأسود العنسي ومن امتنع عن الزكاة وأقر ببقية أركان الإسلام، فقد قال عمر: يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق (١) ..

ورأي أبي بكر هنا يعبر عن الفهم الشامل للإسلام، وعن أن للعقيدة محتواها المادي الذي ينبغي أن تعبر عنه، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن مانعي الزكاة كانوا البادئين بالعدوان على المدينة وعلى المسلمين الذين ظلوا على إسلامهم من قبائلهم؛ كما سيأتي، فضلاً عن امتناعهم المسلح عن طاعة الخليفة.. فإن كانوا منعوا الزكاة بشبهة أن الرسول ﷺ فقط هو المكلف بأخذها منهم (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) فقد استقر "الإجماع في حق من جحد شيئاً من الفرائض بشبهة فيطالب بالرجوع، فإن نصب القتال قوتل، وأقيمت عليه الحجة" (٢)، وأن أبا بكر "لم يعذرهم بالجهل لأنهم نصبوا القتال، فجهز إليهم من دعاهم إلى الرجوع؛ فلما أصروا قاتلهم" (٣) ..

ويتصل بالعامل السياسي ما يراه بعض المؤرخين . وقد يكونون على حق فيما يرون . من أن سجاح التميمية التي ادعت التنبؤ وهي في ديار أخوالها من تغلب في شمالي العراق؛ ثم قدمت في أنصارها إلى مضارب قبيلة تميم لتزيد من

(١) البخاري: الصحيح، كتاب استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، حديث رقم ٦٩٢٤، ٦٩٢٥

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٢٩٢/١٢

(٣) السابق ٣٠٧/١٢

تأجج حركة الردة في هذه الأنحاء . كما سيأتي بيانه . لم تأت من هناك مدفوعة بكهانتها ومطامعها الذاتية فحسب؛ " وإنما انحدرت مدفوعة بتحريض الفرس وعمالهم في العراق، كي تزيد الثورة في بلاد العرب ضراماً، ليستعيدوا ما كان لهم في كثير من أرجائها من سلطان ... وقد يرجح رواية هؤلاء المؤرخين أن سجاح كانت الأنثى الوحيدة التي ادعت النبوة، وأن مثيلاتها اتخذت في كل العصور أداة للتجسس والدعاية، وأنها لم تلبث في بلاد العرب إلا ريثما بثت دعوة الانتفاض، ثم عادت إلى العراق فسكنت إلى حياتها بها " (١)، ويؤكد الأستاذ العقاد أن بني يربوع رهط سجاح كانوا أقرب بطون بني تميم إلى نفوذ فارس (٢)؛ وأنهم هم وبنو حنيفة كانوا ممن يعتزون بنفوذ الأكاسرة، وأن اختيارها من بين بني تغلب، وهم أخوالها، وفي بلادهم تزوجت، أدنى شيء إلى المعقول والمنظور؛ لأنهم أعداء بني بكر الذين تصدوا للفرس وهزموهم في وقعة ذي قار قبيل ظهور الإسلام، وأن رحلة سجاح إلى جزيرة العرب هي أولى الطلائع في حرب الأكاسرة والإسلام (٣) ..

٣- العامل القبلي:

وكان تأثير الاعتزاز بالانتماء القبلي ماثلاً في حركة الردة، فقد فهم بعض زعماء الردة أن وجود نبي من قريش قد بوأها مكانة عليّة بين قبائل العرب؛ حتى باتت نطالب الجميع بالطاعة لها، وترى أنها الأجدر بقيادة الدولة الإسلامية بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولذا فقد سرت دعوى التنبؤ بين عدد من زعماء هذه التجمعات القبلية القوية في اليمن واليمامة وغيرها، يحسبون أن ذلك يفتح أمامهم سبل المجد، ويبيؤ قبائلهم مراتب الصدارة، ورأوا أنهم قادرون على ما قدر عليه محمد ﷺ، وأن

(١) هيكل: الصديق أبو بكر ص ١٣٦-١٣٧

(٢) عبقرية خالد ص ٦٣

(٣) السابق ص ٦٣-٦٥

المسألة كلها مسألة كهانة وأسجاع؛ وقيادة وأتباع " (١)، وبإدراك عديد من زعامات هذه القبائل . فضلاً عن عوامها وحلفائها . إلى تأييد ادعاءات هؤلاء المنتبئين من باب العصبية القبلية المتأصلة في نفوس العرب حديثي العهد بالإسلام..

وقد كان ادعاء النبوة أمراً جليلاً لا يركبه العرب من قبل، فقد قال أحد شيوخ بني عامر لقومه . الذين عرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام والنصرة قبل هجرته فرفضوا : " يا بني عامر؛ هل لها من تلافٍ.. والذي نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلي قط، وإنما لحق.. " (٢)، إلا أننا رأينا في جزيرة العرب . بعد نجاح دعوة الإسلام . عدة يدعون النبوة في وقت يسير، ووجدنا لهم أنصاراً من رجال قبائلهم يحتشدون خلفهم (٣)؛ فيشكلون خطراً جسيماً على الدولة الإسلامية، وقد كان بعضهم ممن ادعى النبوة في أخريات حياة النبي، مثل الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب في بني حنيفة باليمامة وطلحة بن خويلد في بني أسد.. وادعاها آخرون بعد وفاته ﷺ مثل سجاح التميمية وذي التاج لقيط ابن مالك الأزدي في عمان..

ومن أمثلة تأثير العصبية القبلية في تأجيج حركة التنبو أنه قد كان بين أسد وغطفان وطيء حلف في الجاهلية ثم انفض، فلما ادعى طلحة بن خويلد الأسدي النبوة أراد عيينة بن حصن زعيم غطفان تجديد الحلف القديم، فقام في غطفان فأعلن ذلك وأنه؛ ثم قال: " وإني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم،

(١) العقاد: عبقرية خالد ص ٦٢

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٦

(٣) لعله من المفيد هنا أن نقارن بين النبوة الصادقة لرسول الله ﷺ الذي رمته العرب عن قوس واحدة سنين عدداً، فلم يجتمع حوله في مكة طوال ثلاث عشرة سنة إلا عشرات الرجال المضطهدين والمطاردين، وظلوا بعد هجرتهم في جهاد طويل حتى فتحت مكة بعد نيف وعشرين سنة من البعثة، أما مدعو النبوة الكذابون فقد احتشدت خلفهم عصبياتهم في الحال، ثم انفضوا عنهم بعد أول هزيمة، كأنما حائط هُدم..

ومتابع طليحة، والله لأن نتبع نبياً من الحليقين أحب إلينا من أن نتبع من قريش، وقد مات محمد وبقي طليحة، فواففته غطفان على رأيه^(١).. وتبعت كثير من هذه القبائل طليحة عصبية، فكان " أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطيء"^(٢).. ولما سار خالد لقتال طليحة كانت معه طيء بعدما نجح زعيمهم عدي بن حاتم في إقناعهم بالعودة إلى الإسلام، فلما التقى الجمعان سألت طيء خالداً أن تقاتل قيساً حلفاء طليحة وألا تقاتل أسداً لما كان بينهم من حلف، فقال خالد: والله ما قيس بأوهى الشوكتين، اصمدوا لأي القبلتين أحببتم، فاعترض عدي على المنطق القبلي لأهله فنصحه خالد أن يترك قومه من طيء يقاتلون من هم أنشط لقتاله فإن " جهاد الفريقين جميعاً جهاد " ^(٣)..

وقال أحد أصحاب مسيلمة . واسمه طلحة النّمري :. "أشهد أنك كذاب، وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مُضَر" ^(٤) !! .. وكان مسيلمة نفسه لما ادعى النبوة في أواخر حياة رسول الله ﷺ أرسل إليه يقول: " لنا نصف الأمر؛ ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون " ^(٥)..

حركة الجهاد ضد المرتدين:

يصعب الفصل في دراسة جهاد المسلمين ضد حركة الردة بين مواجهتهم نوعي الردة: منع الزكاة والتنبؤ، بسبب التداخل بين حركة الجيوش الإسلامية في مواجهة كلا الفريقين، والتحالف الذي كان يتم بين زعامات المرتدين ومناعي الزكاة.. وعلى ذلك جرت دراسة كلا النوعين في مصادرنا الأولى، فكان اتباع

(١) الطبري: السابق ٢٥٧/٣

(٢) ابن الأثير: الكامل ٢٠٦/٢

(٣) الطبري: السابق ٢٥٥/٣

(٤) السابق ٢٨٦/٣

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ٦٦/٣

الترتيب التاريخي مع مراعاة وحدة الحدث والموضوع هو الأقرب للسلامة والوضوح.. وذلك ما سنلتزمه في الصفحات التالية..

حرب مانعي الزكاة القريبيين من المدينة:

تجمعت هذه القبائل التي تقطن على مقربة من المدينة وعلى رأسها فزارة وغطفان وأسد وعبس وناس من كنانة وغيرهم، وقد أضمروا الامتناع عن أداء الزكاة، فاجتمعوا قريباً من المدينة فافترقوا فرقتين؛ أقامت واحدة بالأبرق (١) وصارت الأخرى إلى ذي القصة (٢)، وبدا نوع من التحالف بين طليحة المتنبئ وأتباعه من جانب وهذه القبائل التي منعت الزكاة من جانب آخر، وأمدهم طليحة بأخيه حبال فكان أميراً عليهم، وأرسلوا إلى المدينة يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة، فقال أبو بكر: لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه، وردّهم فرجع وفدهم، وكان جيش أسامة قد سار إلى الشام فأخبروا قومهم بقلّة من في المدينة فأطمعوهم فيها، وتأهب أبو بكر بعد مسيرهم فجعل على أنقاب المدينة جماعة من كبار الصحابة في جماعة من المقاتلين، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد خوف الغارة من العدو لقربهم، فما لبثوا إلا ثلاثاً حتى طرقت المدينة غارة مع الليل، وخلفوا بعضهم بذئ حسي (٣) ليكونوا لهم رداءً، فوجدوا الحرس على أنقاب المدينة فصدوهم، وبلغ الخبر أبا بكر فخرج في أهل المسجد على إبلهم فتراجع المغيرون واتبعهم المسلمون حتى بلغوا ذا حسي، فخرج إليهم الردء بأنحاء (٤) قد نفخوها، وجعلوا فيها الحبال، ثم دفعوها بأرجلهم في وجوه الإبل، فنفرت أبل المسلمين وهم عليها، فلم يملكوا أمرها إلى المدينة، ولم يُصب منهم أحد، فظن القوم بالمسلمين الوهن،

(١) موضع كان من منازل بني ذبيان

(٢) موضع على بريد من المدينة

(٣) وادٍ بديار عبس وغطفان

(٤) الأنحاء: القرب

وبعثوا إلى أهل ذي القصة بالخبر، فقدموا إليهم، وهم لا يشعرون . لأمر الله عز وجل . الذي أراده، وأحب أن يبلغه فيهم، فبات أبو بكر في جنده ليلته يتهياً، ثم خرج آخر ليلته فباغت المرتدين مع مطلع الفجر، فما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً، حتى وضع المسلمون فيهم السيف، فما أشرقت الشمس إلا وقد ولوا الأدبار، وقتل حبال بن خويلد أخو طليحة المتنبئ^(١)، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة، وترك بها جماعة من جيشه، ثم عاد إلى المدينة، فذل المرتدون، وكان أول فتح للمسلمين، ووثب المرتدون من بني نبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة، وفعل من وراءهم فعلهم، فحلف الصديق ﷺ ليقتلن في المشركين كل قتلة، وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة، وكان لذلك النصر الأثر العجيب في نفوس المسلمين الذين زادوا يقيناً وثباتاً، ونفوس المرتدين الذين زادوا ذلة وصغاراً، فبادر كبارؤهم بإرسال صدقات قومهم إلى المدينة، ففي الليلة التي أعقبت النصر طرقت المدينة صدقات من جماعات من تميم وطيء^(٢)

قدم جيش أسامة بعد تلك الواقعة بأيام، وقيل: كانت غزوته وعودته في أربعين يوماً أو سبعين، فلما قدم أسامة استخلفه أبو بكر على المدينة ومعه جنده ليستريحوا ويريحوا ظهورهم، ثم خرج أبو بكر فيمن كان معه فقال له المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك؛ فإنك إن تُصب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد على العدو، فابعث رجلاً؛ فإن أصيب أمّرت آخر، فقال: لا والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي، وسار حتى قاتل من بالأبرق من المرتدين، فهزمهم الله ففرت عبس وبنو بكر، وأقام أبو بكر بالأبرق أياماً، وغلب على بني

(١) زعم ابن الأثير: الكامل ٢/٢٠٩ أن حبالاً قتل فيما بعد بيد طليعة جيش خالد الذي توجه لقتاله

(٢) الطبري: السابق ٣/٢٤٤-٢٤٧، ابن الأثير: السابق ٢/٢٠٦-٢٠٧

ذبيان وبلادهم، وحماها لدواب المسلمين وصدقائهم، ولجأت عبس وذبيان إلى طليحة وهو مقيم في بُزَاخَة (١)، وعاد أبو بكر إلى المدينة (٢)..

أبو بكر يوجه أحد عشر جيشًا لقتال المرتدين:

بعدما جمَّ جيش أسامة وعاد أبو بكر مظفرًا وجَّه أحد عشر جيشًا عقد لقاتتها الأولوية على النحو التالي:
عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة ومن ارتد معه من بني تميم إن أقام له..

وعقد لعكرمة بن أبي جهل؛ وأمره بحرب مسيلمة الكذاب في اليمامة.

وعقد للمهاجر بن أبي أمية وأمره بحرب المرتدين باليمن وحضرموت.

وعقد لخالد بن سعيد بن العاص وأمره بالتوجه إلى مشارف الشام.

وعقد لعمر بن العاص وأرسله إلى قضاة.

وعقد لحذيفة بن مَحْصَن الغلفاني وأمره بالتوجه إلى أهل دَبَا (٣)..

وأمر عَزْرَجَةَ بن هُرْثَمَةَ بالتوجه إلى المرتدين في مَهْرَةَ بنواحي عمان.

وبعث شُرْحُبِيل بن حَسَنَةَ في أثر عكرمة بن أبي جهل، وقال: إذا فرغ من اليمامة فالحق بقضاة.

وعقد لَطْرَيْفَةَ بن حاجز وأمره ببني سُلَيْم ومن معهم من هوازن.

وعقد لِسُوَيْد بن مَقْرَن وأمره بالتوجه إلى تهامة اليمن.

وأمر العلاء بن الحضرمي بالتوجه لحرب المرتدين بالبحرين.

وكتب أبو بكر إلى كل أمير من أمرائه بعهدده بتقوى الله وبدعوة المرتدين إلى الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإلا قتلهم وجدَّ في قتالهم، حتى يقرؤا له؛ فإن فعلوا

(١) ماء لبني أسد بأرض نجد

(٢) الطبري: السابق ٢٤٧/٣-٢٤٨، ابن الأثير: السابق ٢٠٧/٢

(٣) سوق من أسواق العرب بعمان

أخذ ما عليهم وأعطاهم الذي لهم، وأمره بالعدل في جنده والرفق بهم، والاحتراس من عيون الأعداء وجواسيسهم، وكتب إلى المرتدين كتابًا واحدًا نكّرهم فيه بفضل الله عليهم بالإسلام، وأنه " كل من لم يهده الله ضال، وكل من لم يُعافه مبتلى، وكل من لم يُعنه الله مخذول، وأني بعثت إليكم فلاتًا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان؛ وأمرته ألا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الإسلام، فمن استجاب لله وأقر وكفّ وعمل صالحًا قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا يبقي على أحد منه قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار، ويقتلهم كل قتلة، وأن يسبي النساء والذراري، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم، والداعية الأذان، فإذا أذن المسلمون فأذّنوا كُفّوا عنهم، وإن لم يؤذّنوا عاجلوهم، وإن أذّنوا أسألوهم ما عليهم (يعني الزكاة) فإن أبوا عاجلوهم.. " (١) ..

خبر طليحة بن خويلد الأسدي:

كان طليحة بن خويلد الأسدي من بني أسد بن خزيمة قد تنبأ في حياة رسول الله؛ فوجه إليه النبي ﷺ ضرار بن الأزور عاملاً على بني أسد، وأمرهم بالقيام على من ارتد، فضعف أمر طليحة حتى لم يبق إلا أخذه، ومات النبي ﷺ في هذه الأثناء فغلظ أمر طليحة وتبعه كثير من العرب عصبية، وكان أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطيء وفزارة (٢) ..

كان على خالد بن الوليد أن يتوجه إلى طيء ثم إلى طليحة ببزاجة، ثم إلى مالك بن نويرة بالبطح، وأرسل أبو بكر عدي بن حاتم سيد طيء إليهم قبل خالد ليدعوهم إلى العودة إلى الإسلام، وقد أفلح عدي في مسعاه، فجنّب قبيلته الصراع الدامي ولحقت بجيش خالد، وتوجه خالد بعدها إلى بزاجة لحرب طليحة

(١) الطبري: السابق ٢٤٨/٣-٢٥٢

(٢) راجع ابن الأثير: الكامل ٢٠٦

ابن خويلد، وكان عُيَيْنة بن حصن في سبعمائة من بني فزارة يقاتلون مع طليحة؛ فلمي التقى الجيشان وهزت عيينة الحرب كَرَّ على طليحة وهو متلفف في كسائه يتنبأ لهم، فقال له: هل جاءك جبريل بعد ؟ فقال: لا، وفعل عيينة ذلك مرتين، فلما أعياه الأمر وطحنته الحرب جاءه الثالثة فقال: نعم، قال: ماذا قال لك ؟ قال: قال لي: " إن لك رجا كرحاه؛ وحديثاً لا تنساه "، فقال عيينة: أظن أن قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه، يا بني فزارة هكذا فانصرفوا، فهذا والله كذاب، فانصرفوا وانهمز الناس، فغشوا طليحة يقولون: ماذا تأمرنا ؟؟ فقام ووثب على فرس كان قد أعده؛ وحمل امرأته؛ ثم نجا بها وقال: " من استطاع منكم أن يفعل مثلما فعلت وينجو بأهله فليفعل "، ثم لحق بالشام وانفض جمعه.. وقتل من قتل منهم، وأسلمت أسد وغطفان ليحرزوا أنفسهم وعيالهم، وكانت بنو عامر وقبائل من سليم وهوازن تتربص بالفريقين تنتظر إلى من ستكون الدائرة، فلما رأوا نصر المسلمين أقبلوا يقولون: ندخل فيما خرجنا منه؛ ونؤمن بالله ورسوله؛ ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا^(١).. فقبل خالد منهم إسلامهم كما قبل من أسد وغطفان، وكان خالد قد اشترط عليهم أن يسلموه الذين حرقوا ومثّلوا بالمسلمين فأسلموهم، فقتلهم خالد كل قتلة، وأسر عيينة بن حصن وقرّة بن هبيرة سيد بني عامر فأرسلهما إلى المدينة، وكانت يدا عيينة مجموعة إلى عنقه بجبل، ومضى غلمان المدينة ينخسونه بجريد النخل ويقولون: أي عدو الله؛ أكفرت بعد إيمانك ؟ فيقول: والله ما كنت آمنت بالله قط، يعني أن إسلامه من قبل كان رقيقاً لا يبلغ حد الإيمان، فتجاوز عنه أبو بكر وحقق دمه، وفعل مثل ذلك مع قرّة بن هبيرة^(٢)

سار طليحة إثر هزيمته إلى الشام؛ فلما بلغه إسلام أسد وغطفان وعامر أسلم هو أيضاً، ثم خرج إلى مكة معتمراً في إمارة أبي بكر، ومرّ بجنابات المدينة؛

(١) الطبري: السابق ٢٥٣/٢-٢٥٦، ابن الأثير: السابق ٢٠٨/٢-٢٠٩

(٢) الطبري: السابق ٢٦٠/٣، ٢٦٢-٢٦٣، ابن الأثير: السابق ٢٠٩/٢-٢١٠

فقيل لأبي بكر: هذا طليحة، فقال: ما أصنع به؟ خلوا عنه؛ فقد هداه الله للإسلام، فلما عاد طليحة من عمرته كان أبو بكر قد مات واستخلف عمر فقال له عمر: أنت قاتل عكاشة وثابت^(١)؟ والله لا أحبك أبدًا، فقال: يا أمير المؤمنين ما يهْمُك من رجلين أكرمهما الله بيدي؛ ولم يُهَيَّيْ بأيديهما! فبايعه عمر^(٢)..

ردة أم زمل الفزارية:

واجتمع فُلَّالُ أسد وغطفان وهوازن وسُلَيْمِ وطِيء ممن انهزم وأبى الإسلام إلى أم زمل سلمى مالك بن حذيفة بن بدر من بني فزارة؛ وكانت أمها أم قُرُوفَة من أشرف العرب؛ يُضْرَبُ بها المثل في العزة والشرف لكثرة أولادها وعزة بيتها؛ فلما اجتمعوا إليها حرصتهم على حرب خالد فهاجوا لذلك، وغلظ جمعهم، واستفحل خطرهم، فسار إليها خالد والتقى بجيشها وهي على جمل أمها . الذي كان يقال عنه: إن من نخسه له مائة من الإبل لعزها . وقد أحرق به فرسان قومها يمنعونها، فقتل حوله مائة فارس ثم أمر خالد بعقره فانهزموا، وقتلت أم زمل، وبعث خالد إلى الخليفة بالفتح^(٣)..

خبر الفجاءة:

ومن هؤلاء المرتدين الفجاءة إياس بن عبد ياليل من بني سليم، وكان قد قدم على أبي بكر يُخادعه؛ فقال: أعنِّي بسلاح ومرني بقتال من شئت من أهل الردة، فأعطاه سلاحًا وأمره بأمره، فترك ما أمره به ومضى يقتل من وجده في طريقه من المسلمين والمرتدين من سليم وعامر وهوازن؛ ويأخذ أموالهم، وبلغ ذلك أبا بكر

(١) عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم من سادات المسلمين؛ كان خالد قدماه طليحة بين يديه في زحفه لحرب طليحة فقتلهم طليحة قبل نشوب القتال..

(٢) الطبري: السابق ٢٦١/٣، ابن الأثير: السابق ٢٠٩/٢

(٣) الطبري: السابق ٢٦٣-٢٦٤، ابن الأثير: الكامل ٢١١/٢، ابن كثير: البداية والنهاية ٨٦٥/٣-

فثارت ثائرته لتلك الاستهانة وذلك الاجتراء، فأرسل إلى طُريفة بن حاجز يأمره بمناجزته؛ فظفر به وأسره، وقدم به إلى أبي بكر؛ فأمر فأوقدت له نار في مصلى المدينة ثم رُمي فيها مقموطاً (١) ..

ردة سجاح وبني تميم:

اختلفت آراء بني تميم إزاء الردة فمنهم من ارتد ومنع الزكاة؛ ومنهم من بعث بها إلى أبي بكر، ومنهم من توقف لينظر في أمره، وعسكرت جيوش المسلمين قريباً منهم على رأسها ثُمّامة بن أثال؛ ثم وافاه عكرمة بن أبي جهل؛ فبينما هم على ذلك إذ أقبلت سجاح بنت الحارث بن سُويد بن عُقْفان التميمية في أخوالها من بني تغلب بالجزيرة العراقية؛ وكانوا نصارى (٢)، وكانت هي راسخة في النصرانية (٣) غير أنها في حمى التنبؤ التي سرت في جزيرة العرب آنذاك ادعت النبوة والتف حولها كثير من قومها؛ وعزموا على غزو المسلمين بالمدينة، فلما مرت ببلاد تميم دعتهم إلى أمرها فاستجاب لها عامتهم وجماعة من زعمائهم مثل مالك بن نويرة وشبث بن ربعي وعطار بن الحاجب الذي قال:

أُمت نبيئنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا (٤)

وتخلف آخرون من بني تميم عنها، ثم اصطلحوا على ألا حرب بينهم؛ إلا أن مالك بن نويرة لما وادعها ثناها عن المخاطرة بغزو المدينة، ووادعها أيضاً وكيع بن مالك التميمي، وانتقوا على مهاجمة خصومهم من بني تميم ممن لم ينضم إليهم، فكانت بينهم قتلى وأسارى، ثم تصالح الفريقان، وأخيراً أشارت سجاح إلى أتباعها بمهاجمة اليمامة، وفيها بنو حنيفة وزعيمهم مسيلمة الكذاب أعظم هؤلاء

(١) أي شدت يده إلى رجليه بحبل. راجع الطبري: السابق ٢٦٤/٣، ابن الأثير: السابق ٢١١/٢

(٢) الطبري: السابق ٢٦٧-٢٦٩، ابن الأثير: السابق ٢١٤/٢

(٣) الطبري: السابق ٢٧٢/٣

(٤) السابق ٢٧٤/٣

المتنبئين خطرًا وشوكة، فخاف مسيلمة إن تشاغل بها أن تهاجمه جيوش المسلمين الرابضة بالقرب منه تنتظر قدوم خالد؛ فأرسل إليها أن تؤمنه حتى يأتيها، فجاءها في أربعين من بني حنيفة فقال لها: لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلت، وقد رده الله عليكِ النصف الذي ردت قريش فحباكِ به، فوافقت، وظل أحدهما يسمع سجع الآخر مما يزعم أنه أوحى إليه، وقيل إنه عرض عليها الزواج فقبلت، وجعل مهرها أن أسقط عن أتباعها صلاتي الفجر والعشاء، وهكذا تم الصلح بين سجاح ومسيلمة على أن يحمل إليها نصف غلات اليمامة، وأبت إلا أن تحمل نصيبها من هذه الغلات للعام المقبل، فوافقتها على أن تحمل هي نصف غلات العام وتترك عنده من يجبي لها نصف غلات العام القادم، ومضت سجاح إلى الجزيرة على ذلك غير أن دنو خالد بن الوليد من اليمامة جعل أتباعها الباقين يبادرون بالهرب، ولم تنزل سجاح في بني تغلب، وقيل إنها أسلمت بعد وحسن إسلامها^(١)..

خبر مالك بن نوية:

لما رجعت سجاح إلى الجزيرة العراقية ندم مالك بن نوية وتحرّر في أمره، وتحرك خالد في قواته نحو البطح موطن بني تميم؛ فاستقبله زعماءهم بما عليهم من صدقات؛ وعادوا إلى الإسلام، وبقي مالك بن نوية فيمن تجمع إليه متحيزًا.. وكان خالد حين أراد التحرك نحو مالك بن نوية وبني تميم خالفت عليه الأنصار؛ وقالوا ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إن الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من البرازحة (يعنون: حرب طليحة الأسدي) واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا، فقال خالد: إن يك عهد إليكم هذا فقد عهد إليّ أن أمضي، وأنا الأمير، وإليّ تنتهي الأخبار، ولو أنه لم يأتيني له كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه حتى أنتهزها، كذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه لن ندع

(١) السابق ٣/٢٧١-٢٧٥، ابن الأثير: السابق ٢/٢١٤-٢١٦

أن نرى أفضل ما بحضرتنا ثم نعمل به، وهذا مالك بن نويرة بحياننا، وأنا قاصد إليه، ومن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان، ولست أكرهكم، ومضى خالد، وندمت الأنصار وقالوا: إن أصاب القوم خيرًا إنه لخير حرتموه، وإن أصابتهم مصيبة ليجتنبكم الناس، فلاحقوا بخالد (١)، ويروي سيف بن عمر أن خالدًا سار إلى البطاح فلم يجد هناك أحدًا، ووجد مالكًا قد فرقهم ونهاهم عن الاجتماع حين تردد عليه أمره، وبتّ خالد سراياه فأمرهم . حسب وصية الخليفة . بالأذان للصلاة، وأن يأتيه بكل من لم يُجب، فجيء له بمالك بن نويرة في نفر من قومه، فاختلفت فيهم السرية . وفيهم أبو قتادة الأنصاري . فكان فيمن شهد أنهم قد أذّنوا وأقاموا وصلوا، فلما اختلف فيهم أمر بهم خالد فحُبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء، وجعلت تزداد بردًا، فأمر خالد منادياً فنادى: " أذفنوا أسراكم "، وكلمة أذفنوا في لغة كنانة تعني: اقتلوا، فظن القوم أنه أراد قتلهم فقتلوهم ومعهم مالك بن نويرة، فسمع خالد الواعية (٢) فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمرًا أصابه، فقال أبو قتادة الأنصاري لخالد: هذا عملك، فزجره خالد؛ فمضى حتى أتى أبا بكر، فغضب عليه الصديق لمغادرته جيشه، وتشفع له عمر؛ فلم يرصّ أبو بكر إلا أن يرجع إلى خالد وجيشه الذي تركه ففعل (٣) ..

ورواية سيف بن عمر هذه تبدو متكلفة حين تقترض أن النفر الذين أمرهم خالد بإدفاء أسراهم كانوا من كنانة؛ وأنهم أساءوا المقصود من أمره فقتلوه، وأن خالدًا تأخر في الخروج إليهم حتى فرغوا من قتلهم.. ويزيد من ضعف هذه الرواية ما شملته من عناصر المبالغة والشطط، مثل زعمها بأن عسكر خالد جعلوا رءوس

(١) الطبري: السابق ٣/٢٧٦-٢٧٧

(٢) الجليلة والصراخ على الميت

(٣) الطبري: السابق ٣/٢٧٧-٢٧٨

مالك وأصحابه أثنافي للقدور؛ فما منهم رأس إلا وصلت النار إلى بشرته ما خلا مالكا؛ فإن غزارة شعره أنضجت القدر؛ وما نضجت رأسه (١) ..

وقد روى ابن إسحق بسنده رواية هي أقرب إلى الصحة؛ حيث ذكر أن أبا قتادة كان يحدث أنهم لما باغتوا القوم ليلاً بادروا إلى أسلحتهم " فقلنا: نحن المسلمون، فقالوا: ونحن المسلمون، قلنا: فما بال السلاح معكم ؟ .. فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح، فوضعوها، ثم صلينا وصلوا، وكان خالد يعتذر في قتله أنه قال له وهو يراجع: ما إخال صاحبكم . يعني رسول الله ﷺ . إلا وقد كان يقول كذا وكذا، فقال خالد: أو ما تعده لك صاحباً ؟ ثم قدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه " (٢).

وعلى أية حال لم يكن مالك ذلك الرجل المسلم الذي يؤكد تاريخه إسلامه، وقد مر بنا تحالفه مع سجاح، وتباطؤه عن بقية قومه حين استقبلوا خالدًا بصدقاتهم لما علموا بمسيره إليهم، واعتذارهم له، ولو كان مسلماً حقاً لفعل كما فعلوا، أو إن الرجل كان متردداً متشككاً حتى ظهر تردده وشكته في فلتة لسانه أمام خالد فعاجله بالقتل؛ ولم يتريث ليتحقق من صدق عقيدته، لذلك دفع أبو بكر ديبته وعذر خالدًا بما فعل ..

وقد تزوج خالد أم تميم ابنة المنهال امرأة مالك بعد انقضاء عدتها، وكانت العرب تكره تزوج النساء في الحروب وتتعايره، فقال عمر لأبي بكر: إن في سيف خالد رهقاً - أي عجلة وظلماً - فإن لم يكن هذا حقاً حق عليه أن يُقَيِّده، وأكثر عليه في ذلك، فقال أبو بكر: هيه يا عمر! تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد، وقال أبو بكر: لم أكن لأشيم سيفاً سلَّه الله على الكافرين، وودى مالكا (٣)، وكتب

(١) السابق ٣ / ٢٧٩

(٢) السابق ٣ / ٢٧٩ - ٢٨٠

(٣) أي دفع ديبته.

إلى خالد أن يقدم عليه ففعل، وأخبره خبره، فعذره وقبل منه، وعنقه على التزويج الذي كانت تعيب عليه العرب (١) ..

وكان خالد لما استقدمه أبو بكر إلى المدينة دخل المسجد وعليه قنّاء، قد علاه صدأ الحديد، معتجراً بعمامة قد غرز فيها أسهماً (٢)، فقام إليه عمر فنزع أسهمه فحطمها؛ وقال: أرئاء! قتلت امرأة مسلماً ثم نزوت على امرأته؟ والله لأرجمنك بأحجارك، فلم يكلمه خالد إذ ظن أن رأي أبي بكر فيه مثل رأي عمر، فلما دخل على الخليفة وعذره وتجاوز عما كان منه خرج خالد إلى المسجد فقال لعمر: هلمّ إليّ، فعرف أن أبا بكر قد رضي عنه فلم يكلمه (٣) ..

ردّة مسيلمة الكذاب:

مسيلمة زمن النبي ﷺ:

روى البخاري عن ابن عباس قال: قدم مسيلمة الكذاب (٤) على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل عليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس؛ وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد؛ حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال: " لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، إنني أراك الذي أريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت يجيبك عني"، ثم انصرف عنه (٥)، وقال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله ﷺ: "إنك الذي أريت فيه ما رأيت"، فأخبرني أبو هريرة أنه ﷺ قال: بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب؛ فأهمّني

(١) الطبري: السابق ٢٧٨/٣-٢٧٩، ابن الأثير: السابق ٢١٦/٢-٢١٧

(٢) قال ابن كثير: إن الأسهم كانت مضمخة بدماء قتلاه..

(٣) الطبري: السابق ٢٨٠/٣، ابن كثير: السابق ٨٧٠/٣

(٤) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بني حنيفة، ادعى النبوة سنة عشر للهجرة)

راجع ابن حجر: فتح الباري ٧ / ٦٩١).

(٥) البخاري: كتاب المناقب حديث رقم ٣٦٢٠، وانظر رقم ٤٣٧٣، ٧٠٣٣، ٧٤٦١

شأنهما، فأوحى إليّ في المنام أن انفخهما؛ فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي: أحدهما العنسي والآخر مسيلمة^(١).

وروى ابن إسحق بسند مجهول عن شيخ من بني حنيفة من أهل اليمامة^(٢) أن وفد بني حنيفة أتوا رسول الله ﷺ وخلفوا مسيلمة في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا مكانه فقالوا: يا رسول الله، إنا قد خلفنا صاحبنا لنا في رحالنا وفي ركابنا يحفظها لنا، فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم وقال: "أما إنه ليس بشركم مكاناً"، أي لحفظ ضيعة أصحابه، وذلك الذي يريد رسول الله، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ وجاءوه بما أعطاه، فلما انتهى إلى اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وتكذب لهم، وقال: إني قد أشركت في الأمر معه، وقال لوفده الذين كانوا معه: ألم يقل لكم حين ذكرتوني له: إنه ليس بشركم مكاناً، وما ذلك إلا لما كان يعلم أنني قد أشركت في الأمر معه، ثم جعل يسجع لهم الأساجيع، وأحل لهم الخمر والزنا ووضع عنهم الصلاة، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ بأنه نبي، فأصفت معه بنو حنيفة على ذلك^(٣)..

ورواية ابن إسحق قد رويت عن مجهول، وتعارضت ظاهرياً مع ما في الصحيح من أن رسول الله ﷺ هو الذي ذهب إلى مسيلمة وحدثه وحذره، وفي أنها تدعي مطالبة مسيلمة بالشركة مع رسول الله ﷺ في الرسالة، بينما الذي في الصحيح أنه اشترط لاتباعه ﷺ أن يكون له الأمر من بعده، على أنه يمكن الجمع بين الروایتين إذا افترضنا أن إقامته في رحالهم كانت "باختياره، أنفة منه واستكباراً أن يحضر مجلس النبي ﷺ، وعامله ﷺ معاملة الكرم على عادته في الاستئلاف، فقال لقومه: إنه ليس بشركم؛ أي بمكان، لكونه كان يحفظ رحالهم، وأراد استئلافه

(١) السابق كتاب المغازي، حديث رقم ٤٣٧٤

(٢) تقع اليمامة في منتصف الطريق بين مكة والمنطقة التي كانت تعرف بالبحرين، الواقعة على ساحل الخليج العربي.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/١٦٠-١٦١

بالإحسان بالقول والفعل، فلما لم يُفد في مسيلمة توجه بنفسه إليهم؛ ليقوم عليهم الحجة ويُعذر إليه بالإنذار " (١) .. ولعل تهديد النبي ﷺ له لم يكن على مأل من قومه فيتصدوا لأكاذيبه فيما بعد وهم على بينة من الأمر.. ولا تعارض بين اشتراط مسيلمة على النبي ﷺ جعل الأمر له من بعده وزعمه الشركة في الرسالة؛ فهو لم يزعم ذلك ويتنبأ إلا بعد أن عاد إلى بلده، وبخاصة بعدما شهد له بذلك الرجال نهار بن عُنُقوة . أحد زعماء بني حنيفة . وكان قد أسلم وصحب النبي ﷺ مدة، وألقى إلى مسيلمة شيئاً مما كان يحفظه من القرآن؛ فادعاه لنفسه، فكانت فتنة بني حنيفة بالرجال أعظم من فتنهم بمسيلمة (٢) ..

وجاهر مسيلمة بدعواه حتى إنه أرسل إلى النبي ﷺ: " بكتاب يقول: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله؛ سلام عليك؛ أما بعد فإنني قد أشركت في الأمر معك، فإن لنا نصف الأمر ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون"، فرد عليه رسول الله ﷺ " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين "، وسأل رسولي مسيلمة: وأنتما تقولان مثلما يقول؟ قالوا: نعم، قال: أما والله لولا أن الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما (٣) ..

حرب مسيلمة:

وجه أبو بكر عكرمة بن أبي جهل لحرب مسيلمة؛ ثم أتبعه بشرجيل بن حسنة؛ فتعجل عكرمة لمصادمة مسيلمة ولم ينتظر شرحبيل فلاحقت به الهزيمة،

(١) ابن حجر : فتح الباري ٦٩١/٧

(٢) مرّ رسول الله ﷺ على الرجال وهو جالس مع أبي هريرة وقرات بن حيان فقال لهم: " إن أحدكم ضرسه في النار مثل أحد "، فلم يزلوا خائفين حتى ارتد الرجال مع مسيلمة وشهد له زوراً أن رسول الله ﷺ أشركه في النبوة والرسالة، ويروى اسم الرجال: الرجال بالجيم كما في معظم روايات الطبري وابن الأثير، والأرجح أنه بالحاء المهملة (راجع الطبري: السابق ٢٨٩/٣، ابن كثير: السابق ٦٥ /٣)

(٣) ابن كثير: السابق ٦٦/٣

فلما علم شرحبيل بما حدث أقام مكانه وأرسل إلى الخليفة بما حدث، وأرسل إليه عكرمة بالخبر فنها أن يعود إلى المدينة منهزمًا لئلا يوهن الناس، وأمره أن يتجه ليساند جيوش المسلمين في قتال المرتدين بعمان، وكتب إلى شرحبيل يأمره بانتظار قدوم خالد إليه (١) ..

ولما قدم خالد على أبي بكر وترضاه بعدما كان من قتل مالك وجهه إلى مسيلمة وحشد معه الناس، إذ كان الخليفة يدرك قوة بني حنيفة وعناد مسيلمة، وتعجل خالد حتى قدم على عسكره الذي تركه في البطاح منذ فرغ من أمر بني تميم؛ وأقام ينتظر المدد القادم من المدينة، فلما أتوه مضى بهم إلى اليمامة وبها نحو أربعون ألف مقاتل من بني حنيفة (٢) عسكر بهم مسيلمة في طرف اليمامة وجعل الريف وراء ظهره، وأمر على مجنبتني جيشه المحكم بن الطفيل ونهار الرحال بن عنفة، أما خالد فقد قدم أمامه شرحبيل بن حسنة وجعل على مجنبتيه زيد بن الخطاب . أخا عمر رضي الله عنه . وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة.. ولما كان خالد على مسيرة ليلة من عسكر مسيلمة أسر جماعة من بني حنيفة فيهم مجاعة بن مزارة . أحد زعمائهم . فسألهم خالد: ما تقولون ؟ فقالوا: منا نبي ومنكم نبي فضرِب خالد أعناقهم، ولم يستبق إلا مجاعة إذ قال له أحدهم: إن كنت تريد بأهل اليمامة عدًا خيرًا أو شرًّا فاستبق هذا ولا تقتله، فحبسه خالد عنده كالرهينة، وأوثقه، ودفعه إلى امرأته أم تميم، وأوصاها به خيرًا (٣) ..

والتقى الناس فكانت الحرب الضروس التي لم يلق المسلمون مثلها قط في حروب العرب، فانهزموا أول الأمر حتى خلاص بنو حنيفة إلى فسطاط خالد؛ وقد زال خالد عنه؛ وفيه امرأته أم تميم وأسيرها مجاعة، وحمل أحدهم عليها بالسيف

(١) الطبري: السابق ٢٨١/٣

(٢) السابق والصفحة

(٣) الطبري: السابق ٢٨٦/٣-٢٨٩

فقال مجاعة: " مَهْ، أنا لها جار، فنعمت الحُرَّة، عليكم بالرجال "، فمزقوا الفسطاط بالسيوف، ثم إن المسلمين تداعوا فقال ثابت بن قيس: بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين، اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء . يعني أهل اليمامة . وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء . يعني المسلمين، ثم جالد بسيفه وهو يهتف في المسلمين: " يا معشر المسلمين؛ أنتم حزب الله وهم أحزاب الشيطان، والعزة لله ولرسوله ولأحزابه، أروني كما أريكم " حتى قُتل^(١)، وقال زيد ابن الخطاب حين رأى انكشاف الناس عن رجالهم: " لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم، أو ألقى الله فأكلمه بحجتي ! عضوا على أضراركم أيها الناس؛ واضربوا في عدوكم، وامضوا قُدماً "، وقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: " يا أهل القرآن؛ زَيِّتوا القرآن بالفعال "، وقاتل حتى استشهد، وتناول سالم مولى أبي حذيفة راية المهاجرين وقد استشهد صاحبها عبد الله بن حفص، فقال سالم: ما أعلمني لأي شيء أعطيتمونيها، قلت: صاحب قرآن وسيثبت كما ثبت صاحبها قبله حتى مات، قالوا: أجل فانظر كيف تكون، قال: بئس حامل القرآن أنا إن لم أثبت " وصبر حتى قتل.. وقال خالد لما اشتد القتال: "أيها الناس امتازوا لنعلم بلاء كل حيٍّ، ولنعلم من أين نؤتى"، وتنافس المهاجرون والأنصار مع أهل البادية في القتال، وجبَّ بعضُهم بعضًا، فقال بعضهم لبعض: امتازوا كي نُستحيا من الفرار اليوم ونعرف من أين نؤتى، ففعلوا؛ فما رُئي يوم كان أحدًا ولا أعظم نكاية مما رُئي يومئذ، ولم يُدر أي الفريقين كان أشد فيهم نكاية.. فقال:الدائرة على بني حنيفة؛ وكان زيد بن الخطاب قد قتل الرجال بن عنفوة، فخر مسيلمة أبرز رجاله، وثبت هو؛ فدارت رحى الحرب عليه، فعرف خالد أنها لا تترك إلا بقتله، فبرز خالد ودعا إلى المبارزة ونادى بشعار المسلمين يومئذ وكان: " يا محمداه " فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله، واشتد الخطب ببني حنيفة حتى حلت بهم الهزيمة، وركبهم الفرار، فقال خالد: دونكم لا تُقيلوهم، وهتف بنو

(١) السابق ٢٨٨/٣-٢٩١، وراجع البخاري: الصحيح، كتاب الجهاد والسير باب التحنط عند القتال..

حنيفة بمسيلمه: أين ما كنت تعدنا ؟ فقال: قاتلوا عن أحسابكم، وهكذا انفضح كذبه، فلا رسالة تَمَّ ولا نبوة، وإنما هي الحمية والعصبية..
وانحاز بنو حنيفة إلى حديقة لهم مسورة عُرِفَت فيما بعد بحديقة الموت لما أبيدوا فيها، وتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى دخلوها فأغلقوها عليهم، وأحاط بهم المسلمون، وصرخ البراء بن مالك: " يا معشر المسلمين، احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه، ففعلوا، فلما وضعوه على الحائط اقتحم على المرتدين فقاتلهم على الباب حتى فتحه للمسلمين، فدخلوه، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يروا مثله، ورمى عبد الرحمن بن أبي بكر المُحَكَّم بن الطفيل بسهم فقتله، وأببر من في الحديقة من بني حنيفة، وقُتِلَ مسيلمه، قتله وحشي بن حرب قاتل حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه يوم أحد ^(١)..

وبث خالد خيله فاستولت على ما وجدته من مال ونساء وصبيان، ثم نادى بالرحيل لينزل على حصون بني حنيفة، فخادعه مجاعة أسيره الذي استبقاه، فقال: إنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس، وإن الحصون لمملوءة رجالاً، فهلمَّ لك إلى الصلح على ما ورائي، فصالحه على كل شيء يأخذه خالد دون النفوس، ثم استأذنه أن ينطلق إليهم ليشاورهم في هذا الصلح ! فدخل مجاعة الحصون وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشیخة فانية ورجال ضعفى، فظاهر الحديد على النساء وأمرهن أن ينشرن شعورهن وأن يشرفن على رعوس الحصون، ثم أتى خالدًا فقال: قد أبوا أن يجيزوا ما صنعت، وقد أشرف لك بعضهم نقضًا عليّ، وهم مني برآء، فنظر خالد إلى رعوس الحصون وقد اسودت، وقد نهكت المسلمين الحرب، وطال اللقاء، وأحبوا أن يرجعوا على الظفر.. وقد قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قسبة المدينة ثلاثمائة وستون؛ ومن غيرهم من المسلمين ستمائة أو يزيدون، بينما

(١) البخاري: السابق كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٧٢، وراجع في أحداث ذلك القتال: الطبري: السابق

قتل من بني حنيفة . فيما يزعم الرواة . في الفضاء بعقرباء سبعة آلاف، وفي الحديقة مثلهم، وفي الطلب بعد القتال نحو هؤلاء، فاصطاح خالد مع مجاعة على أن للمسلمين الذهب والفضة والسلاح ونصف السبي . وقيل: ربه . فلما فتحت الحصون ورأى خالد بها النساء والصبيان والضعفاء قال لمجاعة: ويحك، خدعتي!! فقال: هم قومي، ولم أستطع إلا ما صنعت، ووصلت رسالة أبي بكر إلى خالد تأمره أن يقتل كل محتلم، وكان قد صالحهم فوفى لهم ولم يغدر، ورغم ذلك فقد حاول أحد الموتورين منهم . واسمه سلمة بن عمير . اغتياه فلم يفلح، وتتابع الناس يبايعون خالدًا على البراءة مما كانوا عليه (١) ..

كانت خسائر بني حنيفة أضعاف المسلمين كما تقدم، غير أن جماعة من خيرة الصحابة قد أفناهم القتل يوم اليمامة مما ترك لوعة في نفوس المسلمين تتمثل في حوار عمر بن الخطاب وابنه عبد الله بن عمر . رضي الله عنهما . وكان قد شهد المعركة وسلم؛ على حين استشهد عمه زيد بن الخطاب، فقال له عمر: ألا هلكت قبل زيد ! هلك زيد وأنت حيّ ! فقال عبد الله: قد حرصت على ذلك أن يكون، ولكن نفسي تأخرت، فأكرمه الله بالشهادة، وقيل: إنه سأله: ما جاء بك وقد هلك زيد؟ ألا وارىت وجهك عني؟ فقال: سألت الله الشهادة فأعطيها؛ وجهدت أن تساق إليّ فلم أعطها (٢) ..

وكانت كثرة عدد الشهداء من الصحابة القراء من حملة القرآن سببًا في تفكير الصحابة في جمع القرآن وتدوينه وموافقة أبي بكر على ذلك .. ومن العجيب أن خالدًا في هذا الأجواء قد تزوج ابنة أسيره مجاعة، فبلغ ذلك أبا بكر فكتب إليه كتابًا يقطر بالدم يقول: لعمري يا ابن أم خالد إنك لفارغ؛

(١) الطبري: السابق ٢٩٣/٣-٣٠٠

(٢) السابق ٢٩٢/٣

تتكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل لم يجفف بعد !! فلما قرأ خالد الرسالة جعل يقول: هذا عمل الأعرس، يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١) ..

ردة الأسود العنسي باليمن:

الأسود العنسي هو عبهلة بن كعب بن عوف، وعنس بطن من مذحج؛ إحدى القبائل اليمانية الكبرى، ويُلقب بذئ الخمار إذ كان دائماً معتماً متخماً (٢). ولما مات باذان (أو بأدام عند بعض الرواة) (٣) عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم اليمن بين جماعة من الأمراء منهم شهر بن باذان الذي جعله أميراً على صنعاء وأرسل إليه معاذ بن جبل معلماً، وادعى الأسود العنسي النبوة بعدما عاد النبي صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع سنة ١٠ هـ، فاتبعته مذحج، وكان مشعباً يريهم الأعاجيب، فكانت ردة أول ردة في الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وظل يوسع سلطانه في منطقة اليمن حتى شمل ما بين مفازة حضرموت إلى الطائف ومناطق البحرين والإحساء إلى عدن، " واستطاع أمره كالحريق "، وقتل شهر بن باذان وتزوج امرأته آزاد.. وتجمع من ثبت على الإسلام في مناطق محدودة مثل حضرموت، وبين بعض التجمعات القبلية.

وجاء كتاب من النبي صلى الله عليه وسلم إلى من باليمن من أمرائه ومن والاهم من المسلمين يأمرهم بقتال الأسود، واستطاع بعضهم بالفعل اغتياله بمساعدة زوجته آزاد. وكانت من قبل امرأة لشهر بن باذان الأمير القتيل. ونشبت بين أنصاره والمسلمين منازعة يسيرة انتهت إلى أن يتركوا للمسلمين ما بأيديهم ويترك لهم

(١) السابق ٣٠٠/٣

(٢) ابن الأثير: الكامل ٢٠١/٢

(٣) أسلم باذان بعدما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى يدعو إلى الإسلام فأمر كسرى باذان عامله على اليمن أن يبعث رجلين جليدين يأمران محمداً صلى الله عليه وسلم ويأتياه به، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم الرسولين أن كسرى قد هلك، وأن ابنه شيرويه قد قتله وسلب ملكه، فرجعا إلى باذان بالخبر، فلما استوثق منه أعلن إسلامه ومعه جماعة من أبناء فارس باليمن، فعرفوا بالأبناء (ابن الأثير: السابق ٩٧/٢-٩٨)

المسلمون ما بأيديهم، وتراجع أمراء النبي ﷺ إلى أعمالهم، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ بما حدث . وكان الوحي قد أعلمه به ليلة حدوثه . ولم تصل رسالهم إلا بعد وفاته، فتلقاهم أبو بكر، فكانت أول بشارة تأتيه بالمدينة..

غير أن أمور اليمن لم تلبث أن انتقضت من جديد عقب علمهم بوفاة النبي ﷺ (١).. واتجه إلى اليمن من قادة المسلمين عكرمة بن أبي جهل بعد فراغه من ردة مهرة . كما سيأتي . والمهاجر بن أبي أمية في جمع من مكة والطائف وجريز بن عبد الله البجلي في قبيلته بجيلة، وانضم إليهم من بقي على إسلامه من أهل اليمن، والتقت جيوش المسلمين مع قوات المرتدين والمتمردين هناك فهزمتها شر هزيمة، وأسروا قائديها قيس بن مكشوح وعمرو بن معديكرب؛ وقادوهما إلى أبي بكر، فقال الخليفة لقيس: قتلت عباد الله، واتخذت المرتدين والمشركين وليجة من دون المؤمنين، وهم بقتله، وقال لعمر: أما تستحي أنك كل يوم مهزوم أو مأسور؛ لو نصرت هذا الدين لرفعك الله، ثم خلى سبيلهما، فعادا إلى عشائهما، واستطاعت جيوش المسلمين إنهاء ردة أصحاب العنسي وقتلوهما بكل سبيل (٢)..

ردة حضرموت:

قاتل أمير حضرموت زياد بن أبيد . ومعه من أسلم من أهلها . المرتدين من مانعي الزكاة من كندة وزعيمهم الأشعث بن قيس الكندي وهزمهم، ولكنهم عادوا إلى التحصن منه، وأدركه المهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل؛ فاشتدوا في قتالهم وحصرهم، حتى اضطر الأشعث بن قيس ومعه زعمائهم إلى طلب الأمان من زياد لأنفسهم دون غيرهم ويفتحوا له باب الحصن، فكتبوا الأمان وختمه زياد؛ ونسي الأشعث أن يكتب اسمه ضمن المستأمنين، ودخل المسلمون الحصن فقتلوا من فيه، خلا من استأمن من الزعماء وليس فيهم الأشعث، فشدوا وثاقه وسيروه

(١) الطبري: السابق ٣٠٢٢٧-٢٣٩، ابن الأثير: السابق ٢/ ٢٠١-٢٠٤

(٢) الطبري: السابق ٣/ ٣٢٣-٣٣٠، ابن الأثير: السابق ٢/ ٢٣١-٢٣٣

إلى أبي بكر، وقيل إن الأشعث إنما استأمن لنفسه وماله فقط دون غيره؛ وفتح باب الحصن ليقتل الباقيين ويظفر المسلمون بالأموال والسبايا، فلما قدم على أبي بكر كان المسلمون يلعنونه في الطريق؛ ويلعنه سبايا قومه، وكان الأشعث قد خطب في حياة النبي ﷺ أم فروة أخت أبي بكر، ولم يدخل بها، فلما خشي على نفسه الموت بحضرة الخليفة قال له: أو تحتسب فيّ خيرًا فتطلق إيساري؛ وتقبلني عثرتي، وتفعل بي مثلما فعلت بأمثالي، وترد عليّ زوجتي، فإن فعلت ذلك تجدني خير أهل بلادي لدين الله، فأطلقه أبو بكر . الذي كان يعلم مكانته في قومه . ومنّ عليه؛ ورد عليه زوجته، وأقام بالمدينة حتى فتحت العراق فسار إليها (١) ..

ردة أهل البحرين:

كان رسول الله ﷺ قد بعث العلاء بن الحضرمي إلى ملك البحرين (٢) المنذر بن ساوى العبدى؛ فأسلم على يديه وأقام في أهلها الإسلام والعدل، ثم توفي عقب وفاة رسول الله ﷺ بقليل، فلما مات ارتد بعده أهل البحرين، أما بنو بكر منهم فتمّوا على ردتهم، واستطاع أحد زعمائهم . واسمه الحُطَم بن ضُبَيْعة أن يتزعم حركة ردتهم ويجمع حوله من ارتد ومن كان قد ظل على شركه ولم يسلم، وبعث بعثًا إلى جزيرة قريبة من ساحل الخليج تُعرف بدارين فضمها إليه، أما بنو عبد القيس فإنهم بعد وفاة ملكهم المنذر بن ساوى همّوا أن يرتدوا وقالوا: لو كان محمد نبيًا لم يمت، فجمعهم الجارود بن المعلّى العبدى . وكان قد أسلم وصحب النبي ﷺ وتفقّه في الإسلام ثم عاد إلى قومه . فقال لهم: أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمدًا ﷺ قد مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فثبتوا على إسلامهم،

(١) الطبري: ٣٣٠-٣٣٩، ابن الأثير: السابق ٢٣١/٢-٢٣٦

(٢) البحرين اسم جامع للبلاد الواقعة على ساحل الخليج العربي بين البصرة وعمّان. راجع ياقوت: معجم البلدان

وهكذا انقسم أهل البحرين إلى مرتدين . وهم معظم أهلها . ومسلمين، وقد حصرهم أهل الردة وضيّقوا عليهم حتى أرسل إليهم أبو بكر العلاء بن الحضرمي في جيشه، لينفذهم ويحارب بهم أهل الردة، وانضمت إليه في طريقه جماعات من مسلمة بني حنيفة وبني تميم (١) ..

وكان العلاء من سادات الصحابة، وقد نسبت إليه الروايات كرامات هائلة في هذه المعارك يصعب التحقق منها.. وأرسل العلاء إلى الجارود بن المعلّى يأمره أن ينزل بمن معه ممن ثبت على الإسلام من بني عبد القيس على الحُطَم والمرتدين من ناحيتهم، وسار العلاء فيمن معه من المسلمين فنزل عليه من ناحية هجر . قاعدة البحرين . وخذق المسلمون على أنفسهم، وكذلك فعل المرتدون، وكانوا يتراوحون القتال ثم يعودون إلى خنادقهم، وبينما هم على تلك الحال إذ سمع المسلمون في معسكر أعدائهم ضوضاء هزيمة أو قتال، فأرسل العلاء من يستطلع الخبر؛ فإذا القوم سكارى، فهجم المسلمون عليهم فهزموهم، وقتلوا كبيرهم الحُطَم، وكانت غنائم المسلمين عظيمة، ثم ركب المسلمون في آثار من فر منهم يتخطفونهم بكل طريق، واستطاع العلاء أن يستكمل جهوده لإنهاء حركة الردة في هذه الأنحاء، وكتب إلى أبي بكر بالنصر (٢)

الردة في عُمان ومَهْرَة (٣):

ادعى رجل من أهل عمان النبوة؛ واسمه ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي، وتبعه كثير من أهلها، فأرسل إليهم أبو بكر حُدَيْقَة بن مِحْصن الغلفاني الحميري ووجهه إلى عُمان وعَرْقَجَة بن هَرْثَمَة البارقي ووجهه إلى مهرة، ثم سرح الخليفة إليهم عكرمة بن أبي جهل بعدما كان من تسرعه في حرب مسيلمة وهزيمته هناك،

(١) الطبري: السابق ٣/٣٠١-٣٠٥

(٢) الطبري: السابق ٣/٣٠٦-٣١٣، ابن الأثير ٢/٢٢٦-٢٢٨، ابن كثير: السابق ٣/٨٧٧-٨٧٩

(٣) مهرة بسكون الهاء . كما يرويها عامة الناس . ويفتحها وهو الصحيح: تقع في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة العرب على المحيط الهندي بين عمان وحضرموت (راجع: ياقوت الحموي: معجم البلدان)

فاستطاعوا . بمعاونة من ظل على إسلامه من أهل هذه الجهات . إنهاء حركة الردة هناك، وبعثوا بالبشارة وخمس الغنائم إلى المدينة^(١) ..

الردة في تهامة:

كانت مكة . وأميرها عتّاب بن أسيد . والطائف . وأميرها عثمان بن أبي العاص . ممن ثبت مع المدينة على الإسلام، فأمر أبو بكر عتاب بن أسيد أن يواجه أخاه خالدًا لحرب من ارتد من أهل تهامة فظفر بهم، وأمر عثمان بن أبي العاص أن يواجه بعضًا لقمع المرتدين من أزد شنوءة وبجيلة وختعم فهزمهم وتفرقوا في البلاد، أما الطاهر بن أبي هالة . أحد الأمراء المسلمين باليمن فقد سار ومعه المسلمون من عكّ فحاربوا المرتدين منهم في تهامة فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وأما من ثبت على إسلامه من بجيلة فإن زعيمهم جرير بن عبد الله البجلي خرج بهم فلم يقم له ممن ارتد منهم إلا يسير؛ فقتلهم وتبعهم^(٢) ..

(١) الطبري: السابق ٣/٣١٤-٣١٧، ابن الأثير: السابق ٢/٢٢٩-٢٣٠، ابن كثير: السابق ٣/٨٧٩-

(٢) الطبري: السابق ٣/٣١٨-٣٢٢، ابن الأثير: السابق ٢/٢٣٠-٢٣١

المبحث الثالث

الفتوحات الإسلامية من أبي بكر الصديق ؓ

حول دوافع الفتوحات الإسلامية:

تختلف مذاهب المؤرخين حول الدوافع التي حدثت بالمسلمين إلى بدء حركة الفتوحات الكبرى ومصادمة الفرس والروم، وتتباين هذه الدوافع عندهم بين الدافع الديني والدافع الاقتصادي والدافع السياسي والعسكري.. ويجتهد أصحاب كل تفسير في نفي تفسيرات الآخرين..

والحق أن الدافع الديني هو أبرز هذه الدوافع وأعمقها في تفسير هذه الفتوحات؛ ولكن ذلك لا يعني إهمال الدوافع الأخرى. وبخاصة أننا نجد لها صدقاً في مروياتنا التاريخية الباكورة، ومن الضروري أن نقول إن حركة تاريخية ضخمة مثل حركة الفتوحات الإسلامية لا يمكن أن تتردد دائماً إلى عامل وحيد، بل إنها نتيجة مجموعة من العوامل المتداخلة والمتمازجة، وليس ثمة ما يدفعنا إلى استبعاد العوامل المادية إلا إذا نظرنا إلى الدين كما ينظر إليه المستشرقون وتلاميذهم من أنه علاقة محضة بين العبد وربّه، فالإسلام كدين شامل يتسع ليشمل هذه الدوافع كلها وينسج بينها في منظومته..

فالإسلام يرى أن الملكية الحقيقية للمال هي لله وأنه استخلف فيها البشر لينفقوه حسب مشيئته سبحانه؛ وبالتالي فإن الإسلام لا ينظر إلى السيطرة على اقتصاديات المحاربين له؛ الكافرين به واغتنامها على أنها عمل دنيوي.. بل يراها واجباً دينياً إذا أنفقت حسب تشريع الله ومراده..

والإسلام يدفع أصحابه إلى القوة والعزة؛ فإذا سعى أتباعه إلى دفع احتمالات العدوان الأكيدة من أعدائه . كما كان ذلك متوقعًا من الفرس والروم .
فذلك أمر له تبريره الديني الأصيل.. وهكذا دواليك..

على أننا يجب أن نحذر دائمًا من الخط بين ما كان دافعًا للغزو وبين ما كان نتيجة له، فالمسلمون لم يستهدفوا في حروبهم الغنائم إلا في إطار السياق السابق ذكره، أما كونها جاءتهم نتاجًا لغزوهم فسعدوا بفضل الله فذلك أمر مختلف...والمسلمون لم يستهدفوا تكوين إمبراطورية عربية بل حارب المسلمون العرب المرتدين العرب حربيًا لا هواده فيها، فإذا حدث بعد ذلك أن دخل هؤلاء العرب في الإسلام ودانوا به فجمعتهم بالمسلمين الآخرين أوامر الدين فضلًا عن أوامر اللغة والجنس فذلك أمر مختلف.. وهكذا تقود التفرقة بين الأسباب والدواعي وبين النتائج إلى توضيح الرؤية وتحريرها..

أولاً: فتوح العراق:

كان المثنى بن حارثة الشيباني ممن ثبت على الإسلام من بني بكر بن وائل؛ وكان ممن أعان العلاء بن الحضرمي حين قدم لحرب المرتدين في منطقة البحرين^(١)، واستمر المثنى يحارب بقواته قوات الفرس وأتباعهم في هذه المناطق الواقعة على الخليج العربي، ويحرز عليهم النصر تلو الآخر، حتى وصلت أخباره أبا بكر رضي الله عنه فقال: من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه؟ فقال قيس بن عاصم . أحد زعماء بني تميم :. " أما إنه غير خامل الذكر؛ ولا مجهول النسب، ولا قليل العدد ولا ذليل الغارة، ذلك المثنى بن حارثة الشيباني،" ثم قدم المثنى بعد ذلك إلى أبي بكر فقال: ابعثني على قومي أقاتل بهم أهل فارس، وأكفيك أهل ناحيتي

(١) الطبري: السابق ٣/٣١٠

من العدو، ففعل أبو بكر، وقام المثنى يغير على أهل السواد^(١)، ثم أرسل إلى أبي بكر يسأله المدد فأمده بخالد بن الوليد أميرًا وقائدًا عامًا، فكان المثنى هو الذي أطمع المسلمين في أمر فارس^(٢).

وقد قيل: إن أبا بكر كتب إلى خالد بعد ما أتم انتصاره على مسيلمة في اليمامة بالمسير إلى العراق، وقيل أيضًا: بل استقدمه إلى المدينة ثم سيّره لفتح العراق^(٣)، وقد رجح بعض الباحثين العسكريين الاحتمال الأخير، "لأن تكليف خالد بمهمة شاقة كفتح العراق لا بد أن يحتاج إلى الاتصال الشخصي بينه وبين أبي بكر بالمدينة للمذاكرة حول هذه المهمة، وتأمين كل متطلباتها العسكرية والإدارية"^(٤).. وعلى هذا الافتراض يكون خط سير خالد . كما حدده الرواة ومنهم ابن إسحق وهشام الكلبي . أنه سلك طريق فيد والثعلبية . وهما في الطريق من مكة إلى الكوفة . ثم نزل بانقيا وباروسما، وهما من قرى السواد، ثم افتتح الحيرة^(٥).. بينما ذكر سيف بن عمر أن أبا بكر كتب إلى خالد أن يدخل العراق من أسفلها، وإلى عياض بن غنم أن يدخلها من أعلاها، ثم يستبقا إلى الحيرة؛ فأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه، وقال: "إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس؛ وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحكما ردة للمسلمين

(١) هي أرض العراق؛ عُرِفَتْ بذلك لكثافة زرعها ونخيلها وأشجارها، ولأنها تاخمت أرض الجزيرة العربية التي لا زرع فيها، فكان أهلها إذا خرجوا تجاه العراق ظهرت لهم خضرة الزروع والأشجار فيسمونها: السواد. راجع ياقوت: معجم البلدان.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٢، الطبري: السابق ٣/٣٤٤، ابن الأثير: أسد الغابة ٤/٢٦٦

(٣) البلاذري: السابق ٢٤٣، الطبري: السابق ٣/٣٤٣

(٤) اللواء الركن محمود شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة ص ١١٩

(٥) البلاذري: السابق والصفحة، الطبري: السابق ٣/٣٤٣-٣٤٦

ولصاحب الحيرة، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم
ومستقرّ عزهم: المدائن " (١) ..

وهذه الرواية تبدو أصح من سابقتها لعدة أسباب منها:

- أن قرار فتح العراق سياسي في المقام الأول؛ وقد اتخذه الخليفة في المدينة
بمشاورة كبار الصحابة كما هو مفترض، أما الخطة العسكرية فليس من الضروري
استقدام خالد بشأنها من اليمامة إلى المدينة، ويمكن أن يكتفي الخليفة بتوضيحها
عن طريق رسول يحمل الخطة التفصيلية كما ورد في هذه الرواية..

- إن هذه الرواية تجعل خط سير خالد يبدأ من جنوبي العراق . من الأُبلة (٢). وهو
ما يبدو راجحاً؛ " لأن قوات المثنى بن حارثة كانت تقاتل في تلك المنطقة، وهي
القوة الرئيسية التي تقاتل في العراق، ولأن قوات خالد الأصلية في اليمامة، وهي
أقرب إلى منطقة البصرة، ولأن أبا بكر أمر خالدًا أن يبدأ بالأبلة، وأمر عياضًا أن
يبدأ بالمصيخ؛ أي أن خالدًا يهاجم العراق من جنوبه؛ وأن عياضًا يهاجمه من
شماله، وهذا قرار صحيح من الناحية العسكرية، لتفريق قوات العدو من جهة؛
ولتضليل الفرس عن اتجاه التعرض الأساسي لقوات المسلمين من جهة أخرى، كما
لا يمكن البدء من الحيرة وترك قوات معادية في الجنوب؛ وذلك لاحتمال تطويق
قوات المسلمين وتهديد سلامة تقدمها إلى أهدافها بعد الحيرة باتجاه الشرق أو
الشمال أو الجنوب " (٣) ..

(١) الطبري: السابق ٣/٣٤٧

(٢) تقع الأبلة جنوبي مدينة البصرة القديمة بخمسة عشر ميلاً (راجع: ياقوت. السابق)، وكانت مرفأً للسفن

القادمة من الصين (راجع الطبري: السابق ٣/٣٤٨)

(٣) محمود شيت خطاب: السابق ١٢١-١٢٢، وهذا يعني أنه يختار من الرواية الأولى استقدام أبي بكر
خالدًا إلى المدينة لتدارس الخطط العسكرية معه، ويأخذ من الرواية الثانية خط سير قوات خالد لفتح
العراق، وهذا قد لا يبدو متسقًا مع افتراض أن إحدى الروايتين صحيحة دون الأخرى..

موقعة ذات السلاسل:

كتب خالد إلى هرمز قائد الفرس في جنوب العراق " أما بعد، فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذمة، وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .. وكان هرمز من أسوأ أمراء هذه المنطقة جوارًا للعرب حتى ضُرب مثلاً في الخبث؛ فقالوا: " أخبث من هرمز، وأكفر من هرمز "، ولما لم يستجب لدعوة خالد التقى الفريقان عند موضع يُعرف بكأظمة^(١)، واقترب رجاله بالسلاسل كيلا يفروا، وأمر بعضهم بالعدو بخالد، فلما دعاه ابن الوليد إلى المبارزة اختلفا ضربتين، واحتضنه خالد، وحملت حامية هرمز على خالد لتعذر به، فما شغله ذلك عن قتل هرمز، وانهمز الفرس فطاردهم المسلمون إلى الليل، وعرفت هذه المعركة بذات السلاسل، وغنم المسلمون فيها غنائم هائلة^(٢)، وأرسل خالد المثنى بن حارثة ليتابع مطاردة القوم؛ بينما أرسل معقل بن مُقرن إلى الأبله فافتتحها، وجمع ما بها من أموال وسبي^(٣)، ويذكر الطبري أن ذلك خلاف ما يعرفه أهل السير؛ وما جاءت به الآثار الصحيحة من أن فتح الأبله كان على يد عُتْبة بن غزوان سنة ١٤هـ في خلافة عمر بن الخطاب، غير أن الأمر يمكن فهمه على أن الأبله عادت فانتقضت وسيطر عليها الفرس، فأعاد المسلمون فتحها في خلافة عمر، وهذا الأمر معهود في كثير من الفتوحات..

(١) تقع على ساحل الخليج العربي في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان. راجع: ياقوت: السابق.

(٢) وكان منها قلنسوة هرمز وقيمتها مائة ألف، وكان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قد أحسابهم في عشائهم، فمن تم شرفه كانت قلنسوته مائة ألف، وكان هرمز ممن تم شرفه، فكانت قلنسوته مفصصة بالجواهر، فنقلها أبو بكر خالدًا.

(٣) الطبري: السابق ٣/٣٤٧-٣٥٠، ابن الأثير: الكامل ٢/٢٣٩-٢٤٠

موقعة المذار أو الثَّني:

كان أحد قادة الفرس الكبار ويدعى: قارن قد أرسله كسرى مدداً لهرمز، فلما انتهى إلى المذار^(١) بلغه مقتل هرمز؛ فجمع إليه فلول القائد القتيل، واستعد لملاقاة خالد، والتقى الجيشان بالمذار على حنق وحفيظة؛ وخرج قارن يدعو للمبارزة، فبرز إليه خالد وأحد فرسانه ويدعى أبيض الركبان معقل بن الأعشى؛ فابتدراه فسبق إليه معقل فقتله، وقتل المسلمون أكبر قادته وعمامة جيشه، حتى قدر عدد القتلى بثلاثين ألفاً، سوى من غرق منهم، ومن وقع في سبي المسلمين، وأقر خالد الفلاحين ومن أجاب من الناس إلى الخراج، وذلك في صفر سنة ١٢هـ^(٢)..

موقعة الولجة:

استمر خالد في مسيره نحو الحيرة، فالتقى بجيش فارسي عند موضع يعرف بالولجة في صفر سنة ١٢هـ؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكان خالد قد خبأ كميناً له في ناحيتين، فاستبطأ الكمين؛ إلا أنه خرج آخر الأمر من وجهين فحاصر قوات الفرس ومن عاونهم، فأخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم، "فلم يَر رجل منهم مقتل صاحبه".. وسار خالد في الفلاحين سيرته فلم يقتل منهم أحداً، ودعا أهل الأرض إلى الجزية والذمة فأجابوه " (٣) ..

موقعة أُلَيْس:

أصاب خالد في موقعة الولجة كثيراً من العرب النصارى من بني بكر ابن وائل الذين ناصروا الفرس، فغضب لهم نصارى قومهم، وكاتبوا الأعاجم، وكاتبهم الأعاجم، فتوجه إليهم القائد الفارسي جابان، وكان خالد قد سمع بمن تجمع لحربه من نصارى العرب فتقدم لحربهم، وباغتهم وقد وضعوا طعامهم يأكلون، فلم ينشب

(١) تقع في منطقة ميسان، بينها وبين البصرة أربعة أيام (ياقوت: معجم البلدان)، وتعرف الموقعة أيضاً بموقعة الثني لجريانها قرب أحد تفرعات نهر الفرات، والعرب تسمي كل نهر: الثني (الطبري ٣/٣٥١)

(٢) الطبري: السابق ٣/٣٥١-٣٥٢، ابن الأثير: السابق ٢/٢٤٠

(٣) الطبري: السابق ٣/٣٥٣-٣٥٤، ابن الأثير: السابق ٢/٢٤٠-٢٤١

أن حطّ أثقاله ثم نهض لحربهم، ودعا زعماء النصارى العرب لمبارزته؛ فمن برز منهم قتله، وأجهض الأعاجم عن طعامهم قبل أن يأكلوه، فنصحهم جابان . وقد داخله الرعب والوحشة من المسلمين . أن يسمّوا طعامهم الذي أُعجلوا عنه؛ فإن كانت الدائرة لهم فالطعام أيسر هالك، وإن كانت عليهم كانوا قد انتقموا من أعدائهم، فأبوا عليه، واقتتلوا قتالاً شديداً، فاغتاظ المسلمون لصبرهم، ثم إن الله عز وجل هزمهم، ونفّل خالد طعام النصارى والفرس لجنده فجعلوا يأكلون منه ويعجبون لرقته وصنعه (١)!!

خبر أمغيشيا:

لما فرغ خالد من وقعة أليس نهض فأتى أمغيشيا، وكانت مصرًا كالحيرة؛ وكانت أليس من مسالحها، وقد أخذ الرعب من خالد نفوس أهلها، فترقوا عنها في أرض السواد بعدما تركوا ما فيها، فأمر خالد بهدمها وكل شيء كان في حيزها، وذلك فيما يبدو لتأمين تحركه فيما بعد لفتح الحيرة . أهم مدن العراق العربي آنذاك . وخشية عودة أهلها أو عسكر الفرس إليها مما يحتاج معه إلى توجيه جهده إليها من جديد، وأصاب المسلمون فيها ما لم يصيبوا مثله قط من الغنائم؛ حتى بلغ سهم الفارس ألفاً وخمسمائة سوى النفل الذي نُقله أهل البلاء.. ولما بلغت أخبار انتصارت خالد بالعراق أبا بكر قال: عجزت النساء أن يلدن مثل خالد (٢)، وروى

(١) وزعم بعض الرواة أن خالدًا نذر: " اللهم إن لك عليّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستقي منهم أحدًا قدرنا عليه، حتى أجري نهرهم بدمائهم "، فأمر خالد أن يأسروهم ولا يقتلوا إلا من امتنع، وسكّر خالد النهر وصده عن الجريان، وأمر بضرب أعناقهم في لنهر ليبرّ نذره، فظل يضرب أعناقهم يومًا وليلة، فقال له بعض قاداته: لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم، إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق منذ نُهيّت عن السيلان، ونُهيّت الأرض عن نشف الدماء، فأرسل عليها الماء تير يمينك، فأرسله فجرى دماءً طريًا، فسَمّي ذلك النهر: نهر الدم، وفي النفس شيء من تصديق هذه القصة وأنها إنما حُبكت بمهارة لتعليل تسمية نهر الدم . أحد تعريعات الغرات . بهذا الاسم.. (الطبري: السابق ٣/٣٥٥-٣٥٧)

(٢) ابن الأثير: السابق ٢/٢٤٢

الطبري في ذلك أنه قال: يا معشر قريش؛ عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله (١)، أُعجزت النساء أن يُسِلْنَ مثل خالد (٢) ..

فتح الحيرة:

علم الأزازبة مرزبان الحيرة (٣) أن خالدًا لن يتركه بعدما حقق من فتوح؛ وأن خطوته التالية سوف تكون الحيرة، فتهيأ لحربه، وأمر ابنه بسدّ نهر الفرات ليحول بين خالد والمسير إليه في النهر، وعسكر هو خارج الحيرة، إلا أن خالدًا أبطل كيده، وظفر بابنه وجنده فقتلهم، ثم أجرى الماء في الفرات، ففر الأزازبة بغير قتال تاركًا أهل الحيرة لمصيرهم في مواجهة جيش خالد..

وتحصن أهل الحيرة بحصونهم فحصرهم المسلمون، وأجلوهم يومًا ليقبلوا الإسلام أو الجزية أو القتال؛ فأبوا إلا القتال، وألح المسلمون على حربهم، فأجابوا إلى إرسال وفد منهم إلى خالد، فخلا بأهل كل حصن منهم دون الآخرين، وأراد أن يحرك فيهم أواصر الدم العربي، أو لوازم العقل الذكي، فقال: "ويلكم؛ ما أنتم! أعرب؟ فما تتقمون من العرب؟ أو عجم؟ فما تتقمون من الإنصاف والعدل؟! اختاروا واحدة من ثلاث ... فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة"، فرضوا بالجزية، فقال خالد: "تبًا لكم! ويحكم! إن الكفر فلاة مَصَلَّة، فأحمق العرب من سلكها فلقية دليلان؛ أحدهما عربي فتركه، واستدلّ الأعجمي"، وقبل منهم الجزية، وجعل بينه وبينهم كتابًا هو مثال للعدل والمرحمة، فيه أنه "عاهدكم على تسعين ومائة ألف درهم، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا؛ رهبانهم وقسيسهم، إلا من كان منهم غير ذي يد، حبيسًا عن الدنيا تركًا

(١) جمع خردولة: قطعة اللحم.

(٢) الطبري: السابق ٣٥٨/٣-٣٥٩

(٣) أي أميرها.

لها، وعلى المنعة؛ فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة“، وكان ذلك في ربيع الأول سنة ١٢ هـ^(١)..

فتح ما حول الحيرة:

كان الدهاقين^(٢) "يتربصون بخالد؛ وينتظرون ما يصنع أهل الحيرة، فلما استقام ما بين أهل الحيرة وبين خالد أتته دهاقين هذه البلاد فصالحته^(٣)، وأرسل خالد أمراءه فمخروا المنطقة التي بين ما فتحه وشاطئ دجلة، غازين ملحين، وظل الأمر على ذلك أكثر من سنة، "والمسلمون يمحرون ما دون دجلة؛ وليس لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمر، وليست لأحد منهم ذمة إلا الذين كاتبوه واكتتبوا منه، وسائر أهل السواد جلاءً ومتحصنون ومحاربون"^(٤)..

فتح الأنبار:

كان الخليفة أبو بكر قد أمر خالدًا . كما مر بنا . أن لا يقتحم على أهل فارس ويترك خلفه عسكريًا لهم، مخافة أن يطوقوا جيوش المسلمين، وكانت عساكر الفرس قد تحصنت في بعض البلاد، وخالد ينتظر أن يقدم عليه عياض ابن غنم من شمالي العراق، كما أوصى الخليفة؛ ليواصل فتح العراق، إلا أن عياضًا كان لا يزال يحاصر دومة الجندل ولا يقدر على فتحها^(٥)، ثم ترك خالد المثنى بن حارثة على بعض الثغور التي تلي المدائن ليشغل عنه الفرس؛ واتجه لتحرير شمالي العراق الذي كان أمر به عياض، فسار إلى كربلاء فأقام بها أيامًا، ثم

(١) الطبري: السابق ٣/٣٥٩-٣٦٤

(٢) جمع دهقان، بكسر الدال وضمها: زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم.

(٣) الطبري: السابق ٣/٣٦٨

(٤) السابق ٣/٣٧٠

(٥) الطبري: السابق ٣/٣٧٢، ودومة الجندل: حصن على سبع مراحل من دمشق، يقع بين دمشق والمدينة

(راجع ياقوت: السابق)

انتهى إلى الأنبار^(١)، فتحصن منه أهلها وخذقوا عليهم، فأتى خالد أضيقي مكان في الخندق وأمر بمهازيل الإبل فنحرها ورمى بها الخندق فأفعمه، ثم اقتحمه وجنده معه، ففر المشركون إلى حصونهم، وأقر قائدهم شيرزاد بالصلح على ما أراد خالد، وهو أن يُخَلِّيه ويلحقه بمأمنه في خيل ليس معهم من المتاع والأموال شيء!!^(٢)

خبر عين التمر:

واتجه خالد لفتح عين التمر^(٣) وبها جمع عظيم من الفرس ومن العرب قبائل من نصارى النمر وتغلب وإياد، فاتقى الفرس القتال بالعرب؛ فقدموهم، فلقبهم خالد مبادراً، فحمل عليهم، فانهمزوا من غير قتال، وأكثر المسلمون فيهم الأسر، وانتهى فُلُّهم إلى الفرس المتحصنين في عين التمر، فحاصروهم خالد فنزلوا على حكمه، فأمر بهم فسُلسِلوا له فأمر بضرب رقابهم، وسبى من بالحصن من النساء والذراري، وكان منهم أربعون غلاماً - كانوا رهائن - في بيعة يتعلمون الإنجيل، منهم نصير أبو القائد الإسلامي الكبير موسى بن نصير، وسيرين والد الفقيه الشهير محمد بن سيرين^(٤)، فكيف بدل الإسلام حال هؤلاء المستضعفين وأبنائهم من بعدهم، ودفع بهم إلى سدة المجد والسؤدد؟؟

خبر دومة الجندل:

أرسل خالد الوليد بن عقبة إلى الخليفة بالأخماس فوجهه الخليفة إلى عياض بن عَنَم مدداً له، فقدم عليه الوليد وعياض محاصروهم، وهم محاصروه، وقد أخذوا عليه بالطريق فقال له: الرأي في بعض الحالات خير من جند كثيف، ابعث إلى خالد فاستمده، ففعل، وقدم رسول عياض على خالد عقب موقعة عين التمر مستغيثاً، فكتب خالد إلى عياض خطاباً موجزاً بليغاً قال فيه: "إياك أريد"، وتحرك

(١) مدينة على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ. ياقوت: السابق.

(٢) الطبري: السابق ٣/٣٧٣-٣٧٤

(٣) بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة (ياقوت: السابق)

(٤) الطبري: السابق ٣/٣٧٦-٣٧٧

خالد من فوره لنجدة عياض فلما بلغ أهل دومة الجندل خبر مسير خالد بعثوا يحشدون قبائلهم، وبدومة الجندل يومئذ رئيسان: أكيذر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة فاختلفا؛ فقال أكيذر: "أنا أعلم الناس بخالد (١)؛ لا أحد أيمن طائراً منه، ولا أحد في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً . قَلُّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم"، فأبوا عليه، فقال: "لن أمالكم على حرب خالد، فشانكم"، لكن حظه العاثر شاء أن يظفر به خالد فيقتله، ثم جعل خالد دومة الجندل بين عسكره وعسكر عياض، ونشب القتال فهزّمهم المسلمون، وأسر خالد ملكهم الجودي وقتله، وضرب أعناق غالبية الأسرى من المقاتلة، ثم رجع إلى الحيرة بعد انتصاره الكبير (٢) ..

واستطاعت قوات المسلمين بالعراق أن تظفر ببعض تجمعات النصارى من عرب الجزيرة العراقية الذين ثاروا لمن قُتل من زعمائهم، وقد ساعدتهم الفرس، وذلك في مواقع من أشهرها الحُصَيْد والخنافس وغيرها (٣) ..

موقعة الفِراض:

اتجه خالد إثر ذلك إلى الفراض . وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة . فأفطر بها رمضان لاتصال غزواته فيها، فحميت الروم واغتازت، واستعانوا بمن يليهم من أهل فارس و نصارى العرب من تغلب وإياد والنمر فأمدوهم، ثم ساروا نحو خالد، فحال الفرات بينهم وبينه، فقالوا للمسلمين: إما أن تعبروا إلينا وإما نعبر إليكم، فقال خالد: بل اعبروا إلينا، فعبروا واقتتلوا قتالاً شديداً طويلاً، ثم حلت بهم

(١) كان خالد قد حاربه وأسرّه في وقعة تبوك أيام النبي ﷺ سنة ٩ هـ (الطبري: السابق ١٠٨/٣-١٠٩)

(٢) نجا أسارى قبيلة كلب من القتل، فقد أجارهم زعماء بني تميم لحلف كان بينهم في الجاهلية مما أثار حفيظة خالد فقال: مالي ولكم؟ أتخفظون أمرا الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام؟ فقال له بعض زعمائهم: لا تحسدهم العافية (راجع: الطبري: السابق ٣٧٧/٣-٣٧٩)

(٣) السابق ٣٧٩/٣-٣٨٣

الهزيمة، فقال خالد للمسلمين: "ألحوا عليهم، ولا تُرّفهوا عنهم"، فقتل منهم يومئذ في المعركة وفي الطلب بعدها مائة ألف على ما يزعم الرواة (١)..

ثم إنهم يزعمون أن خالدًا سيرَّ جنده إلى الحيرة وأظهر أنه في ساقتهم، وهو يظن أن يحج في سنته هذه، واكتتم بحجته ومعه عدة ممن أصحابه لخمس بقين من ذي القعدة، فاعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسَّمت (٢)، فتأتى له ما لم يتأتَّ لدليل، فكانت غيبته عن جنده يسيرة، فما توافى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم خالد . وقد حجَّ . مع صاحب الساقية الذي وضعه، فقدمًا معًا، وخالد وأصحابه محلّقون، لم يعلم بحجه إلا من أفضى إليه بذلك من الساقية، ولم يعلم أبو بكر رحمه الله بذلك إلا بعد، فغضب عليه، وكانت عقوبته إياه أن صرفه إلى الشام (٣)..

وهذا زعم بعيد متكلّف، أملت أهواء الرواة وغرامهم ببطولات خالد؛ فنسبوا إليه ما يدخل في باب المغامرة غير المحسوبة، التي تستهين بأمر الخلافة وضرورة إعلامها بمثل ذلك التصرف الخطير، وأما ما فعله أبو بكر من صرف خالد إلى الشام لمناصرة الجند هناك فكان ضرورة حربية رآها الصديق كما سيأتي بيانه..

(١) السابق ٣/٣٨٣-٣٨٤

(٢) الظن

(٣) الطبري: السابق ٣/٣٨٤، ابن الأثير: السابق ٢/٢٥١

ثانياً: فتوح الشام:

تمهيد:

لم يتفق مؤرخونا المسلمون على ترتيب وقائع الفتح في الشام بشكل لا نجد له مثيلاً في فتوح العراق، ولن نجد له مثيلاً في فتح مصر فيما بعد.. فيقدم بعضهم بعض الوقائع على بعض مع اتفاقهم على حدوث تلك الوقائع ونتائجها، وقد كان ذلك الاختلاف مما أثار دهشة الطبري واستكراه قديماً فقال: "ومن الأمور التي تُستنكر وقوع مثل الاختلاف الذي ذكرته في وقته، لقرب بعض ذلك من بعض".. وإذا كان تعليل الطبري ذلك الاختلاف بسبب قرب تاريخ حدوث بعض هذه الوقائع من بعض مما سبب شيئاً من اللبس في ترتيبها؛ فإنه من الممكن رد بعض ذلك الاختلاف إلى تأخر تدوين التاريخ الإسلامي بشكل عام عن زمن حدوث تلك المعارك، التي لم يدونها أصحابها إذ شغلهم الجهاد وتوالي الحروب والتعرض للشهادة عن تدوينها.. فلما تلقف الرواة والمؤرخون فيما بعد هذه الأحداث لتدوينها كان اعتمادهم على الرواية الشفهية التي وصلتهم من أفواه من شارك في صنع ذلك التاريخ أو قارب حوادثه.. "فربما كان حصول واقعتين في وقت واحد، فيذكر الراوي إحدى الواقعتين ثم يثني بالأخرى، فيتلقف الكاتب ذلك، ويرتبها حسب ترتيبهما في الذكر، فيقدم إحداهما على الأخرى، فإذا جاء راوٍ آخر وعكس الترتيب في الذكر تبعه مؤرخ آخر وسار على طريقته، وربما فُتح البلد الواحد مرتين؛ وفُتح بلد آخر بينهما، فيذكر الراوي الفتح الأول ثم يذكر فتح البلد الآخر، ثم يأتي راوٍ آخر ويذكر فتح البلد الآخر ثم يذكر الفتح الثاني وهكذا..."^(١)

ولعل الاختلاف حول تعيين تاريخ بعض المعارك الكبرى مثل معركة اليرموك ومعركة أجنادين وفتح دمشق وفحل بالأردن ودخول حمص من أبرز

(١) عبد الوهاب النجار: الخلفاء الراشدون ص ٢٠٥

نماذج ذلك الاختلاف.. فرواية سيف بن عمر في تاريخ الطبري تجعل اليرموك هي المعركة الكبرى الأولى التي خاضها المسلمون بالشام سنة ١٣هـ، ثم تلاها فتح دمشق وموقعة مرج الصُّفر ثم موقعة فحل في السنة نفسها، ثم حدثت وقعة أجنادين في سنة ١٥هـ..

بينما يروي ابن إسحاق أن أجنادين هي الموقعة الكبرى الأولى بالشام سنة ١٣هـ بعد عدة معارك محدودة^(١)، ثم تلتها معركة فحل ثم فتح دمشق في السنة التالية ١٤هـ^(٢)، وواقفه الواقدي الذي زعم أن موقعة اليرموك كانت سنة ١٥هـ، وأن هرقل جلا بعدها من الشام إلى القسطنطينية آيساً من النصر، فكانت موقعة اليرموك آخر موقعة بالشام^(٣)، وسار البلاذري على ذات الترتيب^(٤) ومهما يكن من أمر فإن الاختلاف يقتصر كما بيّنا على تسلسل الأحداث والمواقع لا حدوثها بالفعل، وتبدو محاولة التوفيق بين تلك الروايات المختلفة أو تفضيل إحداها على الأخرى عسيرة ومتكلفة وغير جازمة، وعلى ذلك فلا ضير أن نعتمد إحداها في ترتيب الحوادث ونمضي في دراستها مستصحيين في تلك الدراسة جهود الآخرين من الرواة ورؤاهم، ولتكن تلك الرواية هي رواية سيف بن عمر شيخ مؤرخي الفتوح الإسلامية، فهي أشهرها وأغناها بالحركة والحيوية والتفاصيل، وقد عُنى بها الطبري وآثرها على ما عداها وأفرد لها كثيرًا من صفحات تاريخه..

(١) الطبري: السابق ٣/١٧٤

(٢) السابق ٣/٤٤١

(٣) السابق والصفحة، الواقدي (ينسب إليه): فتوح الشام ١/٨٨، ٩٣، ٢٠٤، ٢٩٦

(٤) فتوح البلدان ١٢٠-١٤٢

حركة الفتوح بالشام:

كانت الشام موضع اهتمام المسلمين منذ عصر النبي ﷺ إذ وجه إليها جيوشه في أكثر من مرة فكانت تعود بالفتح والظفر (١)..

وقد سار أبو بكر ﷺ في فتح الشام على ذات النهج الذي خطّه لنفسه في فتوح العراق، فقد ارتاد الطريق أول الأمر بجيش خالد بن سعيد الذي خاض عدة معارك محدودة انتصر فيها، ثم لقي الهزيمة بمرج الصفر سنة ١٣هـ (٢)، ثم سَير إليها عدة جيوش في وقت واحد على رأسها جماعة من أكابر الصحابة وأبرع القادة، وأمر كلا منهم أن يسير إلى جهة من أرض العدو؛ ليضطره إلى تشتيت قواته وبعثرة جهوده، وتلك كانت خطته لما وجه خالد بن الوليد لفتح العراق من جهة الجنوب وعباض بن غنم لفتح شمالي العراق ليشنت جهود الفرس بهذه الأنحاء.. وكان أول جيش وجهه أبو بكر إلى الشام هو جيش خالد ابن سعيد (٣).. إذ وجهه إلى تيماء في أطراف الشام؛ وأمره ألا يبرحها؛ وأن يدعو من حوله

(١) من هذه الجيوش سرية زيد بن حارثة إلى قوم من جذام بمنطقة حسمى بفلسطين سنة ٦هـ وسرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاق سنة ٨هـ وغزوة مؤتة سنة ٨هـ وسرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل في السنة نفسها، ثم غزوة تبوك سنة ٩هـ ثم بعث أسامة بن زيد الذي توفي رسول الله ﷺ وهو يتأهب لغزو الشام.. فأنفذه أبو بكر أول خلافته (راجع ابن هشام السيرة النبوية ج٣، ج٤، محمد عزب دسوقي: القبائل العربية في بلاد الشام ص ٨١-١٠٤)

(٢) الطبري: السابق ٣/٣٨٨-٣٨٩، ابن الأثير: الكامل ٢/٢٥٢-٢٥٣، وكذا كانت غارات المثنى بن حارثة التي استكشف بها قوى الفرس في العراق..

(٣) يروي بعض الرواة أن خالد بن سعيد كان قد تربص ببيعته أبا بكر شهرين ثم بايع، فساء ظن عمر بن الخطاب به، إلا أن أبا بكر لم يحفل بذلك، ولما عقد الألوية لغزو الشام كان أول لواء عقده لخالد، ويزعمون أن عمر لم يزل بالخليفة حتى عزله بسبب موقفه من البيعة (الطبري: السابق ٣/٣٨٧-٣٨٨)، وذلك فيما نرى بعيد إذ مضى على أمر البيعة والخلافة في ذلك الوقت قرابة عامين؛ جرت فيهما في نهر الدولة الإسلامية مياه كثيرة، وقد عزل الخليفة خالدًا بالفعل عن قيادة ما معه من جند ولكن لسبب آخر هو ما حدث بعد ذلك، كما سنرى..

إلى الانضمام إليه، وألا يقبل إلا ممن لم يرتد، ولا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره، فاجتمعت إلى خالد جموع عظيمة، وقد حقق بعض الانتصارات الجزئية، وأرسل بذلك إلى أبي بكر واستمده (١)، وكان أبو بكر قد كتب إلى قبائل العرب يستنفرهم للجهاد بالشام، وأرسل إلى اليمن أنس بن مالك، فلم يمضِ طويل وقت حتى قدم أنس يبشره بقدوم أهل اليمن بذرايرهم ونسائهم وأموالهم (٢)، فأرسل أبو بكر أوائلهم في جماعات من المجاهدين مددًا لخالد بن سعيد، واهتاج أبو بكر للشام، وعناه أمره، فاستقدم عمرو بن العاص والوليد بن عقبة من عملهما للجهاد بالشام؛ وكان عمرو عاملاً على صدقات جُذام؛ فكتب إليه الصديق: " لقد أحببت . أبا عبد الله . أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه . أي من عملك هذا . إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك "، فكتب إليه عمرو: " إنني سهم من سهام الإسلام؛ وأنت . بعد الله . الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاشها وأفضلها فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي، وكتب إليه الوليد بن عقبة بمثل ذلك، وكان عاملاً على النصف من صدقات قضاة (٣) ..

فحشد أبو بكر جيوشه وجمعها في أربعة جيوش كبرى: على أحدها عمرو بن العاص ووجهه نحو فلسطين، وعلى الثاني يزيد بن أبي سفيان ووجهه نحو دمشق، وعلى الثالث أبو عبيدة بن الجراح وولاه ناحية حمص، وعلى الآخر شرحبيل بن حسنة ووجهه ناحية الأردن بدل الوليد بن عقبة، أما خالد بن سعيد فإنه لما بلغه خبر أولئك الأمراء وتوجههم إلى الشام . فيما يزعم الرواة . اقتحم على الروم يسابقهم إليهم، وأعرى ظهره، فاستطرد له القائد الروماني باهان، واتجه نحو دمشق، وسار خالد حتى نزل مرج الصُّفَر قريباً من دمشق، فانطوت مسالح باهان

(١) الطبري: السابق ٣/٣٨٨-٣٨٩

(٢) الأزدي: فتوح الشام ص ٨، ٩

(٣) الطبري: السابق ٣-٣٨٩-٣٩٠

عليه، وأخذوا عليه الطرق، وقتلوا ولده سعيد بن خالد، فهرب خالد ومن أفلت من أصحابه حتى بلغ ذا المروة قرب المدينة المنورة، وأقام عكرمة بن أبي جهل فيمن معه من جند رداءً للمسلمين، فرد عنهم باهان وجنوده، أما خالد بن سعيد ومن بقي من جنده فقد أمره الخليفة أن: " أقم مكانك، فلعمري إنك مقدم محجام، نجاء من الغمرات، لا تخوضها إلا إلى حق "، ثم أذن له بعد ذلك في دخول المدينة، وآل مصير جنده إلى القادة السابقين^(١)..

بلغت أخبار تحرك جيوش المسلمين هرقل فقدم حتى نزل حمص ليكون قريباً من مسرح الأحداث، وحشد جيوشه فجعل بإزاء كل قائد من قادة المسلمين قائداً من خير جنده في حشود هائلة، فهابهم المسلمون؛ وجميعهم لا يزيدون عن واحد وعشرين ألفاً، فأشار عمرو بن العاص بأن "الرأي الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يُغلب من قلة، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يُقرن فيه لأحد ممن استقبلنا"، فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا فيه، وكتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرو بن العاص فأجابهم بمثل جوابه، وقال: " ولن يؤتى مثلكم من قلة، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليصل كل رجل منكم بأصحابه "، فلما بلغ ذلك هرقل أمر بطارقه أن يجتمعوا للمسلمين كما اجتمعوا لهم، فنزلوا الواقصة على ضفة اليرموك، فصار الوادي خندقاً لهم، ونزل المسلمون عند ذلك بحدائهم، وليس للروم طريق إلا عليهم، فقال عمرو: أيها الناس؛ أبشروا، حُصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير، فأقاموا بإزائهم، ومخرجهم صفر سنة ١٣هـ وشهري ربيع لا يقدر من الروم على شيء، واستمدوا أبا بكر وأعلموه بما كان، فقال: " خالد لها "، وقال: " والله لأنسين الروم وساوس

(١) الطبري: السابق ٣/٣٩٠-٣٩٢

الشیطان بخالد بن الولید" ^(١)، وكتب إلى خالد: "سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك؛ فإنهم قد شجوا وأشجوا" ^(٢)، ... فليهنئك أبا سليمان النية والخطوة، فأتيم ينم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتُخذل، وإياك أن تُدل بعمل، فإن الله عز وجل له المنّ، وهو وليّ الجزاء " ^(٣)، وأمره أن يخلف على العراق المثنى بن حارثة، فوافاهم في ربيع ^(٤)...

خالد في الطريق إلى اليرموك:

سار خالد بنصف جيشه إلى الشام وترك النصف الآخر مع المثنى بن حارثة، وقد ترك لنا سيف بن عمر رواية عجيبة في وصف مسيرة خالد من العراق إلى الشام، فزعم أنه دعا بالأدلة، وارتحل من الحيرة إلى دومة الجندل، ثم طعن في البر إلى قراقر . ماء لبني كلب . ثم قال: كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم، فإني إن استقبلتها حسبتني من غياث المسلمين، فلم يجبه على ذلك إلا رافع بن عميرة . وهو يومئذ أرمذ العين . على تهيب شديد، فقام خالد في جنوده فوعظهم وشد من أزهم، وأمرهم أن يتزودوا من الماء لرحلة خمسة أيام في الصحراء، وأن يسقوا خيلهم ما استطاعوا، فظماً كل قائد من الإبل ما يكتفي به، ثم سقوها عللاً بعد نهل ^(٥)، فلما امتلأت صرّوا آذانها، وشدّوا مشافرها لئلا تجترّ ^(٦)، ثم انطلق خالد بالجيش ينزلون كل يوم فيأكل الرجال ويشربون مما معهم من الماء، ثم يشقون بطون عشرة من الإبل ويخرجون الماء منها؛ فيمزجونه بما كان من الألبان فيسقونه الخيل، حتى أدركوا الري بعد خمسة أيام، فوصل خالد

(١) السابق ٤٠٨/٣

(٢) أشجاه: أي قهره.

(٣) السابق ٤٠٧/٣

(٤) السابق ٣٩٢-٣٩٣

(٥) العلل: الشربة الثانية، والنهل: الشربة الأولى.

(٦) الطبري: السابق ٤٠٩/٣، ابن الأثير: السابق ٢٥٦-٢٥٧

سوى . وهو ماء لبني بهراء على الجانب الآخر مما يلي الشام . فأغار على من بها وهم سكارى يشربون، وساقهم يغني: ألا صبّحاني قبل جيش أبي بكر !!^(١).. وهي رواية تمضي في الطريق نفسه الذي تسير فيه روايات صاحبها سيف بن عمر عن فتوح خالد، وفيها من المبالغة والخيال ما أغرت بصنعه بطولات ابن الوليد، وأولى بنا أن نتشكك فيها، فبعيد أن يغامر خالد على ذلك النحو المريع بسلامة الجيش الإسلامي الذي غدا معقد الرجاء في تحقيق النصر على الروم، فيغرر به في طريق مهلكة اعتمادًا على ذاكرة أعرابي أرمد لم يعبر تلك الطريق منذ كان صبيًا، وبعيد أن يصل ذلك . إن كان . إلى مسامع الخليفة ثم يغضي عنه، وهي تعارض بعد ذلك رواية أخرى تنحو نحو الموضوعية للواقدي والبلاذري، وذكرها أبو يوسف في كتابه "الخراج"، وترى أن خالدًا سلك إلى أرض الشام طريق الفرات الأعلى^(٢)، وهي الطريق التقليدية التي سلكها الفاتحون منذ أقدم العصور، وعلى ذلك فإنه ليس من الصواب ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن المؤرخين يكادون يجمعون على أن خالدًا سلك السبيل الأقصر إلى الشام، وهو أقصر سبيل آمن يوصل إلى الشام في أسرع وقت دون التعرض لقوات معادية تستنزف الوقت والجهد^(٣)..

ثم سار خالد فوصل إلى مرج راهط^(٤)، فأغار على من به، ثم سار حتى بلغ بُصرى^(٥) فافتتحها، ثم طلع على جيش المسلمين في ربيع الآخر^(٦)..

معركة اليرموك:

(١) الطبري: السابق ٣/٤٠٩-٤١٠

(٢) راجع كتاب الخراج ص ١٤٦، وانظر أيضًا البلاذري: فتوح البلدان ص ١١٩

(٣) راجع محمود شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة ص ١٤٣-١٤٤

(٤) موضع في الغوطة شرقي دمشق (راجع: ياقوت: معجم البلدان)

(٥) مدينة بالشام؛ وهي كورة حوران (راجع السابق)

(٦) الطبري: السابق ٣/٤١٠، ٤١٥-٤١٧، ابن الأثير: السابق ٢/٢٥٨

تكاملت أعداد المسلمين باليرموك في نحو أربعين ألفاً، فيهم ألف صحابي شهد منهم نحو مائة موقعة بدر، وكان الروم في مائتي ألف وأربعين ألفاً، وقيل: بل كانوا مائة ألف، وعلى ذلك تتفاوت أعداد الفريقين . عند الرواة . تفاوتاً كبيراً، ولا سبيل إلى الاطمئنان إلى أي من هذه الروايات على كل حال، ومضى القسيسون والرهبان يحرضون الروم شهراً، ثم خرجوا إلى القتال الذي لم يكن بعده قتال مثله في جمادى الآخرة، فأراد أمراء المسلمين الخروج إليهم، وكل منهم أميراً على جنده، فقال لهم خالد: "إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وارضوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبية وأنتم متساندون، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن من وراءكم . يعني الخليفة . لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبتة"، فقالوا: هات الرأي، فنصحهم أن يتبادلوا الإمارة العامة؛ فيكون أحدهم أميرًا اليوم والآخر غدًا، والثالث بعد غد، حتى يتأمرؤا كلهم، وطلب منهم أن: "دعوني أليكم اليوم"، فأمرؤه وهم يرون أنها خرجة كخرجاتهم وأن الأمر يطول^(١)..

ويروي البلاذري^(٢) أن أبا بكر إنما جعل خالدًا . لما استقدمه إلى الشام . أميرًا على الأمراء بها، وذلك هو الأرجح، فقد كانت خطة أبي بكر أن يوحد القيادة عندما يجتمع جيشان أو أكثر في منطقة واحدة . كما فعل في حروب الردة مثلاً . وهذا إجراء منطقي وضروري للغاية من الناحية العسكرية، حتى يسيطر قائد واحد على توجيه جيوشه إلى أهدافها دون معارضة أو تردد؛ مهما تكن أسباب المعارضة والتردد.. والحق أن العقل لا يكاد يستسيغ أن تجتمع جيوش المسلمين في صعيد واحد وتظل قياداتها موزعة بين عدد منهم؛ يتعاورونها فيما بينهم

(١) الطبري: السابق ٣٩٥-٣٩٦، ابن الأثير: السابق ٢٥٩/٢

(٢) فتوح البلدان ص ١١٧

فيقودها أحدهم اليوم والآخر غدًا، مما قد يؤدي إلى تغيير خطط القتال وأساليب
المواجهة بتغير القيادة كل يوم، "إن خالدًا نُقل من منصب القائد العام في العراق
إلى منصب القائد العام في الشام"^(١).. وشدد المسلمون للقتال؛ فخرج في تعبئة لم
تُعَبِّها العرب من قبل؛ إذ قسم جيشه إلى كراديس^(٢)، ما بين ستة وثلاثين إلى
أربعين، وقال: "إن عدوكم قد كثر وطغى، وليس من التعبية تعبئة أكثر في رأي
العين من الكراديس"، وعُني خالد بالتعبئة المعنوية لمقاتليه فجعل أبا سفيان بن
حرب زعيم مكة الأسبق في مهمة القاص الواعظ، وهي مهمة تناسب تكوين ذلك
الجيش الذي يضم كثيرًا من قادات مكة السابقين ورجالها، فكان يقف على
الكراديس ويقول: "الله الله، إنكم زادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم زادة الروم
وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك"^(٣)،
ولما نشب القتال خرج قائد مقدمة الروم واسمه في المراجع العربية جَرَجَة؛ حتى
كان بين العسكرين فنادى: ليخرج إليّ خالد، فخرج إليه، وحاوره بشأن الإسلام؛
فأسلم الرجل وصلى مع خالد ركعتين؛ وحارب مع المسلمين حتى قُتل.. وشدد
المسلمون الخناق على الروم، وكانت ساحة قتالهم واسعة المطرد ضيقة المهرب،
فأفسح المسلمون سبيلًا لفرار خيلهم، ففرت في الصحراء، وتركت رجالتهم في
مصافهم، وقصد خالد والمسلمون المشاة فحملوا عليهم حتى انهزموا، "فكأنما هُدم
بهم حائط"، وكان كثير من جندهم قد تسلسلوا كيلا يفروا، فكان في ذلك هلاكهم،
وأكثر المسلمون فيهم القتل حتى الليل، وأصبح خالد وهو في رواق "تَدَارِق" قائد
الروم وشقيق هرقل، وقد أبلى المسلمون بلاءً حسنًا واستشهد كثير من خيارهم مثل

(١) شيت خطاب: السابق ص ١٤١

(٢) جمع كردوس، وهو الكتلة من الجنود تتألف من ألف مقاتل، وينقسم الكردوس إلى أجزاء عشرية،
والعريف يقود عشرة رجال، وأمير الأعشار يقود مائة؛ ولكل كردوس قائد له راية. ولعل كلمة "كردوس"
معربة من كلمة "كورتيس" الرومانية (راجع خطاب: السابق ص ١٤٧، حاشية ٤)

(٣) الطبري: السابق ٣/٣٩٦-٣٩٧.

عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو والحارث بن هشام، وأصيبت يومئذ عين أبي سفيان بن حرب، وقاتلت ابنته جويرية مع جماعة ممن النساء يبتغين الأجر والشهادة.

وفي أثناء هذه المعركة جاء رسول من المدينة بخبر موت أبي بكر واستخلاف عمر رضي الله عنه وعزل خالد عن الإمارة العامة وتولية أبي عبيدة بن الجراح، فكتب خالد الخبر عن جنده كي لا يفتر في أعضادهم، حتى تم النصر..

وفاة أبي بكر رضي الله عنه:

توفي أبو بكر لسبع ليال . أو ثمان . بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، وصلى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد روي في سبب وفاته أنه أكل طعاماً قد سُمِّ، وروي . وهو الأرجح . عن عائشة ابنته أنه اغتسل في يوم بارد فحُمَّ خمسة عشر يوماً، كان يصلي بالناس فيها عمر، وهو يتقل كل يوم حتى أدركه أجله عن ثلاث وستين سنة، بعد أن ظل خليفة سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال (١)، وتمثلت عائشة عنده وهو يحتضر بقول حاتم الطائي:

لعمرك مما يُغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
فقال: يا بنية قول الله أصدق: " وجاءت سكرة الموت بالحق، ذلك ما كنت منه تحيد "، إذا مت فاغسلي أخلاقي؛ واجعليها أكفاني، فقالت: يا أبتاه؛ قد رزق الله وأحسن، نكفئك في جديد، فقال: إن الحي هو أحوج . يصون نفسه ويقنعها . من الميت، وإنما يصير إلى الصديد وإلى البلى (٢) ..

(١) وقيل: كانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا أربع ليال (راجع ابن الأثير: أسد الغابة ٣/٢٢٨-٢٢٩)

(٢) ابن سعد: السابق ٣/٩٤، والآية من سورة ق رقم ١٩

الفصل الثاني

خلافة عمر بن الخطاب ؓ

المبحث الأول:

عمر بن الخطاب ؓ واستخلافه ومنهجه في الحكم والإدارة

أولاً: ٦ عمر بن الخطاب قبل الخلافة:

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح ^(١) بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب القرشي العدوي، كنيته أبو حفص، ولقبه الفاروق ؓ، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم ^(٢).. ولد عمر بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة ^(٣)، وكان من أشرف قريش وإليه كان أمر السفارة في الجاهلية؛ وذلك أن قريشاً كانوا إذا وقعت بينهم حرب . أو بينهم وبين غيرهم . بعثوه سفيراً، وإن نافرهم منافراً أو فاخرهم مفاخر رضوا به؛ فبعثوه منافراً أو مفاخرًا ^(٤)..

(١) كذا عند ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣ / ١٨٣، وعند ابن الأثير في أسد الغابة ٣ / ٦٤١ أنه رياح، وكذا الطبري في تاريخ الرسل والملوك ٤ / ١٩٥.

(٢) وهي بذلك ابنة عم أبي جهل بن هشام المخزومي، وقيل: بل هي حنتمة بنت هشام بن المغيرة، وتكون بذلك أخت أبي جهل، والفول الأول هو الأرحج، وكان يقال لأبيها هاشم بن المغيرة: ذو الرمحين (راجع نسب عمر في ابن الأثير: أسد الغابة ٣ / ٦٤١-٦٤٢، ابن سعد السابق ٣ / ١٨٣ ومصعب الزبيري: نسب قريش ٣٤٧، وابن حجر: الإصابة ٣ / ٢٧٩، ابن الجوزي: سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ص ٢٢-٢٣)

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة ٣ / ٦٤٢

(٤) ابن الأثير: السابق ٣ / ٦٤٢، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٠٩.١٠٨

ويبدو أن شدته وقوة شكيمته وما امتاز به من هيبة وفصاحة واعتزاز بما يراه حقًا؛ وصلابته فيما يعتقد صوابًا هي التي رشحته للسفارة في قومه، أو بينهم وبين مخالفيهم، وهي التي جعلته فظًا غليظ القلب على من أسلم من قومه منذ فشا فيهم الإسلام، وأضحى . فيما يراه عمر . خطرًا يهدد وحدة قبيلته وسلامة بنائها القبلي والعقدي، وقد أثر عته تعذيب كثير من المستضعفين، فكان يعذب جارية مسلمة لبني مؤمّل . حي من بني كعب . ويشتد في عذابها، حتى إذا ملّ قال: " إني أعتذر إليك؛ إني لم أتركك إلا ملالة"، فترد عليه في استعلاء وأنفة بثنتها فيها الدعوة الناشئة رغم ما تعانيه من رق وضنى: " كذلك فعل الله بك "، ومضى الحال على ذلك حتى أعتقها أبو بكر الصديق^(١).

وتروي ليلي بنت أبي حثمة - زوجة عامر بن ربيعة حليف آل الخطاب - أن عمر رآها وهي تمضي في طريقها للهجرة إلى الحبشة، وقد ذهب زوجها لقضاء بعض حاجتهم، فلما علم أنها مهاجرة مع زوجها بدينهما من أذاه وأذى قريش قال: "صحبكم الله"، ورأت له رقة لم تكن تراها، ثم انصرف، وقد أحزنه خروجهما، فلما جاء زوجها بحاجته قالت: " يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفًا ورقته وحزنه علينا، قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: نعم، قال: "فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب"، يأسًا منه . لما كان يرى من غلظته وقسوته . عن الإسلام^(٢)، ورغم ذلك فإن خصاله ومواهبه التي يختفي كثير منها وراء ستار الغلظة والجفاء هي التي دعت رسول الله ﷺ . الباحث عن الممتازين من الرجال . إلى أن يدعو الله: " اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك؛ بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام "

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣١٣/١

(٢) السابق ٣٣٣/١، وانظر ص ٣٢١

فكان أحبهما إليه عمر بن الخطاب^(١)، فأسلم عمر سنة ست من البعثة، وكان قد أسلم قبله نحو أربعين رجلاً، أو بضع وأربعين، وإحدى عشرة امرأة، وكان سبب إسلامه آيات سمعها أو قرأها من القرآن الكريم فلما ملك عليه لبه، وأمأطت عنه حجاباً سميّاً من العصبية والشطط^(٢)..

وما هو إلا أن أسلم عمر حتى ظهر الإسلام بمكة عزيزاً^(٣)، حيث سعى عمر إلى إعلان إسلامه بكل سبيل أمام سادات قريش وكبار طواغيتهم؛ ومجاہتہم به، واحتمال أذاهم، وردة عليهم إن استطاع.. وهو حريص على أن يصيبه مثل ما يصيب إخوانه من المستضعفين من المسلمين^(٤)، وخرج المسلمون إثر إسلامه ومعهم رسول الله ﷺ في صفتين يتقدمهما عمر وحزمة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ. وكان أسلم قبله بأيام قلائل . حتى دخلوا المسجد الحرام؛ وقريش تنظر إليهم تعلقوا الكأبة، وتستسلم للواقع الجديد؛ ويبدو أن النبي ﷺ لقبه يومها "الفاروق"^(٥)، وكان ابن مسعود كان يتحدث بلسان السابقين إلى الإسلام لما قال: "ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر"^(٦)، وقال: " كان إسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت

(١) ابن سعد: السابق ٣/١٨٦-١٨٧، ابن الأثير: السابق ٣/٦٤٣، ابن الجوزي: صفة الصفوة ١/١٣٩، ابن حجر: الإصابة ٣/٢٨٠، والحديث الشريف رواه ابن ماجة في السنن ١/٣٩، والحاكم في المستدرک ٣/٨٣

(٢) قيل إن هذه الآيات من سورة الحاقة أو من سورة الدخان أو صدر سورة طه (راجع ابن هشام: السابق ١/٣٣٣-٣٣٦، ابن الأثير: أسد الغابة ٣/٦٤٣-٦٤٥، ابن الجوزي: السابق ١/١٣٩-١٤١، ابن سعد: السابق ٣/١٨٦-١٨٨)

(٣) كما قال سعيد بن المسيب من كبار التابعين، (راجع ابن سعد: السابق ٣/١٨٩)

(٤) ابن هشام: السابق ١/٣٢٧-٣٢٨.

(٥) ابن الجوزي: السابق ١/١٤١، ابن الأثير: السابق ٣/٦٤٧.

(٦) البخاري: الصحيح، حديث رقم ٣٦٨٤، ابن سعد: السابق ٣/١٩٠

إمارته رحمة، وقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي في البيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا " (١) ..

وظل عمر قريبًا من النبي ﷺ أثيرًا عنده طوال مقامهما بمكة، قلما حانت هجرته إلى المدينة زعم الرواة أن عمر وحده هاجر علانية، وأبى أن يهاجر في سرية وتكتم، كشأن غيره من الصحابة، فتقلد سيفه، وتكّب قوسه، ومضى إلى الكعبة وبها ملأ قريش، فطاف بالبيت وصلى ركعتين، ثم قال: شأهت الوجوه! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تتكله أمه، أو ييتم ولده، أو ترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي، فإني مهاجر، فما منعه أحد (٢).

وهذا لا يصح، فما كان لعمر أن يشذ عن السياسة العامة التي اختطها رسول الله ﷺ؛ والتي تقضي ألا تُستفز قريش، ولا تستثار، حتى تتم الهجرة بسلام، وليدخر قوى المؤمنين لمهام جليلة تنتظرهم مع قيام الدولة الإسلامية.. وثمة رواية أخرى تتسق مع التوجه العام للمرحلة؛ وسلوك بقية الصحابة الكرام، وخالصتها أن عمر اتعد مع عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل ليتلاقوا في موضع عيتوه للهجرة، فجاء عياش في مواعده، وتخلف ثالثهما، فانطلقا مهاجرين، وفي طريقهما أدركهما أبو جهل وأخوه الحارث بن هشام، يريدان أن يعيدا عياشًا. وكان ابن عمهما وأخًا لهما لأمههما. فما زالوا به يستعطفانه على أمه التي أقسمت ألا تمس رأسها مشط حتى يرجع إليها ابنها، ومضيا يناشدانه أن يعود ليبر قسم أمه، وما زالوا به يخادعانه حتى انخدع؛ رغم تحذيرات عمر بن الخطاب له، فعادا به، حيث فتناه، ومضى عمر وحده إلى المدينة فتمت هجرته (٣) ..

(١) ابن سعد: السابق ٣ / ١٩٠، ابن الأثير: السابق ٣ / ٦٤٨

(٢) ابن الأثير: السابق ٣ / ٦٤٨-٦٤٩

(٣) ابن هشام: السيرة ٢ / ٦٤-٦٥ الهيثمي: مجموع الزوائد ١ / ٦١

وشهد مع النبي ﷺ الغزوات كلها، وتزوج النبي ﷺ ابنته حفصة فزاد قرباً منه، وتبدت في شخصيته مواهب عديدة فكرية وروحية أهلته لأن يكون . مع أبي بكر . وزير النبي ﷺ (١)، ومستشاره الذي يُجل رأيه؛ فكم من مرة نزل القرآن الكريم مؤيداً رأي عمر واجتهاده (٢)، حتى قال عنه النبي ﷺ: "قد كان في الأمم قبلك محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإنه عمر بن الخطاب " (٣)، وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ..

وكان لسرعة تحرك عمر الأثر الكبير في استخلاف أبي بكر في سقيفة بني ساعدة، وكان عمر طيلة خلافة أبي بكر وزيره ومستشاره الأول وإن خالفه في عدة مسائل، وإلى رأيه الراجح وبصيرته الملهمة يرجع الفضل في جمع القرآن الكريم في مصحف مكتوب بعد استشهاد كثير من حفظته في حروب الردة (٤)، فلما حضرت أبا بكر الوفاة لم يتردد في استخلاف عمر..

ثانياً: استخلاف عمر رضي الله عنه:

روى الواقدي أن أبا بكر لما حضرته الوفاة دعا عبد الرحمن بن عوف فسأله عن رأيه في عمر فقال: "هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة"، فقال أبي بكر: "ذلك لأنه يراني رقيقاً؛ ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه"، ثم دعا إليه عثمان بن عفان فسأله عن عمر فقال: "اللهم علمي به

(١) رواه الحاكم: المستدرک ٢/٢٦٤.

(٢) مثل رأيه في أسرى بدر (راجع: ابن القيم: زاد المعاد ٢/٩٧) وعدم الصلاة على زعيم المنافقين ابن أبي وحجاب نساء النبي ﷺ وغير ذلك..

(٣) البخاري: الصحيح حديث رقم ٣٦٨٩، ومسلم: الصحيح، رقم ٢٣٩٨، ومعنى محدثون: ملهون.

(٤) البخاري: الصحيح، باب جمع القرآن، كتاب ٦٦.

أن سريرته خير من علانيته، وأن ليس فينا مثله"، قال أبو بكر: " لو تركته ما عَدَوْتُكَ، وما أدري لعله تاركه، والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئاً" (١) وفي رواية أخرى للواقدي أن أبا بكر دعا عثمان خالياً فقال له: " اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين، أما بعد"، ثم أخذته غشية، فظن عثمان أنه قبض، فكتب على لسانه: " فإنني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، ولم ألكم خيراً منه "، ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليّ، فقرأ عليه عثمان ما كتبه، فكبر أبو بكر وقال: " أراك خفت أن يختلف الناس إن افتتت نفسي في غشيتي "، قال: نعم، قال: "جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله"، وأقرأها أبو بكر (٢)، ثم أشرف أبو بكر على الناس من حجرته التي يُمرض فيها فقال: "أترضون بمن استخلفت عليكم ؟ فإنني والله ما ألوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإنني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا"، فقالوا: سمعنا وأطعنا (٣)، وخرج خادمه في رواية أخرى بكتاب أبي بكر فقرأه على الناس (٤) ..

ويتضح من مجمل هذه الروايات أن الصديق أبا بكر أحسّ . لما دنت وفاته . بخطر أن يترك المسلمين دون أن يستخلف عليهم؛ فيحدث لهم كما حدث يوم سقيفة بني ساعدة من انشعاب الرأي وتنافس الأمر، وليس فيهم من يجتمعون عليه في سابقة أبي بكر وحسن صحبته ومكانته من رسول الله ﷺ، بينما جيوش المسلمين في جبهات القتال بإزاء الفرس والروم مما يجعل اختلاف الأمر بشأن الخلافة خطيراً أيما خطر، وكان أمر الاختلاف وارداً على أية حال كما يبدو من

(١) الطبري: السابق ٣ / ٤٢٨

(٢) السابق ٣ / ٤٢٩، وانظر رواية أخرى عن الكتاب الذي كتبه أبو بكر يستخلف فيه عمر: ابن الأثير:

أسد الغابة ٣ / ٦٤٦

(٣) الطبري: السابق ٣ / ٤٢٨

(٤) السابق ٣ / ٤٢٩

مشاورات أبي بكر وكبار الصحابة بشأن من يستخلف عليهم، فرغم إقرارهم بتميز عمر وفضله وقدراته فقد كان بعضهم يخشى شدته، وكان عمر معروفاً بها زمن النبي ﷺ وصاحبه مع رقتهما وبالغ رحمتها، فكيف يكون إن صارت إليه مقاليد الأمور وليس ثم رسول الله ولا أبو بكر يكفكف من سؤرته وغضبه ويأمره فيستجيب ويرعوي، ولقد طمأن أبو بكر مخاوف ذلك الفريق إذ كان أدرى الناس بطباع عمر وشمائله، وخصال الرحمة المستكنة داخله، والتي تخفيها خشونته الظاهرة ورغبته في موازنة لين الصديق ورحمته، فقال أبو بكر لعبد الرحمن بن عوف لما تخوف من شدة عمر: " ذلك لأنه يراني رقيقاً، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه" ..

وكانت وفاة أبي بكر لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ^(١)، فصعد عمر المنبر فقال: "إنما العرب مثل جمل أنف^(٢) اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده، أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق " ^(٣) ..

ثالثاً: منهج عمر بن الخطاب ﷺ في الحكم والإدارة

اختلف الرواة في أول خطبة خطبها عمر؛ فقال بعضهم إنه قال: "اللهم إني شديد فليتي، وإني ضعيف فقوني، وإني بخيل فسحني" ^(٤)، وروي إن أول خطبة كانت قوله: " إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم بعد صاحبي، فوالله لا يحضرنى شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فألو فيه عن أهل الجزء - يعني

(١) الطبري: السابق ٣ / ٤١٩، ابن الأثير: الكامل ٢ / ٢٦٧.

(٢) الجمل الأنف هو الجمل الذلول المواتي الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطي ما عنده من السير عفواً سهلاً..

(٣) الطبري: السابق ٣ / ٤٣٣، ابن الأثير: السابق ٢ / ٢٦٧

(٤) ابن سعد: السابق ٣ / ١٩٦

الكفاية - والأمانة، والله لئن أحسنوا لأحسننَّ إليهم، ولئن أساءوا لأنكلنَّ بهم، فقال من شهد خطبته: " فوالله ما زاد على ذلك حتى فارق الدنيا" (١) ..
وروى أنه لما صعد المنبر همَّ أن يجلس مكان أبي بكر فأكبر ذلك، فنزل مرقاة، فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: " اقرؤوا القرآن تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزینوا للعرض الأكبر يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية، إنه لم يبلغ حق ذي حق أن يُطاع في معصية الله، ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم؛ إن استغنيت عففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف " (٢) ..

ويمكن الجمع بين هذه الروايات إذا افترضنا أن عمر ألقى خطبته أمام جمع من الحاضرين فحفظ بعضهم منها جزءًا فرواه، وحفظ آخر جزءًا غيره فذكره..
وليس من الغريب أن يمزج الفاروق في أول خطبة له بين البيان السياسي والإداري والعظة الدينية، فذلك نهج هؤلاء الأئمة الأولين الذين لم يروا فارقًا بين تقوى الله والأمر بها وسياسة البشر تبعًا لمنهجه وشريعته، كما أنه ليس غريبًا على عمر أن يراعي حق سلفه العظيم أبي بكر فلا يجلس في موضع كان يجلس فيه فيساويه بذلك في أعين الناس، فراجع عمر نفسه، ونزل درجة عن مكان الصديق ﷺ، وفي رواية أخرى أنه بعد يومين من استخلافه تحدث الناس فيما كانوا يخافون من شدته وبطشه، وأدرك عمر أنه لا بد من تجلية الأمر بنفسه، فصعد المنبر وخطبهم فذكر بعض شأنه مع النبي ﷺ وخليفته، وكيف أنهما توفيا وهما عنه راضيان، ثم قال: " .. ثم إني قد وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي، ولست أدع أحدًا يظلم أحدًا أو يتعدى عليه

(١) السابق والصفحة

(٢) الهندي: كنز العمال رقم ٤٤٢١٤، المحب الطبري: الرياض النضرة في مناقب العشرة ٢ / ٨٩، الكاندهلوي: حياة الصحابة ٣ / ١٨٨٩.

حتى أضع خدّه على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق،
وإنني بعد شدتي تلك أضع خدي لأهل العفاف وأهل الكفاف، ولكم على أيها الناس
خصال أذكركم لكم فخذوني بها: لكم على أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم، ولا مما
أفأه الله عليكم إلا في وجهه، ولكم على إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في
حقه، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى، وأسدّ ثغوركم، ولكم
على ألا ألقىكم في المهالك، ولا أجمركم في ثغوركم (أي لا أبقىكم على جبهات
القتال بعيداً عن أهليكم مدة طويلة لا تحتملونها)، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو
العيال حتى ترجعوا إليهم، فاتقوا الله عباد الله، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني،
وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحضاري النصيحة
فيما ولاني الله من أمركم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم " (١) ..

وفي هذه الروايات لخطبة عمر لما ولي الخلافة يتضح منهجه في الحكم
الذي لم يحد عنه، وأبرز ملامحه:

أولاً: إنه ينظر إلى الخلافة على أنها ابتلاء ابتلي به، سيحاسب عن أداء حقه..
فالحكم عند الراشدين تكليف وواجب وابتلاء؛ وليس جاهاً وشرفاً واستعلاء..
ثانياً: وهذا الاستخلاف يتطلب منه أن يباشر حمل أعباء الدولة فيما حضره من
أمرها، وأن يولي على الرعية التي غابت عنه أفضل الأمراء وأكفأهم، غير أن ذلك
- فيما يرى عمر - ليس كافياً لإبراء ذمته أمام الله تعالى؛ بل يرى أن مراقبة هؤلاء
العمال والولاة فرض لا فكاك منه، فمن أحسن منهم زاده إحساناً، ومن أساء عاقبه
ونكّل به..

ثالثاً: إن شدة عمر التي هابها الناس سيخلطها لهم لينا ورحمة، وسينصب لهم
ميزان العدل، فمن ظلم وتعدى لن يجد إلا التكيل والهوان، "ولست أدع أحداً يظلم

(١) هيكيل: الفاروق عمر: ٩٣-٩٤، فاروق المجدلاوى: الإدارة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب
ص ١٠٥ - ١٠٦.

أحدًا ويتعدى عليه حتى أضع خذه على الأرض..“ أما من أثر القصد والدين والعفاف سيجد من الرحمة ما لا مزيد عليه؛ “أضع خدي لأهل العفاف.. رابعًا: وتكفل الخليفة بالدفاع عن الأمة ودينها وسد الثغور ودفع الخطر، غير أن ذلك لن يتم بظلم المقاتلين، فلن يحبسهم في الثغور إلى حد لا يطيقونه، وإن غابوا في الجيوش فسيرعى الخليفة أبناءهم وأسرههم، ويلبي حاجاتهم..

خامسًا: وتعهد الخليفة بأداء الحقوق المالية للرعية الكاملة.. من خراج وفيء، لا يحتجن منه شيئًا، ولا يضعه في غير محله.. بل سيزيد عطاياهم وأرزاقهم باستمرار الجهاد والغزو والحض على العمل وضبط الأداء المالي للدولة..

سادسًا: وفي مقابل ذلك يطالب الرعية بأداء واجبها من النصح لخليفته وطاعته والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما يشيع الرقابة الإسلامية في المجتمع..

سابعًا: ونبه إلى أنه لا معين على ذلك إلا بتقوى الله ومحاسبة النفس واستشعار المسؤولية في الآخرة.. وسوف نتناول فيما يلي هذه الجوانب المختلفة لسياسته:

١- شدة عمر في محاسبة نفسه وأهله:

كان عمر قبل أن يلي الخلافة رجلاً تاجرًا يشغله الصفق بالأسواق عن بعض ما يحبه من طول صحبة النبي ﷺ والأخذ عنه، وكان لا يتحرج في التمتع بما يحل له من طعام ونساء^(١)، لكنه بعد أن أبتلى بالخلافة تفجرت في نفسه ينابيع الخوف من تقيل التبعة وعظيم المساءلة عن أمة محمد ﷺ، فأخذ نفسه بشدة وصرامة هي جزء من طبيعته، فلما ولي الخلافة مكث زمانًا لا يأكل من بيت مال المسلمين شيئًا حتى أصابته الحاجة واضطر إلى أن يسأل أصحاب النبي ﷺ عما يحل له من مال المسلمين، فقال بعضهم: غداء وعشاء، قال: صدقت^(٢)، فكان عمر يستنفق كل يوم درهمين له ولعِياله، ويكتسي حُلَّة في الصيف، فما يستبدل

(١) راجع ابن سعد: السابق ٢٦٢/٣، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/١٦١.

(٢) ابن سعد: السابق ٢٣٩/٣.

بها . وإن رقعها رقعاً عديدة . حتى يأتي أوان ذلك، فلما كلمته ابنته حفصة زوج النبي ﷺ في ذلك قال: إنما أكتسي من مال المسلمين، وهذا يبليغني (١)، وكان يقسو على نفسه في طعامه وهو العليم بأطايبه، ويقول: "نحن أعلم بلين الطعام من كثير من أكلته، ولكننا ندعه ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع فيه كل ذات حمل حملها (٢) .. وأراد أصحاب النبي ﷺ . وهم يرون شدته على نفسه - أن يكلموه في الرفق بها، ولكنهم ها قال: كلموا ابنته حفصة في ذلك، فأنت إليه وأخبرته ما قالوا، فقال عمر: "غششت أباك ونصحت لقومك (٣)، ولما كررت طلبها في وقت آخر إشفاقاً عليه قال لها: سأخاصمك إلى نفسك؛ أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقي من شدة العيش؟ فما زال يذكرها بذلك حتى أبكاها (٤)، ولما حدثه العباس بن عبد المطلب في الأمر نفسه قال: "إنه مضى صاحبان لي، عملاً عملاً وسلكا طريقاً، وإني إن عملت بغير عملهما سلك بي طريق غير طريقها" (٥) .. والروايات عن زهد عمر وصرامته مع نفسه كثيرة، تزخر لها كتب التاريخ والسير وتراجم الرجال (٦) ..

وكان عمر شديدًا مع أهله.. فقد كان يعلم أن الأبصار طامحة إليه، وأنه لا جدوى إن قسا على نفسه ورتع أهله فحوسب عنهم في الآخرة ولم ترحمه السنة الخلاق في الدنيا، فكان إذا أراد أن ينهى عن شيء تقدم إلى أهله فقال: لا أعلم أحدًا وقع في شيء مما نهيت عنه إلا أضعفت له العقوبة (٧) ..

(١) السابق ٣/٢٤٠.

(٢) ابن الجوزي: سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ص ١٧٥، ١٧٩.

(٣) ابن سعد: السابق ٣/٢٠٠.

(٤) السابق ٣/١٩٩ - ٢٠٠، ابن الجوزي السابق ص ١٧٥.

(٥) ابن سعد السابق ٣/٢١٦.

(٦) راجع ابن سعد: السابق ٣/٢٣٤: ٢٥٤-٢٥٥، ابن الجوزي: السابق ١٧٠ - ١٨٠.

(٧) ابن سعد: السابق ٣/٢١٦.

وقد شرب ابنه عبد الرحمن الخمر في مصر . وهو لا يحسبها خمراً . فسكر، فذهب إلى عمرو بن العاص والي مصر، فطالبه أن يقيم عليه الحد، فحدّه عمرو في صحن بيته حيث يقيم الحدود للناس جميعاً، فلما علم عمر كتب إلى عمرو يلومه ويعذله - إذ ظن أنه إنما أقام عليه الحد في بيته مراعاة لمكانة أبيه خليفة المسلمين - وطالبه أن يرسل به إليه في عباءة على قتب كي يعلم سوء ما صنع، فأعاد عمر جلده تعزيراً، "لمكانه منه، فلبث شهراً صحيحاً، ثم مات" (١) ..

ونهى عمر ابنه عبد الله من أن يرعى إبله في المنطقة التي حماها عمر لخيال المسلمين وإبلهم مخافة أن يكون في ذلك استغلال لنفوذ أبيه ومجاملة له فيحسن القائمون على الحمى رعاية إبله زيادة عما يفعلون مع سائر المسلمين (٢) . ولما أتاه طيب من المسك من البحرين قال عمر: وددت أني أجد امرأة حسنة الوزن تزن لي هذا الطيب حتى أفزقه بين المسلمين، فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد: أنا جيدة الوزن: فهلّم أزن لك، قال: لا، قالت: ولم؟ قال: إني أخشى أن تأخذه هكذا فتجعله هكذا . وأدخل أصابعه في صدغيه . وتمسحين عنقك؛ فأصيب فضلاً من المسلمين" (٣) ..

ولما قدمت على المسلمين حلى الذهب والفضة من غنائم جلولاء أتى ابنه عبد الرحمن الأوسط فقال: يا أبتاه هب لي خاتماً، فقال عمر: اذهب إلى أمك تسقيك سويقاً (٤) .. ورأى عمر جارية صغيرة تطيش هزالاً فسأل: من هي؟ فقيل له

(١) ابن الجوزي: السابق ٢٨٢ - ٢٨٣، وهذه هي الرواية الأخرى بالقبول في موته، وقد عقب ابن الجوزي على ذلك فقال: "فيحسب عامة الناس أنه مات من جلد عمر، ولم يمت من جلده"، ولكن القُصَّاص زادوا في ذلك الخبر، فخرجوا به عن الجأدة (راجع تعليق ابن الجوزي: السابق ٢٨٣) ..

(٢) ابن سعد السابق ٢١٦/٣ .

(٣) ابن الجوزي: السابق ص ١٩١ .

(٤) السابق ص ١٣٧ - ١٣٨، والسويق هو قمح أو شعير يُقلى ثم يطحن لِيُسْفَ، تارة بماء وتارة بعسل وسمن .

إنها ابنة عبد الله بن عمر، فسأل عمر أباهما: ما صيرها إلى ما أرى؟ قال: منعك ما عندك، قال عمر: "ومنعي ما عندي منعك أن تطلب لبناتك ما يكسب الأقوياء لبناتهم؟ إنه والله مالك عندي غير سهمك في المسلمين، وسعك أو عجز عنك، هذا كتاب الله بيني وبينك" (١) ..

٢- رعاية عمر الضعفاء من الرعية:

كان عمر يتعهد - وهو خليفة المسلمين - عجائز المدينة وضعيفاتها، يأتي لهن بما يصلحهن، ويخرج عنهن الأذى (٢) .. ويرقب ضيفان المدينة والوافدين عليها ليلبي لهم حاجاتهم، ويكفل لهم راحتهم.. فقالت:مت رفقة من التجار المدينة بادر عمر إلى حراستهم ومعه عبد الرحمن بن عوف ليلاً، ولما سمع بكاء صبي نهر أمه إذ لم تكفك دمه بعد أن أوصاها به ثلاثاً.. فقالت: يا عبد الله - وهي لا تعرف أنه عمر - قد أبرمتي منذ الليلة، إنني أريعه (أي أريده) عن الفطام فيأبى عليّ، فقال عمر: ولم؟ قالت لأن عمر لا يفرض (في العطاء) إلا للفظيم، فلما مضى عمر لصلاة الفجر كان الناس لا يستبينون قراءته من غلبة البكاء، فلما انقضت الصلاة قال عمر: بؤسا لعمر كم قتل من أولاد المسلمين، ثم أمر منادياً فنادى: أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام، وكتب بذلك إلى الآفاق (٣) ..

وشهيرة قصة المرأة التي قدمت إلى المدينة فضربها وأبناءها البرد بالليل، فمضى الصبيان يبكون جوعاً؛ وهي لا تملك ما تطعمهم إياه، فتسكتهم بماء يغلى في القدر الفارغ، فلما رآهم عمر وهو يسعى خارج المدينة حمل إليهم بنفسه الدقيق والشحم، ومضى يصنع لهم الطعام وينفخ في النار لينضجه، فلما أكلوا وشبعوا

(١) ابن الجوزي: السابق ص ١٣٦، وانظر: ابن سعد: السابق ١٩٩/٣.

(٢) ابن الجوزي: السابق ص ٩٩.

(٣) السابق ٩٤ - ٩٥.

مضى عمر يركض للصبية ركض السبع - يداعبهم بذلك - حتى أضحكهم، وقال لغلامه الذي يعجب لحاله: إن الجوع أسهرهم وأبكاهم؛ فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت (١) ..

ولما هجم على المسلمين عام الرمادة (٢) سنة ١٨ هـ وضربهم القحط - إذ أمسكت السماء المطر وصار الناس والدواب يموتون جوعاً - آلى عمر على نفسه أن لا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى تزول المحنة، وكان يقول: " كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسنني ما مسنهم (٣)؟ وقد آذى بطنه أكل الزيت فكان يأمر به فيطبخ له لينكسر عنه حره، فيقرقر بطنه منه، فينقر عليها بإصبعه وهو يقول: " تَقْرُقْ تَقْرُقْ، إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس"، ويقول: " لتمرئن أيها البطن على الزيت مادام السمن يباع بالأواقي " (٤) ..

وألزم عمر أهل بيته هذه الحياة الصارمة، فلما رأى صبياً له بيد بطيخة في عام الرمادة قال: " بخِ بخِ، يا ابن أمير المؤمنين، تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى"، فخرج الصبي هارباً وهو يبكي (٥) .. ولما شم عمر رائحة اللحم في بيت ولده عبيد

(١) الطبري: السابق ٢٠٦/٤، ابن الجوزي: السابق ٩٦ - ٩٧، ابن كثير: السابق ١٨٠/٤.

(٢) سمي عام الرمادة بذلك لأن الأرض اسودت من الجذب فكثرت ترابها، فكانت الريح إذا تحركت سَفَتْ الأرض رماداً.

(٣) هذا هو المشهور عند المؤرخين، ولا يستقيم ذلك التاريخ مع ما ورد من إرسال عمرو بن العاص من مصر الطعام والكساء لمبرة أهل المدينة، إذ بدأ فتح مصر سنة ١٨ هـ، ويجعل ابن سعد بداية عام الرمادة مع صدور الناس من الحج في ذي الحجة سنة ١٨ هـ ومعنى ذلك أن عام الرمادة اشتد سنة ١٩ هـ وكان جزء من مصر قد تم فتحه، فأرسل عمرو النجدات وأخر سنة ١٩ هـ (راجع ابن سعد السابق ٢٤٣/٣، محمد حسن شراب: المدينة المنورة ٢/ ٣٢ - ٣٣).

(٤) الطبري: السابق ٩٨/٤.

(٥) ابن سعد: السابق ٢٤٧/٣.

الله أرسل من يأتيه به؛ حتى قال عبيد الله فرعًا لرسول أبيه: أسترنى سترك الله!، وأعتذر إلى أبيه بأنه لم يكن يعلم أن في بيته لحمًا (١) ..

وقد ترك ذلك الهمّ بأمر المسلمين أثره على الخليفة الذي اسودّ لونه - بعد بياض - عام الرمادة؛ حتى قال أصحابه: "لو لم يرفع الله المحل - أي شدة القحط - عام الرمادة لظننا أن عمر يموت همًّا بأمر المسلمين" (٢).

٣- تقديمه أهل السابقة والفضل وشدته على أهل التجاوز والتعدي:

كان كبار الصحابة هم أعضاء مجلس شورى عمر، ومحل سرّه ونجواه، لا يعدل بهم غيرهم، استأثر بهم على أهل الأمصار لشدة حاجته إلى رأيهم وتدبيرهم، وقدمهم عمر على من سواهم في تنظيمه ديوان العطاء، بل كان يحفظ ذكرى السابقين إلى الإسلام بعد وفاتهم، فقد جاءته إحدى النساء تشكو الفقر وضئعة الأولاد بعد وفاة زوجها، وأخبرته أنها ابنة خفاف بن إيماء (٣) - من أهل بيعة الرضوان - فأعطاهما عمر بغيرًا مملوءًا طعامًا، وأعطاهما نفقة وثيابًا، ووعدّها خيرًا، فقال رجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها، فقال عمر: ثكلتك أمك، والله إنني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنًا زمانًا فافتتاحه، ثم أصبحنا نستقيء سهامنا فيه (٤) ...

ووقف بباب عمر أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ونفر من رجالات قريش ممن تأخر إسلامهم، وكان معهم بلال وصهيب وبعض الموالى والمستضعفين، فإذن عمر لبلال وصحبه أن يدخلوا قبل أبي سفيان وصحبه، فتضجر أبو سفيان، فقال سهيل بن عمرو: "إن كنتم غضابًا فاغضبوا

(١) ابن الجوزي: السابق ص ٩١.

(٢) ابن سعد: السابق ٢٤٨/٣.

(٣) السابق ٢٥٠/٣، وانظر ص ٢٦٢.

(٤) ابن الجوزي: السابق ص ٩٣ - ٩٤.

على أنفسكم؛ دعي القوم - أي إلى الإسلام - ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دُعوا يوم القيامة وتُركتم ؟ (١) ..

وابتنى أبو سفيان رضي الله عنه دارًا بمكة، فشكاه أهلها إلى عمر، وقالوا: إنه "حبس مسيل الماء عنا ليهدم منازلنا"، وذلك بسبب اختياره موضع داره تلك، فأقبل عمر ومعه الدرّة، فوجد أبا سفيان قد نصب أحجارًا للبناء؛ فجعل عمر يقول له: "ارفع هذا الحجر"، فيرفعه، ثم يقول: "ارفع هذا الحجر"، فيرفعه، حتى رفع خمسة أو ستة أحجار، ورأى عمر أنه بذلك قد زال الضرر، فاستقبل الكعبة وقال: "الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه" (٢) ..

وعمر هو الذي أمر الرجل القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص أن يقتص منه، فضربه حتى أثخنه، ثم قال عمر: "أجلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه"، فقال الرجل: "يا أمير المؤمنين، لقد ضربت من ضربني"، فقال: "أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه، أيا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا" ؟ ثم قال للمصري: "انصرف راشدًا، فإن رابك ريب فاكتب إلي" (٣) ..

٤- مباشرة أمومر الخلافة بنفسه:

كانت سياسة عمر تطبيقًا أمينًا لتعهدده في خطابه بعد توليه الخلافة وقوله فيه: "ولا يحضرني من أموركم شيء فيليه أحد دوني"، فكان يلخص ذلك في بقوله: "لو ماتت شاه على شط الفرات ضائعة لظننت أن الله سألني عنها يوم القيامة" (٤)،

(١) السابق ١٢٩.

(٢) ابن الجوزي: السابق ١٢٨

(٣) السابق ١٣٠

(٤) السابق ١٩٢

وقوله: "لو مات جمل ضياعاً على شط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه" (١).. فكان عمر يعسّ بنفسه لينتقد أحوال رعيته ليلاً (٢)، بل كان يباشر إبل الصدقة - المملوكة للدولة - فإن نذّ منها بعير عدا عمر في طلبه، وقد رآه عليّ ابن أبي طالب مرة يفعل ذلك؛ فقال: "لقد أدلت الخلفاء بعدك"، فقال عمر: "لا تلمني يا أبا الحسن؛ فوالذي بعث محمداً بالنبوة لو أن عناقاً . وهي أنثى المعز . ذهبت بشط الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة" (٣).. وهكذا كانت الخشية من المحاسبة أمام الله تعالى عن أمة النبي ﷺ هي التي تورق على عمر عيشته ويذهب تذكراها راحته..

قدم عليه الأحنف بن قيس في وفد من العراق، فوجد عمر معتجراً بعباءته يلفُ بها رأسه في يوم صائف شديد الحر يهنأ بعيراً من إبل الصدقة (٤)، فقال: يا أحنف ضع ثيابك وهلمّ فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير، فإنه لمن إبل الصدقة فيه حق لليتيم والمسكين والأرملة، فقال رجل من القوم: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلاً تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك هذا؟ فقال عمر: "وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف، إنه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين، يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده" (٥)..

ودخل عمر حظيرة إبل الصدقة ومعه عثمان وعليّ؛ فجلس عثمان في الظل يكتب؛ وقام عليّ على رأس عمر يُلمي على عثمان ما يقوله، وعمر في الشمس قائم - في يوم شديد القَيْظ - عليه بُردان أسودان، قد انتزرت بأحدهما ولف الآخر على رأسه، يعدّ إبل الصدقة، ويكتب ألوانها وأعمارها، فقال عليّ لعثمان

(١) ابن سعد: السابق ٢٣٦/٣

(٢) الطبري: السابق ٢٠٥/٤

(٣) ابن الجوزي: السابق ص ١٩٣-١٩٤

(٤) أي يطلي قروحه بالقار ليشفى ..

(٥) ابن الجوزي: السابق ص ٩٩

متعجبًا من جلد الخليفة وقوته: " نَعَتَ ابنة شعيب في كتاب الله: (يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ
إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) (١) .. ثم أشار إلى عمر وقال: " هذا القوي
الأمين " (٢) ..

وقد مرت بنا صور من مراعاته ضعفاء المسلمين وعجائزهم وغريبهم، ومن
ذلك أنه خرج مع غلامه ليلة إلى ظاهر المدينة فلاح لهما بيت من الشَّعر فقصداه
فإذا فيه امرأة تعاني المخاض وتبكي، وإذا هي امرأة غريبة ليس عندها شيء،
فبكى أمير المؤمنين، وهرول إلى بيته، فقال لامرأته أم كلثوم بنت عليّ ابن أبي
طالب: " هل لك في أجر ساقه الله إليك " ؟ وأخبرها الخبر، فخرجت معه، وحمل
على ظهره الدقيق والشحم، وحملت امرأته ما يصلح للولادة، ودخلت أم كلثوم على
المرأة، وجلس عمر خارج البيت مع زوجها، فوضعت المرأة غلامًا، فنادت أم كلثوم
عليه: يا أمير المؤمنين بشّر صاحبك بغلام، فلما سمع الرجل قولها استعظم ذلك
من عمر . ولم يكن يعرفه . فأخذ يعتذر إليه، فقال عمر: لا بأس عليك، ثم أعطاهم
النفقة وما يصلحهم، وانصرف (٣) .

٥- سياسة عمر مع ولاياته:-

(أ) أسس اختيار الولاة:

مر بنا حديث عن إجلال عمر كبار الصحابة واحتجازهم بالمدينة ليكونوا
مجلس شوراه، إلا أنه اختار بعضهم ليكونوا ولايته على الأمصار مثل عمرو بن
العاص وسعد بن أبي وقاص وأبي موسى الأشعري ومعاوية بن أبي سفيان
والمغيرة بن شعبة وعمار بن ياسر وغيرهم، وكان يستعمل هؤلاء ويترك غيرهم

(١) سورة القصص: آية ٢٦

(٢) الطبري: السابق ٢٠١/٤

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٧٩/٤-١٨٠

ممن يعلوهم في الفضل والدين مثل عثمان وعلي وطلحة والزبير، وكان ذلك بصيرة من عمر، "لقدوة أولئك على العمل والبصر به، ولإشراف عمر عليهم وهيبتهم له، وقيل له: مالك لا تولي الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: أكره أن أدنّسهم بالعمل" (١)، ولا ريب أن من ولاهم عمر كانوا أهيب له وأطوع، وأحرص على استشارته في كبير أمورهم ودقيقتها عما كان قد يحدث لو ولى أمثال عثمان وعلي والزبير؛ مع ما لهم من اعتداد بمكانتهم واستقلال في رؤيتهم، فوضعهم عمر في موضعهم كأهل للشورى والنصح؛ ليفيد كل من كل الطاقات والمواهب لهؤلاء النفر الممتازين..

وكان عمر يحذر من تحزّب المجتمع حول بعض الأكابر من أصحاب النبي ﷺ، مما يفتت القوى السياسية بالدولة في وقت تواجه فيه الأعداء والخطر؛ ولما تفرق هؤلاء الكبار فيما بعد في الأمصار تجمع حولهم من المسلمين الجدد والقدماء ما بدت مخاطره في خلافة عثمان كما سيأتي.. وقد قال عمر يوماً لجماعة من أصحابه: "بلغني أنكم تتخذون مجالس؛ لا يجلس اثنان معاً حتى يقال: من صحابة فلان؟ من جلساء فلان؟ حتى تُحوميت المجالس، وإيم الله إن هذا لسريع في دينكم، سريع في شرفكم، سريع في ذات بينكم، لكأني بمن يأتي بعدي يقول: هذا رأي فلان، قد قسّموا الإسلام أقساماً، أفيضوا مجالسكم بينكم، وتجالسوا معاً، فإنه أدوم لألفنكم، وأهيب لكم في الناس" (٢)..

وكان عمر شديد الاعتزاز بهؤلاء النفر المتميزين من الصحابة، وقد تمنى وهو يجالس بعض أصحابه يوماً. وكلهم يتمنى أمنيته - رجالاً ملء هذا البيت مثل أبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة (٣).. فكان شديد الحرص على تخير ولاته من

(١) ابن سعد: السابق ٢٠٧/٣، وهي مقولة شبيهة بما ينسب إلى أبي بكر في ذات الموطن، وهي بعمر أليق إذ اتسعت الولايات في عهده وانضح أنها سياسة ثابتة..

(٢) الطبري: السابق ٢١٣/٤-٢١٤

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ١٥٠/٣

هؤلاء السابقين إلى الإسلام ليفيدوا أمصارهم علمًا ودينًا وعدلاً... وكان ذلك ملحوظًا إلى درجة قال فيها عتبة بن غزوان أمير البصرة: " .. لقد رأيتني وأنا سابع سبعة مع النبي ﷺ؛ مالنا طعام إلا ورق السمُر حتى تفرحت أشداقنا، والنقطة بُردُه فشققتها بيني وبين سعد (بن أبي وقاص)، فما منا من أولئك السبعة من أحد إلا وهو أمير مصر من الأمصار، وسيجربون الناس بعدنا " (١) ..

غير أن الخليفة مع اعتزازه بهؤلاء السابقين إلى الإسلام كان إذا رأى تقاعسًا منهم عن واجب آخرهم وقدم السابقين إلى أدائه، كما حدث لما ولي أبا عبيد بن مسعود النخعي إمارة الجيش المتجه إلى العراق، ولم يؤمّر أحدًا من كبار المهاجرين والأنصار، لأنهم تأخروا وتقدم أبو عبيد، وكان عمر إذا رأى خللاً في إدارة أحدهم لعمله عزله؛ ولم يشفع له قدمه في الإسلام، ولا مكانته من رسول الله ﷺ إذا ما تواضعت كفاءته.. وكان ذلك منسجمًا مع تعهده في أول خطبة أن يولي "أهل الجزء والأمانة"، فقد ولي عمار بن ياسر الكوفة ثم عزله لما شكاه أهلها وقال: "لقد علمت ما أنت بصاحب عمل، ولكنني تأولت: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (٢).

ولما تعددت شكاوي أهل الكوفة من عماله اهتم لذلك عمر فسأل أصحابه: ما تقولون في تولية رجل ضعيف مسلم أو رجل قوي مشدد؟ فقال المغيرة بن شعبة: "أما الضعيف المسلم فإن إسلامه لنفسه وضعفه عليك، وأما القوي المشدد فإن شداذه لنفسه وقوته للمسلمين"، فولاه عمر الكوفة.. (٣)

ويتصل بذلك أن عمر لم يكن يؤمّر أحدًا من أهل الردة السابقين الذين عادوا إلى الإسلام، وقد استعملهم في الجهاد؛ ولم يكن أبو بكر يستعملهم لحديث

(١) الطبري: السابق ٥٩٢/٣

(٢) راجع: السابق ١٣٩/٤، ١٦٣-١٦٤

(٣) السابق ١٦٤/٤-١٦٥

عهدهم بالردة^(١)، لكن عمر كان "لا يؤمّر منهم أحدًا إلا على النفر وما دون ذلك"^(٢)، وكان ذلك تطورًا طبيعيًا للأمور، وإشراكًا تدريجيًا لهم في نسيج المجتمع الإسلامي المجاهد، غير أن حذر عمر منهم لم يمنعه من إجلال رأي أهل الرأي منهم والكفاية، فقد أوصى أميره النعمان بن مقرن لما بعثه إلى نهاوند سنة ٢١ هـ أن يسمع رأي طليحة بن خويلد وعمرو بن معديكرب وغيرهما ممن كانوا من زعماء الردة الذين حسن إسلامهم ولا يوليهم شيئًا^(٣)..

ويلخص الطبري اختيارات عمر لقادته وأمرائه فيقول: "وكان لا يعدل أن يؤمّر الصحابة إذا وجد من يُجزي عنه في حربه، فإن لم يجد ففي التابعين بإحسان، ولا يُطمع من انبعث في الردة بالرياسة، وكان رؤساء أهل الردة في تلك الحروب حشوة إلى أن ضرب الإسلام بجزانه"^(٤)

وامتد اشتراط عمر الكفاءة والقوة ليشمل جميع ولاته، فكان يقول: "إني لأتخرج إن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه"^(٥)، ويقول: "والله لأنزعن فلانًا عن القضاء، ولأستعملن على القضاء رجلاً إذا رآه الفاجر فرقه"^(٦)..

وفضلاً عن الدين والكفاءة الإدارية كان عمر يتوخّى في ولاته الرحمة والشفقة على الرعية.. وكم من مرة أمر قادته في الجهاد ألا يغرروا بالمسلمين ولا ينزلوهم منزل هلكة.. وكتب عمر لرجل من بني أسلم كتابا يستعمله به، فدخل الرجل على عمر وبعض أولاده في حجره يُقبّلهم. فقال الرجل: تفعل هذا يا أمير

(١) السابق ٤٤٨/٣

(٢) السابق ٢٥/٤، وانظر ٥٥٧/٣

(٣) السابق ١٢٧/٤

(٤) السابق ٢٥/٤

(٥) ابن سعد: السابق ٢٣٦/٣

(٦) ابن الجوزي: السابق ص ١٥٣، وقرّقه، أي خاف منه.

المؤمنين؟ فوالله ما قبّلت ولدًا لي قط، فقال عمر: فأنت والله بالناس أقل رحمة، لا تعمل لي عملاً، وردّه عمر فلم يستعمله^(١)..

وغزت بعض جيوشه بلاد فارس حتى انتهت إلى نهر، فأمر أمير الجيش أحد جنوده أن ينزل - في يوم شديد البرد - لينظر للجيش مخاضة يعبر منها، فقال الرجل: إني أخاف إن دخلت الماء أن أموت، فأكرهه القائد على ذلك، فدخل الرجل الماء وهو يصرخ: يا عمراه يا عمراه! ولم يلبث أن هلك، فبلغ ذلك عمر وهو في سوق المدينة؛ فقال: يا لبيكاه يا لبيكاه! وبعث إلى أمير ذلك الجيش فنزعه، وقال: "لا تعمل لي على عمل أبدًا"^(٢).. وخطب ولاته فقال: اعلموا أنه لا حلم أحب إلى الله تعالى ولا أعمّ من حلم إمام ورفقه، وأنه ليس جهل أبغض إلى الله ولا أعمّ من جهل إمام وخرقه، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهرانیه يُرزق العافية ممن هو دونه"^(٣).

وكان عمر حريصًا على أن لا يولي أحدًا من أقاربه؛ رغم كفاية بعضهم وسبقه إلى الإسلام مثل سعيد بن زيد - ابن عمه - وعبد الله بن عمر ابنه، وقد سمعه رجل من أصحابه يشكو إعضال أهل الكوفة به في أمر ولاتهم. وقول عمر: "لوددت أني وجدت رجلاً قويًا أمينًا مسلمًا استعمله عليهم". فقال الرجل: أنا والله أدلك عليه، عبد الله بن عمر، فقال عمر: "قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا"^(٤)، وقد استبعد عمر - لما طعن - ابن عمه سعيد بن زيد من مجلس الشورى الذي جعل إليه تعيين الخليفة بعده، ولم يجعل لابنه عبد الله من الأمر شيئًا إلا أن يرجح

(١) السابق والصفحة

(٢) السابق والصفحة، ومعنى أقدت منك: اقتصصت منك

(٣) السابق ص ١٥٠

(٤) السابق ص ١٥١

كفة أحد الفريقين إن تساوى عدد كل منهما.. وكان يقول: "من استعمل رجلاً لمودة أو لقرابة - لا يشغله إلا ذلك - فقد خان الله ورسوله" (١) ..

وامتدت عين عمر لتراقب صلات الولاة والعمال بأهله مخافة أن يقع أحدهم في شبهة مجاملة لهم أو استغلال لنفوذ الخليفة.. فقد أهدى أبو موسى الأشعري عامل عمر في العراق "طنفسة" (٢) قدر ذراع وشبر إلى زوجة عمر عاتكة بنت زيد، فراها عمر، وسألها: أنى لك هذا؟ فأخبرته، فأخذها عمر وظل يضرب بها رأسها حتى نغض رأسها (٣)، ثم أمر أن يؤتى بأبي موسى مُتَعَبًا، فأتاه فقال عمر: ما يحملك على أن تُهدي لنسائي؟ ثم أخذ الطنفسة فضرب بها رأس أبي موسى وقال: خذها فلا حاجة لنا فيها (٤) ..

ب) تحديد مهمة الولاة:-

كان عمر يوضح لعماله مهمتهم بدقة، ويعلم ذلك على الرعية ليكونوا شركاءه في رقابتهم؛ فمن خالف ذلك منهم اقتص منه.. فقد أمر عماله أن يوافوه في موسم الحج، وفي ذلك المؤتمر الكبير الذي يؤمُّ المسلمون أوقف عمر عماله ثم قال: "أيها الناس إنني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم بينكم" (٥)، وقال عمر لولاته: ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تمنعوهم حقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيّعوهم" (٦) ..

(١) السابق ص ١٠٤-١٠٥

(٢) الطنفسة: بساط له خمل رقيق..

(٣) أي تحرك من الألم

(٤) ابن سعد: السابق ٢٤١/٣

(٥) ابن سعد: السابق ٢٢٢/٣، وفي رواية ابن الجوزي (السابق ١٢٥) زيادة: "ليعلموكم دينكم وسننكم"

(٦) الطبري: السابق ٢٠٤/٤، ابن الجوزي: السابق ص ١٢٥

ومنع عمر عماله من التريح بأعمال خاصة بهم طوال مدة شغلهم ولاياتهم، فقد أرسل عامله الحارث بن كعب بن وهب على إحدى العِمالات: فظهر عليه الثراء، فسأله عمر عن ذلك فقال: خرجت بنفقة معي فتجرتُ بها، فقال عمر: أما والله ما بعثناكم لتتجروا، وأخذ منه ما ربحه في تجارته (١)..

وجاء أبو هريرة عامل عمر على البحرين بعشرين ألفاً، فسأله عمر: من أين أصبتها؟ قال: كنت أتجر، فقال عمر: انظر إلى رأس مالك ورزقك فخذ، واجعل الآخر في بيت المال (٢)، وليس في ذلك حرجٌ على حربة الإنسان في التجارة والكسب، بل هو الحرص على ألا يستفيد من منصبه فيضغط على رعيته ليكسب من ورائهم؛ أو يجاملوه بالتجارة معه وتوفير الأرباح له ليفيدوا هم من ذلك بفعل موقعه كأmir؛ مما يفتح باباً واسعاً للفساد..

وكان عمر إذا استعمل عاملاً كتب عليه كتاباً، وأشهد عليه رهطاً من الأنصار: أن لا يركب برونًا (٣)، ولا يأكل نقيًا (٤)، ولا يلبس رقيقاً ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين، ثم يقول: اللهم اشهد (٥)، وفي ذلك ما يحفظ للدولة الإسلامية وعمالها سمت الجهاد والزهادة والإقبال على الآخرة.. وقد كان عمر نفسه يقسو على نفسه أشد من ذلك كما مر بنا.. وقد رأينا أنه كان مما يشترط عمر على ولايته " ألا يغلقوا أبوابهم دون حاجات المسلمين "، وصل إلى سمعه أن عامله على الكوفة سعد بن أبي وقاص اتخذ داراً بها كانت الأسواق قريبة منها فتمنعه أصوات أهلها من الراحة والعمل، فاتخذاً لبيته باباً يحجز عنه أصوات الناس، فبلغ عمر أن الناس يسمون البيت قصر سعد؛ وأنه اتخذ له باباً فحجبه عن حاجات الناس،

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥٤/١

(٢) ابن سعد: السابق ٢٠٤/٤

(٣) البرذون هو غير العربي من الخيل والبغال، عظيم الخلقة، فيه فراهة ومنظر (المعجم الوجيز).

(٤) هو الدقيق المنخول

(٥) ابن الجوزي: السابق ص ١٤٦، الطبري: السابق ٢٠٧/٤-٢٠٨

فأرسل عمر محمد بن سلمة الأنصاري إلى الكوفة وأمره أن يعمد إلى قصر سعد فيحرق بابه، ثم يرجع إلى المدينة، ففعل^(١)..

وبلغ عمر أن أحد عماله واسمه عبد الله بن قرط اتخذ عليّ ؓ احتجب فيها عن الناس، فأرسل إليه رجلاً أمره أن يحرق باب هذه العليّة، فقدم عبد الله بن قرط منزعاً لغضبة عمر، فأمر به أن يحبس عنه ثلاثة أيام في الشمس، ثم لقيه عمر فأمره أن يلحق به عند الحرّة خارج المدينة، وفيها إبل الصدقة وأغنامها، ثم أمره هناك أن ينزع ثيابه ويأترر، ثم ناوله دلوّاً وقال: اسق هذه الإبل، فلم يفرغ من ذلك حتى تعب، فقال عمر: يا ابن قرط متى كان عهدك بهذا؟ قال: ملياً يا أمير المؤمنين، قال: " فلماذا بنيت العليّة وأشرفت منها على المسلمين والأرملة واليتيم؟ ارجع إلى عملك ولا تُعد"^(٢).. وكان عمر يضرب الأسوة بنفسه، فكان لا يتخذ باباً ولا حجاباً، يصلي الصلاة ثم يقعد للناس يكلمه من شاء^(٣).. وكان يمنع عماله من قبول الهدايا، ويحكى في ذلك خبر طريف حدث مع عمر نفسه! فقد أهدى رجل إلى عمر فخذ جزور، وتكرر ذلك من الرجل، إلى أن جاءه ذات يوم برجل آخر يخاصمه، فقال الذي يُهدي إلى عمر: يا أمير المؤمنين اقض بيننا قضاءً فصلاً كما يُفصل الفخذ عن سائر الجزور، يقول عمر: "فما زال يكررها حتى خفتُ على نفسي"، فقضى عمر لخصمه لما استبان له الحق عليه، وكتب إلى عماله: " أما بعد، فإياكم والهدايا فإنها من الرشا " ^(٤)..

ج) محاسبة الولاة وعزل من يقصّر منهم:

(١) الطبري: السابق ٤/٤٧، ابن حزم: المحلى ٩/٣٠٧

(٢) المحب الطبري: الرياض النضرة ٢/٥٥

(٣) الطبري: السابق ٤/٢٠٢

(٤) ابن الجوزي: السابق ١٦٤

كان عمر يفرض على عماله رقابة لصيقة ليضمن سيرهم على مقتضى الدين والعدل، ويحرض رعيته على مراقبة عمالهم ومحاسبتهم والمطالبة بحقوقهم، فإن نزلت بهم مظلمة فليخبروا أمير المؤمنين..

وكان موسم الحج فرصة لعمر ليستقصي أخبار رعيته وولاته، فجعله موسمًا "للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء في شتى الأنحاء؛ فيجتمع فيه أصحاب الشكايات والمظالم، ويفد فيه الرقباء الذين كان عمر ييئهم في أرجاء دولته لمراقبة العمال والولاة، ويأتي العمال أنفسهم لتقديم كشف الحساب عن أعمالهم.. فكان موسم الحج "جمعية عمومية كأرقى ما تكون الجمعيات العمومية في عصر من العصور" (١)..

وكان عمر يلخص في موسم الحج واجبات عماله أمام الرعية ثم يقول: "فمن فعل به غير ذلك فليسوط بدينارين" أهل الموسم -آنذاك- أحد إلا رجل واحد - مما يدل على عدالة هؤلاء العمال ورضا الرعية عنهم - فقال ذلك الرجل: إن عاملك فلانًا ضربني مائة سوط؛ فسأل عمر العامل فلم يجد عنده جوابًا، فقال للرجل: قم فاقتص منه، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر، ويكون سنة يأخذ بها بعدك، فقال عمر: "أنا لا أفيد - أي اقتص - وقد رأيت رسول الله ﷺ يقيد من نفسه؟ فقال عمرو: فدعنا فلنرضه، فقال: دونكم فأرضوه، فافتدى العامل من الرجل بمائتي دينار، كل سوط بدينارين" (٢)..

وشكا رجل إلى عمر أن عمرو بن العاص أمير مصر اتهمه أمام الناس بالنفاق، فأمره عمر أن يقيم على ذلك شاهدين، فإن فعل فليضرب عمرًا أربعين أو سبعين سوطًا، وكتب إلى عمرو بذلك، فأقم الرجل الشهود في مجلس عمرو، فلم

(١) العقاد: عبقرية عمر ص ٨٢، وانظر د. سليمان الطماوي: عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة ص ١٠٦-١٠٧

(٢) ابن سعد: السابق ٢٢٢/٣، ابن الجوزي: السابق ١٢٥

يجد بدءًا من أن يمكنه من السوط ليضربه، فلما جلس بين يديه قال الرجل: أتقدر أن تتمنع مني بسلطانك؟ قال: لا، قال الرجل: فأني أدعك لله^(١).. وشبيه بذلك قصة عمر مع القبطي الذي سبقت خيله خيل ابن عمرو بن العاص فضربه ابن عمرو، فأمر عمر الرجل أن يقتص منه، وقد مر بنا ذكرها قريبًا

ومع هذه المراقبة الشعبية كان عمر يمارس رقابة من نوع آخر على عماله - فيما يزعم بعض الرواة - فكانت له عيونته التي تأتيه بأخبارهم فلا يغيب عنه من أمورهم شيء، فكان "علم عمر بمن نأى عنه من عماله كعلمه بمن بات معه في مهادٍ واحد على وسادٍ واحد، فلم يكن في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي عامل أو أمير جيش إلا وعليه عين لا يفارقه، فكانت ألفاظ من بالمشرق والمغرب عنده في كل ممسى ومصبح، وأنت ترى ذلك في كتبه وعماله، حتى كان العامل منهم لينهم أقرب الناس إليه وأخصهم به " ^(٢)..

وربما كانت في هذه الأقوال التي تنسب إليه تعيين رقباء أو جهاز مخابرات داخلية على عماله مبالغة، فلو حدث لُنقلت إلينا أخبار عنه في مصادرنا التاريخية الباكورة^(٣)، ولكن أخبار العمال والولاة كانت تصل إلى عمر فعلاً بما مارسه من تأجيج المراقبة الشعبية لعماله، وتيسير سبل الاتصال ووسائله بينه وبين رعيته فلا تتوب نائبة إلا وصلت إلى مسامعه.. أما ما سوى علاقة الأمراء بالرعية من خصوصيات عماله فلم يكن عمر يتحسس أخبارها..

وهذه المتابعة لأمرائه - بما تعنيه من بذل مجهود وافر في شتى الاتجاهات وفي دولة متسعة الأنحاء بغير وسائل مواصلات سريعة ولا أجهزة اتصال كالتى يعرفها عصرنا - إنما أتت من خشية عمر ربه أن يحاسبه على

(١) ابن الجوزي: السابق ١٢٦-١٢٧

(٢) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ص ١٦٨

(٣) إلا في بعض الأحوال الحرجة والخاصة مثل المعارك والحروب فكانت لعمر "العيون في كل جيش" (الطبري: السابق ٤٧٦/٣)

ذنب اقترفه أحد عماله فلم يؤاخذه به، أو ظلم وقع على أحد الرعية فلم ينتصر له.. فكان عمر يخشى لو عثرت دابة بالعراق أن يسأله الله عنها، ويقول: "أيا عامل لي ظلم أحدًا فبلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته"^(١)، وقال يوماً لجلسائه: "أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أكنت قضيت ما عليّ؟ قالوا: نعم، قال: لا حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا؟"^(٢) وكان يقول: "اللهم إني لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا ليضربوا أبشارهم، من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دوني"^(٣)..

ورغم كل هذه الاحتياطات في مراقبة العمال، وأنه كان "لا يخفى عليه شيء في عمله"^(٤) فقد كان مشفقاً من الحساب عن خطأ أو مظلمة ارتكبتها أحد عماله ولم يصله خبرها، فكان يقول: "لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تُقطع دوني؛ أما عمالهم فلا يرفعونها إليّ، وأما هم فلا يصلون إليّ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم فيها شهرين، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لنعم الحول هذا"^(٥)..

(د) عزل الولاة بالشبهات والشكايات:-

لجأ عمر أحياناً متعددة إلى عزل بعض أكفأ عماله لما شكتهم بعض رعيتهم لشبهات طارئة، وهو يعلم براءة ساحتهم من كل ما يشين، فقد كان يؤمن

(١) ابن سعد: السابق ٢٣٦/٣

(٢) الهندي: كنز العمال ١٦٥/٣

(٣) الطبري: السابق ٢٠٣/٤

(٤) السابق ٦٧/٤

(٥) السابق ٢٠٢/٤، ابن الجوزي: السابق ١٥٣-١٥٤

بوجوب إبعاد المسؤولين عن كل شبهة حرصًا على رضا الرعية وسلامة الدولة ومصالحتها^(١)، إذ إن ظروف الدولة الإسلامية آنذاك كانت تقتضي توافر درجة عالية من الرضا بين الحاكمين ورعاياهم؛ نظرًا لما تشهده من توسع هائل في مساحتها الجغرافية، ودخول أعداد غفيرة من البشر تحت سلطانها وما تتطلبه أحوالها من تطوير للنظم الإدارية الحاكمة ومواصلة للجهاد.. فكان عمر يقول: "هان شيئًا أصلح به قومًا أن أبدلهم أميرًا مكان أمير" ^(٢)..

ومن ذلك أن عمر عزل المغيرة بن شعبة عامله على البصرة لما اتهمه بعض جيرانه - وكانت بينه وبينهم ملاحاة وخصومة - أنه زنى بامرأة، فأرسل عمر يعزله ويستقدمه، وولى بدله أبا موسى الأشعري سنة ١٧هـ.. ولما تضاربت أقوال الشهود في مجلس التحقيق الذي مثل أمامه المغيرة، ولم تكن على ما تقتضيه ضوابط الاتهام بالزنا في الإسلام، جلداهم عمر حد المفترى ثمانين جلدة، وأقرّ عزل المغيرة رغم عدم ثبوت التهمة عليه^(٣).. ولكنه عاد فولاه الكوفة - لا البصرة التي شكاه بعض أهلها - لما عزل عنها عمار بن ياسر، فلم يزل واليًا عليها حتى مات عمر^(٤)..

وبينما سعد بن أبي وقاص يواجه حروب الفرس وانتقاضاتهم إذا بنفر من أهل الكوفة يؤلبون أهلها ضد سعد، ويبلغون شكايتهم إلى عمر، فقال عمر: إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم من استعداد، وإيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم.. فأرسل محمد بن مسلمم الأهم؛ عراق للتحقيق في شكاياتهم والمسلمون يستعدون لموقعة نهاوند، فقدم

(١) راجع العقاد: عبقرية عمر ص ٩٠-٩١

(٢) ابن سعد: السابق ٢٠٩/٣، ابن الجوزي: السابق ١٥١

(٣) راجع الطبري: السابق ٦٩/٤-٧٢، البلاذري: فتوح البلدان ٣٣٩-٣٤٠، ابن كثير: السابق

١٠٩/٤-١١٠

(٤) البلاذري: السابق ص ٢٧٨

محمد على سعد فطّوف به في مساجد الكوفة فلا يسأل عنه أهل مسجد إلا قالوا: لا نعلم إلا خيرًا، ولا نشتهي به بدلًا، ولا نقول فيه، ولا نُعين عليه، إلا ما كان من هؤلاء النفر الذين شكوه ومن مالأهم؛ فكانوا يتركون الثناء عليه ولا ينطقون أمام الناس بسوء عنه، حتى قام رجل من بني عبس يدعى أسامة بن قتادة، فقال: إن سعدًا "لا يقسم بالسّويّة، ولا يعدل في الرعية ولا يغزو في السّرية"، فقال سعد: اللهم إن كان قالها كذبًا ورتاء وسمعة فاعمِ بصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن، فعمى الرجل واجتمع عنده عشر بنات، وافتضح مع النساء، فكان إذا عثر به في موضع فتنة قال: "دعوة سعد الرجل المبارك!!" وقال بعض بني أسد: إنه لا يحسن يصلي!! فلما بلغ ذلك عمر وسأل سعدًا واطمأن منه قال: لولا الاحتياط لكان سبيلهم بيئًا " (١)، ورغم ذلك فقد عزل سعدًا عن الكوفة مراعاة لأحوال المسلمين هناك وهم في حروب مع عدوهم تستلزم توفير الهدوء الداخلي فيها.. ولعله أراد أن يستأثر بسعد ليكون بجواره بالمدينة يستضيء برأيه مع إخوانه من كبار المهاجرين والأنصار، بدل أن يبدد طاقات الرجل في شغب أهل الكوفة الذي لا ينتهي..

ولو كان الأمر على غير ذلك لكان سبيل الوشاة بيئًا كما قال عمر، ولكان الخليفة قد فعل مثلما فعل مع أحد رجال البصرة الذي كذب على عاملها أبي موسى الأشعري وشنّع به عند عمر، فلما استدعى عمر أبا موسى وتحقق من الأمر وجده مظلومًا، ووجد الشكاية مكذوبة - ولم يكن الوضع في البصرة حرجًا كما كان في الكوفة - فلم يعزل عمر أبا موسى واستبقاه (٢)..

وكان عمر رغم حرصه على إلزام عماله بالمثل الإسلامي الأعلى في سمتهم وعيشتهم يراعي تغيّر الأحوال أحيانًا ومقتضياتها.. فلما ذهب إلى الشام

(١) راجع الطبري: السابق ١٢٠/٤-١٢٢، البلاذري: السابق ٢٧٧

(٢) راجع الطبري: السابق ١٨٤/٤-١٨٥

واستدعى أمراءه ليلاقوه بالجابية وهو في طريقة لفتح بيت المقدس أقبلوا عليه - يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة وخالد - عليهم ما ظنه عمر الديباج والحريز، فنزل واخذ الحجارة يرميهم بها، وقال: ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم، إياي تستقبلون في هذا الزيّ وإنما شعبتم منذ سنتين ... فقالوا: يا أمير المؤمنين إنها يلامقة - وهي القباء المحشو . وإن علينا السلاح، قال: فنعم إذن^(١) ..

ولما قدم الشام تلقاه معاوية في موكب عظيم، فلما دنا منه، قال عمر: أنت صاحب الموكب؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قال: هذا حالك مع ما يبلغني من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: هو ما بلغك يا أمير المؤمنين، قال: ولم تفعل هذا؟ لقد هممت أن أمرك بالمشي حافياً إلى بلاد الحجاز، قال: يا أمير المؤمنين إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة، فيجب أن نُظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز الإسلام وأهله ونرهبهم به، فإن أمرتني فعلت، وإن نهيتني انتهيت، فقال عمر: لئن كان ما قلت حقاً إنه لرأي أديب، ولئن كان باطلاً إنه لخدعة أريب، قال: فمرني يا أمير المؤمنين بما شئت، قال: لا أمرك ولا أنهاك، فقال رجل: يا أمير المؤمنين ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه، فقال عمر: لحسن موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه^(٢) ..

- عزل خالد بن الوليد وأسبابه:

كان من أوائل ما فعله عمر لما ولي الخلافة أن عزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة للجيش في الشام؛ وليس عن العمل العسكري تماماً - وهو ما لم يحدث إلا سنة ١٧هـ لما استبعده عمر عن ولاية قنسرين - وتخلط بعض مصادرها التاريخية بين الأمرين، فنسوق خبر عزله الأول سنة ١٣هـ وخبر عزله النهائي سنة

(١) الطبري: ٦٠٧/٣، ابن الأثير: السابق ٣٤٨/٢

(٢) ابن كثير: السابق ٦٣٤/٤

١٧هـ دون تفريق بينهما^(١).. وقد جاء قرار عزله فور تولي عمر الخلافة سنة ١٣ هـ والمسلمون يقاثلون الروم في موقعة اليرموك، وقيل: بل كان ذلك والمسلمون يحاصرون دمشق، فاستحيا أبو عبيدة الذي جعله عمر أميراً عاماً للجيش بالشام بدل خالد أن يقرئ خالدًا قرار عزله حتى تم فتح المدينة، وجرى الصلح على يديه وكتب باسمه كما يزعم ابن إسحاق^(٢)..

واختلاف المؤرخين في الواقعة التي عزل فيها خالد عائد إلى اختلافهم في ترتيب وقائع الفتح في الشام، فمن يرى أن اليرموك كانت سنة ١٣هـ رأى أن قرار العزل جاءه في أثنائها، فتريث حتى تم النصر فيها، ثم أسند الأمر إلى أبي عبيدة، ومن رأى أن فتح دمشق كان سنة ١٣هـ قبل اليرموك رأى أن قرار عزله جاء في أثنائه؛ فأخبره به أبو عبيدة..

وقد أسرف الرواة والمؤرخون في تبرير عزل خالد وتفسيره كما لم يفعلوا في عزل غيره من الولاة والقادة، وذلك بسبب ذبوع ذكر خالد ومواهبه العسكرية الفذة التي دوّخت العالم آنذاك، وأورثت الناس عجباً ودهشة.. وروى في سبب ذلك أن عمر كان سيئ الرأي في خالد منذ أمد بعيد، بسبب تسرعه في سفك الدماء في حروبه، والتصرف في الأموال في معاملاته، والمبادرة إلى بعض الأعمال بغير إذن خليفته.. وكان في خالد إقدام على التنكيل بمن يراهم خصوماً للإسلام، لا يلتبس لمحارب منهم عذراً، وقد بدا ذلك منه في حياة النبي ﷺ^(٣)، وفي خلافة أبي بكر لما قتل مالك بن نويرة من زعماء الردة الذي اختلف في عودته إلى

(١) الطبري: السابق ٣/٤٣٤-٤٣٥-٤٣٧، ٤/٦٧-٦٨، شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة ١٢١

(٢) السابق ٣/٤٣٤-٤٣٥

(٣) شن خالد القتال على المشركين في فتح مكة بمجرد أن تصدى له بعضهم، فقاتلهم ولا عتب عليه في ذلك (ابن هشام السيرة النبوية ٤/١٨-١٩) وأرسله النبي ﷺ إلى بني جذيمة بعد الفتح داعياً لا مقاتلاً فقاتلهم، واعتذر بأن بعض أصحابه أخبره أن النبي ﷺ أمره بقتالهم، فتبرأ النبي ﷺ من ذلك، وأرسل من دفع ديات القتلى، وأرضى أهلهم (السابق ٤/٣٦-٣٧)

الإسلام، ولو كان مالك قد أعلن إسلامه صريحاً واضحاً لما كان لخالد عليه سبيل، ولما اختلف أصحاب خالد في موقفهم منه لما قتله، وتزوج امرأته ليلى، وقد أثار ذلك حفيظة عمر الذي طلب من الخليفة أبي بكر أن يعزل خالدًا لأن " في سيف خالد رهقاً "، فأبى أبو بكر وقال: " لا أشيم سيفاً سلَّه الله على الكافرين"، ودفع دية مالك واعتذر عن خالد بأنه تأول فأخطأ^(١).. وأقر خالدًا ولم يعزله - وإن عتقه وعاتبه - لحاجة المسلمين آنذاك إليه وإلى قوة سيفه وصرامته وذكائه الحربي غير المسبوق.. وله في ذلك أسوة برسول الله ﷺ لما عاتب خالدًا في بعض ممارساته وودي من قتلهم ثم أبواه مع ذلك على قيادة جيوشه كلما رأى حاجة إلى قيادته..

وظل عمر على رأيه الذي يؤثر الاحتياط في أمر الدماء وسفكها.. وكان خالد ربما يرى المصلحة في تدبير القتال على نحو من الأنحاء؛ ويرى ضرورة اغتنام الفرصة. إن لاحت له فرصة. فيبادر إلى ذلك بغير انتظار أمر الخليفة أبي بكر، وإثماً من أنه لن يأمره بغير ذلك، وأنه إن تأخر في انتهاز الفرصة أفلتت، فيقول: " لو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر؛ ثم رأيت الفرصة فكنت إن أعلمته فانتني لم أعلمه حتى انتهزها، كذلك إذا ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه لن ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا، ثم نعمل به"^(٢)، وكان أبو بكر يقدر مواهب خالد واضطراره لاتخاذ موقف ما في معاركه. قبل أن يأتيه أمره. فيغفر له ذلك، "والحق أن طبيعة التحركات العسكرية حينذاك، وبُعد المسافة بين العاصمة وساحات القتال وعدم تيسر وسائل مواصلات سريعة وتبدل مواقف المعركة بسرعة تجعل من الضروري أن يكون القائد مستقلاً في رأيه له الحرية الكاملة في البت في الأمور العسكرية دون مراجعة أحد؛ وإلا ضاعت عليه فرص كثيرة من دون مبرر"^(٣)..

(١) الطبري: السابق ٢٧٨/٣-٢٨٠

(٢) السابق ٢٧٦/٣-٢٧٧

(٣) شيت خطاب: السابق ص ١٣٨

وكان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم، ولم يرفع إلى أبي بكر حساباً^(١)، وكان الصديق يثق في حسن تصرفه بالأموال، وأنه أدرى الناس بأهل البلاء في جيشه الذين يجوز له أن يميزهم في العطاء بعد أخذ ذوي الحقوق حقوقهم.. أما عمر فلم يكن يجيز لأحد من ولاته التصرف في الأموال بغير علمه وإذنه غلقاً لباب قد يدخل منه الفساد إلى النفوس.

وكان في خالد زهو عززته ثقته بقدراته، وإنجازاته الضخمة في ساحات الحروب المختلفة وشهادات الأقران والخصوم والأصحاب له على السواء، وإقرارهم بعبقريته الحربية النادرة. ولم يكن عمر يطيق ذلك الزهو^(٢)، ويرى أنه قد يدخل في نفس المرء ما يحبط عمله.. وكان عمر نفسه عبقرياً نادر الوجود، فكان يضع من نفسه كلما شعر بها ترتفع وتزهو^(٣)..

لذلك كله قرر عمر فور توليه الخلافة أن يعزل خالدًا عن الإمارة العامة للجيش بالشام ولم يحرم عمر المسلمين من خبرات خالد وقدراته، فظل سيف الله المسلول قائداً محلياً، وارتضى أن يعمل تحت إمرة أبي عبيدة بن الجراح بما عرّف عنه من لين ورحمة واستعداد لتترك مزيد من الحرية في العمل لمن هم تحت قيادته.. وكان أبو عبيدة شبيهه أبي بكر في طباعه، وكان عمر يعد قراره ذلك صدقاً مع النفس، إذ كيف ينصح أبا بكر بعزل خالد مراراً ثم يحتفظ به لما يلي الخلافة.. ولم يمنعه ذلك من تتبع أعمال خالد العسكرية الفذة بابتسامة الرضا وعين الإعجاب، فما إن سمع بصنيع خالد في فتح قنسرين حتى قال: "أمر خالد

(١) راجع ابن حجر: الإصابة ٢/٢٥٥

(٢) راجع: الطبري: السابق ٣/٢٨٠

(٣) راجع عن تواضع عمر ابن الجوزي: السابق ص ١٨١-١٨٦

نفسه، رحم الله أبا بكر كان هو أعلم بالرجال مني" (١)، وأشهد عمر خالدًا على وثيقة صلح بيت المقدس مع نفر من كبار الصحابة (٢) ..

غير أن ذلك الإعجاب لم يمنع عمر من الغضب الشديد على خالد لما سمع أنه غزا بلاد الروم سنة ١٧هـ فأصاب أموالاً عظيمة، فارتحل إليه أهل الآفاق، ومنهم الأشعث بن قيس زعيم كندة، فأجازه خالد بعشرة آلاف، فكتب عمر إلى أبي عبيدة بأمره " أن يقيم خالدًا ويعقله بعمامته، وينزع عنه قلنسوته حتى يُعلمهم من أين إجازة الأشعث؛ أمن ماله أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيائته، وإن زعم إنها من ماله فقد أسرف، واعزله على كل حال، واضمم إليك عمله"، فاستقدم أبو عبيدة خالدًا إلى حمص وجمع الناس في المسجد، فقام البريد - أي رسول عمر - فقال: "يا خالد أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة؟" فلم يجبه حتى أكثر عليه، وأبو عبيدة صامت لا يتكلم إكبارًا لخالد، فقام بلال بن رباح إلى خالد فقال: إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا، ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته، وقال: ما تقول؟ أمن مالك أم من إصابة؟ قال: لا، بل من مالي، فأطلقه بلال وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده، ثم قال: فنسمع ونطيع لولائنا، ونفخّم ونخدم مواليها، وأقام خالد متحيرًا لا يدري أمعزول هو أم غير معزول؟ واستحيا أبو عبيدة أن يخبره، حتى طال الأمر على عمر فظن الذي كان؛ فكتب إلى خالد يستقدمه، فلما قدم عليه خالد شكاه، وقال: لقد شكوتك إلى المسلمين، والله إنك في أمري غير مُجمل يا عمر، فقال عمر: من أين هذا الثراء؟ قال: من الأنفال والسُّهُمان، ما زاد على الستين ألفًا فلك، فقوّم عمر عروضه فخرجت إليه عشرون ألفًا زيادة، فأدخلها بيت المال، ثم قال: "يا خالد؛ والله إنك

(١) الطبري: السابق ٦٠/٣

(٢) السابق ٦٠٩/٤

عليّ لكريم، وإنك إليّ لحبيب، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء" (١)، وكتب عمر إلى الأمصار: "إني لم أعزل خالدًا عن سُخْطَة ولا خيانة، ولكن الناس فُتِنُوا به، فحفت أن يُوَكَّلُوا إليه ويُبتَلُوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكونوا بعرضِ فتنة"، وقيل إن خالدًا لما قدم على عمر امتدحه عمر وقال متمثلًا:

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الأقوام فالله يصنع

"فأغرمه شيئًا ثم عوّضه، وكتب فيه إلى الناس ليعذره عندهم وليبصّروهم" (٢) ..

ويمكن أن نجمل أسباب عزل خالد في ذلك الاختلاف بين طبيعة وسياسة الخليفين أبي بكر وعمر، فكانت سياسة عمر تجنح أحيانًا إلى المركزية الشديدة - التي لم يكن خالد في اعتزازه بنفسه وقدراته - مستعدًا أن يتعامل معها كما كان يتعامل مع تفويض أبي بكر له، ولينه معه، ولم يكن عزله نشازًا عن سياسة عمر مع غيره من الولاة، ومقاسمتهم أموالهم، تحرّرًا واحتياطًا من كل شبهة، وعزلهم على غير تهمة حرصًا على إرضاء الرعية المولوة، أو حفاظًا على النسق الإسلامي الأعلى، والكمال الديني المنشود، وقد قاسم عمر وعزل غير واحد من عماله الكبار مثل أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص؛ خال رسول الله ﷺ ومن العشرة المبشرين بالجنة وغيرهما (٣) ..

وقد تكيف بعض كبار الولاة مع سياسة الدولة آنذاك رغم علو شأنهم واستقلال شخصياتهم واعتزازهم بقدراتهم مثل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة وأبي موسى الأشعري، وكانوا يمتلكون حسّ السياسي المحنك القادر على التكيف مع ظروف الدولة وسياسة الخليفة، بينما كانت نفس خالد . القائد العسكري المفطور على المبادرة والصرامة والاعتداد بالنفس . تأتي

(١) الطبري: السابق ٦٧/٤-٦٨، الحلبي: السيرة الحلبية ص ٢١٣

(٢) الطبري: السابق ٦٨/٤

(٣) ابن سعد: السابق ٢٠٧/٣-٢٣٩

عليه ذلك، فكان الأمر إذن أمر سياسة دولة وطبيعة ولاية، لا أمر نحول وثورات وأحقاد قديمة يتوهمها بعض الرواة فيزعمون أن خالدًا وعمر اضطرا - وهما غلامان - وكان خالد ابن خال عمر، فكسر خالد ساق عمر، فعولجت وجبرت^(١)، ولسنا نستطيع أن نغفل ما قاله عمر في تبرير عزل خالد من أنه خشي فتنة الناس به، وظنهم أن النصر يسير في ركاب خالد؛ فيضعف اليقين بأن النصر من عند الله سواء كان خالد على رأس الجيوش أم لا، وهذا الوازع يتفق مع حرص عمر على صبغ إدارته للدولة بالصبغة العقائدية الخالصة، وبخاصة وهي تحارب أعداءها حربًا ضروريًا متطاولًا باسم العقيدة..

إن افتتاح الرعية بقائد كبير قد يقوده هو نفسه إلى فتنة، فيرى نفسه يومًا في مركز قوة لا يرتقي إليها أحد، وبخاصة أنه عبقرى حرب ومنفق أموال، فيجر ذلك عليه وعلى الدولة أمر خُسْر، وهذا - إن كان احتمالًا بعيدًا في ظل ارتباط الناس بخليفتهم عمر وإعجابهم به، وفي ظل انضباط خالد العسكري وتقواه - قد يحدث يومًا ما بعد عمر، ومع قائد غير خالد، مما يستدعي التأصيل له في ذلك العصر، ومع أمثال هؤلاء الرجال.. "والخوف في هذا الأمر من القائد الكفء أعظم من الخوف من قائد صغير لم يُبَلِّ أحسن البلاء، ولم تتساير بذكره الأنباء"^(٢)..

ومن الواجب أن نذكر هنا لخالد رائع صنيعه وهو يتلقى قرار عزله - وهو في القمة من مجده وتألقه - بالرضا والتسليم، ويؤثر العمل جنديًا بعد أن كان قائدًا ملء السمع والبصر، فيعمل تحت لواء قائد حيي كريم كان يعمل منذ قليل جنديًا تحت لوائه، وقد روى الإمام أحمد بسنده أنه لما استعمل عمر أبا عبيدة على الشام وعزل خالدًا قال خالد: بعث عليكم أمين هذه الأمة، سمعت رسول الله ﷺ

(١) الحلبي: السابق ص ٢١٣، ابن كثير: السابق ١٥٣/٤

(٢) العقاد: عبقرية عمر ١٥٨

يقوله، فقال أبو عبيدة سمعت رسول الله ﷺ يقول: خالد سيف من سيوف الله، نعم فتى العشيرة^(١).. ثم عزله عمر ثانية عن قنسرين التي فتحها فسطرّ فيها بطولة خالدة أثارت العجب والدهشة حتى عند عمر نفسه؛ فلم يقل رضًا ولا تسليمًا عما كان يوم عُزل أول مرة، وقد ظل كلا الرجلين الكبيرين عمر وخالد يحمل للآخر مودة عميقة وإعجابًا كاملاً.. فأوصى خالد لعمر حين حضرته الوفاة^(٢)، وبكى عمر لما مات خالد، وورثه بأروع بيان^(٣)..

ومن الواجب أيضا أن نشير بإعجاب إلى تلقي المجتمع الإسلامي - في ذلك العصر المبكر من عمر الدولة النظامية التي لم يألفها العرب - خبر عزل خالد وهو في عز مجده، فلم يخرج أحد عن مقتضى النظام والإقرار للخلافة بحقها في التولية والعزل، وفي مجتمعات أخرى أكثر عراقة في الحكم المركزي والحكومات المستقرة كان يمكن أن يؤدي عزل قائد ماجد ذي عصبية إلى فتنة لا ترقأ فيها الدماء.. وقد روى أن عمر خرج في جوف الليل فلقى علقمة بن عُلثة^(٤)، وكان عمر يشبه خالدًا إلى حد عجيب، فحسبه علقمة خالدًا، فقال: يا خالد عزلك هذا الرجل، لقد أباي إلا شحًا، حتى لقد جئت إليه وابن عم لي نسأله شيئًا، فأما إذا فعل فلن أسأله شيئًا، فقال له عمر يستدرجه ليعلم ما يخفيه: هيه ! فما عندك؟ قال: "هم قوم لهم علينا حق فنؤدي لهم حقهم، وأجرنا على الله"، فلما أصبخوا قال عمر لخالد . وعلقمة مشاهد لهما :. ماذا قال لك علقمة منذ الليلة؟ قال خالد: والله ما قال شيئًا، قال عمر: وتحلف أيضًا؟ فاستتار ذلك علقمة وهو يظن أنه ما كلم البارحة إلا خالدًا، فظل يقول: مه يا خالد ! فأجاز عمر علقمة وقضى

(١) أحمد: فضائل الصحابة ٧٣٩/٢

(٢) الطبري: السابق ١٤٤/٤، وانظر عن عذر خالد عمر بعدما صنعه به (العقاد: عبقرية عمر ١٣٠)

(٣) ابن كثير: السابق ١٥٤/٤

(٤) علقمة بن علاقة الكلابي صحابي من المؤلفة قلوبهم وكان من سادات قومه شهيرًا بالكرم والنبيل (راجع

ابن الأثير: أسد الغابة ٥٨١/٤-٥٨٢)

حاجته، وقال: " لأن يكون مَن ورائي على مثل رأيك . يعني حرصه على طاعة ولي الأمر وإن خالفه . أحب إليّ من كذا وكذا" (١) ..

– علاقات الود بين عمر وعمله:

رغم شدة عمر على ولاته ودقته في محاسبتهم وإقدامه على عزل من تحوم حوله شبهة أو تثور في حقه شكاية ذات أثر، فإن رابطة قوية من الحب والولاء كانت تربط عمر وولاته الذين كانوا يثقون ثقة مطلقة في إخلاص خليفتهم، وسلامة مقاصده وسياسته وتجرده وعدله..

لقد كان عمر إذا غابت عنه أخبار بعض قادته وهم في ساحات الجهاد يكاد يقتله القلق، ويستبد به الخوف والشفقة عليهم، وكان في بعض الحروب الكبرى يخرج بنفسه يتنطس الأخبار، ويتحسس الأنباء علّه يطمئن عليهم، وفي حالات أخرى كان يلتقي بهم فنجد أمارات الحب العميق بينهم.

فلما سار عمر لفتح بيت المقدس وانتهى إلى الجابية لقيه قائده عمرو بن العاص وشرجيل بن حسنة؛ فوافقا عمر راكبًا، فقبلا ركبتيه، "وضم عمر كل واحد منهما محتضنهما" (٢)، وتلقاه أبو عبيدة فترجل، وترجل عمر، فهمّ أبو عبيدة أن يقبل يد الخليفة، فهمّ عمر أن يقبل رجل أبي عبيدة، فكف كل منهما ليكف الآخر (٣) ..

ولما وقع طاعون عمّواس سنة ١٨ هـ خشي عمر أن يفقد فيه أبا عبيدة ابن الجراح، فكتب إليه يستقدمه إلى المدينة؛ فعرف أبو عبيدة أنه إنما أراد أن يستخرجه من الوباء فقال: يغفر الله لأمير المؤمنين، وكتب إليه: "يا أمير المؤمنين إني قد عرفت حاجتك إليّ؛ وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسني رغبة عنهم،

(١) ابن حجر: الإصابة ٥٥٧/٤

(٢) الطبري: السابق ٦١٠/٣، وانظر ابن كثير: السابق ٧٧/٤

(٣) ابن كثير: السابق ٧٥/٤

فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضائه، فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقال الناس: يا أمير المؤمنين أمت أبو عبيدة؟ قال: لا، وكأن قد " (١) ..
ولما التقى النعمان بن مقرن بالفرس سنة ٢١هـ في موقعة نهاوند تأخرت عن عمر الأخبار، فكان وهو بالمدينة يستنصر لقائه، "ويدعو له كالحبلى" (٢)، فلما علم باستشهاده استرجع عمر، وبكى ونشج حتى بدت عروق منكبيه من شدة البكاء (٣) ..

٦- عمر والتطوير الإداري للدولة:

أ) التطوير السياسي:

اتسعت الدولة الإسلامية في عهد عمر اتساعاً كبيراً عما كان عليه زمن النبي ﷺ وخليفته الأول، مما استلزم تطويراً في طرق إدارتها، واجتهاداً في تأصيل ذلك التطوير ليسير على مقتضى الشريعة ووفق أهدافها.. وكان عمر بعقليته التشريعية وقدرته الإدارية وشخصيته الجريئة قادراً على تأسيس كثير من المؤسسات وبداية أعمالها حتى نسبت إليه أوليات كثيرة كان أول من فعلها (٤) ..
فقد كوّن عمر حوله هيئة استشارية وجهازاً تنفيذياً معاوناً من كبار الصحابة الذين أبقاهم إلى جواره بالمدينة مثل عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأضرابهم، وكان دائم المشاورة لهم والأخذ برأيهم، وقد يوسع عمر مجلس شوره ليشمل جماعة من كبار الأنصار، وقد يوسعه ليشمل الرعية كلها في بعض المسائل.. فقد استشار العامة في خروجه إلى حرب فارس بعد

(١) السابق ١٠٦/٤

(٢) الطبري: السابق ١٢٠/٤

(٣) السابق ١١٦/٤

(٤) ابن الجوزي: السابق الباب الثلاثون ص ٨٥-٨٨

موقعة الجسر سنة ١٣ هـ واستشهاد قائدها أبي عبيد، فأشاروا عليه بالخروج للقائهم بنفسه، ثم استشار كبار صحابته فأشاروا عليه بتولية قائد على الجيش والبقاء في المدينة لرعايته ورعاية سائر الجبهات فنزل عن رأيهم، وتلطف في إبلاغ العامة بما وصلوا إليه.. واستشار كبار الصحابة في الخروج لفتح بيت المقدس فأشاروا عليه بالنهوض له، واستشارهم - كما سيأتي - في تنظيم الغنائم والفيء وغير ذلك من الأمور والقضايا..

وكانت السلطة السياسية والقضائية شيئاً واحداً زمن النبي ﷺ، ولم يكن يتوقع غير ذلك فهو الرسول والحاكم.. وكذا زمن صاحبه أبي بكر (١).. فلما ولي عمر واتسع نطاق الدولة وحركة الفتح وكثرت مسئوليات الخليفة ومشاغله فصل القضاء عن الخلافة، فولى القضاة وبعثهم إلى الأمصار - فيما يروي الرواة - وإن ظلت بعض الشكوك حول تعيين عمر قضاة مستقلين (٢)، إلا أنه يمكن الجمع بين الروايات المتعارضة بأن نفترض أن عمر كان يفوض بعض كبار فقهاء الصحابة في مواطن القضاء؛ كما كان يقضي بنفسه، ويقضي وولاته بأنفسهم، ومعنى ذلك أنه ربما ناب القضاة أحياناً عن الخليفة وولاته، فلا هم استقلوا تماماً بوظائفهم، ولا امتنع الخلفاء والولاة عن الإفتاء والقضاء..

ب) تنظيم عمر أمر الغنائم والفيء:

تنظم أمر الغنائم والفيء في الإسلام آيات محددة في كتاب الله وما دار حولها من اجتهادات فقهية.. ففي الغنيمة يقول تعالى: (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ..) الآية (٣)، وينظم الفيء قوله تعالى: (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى

(١) هناك خلاف حول تعيين أبي بكر قضاة له (راجع محمد حسن شراب: المدينة المنورة ٦٠/٢-٦١)

(٢) حول الخلاف في تعيين عمر القضاة ووصيته المشهورة في القضاء إلى أبي موسى الأشعري: راجع

السابق: ٦١/٢-٨٦

(٣) سورة الأنفال: آية ١٤١

رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ
كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ^(١)..

وحتى عصر عمر كان الاجتهاد السائد أن ثمة فارقاً بين ما يأخذه المسلمون من أعدائهم عنوة واقتهاراً وما يأخذونه بغير قتال نتيجة استسلام العدو وفق شروط صلح ثابتة، فكان ما يؤخذ عنوة يعد غنيمة . سواء كان أموالاً منقولة أو أسرى أو أرضين . فيقسم أربعة أخماسه على المجاهدين ويكون الخمس الباقي لله، فضلاً عن الصوافي وهي ما كان لملوك الفرس والروم وأمرائهم، وما فر عنه أهله، أي يتصرف فيه ولي الأمر تبعاً لما شرعه الله في آية سورة الأنفال في مصارف محددة .. أما ما افتتحه المسلمون صلحاً فإن أهله يدفعون الجزية التي يتم تحديدها في عقد الصلح، والتي تقول إلى الدولة تنفقها في المصالح العامة مقابل تأمين أصحابها والدفاع عنهم^(٢)..

فلما جاء عصر عمر وشهد الفتوحات الكبرى أقبل على المسلمين قدر هائل من الأرضين والأموال، فأراد المحاربون قسمتها فيما بينهم، وعزل الخمس للدولة، فأبى عمر ذلك وقال: "ككيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها - أي عبيدها وأهلها من العجم - قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت، ما هذا برأيي"، واستشار كبار المهاجرين الأولين فاختلفوا عليه، فأرسل إلى عشرة من كبار الأنصار واستشارهم فقال: "رأيت أنه لم يبق شيء يُفتح بعد أرض كسرى، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم.. وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها، وأضع عليهم فيها الخراج، وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فينا للمسلمين: المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم، رأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها، رأيتم هذه المدن العظام: الشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن

(١) سورة الحشر: آية ٧

(٢) راجع يحيى بن آدم: الخراج ص ١٧، ١٩، ٢٢، وانظر الطبري: السابق ١٥٦/٤-١٥٧

تُشحن بالجيوش، وإدراار العطاء عليهم، فمن أين يُعطى هؤلاء إذا قُسمت الأرضون والعلوج" ؟ فقالوا جميعًا: "الرأي ما رأيت"..^(١) فكتب بذلك إلى سعد بن أبي وقاص بالعراق^(٢)، وإلى المسلمين بالشام^(٣)، وإلى عمرو بن العاص بمصر فقال: "أقرها حتى يغزو منها حَبَل الحَبَلَة"^(٤).. واحتج عمر في ذلك بآيات سورة الحشر؛ وأنه بعد بيان أصناف من يحق لهم الفياء قال تعالى: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ...) ثم قال: (والذين تبوءوا الدار والإيمان) يعني الأنصار، ثم قال: (والذين جاءوا من بعدهم..) ، فقد صار هذا الفياء بين هؤلاء جميعًا^(٥) .. وقد رأى جمهرة من فقهاء المسلمين بعد ذلك أن "الأرضين إلى الإمام إن رأى أن يُخمسها ويقسم أربعة أخماسها للذين ظهروا عليها فعل ذلك، وإن رأى أن يدعها فينًا للمسلمين على حالها أبدًا فعل؛ بعد أن يشاور في ذلك ويجتهد رأيه، لأن رسول الله ﷺ قد وقف بعض ما ظهر عليه من الأرضين فلم يقسمها وقد قسم بعض ما ظهر عليه"^(٦) .. وبذا استقر رأي عمر بأن تُقرض على الأرض المفتوحة ضريبة مالية يدفعها فلاحوها تعرف بالخراج، وعلى رؤوسهم ضريبة تعرف بالجزية، فإن أسلم أحدهم تُطرح من رأسه الجزية وله الخيار في أرضه، إن شاء أقام فيها يؤدي عنها خراجها، وإن شاء تركها فيجعلها الخليفة للمسلمين، فإن شاء خليفتهم أقام فيها من

(١) أبو يوسف: الخراج ص ٢٤-٢٦

(٢) السابق ص ٢٤

(٣) السابق ٢٦

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٨٨

(٥) أبو يوسف: السابق ص ٢٦-٢٧

(٦) يحيى بن آدم: الخراج ص ١٨، وهذا قول أكثر العلماء منهم أبو حنيفة والثوري وابن المبارك ويحيى بن آدم والإمام أحمد في المشهور عنه، وأبو عقيل وإسحاق.. بينما ينص الشافعي على وجوب قسمتها بين الفاتحين بعد إخراج الخمس منها، رغم أن اختلاف الصحابة في قسمتها كما رأينا يثبت أن الأمر جائز وليس بمنكر، والقول الثالث: أنها فيء لا يجوز قسمتها على الفاتحين وهو قول مالك وأصحابه ورواية عن أحمد (راجع: ابن رجب: الاستخراج في أحكام الخراج ص ١٥-١٦)

يعمّرها ويؤدي إلى بيت المال عنها شيئاً، وإن شاء أنفق عليها من بيت المال واستأجر من يقوم عليها ويكون فضلها للمسلمين، وإن شاء أقطعها ممن له غناء من المسلمين^(١)..

فضل اجتهاد عمر في تنظيم الغنائم والفيء:

لقد حقق عمر باجتهاده ذلك عدة نتائج مهمة؛ فلم تعد ثروات الأرض المفتوحة حقاً للفاتحين من المحاربين فحسب، بل لجميع المسلمين في أجيالهم المتتابة، وقد أتاح ذلك التنظيم المالي توفير موارد مالية ثابتة للدولة الإسلامية مما أتاح السبيل لتنظيم العطاء وتدوين الدواوين كما سيأتي..

كما أن ذلك الاجتهاد أبقى للمسلمين إمكانية أن يظلوا عسكريين مجاهدين متماسكين في معسكراتهم، وكان توزيع الأراضي الزراعية فيما بينهم سيحوّلهم إلى فلاحين للأرض ورعاة للماشية، وربما فشت بينهم الحزازات والخلافات إثر تنازعهم على اقتسام الأرض التي ستختلف حسب جودتها وموقعها.. كما أنه أبقى المزارعين بأرضهم؛ مما أتاح لهم حياة كريمة^(٢)، وأبقى للزراعة ازدهارها، "ولم يكن من الناحية العملية يمكن للعرب أن يقتسموا بينهم نصف العالم" إلا إذا كان يراد له أن يتحول إلى أرض خربة، ولا كانوا أيضاً يستطيعون أن ينتشروا في تلك الأرض الواسعة لكي يزرعوها، بل كان لابد لهم أن يتجمعوا في معسكرات إن أرادوا المحافظة على سلطانهم"^(٣)..

ج) تدوين الدواوين وتنظيم العطاء:

(١) يحيى بن آدم: الخراج ص ٢٢

(٢) كان أهل العراق قد اعتادوا أداء الخراج إلى الفرس قبل وصول المسلمين إليهم (راجع ابن رجب:

الاستخراج ص ٨-٩، يحيى بن آدم: الخراج ص ٢١-٢٢)

(٣) فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص ٢٨

ويروى في سبب تدوين الديوان في عصر عمر أن أبا هريرة قدم من عند أبي موسى الأشعري عامل عمر بالعراق بثمانمائة ألف درهم، فلما أخبر عمر بما جاء به لم يصدقه استكثاراً لها، بل قال له: فكم ثمانمائة ألف درهم؟! قال أبو هريرة: فعددت له مائة ألف ومائة ألف؛ حتى عددت ثمان مائة ألف، فقال: أطيب، ويملك؟ قال: نعم، فبات عمر ليلته أرقاً حتى نودي لصلاة الصبح فقالت له امرأته: يا أمير المؤمنين ما نمت الليلة، قال: فكيف ينام عمر وقد جاء الناس ما لم يكن يأتيهم مثله منذ كان الإسلام؟ فما يؤمن عمر لو هلك وذلك المال عنده ولم يضعه في حقه؟ فلما صلى الصبح اجتمع إليه نفر من أصحاب النبي ﷺ فأخبرهم بما أمّهم، قال: قد رأيت رأياً فأثيروا عليّ، رأيت أن أكيل للناس بالمكيال، فقالوا: لا تفعل يا أمير المؤمنين، إن الناس يدخلون في الإسلام ويكثر المال، ولكن اعط على كتاب، وكلما كثر الإسلام - يعنون: المسلمين - وكثر المال أعطيتهم^(١)..

وفي رواية ابن سعد أن عليّ بن أبي طالب قال: " تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئاً "، أما عثمان بن عفان فقال بحسّ صاحب المال والتجارة: "أرى مالاً كثيراً يسع الناس، وإن لم يُحصوا حتى نعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر"، فقال الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت من الشام فرأيت ملوكها قد دُونوا ديواناً، وجنّدوا جنوداً"، فأخذ عمر بقوله، ودعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمه بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا من نساب قريش فقال: اكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوا وبدأت كتابتهم ببني هاشم ثم بني تيم رهط أبي بكر ثم بني عدي رهط عمر، فرتبوا الناس حسب ترتيب الخلافة والنبوة، فقال عمر: وددت والله أنه هكذا، ولكن ابدؤوا بقرابة النبي ﷺ الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله^(٢)، فجاءه بنو عدي

(١) ابن الجوزي: السابق ص ١٣٢-١٣٣

(٢) ابن سعد: السابق ٢٢٤/٣

يقولون: لو جعلت نفسك حيث وضعك هؤلاء القوم؟ فقال عمر: بخِ بخِ بني عديّ، أردتم الأكل على ظهري...، وأبى عليهم^(١)..

وهكذا حدد عمر الأساس الأول لتوزيع العطاء فكان حسب القرية من النبي ﷺ تكريمًا له ورعاية لقرابته.. وكان الأساس الثاني للتوزيع هو الأسبقية إلى الإسلام فقدم أهل السابقة والبذل، وكان أبو بكر يسوي بين الناس في العطاء ويكلّ الجزاء عن سبقهم أو صدقهم إلى الله تعالى، أما عمر فقد أبى ذلك وقال: "لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه". فبدأ بمن شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار، وفرض لكل رجل منهم خمسة آلاف درهم في السنة، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد أحدًا أربعة آلاف درهم، وفرض لأبناء البديين ألفي درهم، وجعل لمن هاجر قبل فتح مكة لكل منهم ثلاثة آلاف، أما مسلمة الفتح فجعل لكل منهم ألفين، وفرض لأفراد مخصوصين كان النبي ﷺ يقربهم ويحبهم عطاء خاصًا، وفرض لأزواج النبي ﷺ لكل منهن اثني عشر ألفًا، وللحسن والحسين لكل منهم خمسة آلاف درهم ولعمر بن أبي سلمة - وهو ربيب النبي ﷺ وأمه أم سلمة زوج رسول الله ﷺ - أربعة آلاف درهم، وكذا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، ففضله عمر على ولده عبد الله بن عمر، وقال لابنه في ذلك: "زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك، وكان أبوه أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك"، وفرض لصفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ ستة آلاف ولأم عبد الله بن مسعود ألف درهم، وكذا أم كلثوم بنت عقبة وأسماء بنت عميس؛ وهن من المهاجرات اللاتي لهن دور خاص في نصرته الإسلام والتصديق به.. فلما انتهى إلى ديوان الأنصار بدأ برهط سعد بن معاذ الأشهلي من الأوس ثم الأقرب إليه.. ثم فرض لعامة الناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم، ثم جعل من بقي من الناس بابًا واحدًا، ولم ينقص أحدًا عن ثلاثمائة درهم، وفرض

(١) السابق: ٢٢٤-٢٢٥

لكل مولود في الإسلام وكل لقيط حظه من العطاء، وقال: "لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم؛ ألف لسفره، وألف لسلاحه، وألف يخلفها لأهله، وألف لفرسه وبغله"^(١)..

إن تنظيم عمر العطاء على أساس تفضيل السابقين إلى الإسلام يدل على مبلغ عنايته بهؤلاء النفر الذين يزيد الناس وينقصون هم، مع ما لهم من مكانة عالية، فهم مناط الأسوة في المجتمع، وموضع الاقتداء لدى هذه الجماهير الحاشدة التي تقبل على الإسلام .. ولم يكن ذلك في منظوره افتتائاً على حق القوى الاجتماعية والسياسية الجديدة المتمثلة في رجال القبائل ذوي الوفرة العددية والنجدة الذين تلوأ بأسياهم عروش كسرى، ومواطن قيصر، فهؤلاء النفر من الصحابة هم الذين أقبلوا على الإسلام وحملوا دعوته وقت أن كفرت به الدنيا من حولهم، وضحوا في سبيله وحاربتهم هذه القبائل منذ بداية الدعوة ثم بعد وفاة النبي ﷺ وفسو الردة والتنبؤ، ولولاهم ما كان فتح ولا غزو، وهم قادة الجيوش الفاتحين، ولولاهم ما كان فيء ولا غنيمة..

ومن ناحية أخرى كان تدوين الدواوين عملاً حضارياً شديد الخطر، فسجلات الديوان التي على أساسها كان توزيع العطاء كانت تمثل أول إحصاء اجتماعي دقيق، لأن فيه تفصيلاً لأحوال المجتمع وأفراده ومراتبهم رجالاً ونساءً وأطفالاً، وفيه بيان قبائل العرب وعدة كل قبيلة^(٢)..

ورغم ذلك فقد كان لتوزيع العطاء على أساس السابقة إلى الإسلام والقرباة من النبي ﷺ مخاطره التي لم تظهر إلا فيما بعد، إذ ترتب على ذلك أن تركزت الثروة إلى حد كبير في أيدي رجال قريش، مما أثار حفاظ القبائل الأخرى؛

(١) راجع ابن سعد: السابق ٢٢٥/٣-٢٢٧، وهناك روايات أخرى بشأن مقدار عطاء كل فئة من هذه الفئات .. (راجع الطبري: السابق ٦١٤-٦١٥-، أبو يوسف: الخراج ص ٤٢-٤٥)

(٢) راجع ابن سعد: السابق ٢٢٨/٣

فنظرت إلى قريش على أنها القبيلة التي استأثرت بالحكم والثروة معاً، وبخاصة أنه لا ينكر فضل هذه القبائل في الجهاد وتوفير الغنائم والفيء..

ويبدو أن إلهام عمر قاده إلى الإحساس بذلك الخطر الذي لم تتكشف عنه حجب الغيب، ولكنه كان من العسير عليه أن يعيد توزيع العطاء على أساس التسوية بين الناس؛ بأن يأخذ من الأنصبة العالية ليزيد الأنصبة المنخفضة، مما قد يثير تملل بعض أصحاب الدخول العالية بعد أن رتبوا أمور حياتهم على نحو خاص، ووفق دخول معينة.. فكان عمر يرى إمكان التسوية بأن يزيد أصحاب العطاء الأقل ليلحقوا بالسابقين.. فكان يعبر عن ذلك بقوله: "والله لئن بقيت إلى العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم، ولأجعلنهم رجلاً واحداً"^(١).. لكن عمر لم يعيش لينفذ خطته تلك، وورث عثمان تلك الأوضاع التي تفجرت في منتصف خلافته على نحو شديد القسوة..

وثمة خطر آخر كان عمر يدركه؛ ذلك هو ما قد يتولد عن توافر دخول مالية كبيرة وثابتة من ركون إلى التعطل والبطالة، أو إسراف في النفقة، فكان عمر كثيراً ما يحذر من ذلك الخطر المزدوج.. لكنه كان لا يرى العلاج في احتجان الحقوق المالية للأمة، أو تقليل هذه الحقوق.. فقد قدم عليه خالد بن عرفطة أحد الصحابة بالعراق فسأله عمّا وراءه، فحمد خالد الله، وبث الخليفة مخاوفه من إسراف الرعية نتيجة كثرة العطاء، فقال عمر: "فالله المستعان، إنما هو حقهم أعطوه، وأنا أسعد الناس بأدائه إليهم منهم بأخذه، فلا تحمدني عليه، فلو كان من مال الخطاب ما أعطيتموه، ولكني قد علمت أن فيه فضلاً؛ ولا ينبغي أن أحبسهم عنهم، فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء العُزَيبِ ابتاع منه غنماً فجعلها بسوادهم، ثم إذا خرج العطاء الثانية ابتاع الرأس فجعله فيها، فإني - ويحك يا خالد بن عرفطة - أخاف عليكم أن يليكم بعدي ولاة لا يُعَدُّ العطاء في زمانهم مالاً، فإن

(١) السابق ٢٣٢/٣

بقي أحد منهم أو أحد من ولده كان لهم شيء قد اقتعدوه فيتكئون عليه " (١) .. ومعنى ذلك أن عمر كان يرى حتمية استثمار هذه الأموال في الزراعة أو غيرها من أوجه الكسب لا كنزها، ولا الإسراف فيها، خشية أن تجدد على المسلمين مستجدات يفتقرون بعدها إن لم يكونوا حاولوا توظيف مدخولهم فيما يفيد على المدى الطويل..

وكان عمر ينظر بتوجس إلى تقاعس العرب - من غير المجاهدين - عن السعي في طلب الرزق، فقد ذهب مرة إلى سوق المدينة ثم عاد فسأله أصحابه: "كيف رأيت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت العبيد والموالي جُلَّ أهلها، وما بها العرب إلا قليلا، وكأنه ساءه ذلك فقالوا: يا أمير المؤمنين قد أغنانا الله عنها بالفيء، ونكره أن نركب الدناءة، وتكفينا موالينا وغلماننا، قال: "والله لئن تركتموهم وإياها لاحتاجن رجالكم إلى رجالهم، ونساؤكم إلى نسائهم" (٢) ..

وكان عمر ينظر إلى بعض الموالي يذهب إلى السوق ليتاجر فيقول لمن حضره من قريش: "لا يغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة، فإن التجارة ثلث الإمامة" (٣) .. ويهتف في موقف آخر: "يا معشر القراء ارفعوا رءوسكم فقد وضح الطريق، واستبقوا الخيرات، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين" (٤) .. ويقول: "تعلموا المهنة فإنه يوشك أن يحتاج أحدكم إلى مهنته" (٥) ..

د) التأريخ بالهجرة:

(١) السابق ٢٢٨/٣-٢٢٩

(٢) عمر بن شبة: تاريخ المدينة ص ٧٤٨، شراب: المدينة المنورة ٤١/٢

(٣) ابن الجوزي: السابق ص ٢٢٨

(٤) السابق والصفحة

(٥) السابق ص ٢٢٩

ويعدُّ التأريخ بالهجرة تطوراً آخر له خطره في النواحي الحضارية زمن عمر ﷺ.. وكان أول من وضع التأريخ بالهجرة، ويحكي في سبب ذلك عدة روايات منها أن أبا موسى الأشعري عامل عمر بالعراق كتب إليه: "إنه تأتينا منك كتب ليس لها تاريخ"، فجمع عمر الناس وشاورهم؛ فقال بعضهم: أرخ بالمبعث، يعني بعثة النبي ﷺ، وقال بعضهم: أرخ بالهجرة، فقال عمر: الهجرة فرقت بين الحق والباطل؛ فأرخوا بها، وذلك سنة ١٧هـ، فلما اتفقوا على التأريخ بالهجرة تشاوروا بأي شهر من شهور السنة الهجرية الأولى يكون بدوهم، فقال بعضهم: لنبدأ برمضان، فقال عمر: بل بالمحرم فإنه منصرف الناس من حجهم.. وروي أنه رُفِعَ لعمر صكُّ محلِّه شعبان، فقال: "أي شعبان؟ الماضي أو الذي نحن فيه أو الآتي؟ ضعوا للناس شيئاً يعرفونه" (١)..

وروى ابن حجر في سبب جعلهم بداية التاريخ في شهر محرم وليس ربيع الأول -الشهر الذي تمت فيه هجرة النبي ﷺ أن الصحابة الذين أشاروا على عمر وجدوا أن الأمور التي يمكن أن يُؤرخ بها أربعة؛ هي مولده ومبعثه وهجرته ووفاته، ووجدوا أن المولد والمبعث لا يخلو من النزاع في تعيين سنة حدوثه، وأعرضوا عن التأريخ بوفاته لما يثيره من الحزن والأسى عند المسلمين، فلم يبق إلا الهجرة، وإنما أخروه من ربيع الأول إلى المحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم، إذ وقعت بيعة العقبة الثانية في ذي الحجة، وهي مقدمة الهجرة، فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هو هلال محرم، فناسب أن يُجعل مبتدأ.. ثم قال ابن حجر: "وهذا أنسب ما وقعت عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم" (٢)...

(١) ابن حجر: فتح الباري ٣١٥/٧، وذكر عن أحمد بن حنبل قوله: أول من أرخ التاريخ يعلى بن أمية، وكان عامل عمر على اليمن (السابق والصفحة)

(٢) ابن حجر: السابق والصفحة

وهكذا تعددت أساليب التطوير الإداري التي اتبعتها عمر رضي الله عنه ليساير التطور السريع الذي كان يطبع الدولة والمجتمع بطابعه آنذاك..

المبحث الثاني

الفتوحات الإسلامية في خلافة عمر رضي الله عنه

أولاً: فتوح العراق وفارس:

كان المثنى بن حارثة الشيباني . خليفة خالد بن الوليد على العراق - قد قدم إلى المدينة ليخبر الخليفة أبا بكر خبر نصره على جيوش الفرس في بابل ويستأذنه في الاستعانة بمن حسن إسلامه من المرتدين لمواجهة خطر الفرس المحقق بالمسلمين، ولكنه وافى أبا بكر وقد أشفى على الموت فأخبره الخبر، فاستدعى إليه عمر بن الخطاب الذي عهد إليه بخلافته وقال له: إني لأرجو أن أموت في يومي هذا، فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنكم مصيبة . وإن عظمت . عن أمر دينكم ووصية ربكم ^(١) ..

فندب عمر الناس عدة أيام لحرب فارس، فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي، ثم تتابع الناس، ف قيل لعمر: أمر عليهم رجلاً من المهاجرين والأنصار فقال: " لا والله لا أفعل، إنما رفعهم الله تعالى بسبقهم ومساعدتهم إلى العدو... والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً" ^(٢)، فأمر أبا عبيد وأوصاه بقوله: " اسمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد حتى

(١) الطبري: السابق ٤١٤/٣، ابن الأثير الكامل ٢٦٣/٢.

(٢) السابق والصفحة

تتبين، فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث^(١) الذي يعرف الفرصة والكف " (٢) ..

واستطاع أبو عبيد بعد وصوله إلى العراق وانضمام جيش المثنى بن حارثة إليه أن يظفر بجيوش الفرس واحدًا إثر الآخر إلى أن كانت الواقعة الكبرى عند قسّ الناطف (٣) ..

١- موقعة الجسر أو قسّ الناطف أو المروحة:

بادر القائد الفارسي رستم بعد الهزائم التي لقيتها جيوشه إلى إرسال أكبر قائده بهمن جاذويه الملقب بذي الحاجب (٤) للقاء أبي عبيد وجيوشه عند قسّ الناطف على شاطئ الفرات الشرقي مصطحبًا معه الفيلة وراية كسرى^(٥)؛ لتحميم جنوده المرتاعين، وسار أبو عبيد للقائه فنزل عند الشاطئ الغربي للفرات، فأرسل إليه بهمن جاذويه: " إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وإما أن تدعونا فنعبر إليكم "، فنهاه عدد من قادة جيشه عن العبور إليهم، ولكنه لجّ وترك الرأي، وغفل عن وصية الفاروق له بالتريث والحذر، وقال " لا يكونون أجرأ على الموت منا، بل نعبر إليهم " فعبروا إليهم، وصاروا في منزل ضيق المطرد والمذهب، وحمى القتال، فلما أبصرت خيول المسلمين الفيلة التي كان يصحبها الفرس قد هيئت للقتال رأت شيئاً منكرًا لم تكن تعرف مثله، فجعل المسلمون إذا حملوا عليهم لم تقدم خيولهم، وإذا حملوا على المسلمين بالفيلة مرقوا بين صفوفهم، فترجل أبو

(١) المكيث: الرزين الذي لا يعجل.

(٢) الطبري: السابق ٤٤٥/٣.

(٣) موضع قريب من الكوفة على شاطئ الفرات الشرقي (ياقوت: معجم البلدان).

(٤) لقب بذي الحاجب لأنه كان فيما يروى يعصب حاجبيه بعصابة ليرفعهما كبيراً (ابن الأثير السابق ٢٨٦/٣).

(٥) وقيل إن راية كسرى كانت من جلود النمر، عرضها ثمانية أزرع وطولها اثنا عشر ذراعًا.

عبيد، وترجل الناس، فجعلت الفيلة لا تحمل على جماعة إلا دفعتهم، فنادى أبو عبيد: "احتوشوا الفيلة واقطعوا بطنها واقلبوا عنها أهلها"، ففعلوا، وواثب هو الفيل الأبيض فنح مشفره بالسيف، فاتقاه الفيل بيده، وخبطه فسقط أبو عبيد وقام عليه الفيل، فلما بصر الناس بقائدهم تحت أرجل الفيل خشعت نفوس بعضهم، وأخذ الراية بعده سبعة من ثقيف - قبيلته - كلهم قتل، ثم أخذ الراية المثنى بن حارثة والناس يفرون، فحماهم في أهل الصبر من المجاهدين حتى عبروا النهر بعدما قتل كثير منهم، وأصلح بعض من عبروا الجسر، ثم عبر المثنى وحمل جانبه حتى أنقذ من بقى من الجيش الذي مضى معظمه منهزمًا عن المثنى وتركوه في قلة، وقيل إنه هلك يومذاك أربعة آلاف بين قتيل وجريح، وهرب ألفان وبقى ثلاثة آلاف، ولما وصلت أخبار الفاجعة إلى عمر بن الخطاب وأنباء من فر من المسلمين، وشهد عمر مشاعر الأسي تكاد تقتل هؤلاء الفارين من الزحف قال لهم: لا تجزعوا معشر المسلمين، أنا فنتكم، إنما انحزتم إلى، متأولاً بذلك قوله تعالى: (وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (١) ..

أما بهمن جاذويه القائد الفارسي المنتصر فلم يمنعه من استغلال الكارثة التي حلت بالمسلمين وتتبع بقيتهم إلا أنه قد أتاه الخبر باختلاف الفرس وثورتهم برستم.. فرجع إلى عاصمته المدائن مغتبطاً بنصره؛ رغم أنه فقد في هذه المعركة من جنده ستة آلاف قتيل.. وكان ذلك في شعبان سنة ١٣هـ (٢) ..

(١) سورة الأنفال آية (١٦)

(٢) الطبري: السابق ٤٥٤/٣ - ٤٥٩ ابن الأثير: الكامل ٢٨٦/٢ - ٢٨٨.

٢.موقعة البويب:

استعاد المثنى توازنه سريعاً، وظفر ببعض قوات الفرس عند أليس^(١).. وكان الخليفة عمر قد أهتم بأمر العراق بعد ما حاق بأبي عبيد وجيشه، فندب الناس لمعاونة المثنى رغم كراهيتهم حرب الفرس، ومن هؤلاء جرير بن عبد الله البجلي وقبيلته بجيلة الذين اجتهد عمر في إقناعهم بالتوجه إلى الجهاد في العراق لا الشام، وكتب عمر إلى من تاب من أهل الردة فلم يأتته أحد إلا رمى به المثنى ، فرضى عمر أن يستعملهم في جيوشه بعد أن مضى وقت على عودتهم إلى الإسلام ، وكان أبو بكر لا يحارب بهم لجدّة عهدهم بالردة آنذاك وعدم الحاجة إليهم، وبعث المثنى رسله فيمن يليه من العرب فتوافقوا إليه في جمع عظيم، وكان منهم جماعة من نصارى قبيلة النمر على رأسهم أنس بن هلال النمري قاتلوا حمية مع المسلمين العرب وقالوا: "نقاتل مع قومنا"، وشاركهم جماعة من نصارى تغلب .. وسمع الفرس بأمر حشود المثنى فأرسلوا إليه قائدهم مهران في جمع عظيم، فالتقوا بالبويب^(٢) في رمضان سنة ١٣هـ، فأمر المثنى رجاله أن يفطروا ليكونوا أقوى على القتال، ومضى يحرض جنده ويهزم بأحسن ما فيهم، وهو يدرك حساسية المعركة وخطورتها بعد هزيمة الجسر، وكانت دروس محنة الجسر مازالت شاخصة للأذهان، فرفض المثنى أن يعبر الجسر إلى أعدائه، وتركهم يعبرون إليه، وقال لجنده - وهو يحذر أن يصاب فيختل أمرهم كما حدث بعد مقتل أبي عبيد: " إذا رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه، فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف، الزموا مصافكم"، ولما حمى القتال وأصيب مسعود بن حارثة أخو المثنى تضعض من معه، فقال لهم: " يا معشر بكر ارفعوا رايتكم وفقكم الله، ولا يهولنكم

(١) أليس: بلدة على الفرات قريبة من القادسية، أنظر خبر الموقعة في الطبري: السابق ٤٥٩/٣

- ٤٦٠ ابن الأثير الكامل ٢/٢٨٨.

(٢) البويب: نهر متفرع من الفرات مما يلي موضع الكوفة (معجم البلدان).

مصرعي"، حتى مضى شهيداً في جماعة من أعلام المسلمين، وكان انتصار المسلمين مبيئاً، وقتل غلام نصراني من تغلب القائد الفارسي مهران واستوى على فرسه، وولى الفرس الأدبار، وسبقهم المثنى إلى الجسر فأخذ عليهم طريق العبور، فافترقوا بشاطئ الفرات مضعين ومنحدرين يقتلهم المسلمين حيث شاءوا.. حتى روي أن قتلى الفرس بلغت يومذاك مائة ألف، وأن مائة رجل من أبطال المسلمين قتل كل منهم عشرة من الفرس، فسموا ذلك اليوم يوم الأعراس.. وتتبع بعض قادة المثنى من نجا من الفرس يقتلونهم كيف أرادوا^(١)، ومخر المسلمون بعدها السواد فيما بينهم وبين دجلة لا يخافون كيئاً، ولا يلاقون مانعاً، وتراجعت مسالح الفرس، وسرهم أن يتركوا ما وراء دجلة^(٢).

٣- القادسية:

أثارت غارات المسلمين في أنحاء السواد بين دجلة والفرات الذعر والجزع في قلوب الفرس، فترك قادتهم التناحر والاقتيال الداخلي الناشب بينهم، واجتمعوا على شاب زعموا أنهم عثروا عليه من بيت ملكهم، هو يزيدجرد بن شهريار بن كسرى فملكوه، واحتشدوا تحت لوائه.. وسرعان ما انتقض السواد، وثار أهله على المسلمين، من كان له عهد معهم ومن لم يكن له عهد^(٣). ولما وصلت أنباء هذه التطورات الخطيرة إلى عمر أرسل إلى المثنى وجيشه يأمرهم بالتراجع إلى حدود العراق وبادية العرب، وقال: "والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب"، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأى وشرف وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا

(١) راجع الطبري: السابق ٤٦٠/٣ - ٤٧٢ ابن الأثير: الكامل ٢٨٨/٢ - ٢٩١.

(٢) راجع جهود المثنى الحربية بعد وقعة البويب في: الطبري: السابق ٤٧٢/٣ . ٤٧٦، ابن

الأثير: الكامل ٢٩١-٢٩٤

(٣) الطبري: السابق ٤٧٧/٣، ابن الأثير: السابق ٢٩٤/٢.

رماهم به، وأرسل في حشد الناس، وكان ذلك في ذي الحجة سنة ١٣هـ^(١)، وسرعان ما توافدت أفواج العرب على عمر في المدينة، ومن كان قريباً من العراق سار نحو المثنى^(٢)..

ولما اجتمع عند عمر جيش عظيم خرج بهم من المدينة، واستشارهم، فأشار العامة عليه أن يسير للقاء العدو بشخصه، وأشار الخاصة من أصحاب النبي ﷺ أن يقيم ويولى قيادة الجيش أميراً من أهل الشهامة والخبرة، فأخذ عمر برأيهم وولى سعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنه قيادة الجيش، ووصاه ثم سرحه في أربعة آلاف، وأتبعه بمثلهم، وظلت الأمداد تلحق به حتى عسكر عند القادسية^(٣).. وكان المثنى بن حارثة قد لقي ربه قبيل وصول سعد إلى مشارف العراق من جراحة انتقضت عليه^(٤).

(١) اختلف المؤرخون في زمن معركة القادسية، فروى ابن خلدون أنها حدثت سنة ١٤ أو سنة ١٥هـ أو سنة ١٦هـ (العبر ٥١١/٢) وساق الطبري أحداثها في حوادث سنة ١٤هـ، وتابعه ابن الأثير وهو في ذلك يرجح رواية سيف بن عمر وابن إسحاق والواقدي (راجع الطبري ٥٨٩/٣ - ٥٩٠).

(٢) الطبري: السابق ٤٧٨/٣.

(٣) الطبري: السابق ٤٨٠/٣ - ٤٩٠، ابن الأثير: السابق ٢٩٩/٢ - ٣٠١ ابن كثير: والبداية والنهاية ٤٨/٤ - ٤٩.

(٤) فقدم أخوه المعنى بن حارثة على سعد ومعه سلمى بنت خصفة زوج المثنى التي مات عنها، فتزوجها سعد إكراماً لها ولذكرى زوجها الراحل العظيم على جميل عادة المسلمين آنذاك.. وأخبر المعنى سعداً بوصية أخيه القائد المجرب، وفيها أن يقاتلوا الفرس على حدود أرضهم، على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم، فإنه يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم، وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة، ثم يكونوا أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم، إلى أن يرد الله الكرة عليهم، ثم قدم كتاب عمر على سعد بعد ذلك بمثل رأى المثنى الطبري: السابق ٤٩٠/٣، ابن الأثير: السابق ٣٠١/٢ - ٣٠٢.

وكتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح قائد للمسلمين بالشام ليصرف أهل العراق - الذين شاركوا خالد بن الوليد في بدايات فتحها قبل انتقالهم إلى الشام ليعودوا إلى العراق من جديد، وكانوا ستة آلاف، فيمدوا إخوانهم الذين يتأهبون لخوض المعركة الفاصلة مع الفرس.. وكان غياب هؤلاء عن الشام غير خطير بعد أن مالت كفة المسلمين بها نهائيًا في حربهم ضد الروم^(١)، فتكاملت جموع سعد بضعة وثلاثين ألفًا، شهدوا موقعة القادسية ونزلوا آنذاك بشرف على حدود العراق^(٢)..

وكان عمر حريصًا على معرفة دقائق موقف المسلمين في تحركاتهم واشتباكاتهم مع عدوهم، إذ كان يعرف دقة موقفهم وخطورة المعركة المرتقبة التي سيتوقف عليها أمر ما سيأتي من صراع بين المسلمين والفرس^(٣)، وكان عمر " فيما يصدره من أوامر لا تفوته كبيرة ولا صغيرة، فلم يكن يكفيه أن يشجع القواد والجنود وأن يهز قلوبهم، وأن يذكر لهم مفاخرهم ومفاخر قومهم، ثم لم يكن يكفيه أن يحذرهم من العدو وخداعه، بل كان يرسم لهم الخطط ويذكر لهم موعد الانتقال من مكان إلى مكان، وكأنما كان على علم بهذه الأرض وتقويمها " ^(٤). وأمر عمر سعدًا أن ينزل القادسية " باب فارس في الجاهلية وهي منزل رغيب خصيب دونه قناطر وأنهار ممتعة " ^(٥)، وأمره عمر أن يكتب إليه بتفاصيل ما يجده ويلاقيه حتى يكون كأنه ينظر إليه^(٦)، وجعل عمر . والمسلمون في المدينة . بعد أن استقرغ

(١) الطبري: السابق ٤٩٠/٣، ابن الأثير: السابق ٣٠٢/٢.

(٢) الطبري: السابق ٤٨٧/٣.

(٣) السابق ٤٨٨/٣.

(٤) هيكل: الفاروق عمر ١٤٤ - ١٤٥.

(٥) الطبري: السابق ٤٩١/٣.

(٦) السابق ٤٩١/٣، ٤٩٢.

وسائل الدعم والتأييد لجنوده " يدعو لسعد خاصة، ويدعون له معه وللمسلمين عامة " (١) ..

ونزل سعد القادسية وأقام بها شهرًا تجوس قواته في أراض السواد الذي نقض عهوده بتحريض الفرس، فاستغاث أهله إلى يزيدجرد وأعلموه أنهم إن أبطأ عليهم الغياث أعطوا بأيديهم، فأرسل يزيدجرد إلى رستم ليسير إلى المسلمين، فتردد رستم وتعلل بعلل شتى كراهية لذلك اللقاء، لكن الملك قال: "لتسيرن إليهم أو لأسيرن بنفسي" (٢)، فلم يجد بداً من المسير، وقد احتشد معه أكثر من مائتي ألف (٣)، فأرسل سعد رجالاً إلى الملك يزيدجرد من ذوى الرأي والاجتهاد والمهابة، فجرى بينهم حوار نكَّره فيهم فيه يزيدجرد بسوء أحوالهم فيما مضى من جوع وتنازع وجهالة؛ وتعجب من اجترائهم على الفرس وهم أصحاب القوة والعزم الحديد، ووافقهم السفراء المسلمون على رأيه في سوء أحوالهم في الجاهلية بل زادوا على ذلك بياناً، وشرحوا لهم سبب تغير أحوالهم ببعثة النبي ﷺ واعتناقهم الإسلام وجهادهم من

(١) السابق ٤٩٢/٣.

(٢) وقد ذكر الرواة المسلمون أن تردد رستم وتقاعسه عن الخروج لحرب المسلمين مرده إلى أنه كان مولعاً بالتنجيم، وأنه رأى في خروجه آنذاك للقتال نحساً على الفرس، بينما كان منجمون آخرون في بلاط يزيدجرد يشجعونه على إرسال رستم وجيشه (الطبري السابق ٥٠٤/٣، ٥٠٦-٥٠٧، ابن الأثير السابق ٣٠٧/٢)، والثابت أن الفرس في ذلك العهد قد كانوا من أكثر الناس اطمئناناً إلى علم النجوم واهتداءً بها في حياتهم العامة والخاصة، وأنهم لم يكونوا يرون عملها حديث خرافة (هيكل: السابق ١٥٢).

(٣) الطبري السابق ٥٠٥/٣، وقيل إن عدد جيوش رستم كانت ستين ألف متبوع (السابق ٥٠٥/٣) وقيل إن الستين ألفاً كانت قوته الأساسية، بينما كانت مقدمة قواته أربعين ألفاً وساقته عشرين ألفاً وهو ما يوفق بين الروايات (راجع الطبري السابق والصفحة).

أجله، وعرضوا عليه إما الدخول في ذلك الدين العظيم أو أداء الجزية، وإلا فإنه القتال حتى يحكم الله بينهم جميعاً^(١)..

ولم تكن الرسل إلى رستم أقل فصاحة وروعة في بيان رسالتهم من إخوانهم الذين ذهبوا إلى يزيدجرد، ومنهم ربعي بن عامر الذي ذهب إلى القائد الفارسي . وقد أحاطته زخارف الدنيا . بمنظر رث، ليقول له: " إن الله ابتعثنا.. لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ^(٢).. ومنهم المغيرة بن شعبة الذي راعته طقوس الولاء المذل لدى جلساء رستم؛ فوبَّخهم، وأعلمهم أنهم بذلك يتخذون بعضهم بعضاً أرباباً ^(٣)..

وأمضى رستم أربعة أشهر منذ خرج بقواته حتى وصل إلى القادسية، وقد اصطحب معه ثلاثة وثلاثين من القبيلة، وأتم استعداداته للحرب^(٤)، فأقام لا يقاتل رجاء أن يضجروا ويجهدوا فينصرفوا، وجعل الملك يزيدجرد يستحثه للقتال فلم ير

(١) الطبري: السابق ٣ / ٤٩٨-٥٠٢، ابن اسمه: الكامل ٢ / ٣٠٤ - ٣٠٦، ولم يكن هذا الوعي بحقيقة الجهاد ودوافعه وهذا الاعتزاز بالمبدأ والشعور المفعم بالكرامة ونبيل الغاية عند أهل الرأي والمهابة من قادة المسلمين فقط، بل إن قوات رستم لما أسرت رجلاً عادياً من جيش المسلمين - فيما يزعم الرواة - سأله القائد الفارسي: ماذا تطلبون؟ فقال الرجل الذي لم يسجل لنا التاريخ اسمه: جئنا نطلب موعود الله، فقال: وما هو؟ قال: أرضكم وأبناؤكم وأموالكم ودماءكم إن أبيتم أن تسلموا، قال رستم: فإن قتلتم قبل ذلك؟ قال: " في موعود الله أن من قُتل منا قبل ذلك أدخله الجنة.. ويحك يا رستم.. " لا يغرنك ما ترى حولك - أي من مال وعتاد ورجال - فإنك لست تحاول الإنس، إنما تحاول القضاء والقدر.."، فاستشاط رستم غضباً وقتل الرجل

(الطبري : السابق ٣ / ٥٠٨)

(٢) السابق ٣ / ٥١٨ - ٥١٩

(٣) السابق ٣ / ٥٢٣ - ٥٢٤

(٤) السابق ٣ / ٥١٦ - ٥١٧

بدأ منه^(١)، وكان بسعد عِزق النَّسا وخراريج لا يستطيع معها أن يركب ولا أن يجلس؛ فاستخلف على المسلمين خالد بن عُرْفُطَةَ . أحد الصحابة الأجلاء . وصعد هو على بناء مرتفع في ميدان القتال، فأكب على وجهه، وجعل أسفل صدره وسادة؛ ومضى على ذلك النحو يشرف على ميدان القتال فيصدر أوامره لخالد بن عرفة فيبلغها للناس ويأتيه بأخبار القتال.. وآثر سعد ألا يعتذر على واجب الجهاد وهو مريض، ولم يسلم من السنة بعض جنده الذين أنكروا أن يغيب عنهم قائدهم على ذلك النحو؛ فعنفهم سعد^(٢) حتى أعادهم إلى الصواب وأذهب عنهم سؤرة الشيطان..

ومضى كل من المعسكرين يحمس نفسه للقتال^(٣) الذي استمر ثلاثة أيام واستقتل فيه كلا الجيشين، وقدما كل ما عندهما من فنون الحرب وحيل القتال وبطولات الرجال، وأسفر عن هزيمة شنيعة للفرس، ومقتل قائدهم رستم وكثيرين غيره من أبرز قادتهم وأعلامهم^(٤)، وضربت الذلة والمسكنة على الفرس حتى كان المسلم يشير إلى الفارسي فيأتيه فيقتله، وربما أخذ سلاحه فقتله به، وربما أمر الرجلين فقتل أحدهما صاحبه^(٥)..

(١) السابق ٣ / ٥٢٩

(٢) السابق ٣ / ٥٣٠-٥٣١

(٣) السابق ٣ / ٥٣٣، ٥٣٥ - ٥٣٦.

(٤) واحتفى الرواة ببطولات رجال مثل القعقاع بن عمرو وأخيه عاصم وهاشم بن عتبة وأبي محجن الثقفي وغيرهم ، راجع وقائع القتال في (السابق ٣/٥٣٨-٥٦٧، ابن الأثير : السابق ٢/٣٢٦-٣٢٧)

(٥) ابن الأثير: السابق ٢/٣٣١

وكانت العرب تتسمع أخبار القادسية وما ستسفر عنها أيامها^(١)، وكان القلق يجتاح نفس الخليفة عمر، وقد ذكر الرواة أنه لما أتاه خبر نزول رستم القادسية كان يستخبر الركبان عن أهلها "من حين يصبح إلى انتصاف النهار، ثم يرجع إلى أهله"، فلما تحقق النصر وجد الرسول الذي أرسله سعد عمر في الطريق خارج المدينة، فلم يعرفه ومضى عمر يسايره والرجل راكب، فقال: يا عبد الله حدثني، فقال باقتضاب: "هزم الله العدو"، فلما دخل المدينة سلم الناس على عمر بإمرة المؤمنين، فقال الرجل: فهلا أخبرتني، رحمك الله، أنك أمير المؤمنين، فقال عمر: لا عليك يا أخي، فسلمه كتاب سعد يبشره بالنصر^(٢)..

٤- فتح المدائن:

لما فرغ سعد من القادسية أقام بها شهرين وكاتب عمر فيما يفعل فأمره أن يسير إلى المدائن عاصمة فارس وموئل الأكاسرة^(٣)، فسيطر في طريقه على ما قابله من مدن، حتى دان له سواد العراق ما بين غربي دجلة إلى أرض العرب، وحاصر بهُزسير ضاحية المدائن التي تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة ولا يفصل بينها وبين المدائن سوى ذلك النهر، وبعد حصار دام نحو شهرين فر عنها أهلها إلى المدائن، وذلك في صفر ١٦هـ^(٤)، ودخلها المسلمون في جوف الليل، فلاح لهم رغم ظلمته قصر الأبيض الشهير، وهو مقر كسرى الفخيم ببناؤه الذي

(١) الطبري: السابق ٣ / ٥٨٢

(٢) جاء في رسالة سعد: "وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لا نعلمهم، الله بهم عالم، كانوا يدوون بالقرآن إذا جنّ عليهم الليل دوى النحل، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذا لم تُكْتَبْ لهم" (الطبري: السابق ٣ / ٥٨٣)

(٣) ابن الأثير: السابق ٢ / ٣٥٣.

(٤) الطبري: السابق ٣ / ٦١٩ - ٦٢٣، ٤ / ٥ - ٧.

يمتد في السماء طولاً، وبلونه الناصع رغم دلجة الليل، فصاح المسلمون " الله أكبر، أبيض كسرى؛ هذا ما وعد الله ورسوله " (١)، وكان الفرس قد ضموا إليهم سفنهم ليمنعوا المسلمين من عبور دجلة إلى عاصمتهم، فظلوا أياماً وسعد يريد العبور إليهم فتعوزه الحيلة، حتى مضى يحرض جنده على القتال، ثم أمرهم بعبور النهر إليهم على سهوات الخيل بغير سفين.. وأمن بعض فرسانه موضع العبور، فاقتحم المسلمون النهر، فباغتوا أهل فارس بما لم يكن في حسابهم، فانتابهم الذعر، ومضوا يحلف بعضهم لبعض أنهم ما يقاتلون إلا الجن، وخرج المسلمون من النهر لم يفقدوا شيئاً، ولم يغرق منهم أحد (٢).

وفر يزدجرد وكبار قاداته لما أحسوا بالخطر الزاحف، واعتصمت جماعة منهم بالقصر الأبيض لما أعجزهم الهرب، فحصرهم المسلمون وأرسلوا إليهم سلمان الفارسي يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو القتال.. وفي اليوم الثالث استسلموا، وقبلوا بالجزية وهم صاغرون، ودخل سعد القصر الكسروي العتيد ونظر إلى زخرفه وبهائه فقرأ قوله تعالى (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَبَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَهِينَ. كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ) (٣)، واتخذ من إيوان كسرى مسجداً (٤)..

(١) السابق ٤ / ٨

(٢) السابق ٤ / ٩ - ١٤، ولا شك أن عبور النهر على ذلك النحو كان معجزة عسكرية أطلقت لسان ابن كثير فقال: " وكان يوماً عظيماً وأمرًا هائلاً وخطباً جليلاً وخارقاً باهراً ومعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم خلقها الله لأصحابه، لم ير مثلاً في تلك البلاد، ولا في بقعة من البقاع " (البداية والنهاية ٨٨/٤)

(٣) سورة الدخان آية ٢٥-٢٨.

(٤) الطبري: السابق ٤/١٤ - ١٦، وابن الأثير: السابق ٢/٣٦٠، ابن خلدون: العبر ٢ / ٥١٣

وثمة روايات أخرى تجتهد أن تجعل ذلك العبور عملاً ممكنًا في واقع البشر.. مثلما يرويه البلاذري من أن سعدًا "لم يجد معابر فذُلَّ على مخاضة عند قرية للصيادين، فأخاضها الخيل، فجعل الفرس يرمونهم فسلموا غير رجل من طيئ " (١).. ويرد بعض الدارسين هذه الروايات لخلل في سندها أو متنها (٢)، والحقيقة أنه ليس هناك تعارض بالضرورة بين الروايتين، ففي كليهما عبر الجيش النهر سباحة على ظهور الخيل، وليس مستغربًا أن يبحث قادة الجيش عن موضع يتييسر منه عبورهم، وتقل فيه المخاطرة - ومثل ذلك معهود في حالات القتال آنذاك - وبخاصة أن معهم كثيرًا من الرجالة الذين لا خيل لهم يعبرون عليها، وقد وجدوا بغيتهم في تلك المخاضة، ولعظم أعداد الجيش فقد عبر بعضهم منها، واضطر الآخرون إلى العبور من أماكن أغزر ماء (٣)..

غنائم المدائن:

أفرد المؤرخون صفحات عديدة للحديث عن كنوز كسرى وحاشيته وتلك الأموال الهائلة والتماثيل الفاخرة والحلي النادرة من الجواهر والذهب والفضة والأحجار الكريمة التي غنمها المسلمون في المدائن، أو في تعقبهم الفرس الفارين منها (٤).. وإذا كان أمر الغنائم مثيرًا للعجب فإن أمانة الجند المسلمين التي دفعتمهم أن يؤدوا هذه الكنوز الهائلة فلا يُغَلَّ أحدهم منها شيئًا لجديرة بالإعجاب (٥).. وهذه

(١) فتوح البلدان ص ٢٦٣

(٢) من هؤلاء د. هيكل: السابق ١٨٤

(٣) استطاع تيمورلنك القائد المغولي أن يعبر دجلة بجيشه حين هاجم بغداد في العقد الأخير من القرن الرابع عشر للإمام (السابق والصفحة)

(٤) راجع الطبري: السابق ٤ / ١٦ - ٢٣، ابن الأثير: الكامل ٢ / ٣٦٠ - ٣٦٣.

(٥) هو من كبار الزهاد والعباد، تابعي جليل (راجع ترجمته في: ابن الأثير: أسد الغابة ٤/٢٧ -

٢٨) وانظر في الرواية: الطبري: السابق ٤ / ١٩

الأمانة هي التي حركت سعد بن أبي وقاص ليقول: "والله إن الجيش لذو أمانة " ومضى يقارنهم بأهل بدر^(١).. " وقال فيهم جابر بن عبد الله الصحابي المشهور: " والله الذي لا إله إلا هو ما أطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة.."^(٢)، أما أمير المؤمنين عمر فقال لما قُدم عليه بسيف كسرى ومنطقته: إن أقوامًا أدوا هذا لذو أمانة "، فقال عليّ: إنك عفتت فعفت رعينك، ولو رتعت لرتعوا "^(٣).

وألبس عمر بن الخطاب سراقه بن مالك بن جعشم من بني مدلج سوارى كسرى، وكان النبي ﷺ قد بشره بذلك في واقعة الهجرة النبوية، فبلغا منكبي سراقه، فقال عمر: " الحمد لله، سوارى كسرى بن هرمز في يدي سراقه بن مالك بن جعشم؛ أعرابي من بني مدلج"، وأمره عمر أن يقول: الله أكبر، فقال: الله أكبر، وأمره أن يقبل ويدبر في لباس كسرى، ففعل، ثم قال عمر: "اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك، وكان أحب إليك منى، وأكرم عليك منى، ومنعته أبا بكر وكان أحب إليك منى، وأكرم عليك منى، وأعطيته، فأعوذ بك أن تكون أعطيته لتمكر بي"، ثم بكى عمر حتى رحمه من كان عنده، ثم قال لعبد الرحمن بن عوف: أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تمسى^(٤)..

٥- موقعة جلولاء :

اجتمعت جيوش الفرس في عدد هائل عند جلولاء، في الطريق إلى خراسان، فسير إليهم سعد ابن أخيه هاشم بن عتبة في اثني عشر ألفًا، فمضى

(١) الطبري: السابق ٤ / ١٩

(٢) السابق ٤ / ١٩ - ٢٠

(٣) ابن الأثير: السابق ٢ / ٣٦٢، ابن كثير: السابق ٤ / ٩١

(٤) ابن كثير: السابق ٤ / ٩١ - ٩٢

إليهم في صفر سنة ١٦ هـ ومعه وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب، فانتصروا عليهم في معركة هائلة، وقُتل من الفرس يومئذ مائة ألف فيما يزعم الرواة، فجلبت القتلى الطريق إلى حصنهم فسميت: "جلولاء" .. وغنم المسلمون غنائم هائلة، وسار القعقاع بن عمرو يتبع الفارين فقتل قائد الفرس مهرا، ومضى حتى بلغ حلوان ففر منها يزدجرد إلى الري، وانتهت فتوح المسلمين إلى حدود سواد العراق مع جبال خراسان، وعندها رفض عمر بن الخطاب أن ينساح جنده فيما وراء ذلك، قال: " لوددت أن بين السواد وبين الجبل سدًا لا يخلصون إلينا، لا نخلص إليهم.. إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال" (١) ..

٦- فتح تكريت والموصل والجزيرة:

في ذات الوقت سارت قوات أخرى على رأسها عبد الله بن المعتّم (٢) بأمر عمر في خمسة آلاف ليواجهوا تحالفًا من الروم . الموجودين في الموصل . وقبائل العرب النصارى من تغلب وإياد والنمر، وقد نزلوا في تكريت بين بغداد والموصل.. فكان نصره عليهم حاسمًا، وسارت قوات المسلمين إثر ذلك الانتصار في جمادى سنة ١٦ هـ لفتح نينوى والموصل المتجاورتين، فباغتت أهلها واقتحمت حصونهم فبادروا إلى التسليم والصلح (٣).

واستمرت فتوحات المسلمين في شمال العراق.. إذ إن أهل الجزيرة العراقية خاطبوا هرقل إمبراطور الروم وواعدوه المناصرة ضد المسلمين في حمص سنة ١٧ هـ، فكتب الخليفة إلى سعد بإرسال الجيوش لنجدة مسلمي حمص، وإرسال

(١) الطبري السابق ٢٤/٤ - ٣٠، ابن الأثير: السابق ٣٦٤/٢ - ٣٦٧، البلاذري: السابق ٢٦٤

(٢) عبد الله بن المعتّم العباسي كان أحد رجال تسعة وفدوا من قبيلة عبس إلى النبي ﷺ فأسلموا، وذلك قبل صلح الحديبية (راجع محمود شيت خطاب: السابق ص ٣٧٥)

(٣) الطبري: السابق ٣٧-٣٥/٤ .

جيوش أخرى يقودها عياض بن غنم لمهاجمة مدن شمالي الجزيرة التي خرج أهلها لمساعدة الروم، وقد أفلح ذلك التحرك المزدوج، إذ بادر أهل الجزيرة الذاهبون إلى حمص . بمجرد سماع خبر تحرك المسلمين لمهاجمة ديارهم . إلى مفارقة الروم والعودة سريعًا إلى مواطنهم لحمايتهم، غير أن قوات المسلمين التي كان عياض بن غنم قائدها العام استطاعت مهاجمة مدن الجزيرة الكبرى في وقت متقارب؛ الرقة ونصيبين وحران والزها، ولم يجد أهلها مناصًا من التسليم ودفع الجزية، وبخاصة بعد ما فشل هجوم حلفائهم الروم على حمص، " فكانت الجزيرة أسهل البلدان أمرًا وأيسره فتحًا" (١).

٧- الفتح في جنوبي العراق وفارس:

كان قطبة بن قتادة السدوسي . أحد رجالات المسلمين . في جماعة منهم يغيرون على تجمعات الفرس في جنوب العراق؛ فكتب إلى عمر يعلمه مكانه وأنه لو كان معه عدد يسير من المسلمين لظفر بمن جاوره منهم، فوجه إليه عمر بعض المسلمين، ثم بعث إليهم عتبة بن غزوان . أحد أفاضل الصحابة البدرين . فوجهه إلى تلك المنطقة التي كانت تعرف بأرض الهند؛ ثم عرفت بعد ذلك بالبصرة لما بناها المسلمون؛ وكان ذلك سنة ١٤ هـ.. وقيل: بل أرسله سعد بن أبي وقاص إلى موضع البصرة سنة ١٦ هـ... وتتفق الروايتان في أن عتبة قد ظفر بتجمع الفرس في هذه المنطقة، وأنه اختط بعد ذلك مدينة البصرة في موضع كان يعرف بمدينة الرزق حوالي سنة ١٧ هـ، وفي هذه السنة أيضًا أمر عمر ببناء مدينة الكوفة في موضع بين الحيرة والفرات، وسط بين صحراء أرض العرب وطبينة

(١) السابق ٤ / ٥٣ - ٥٦، ابن الأثير السابق ٢ / ٣٧٧-٣٨٠.

أرض العراق؛ بعدما غيّرت وخومة أرض المدائن من أجسام الجند الصحراويين (١)

..

وانتصر عتبة في عدة حروب قرب البصرة وفيما بينها وبين الأهواز (٢)، ولما انهزم القائد الفارسي الهرمزان . أحد قادة رستم . معه في موقعة القادسية اتجه إلى الأهواز جنوبي فارس، وأخذ يشن الغارات على المسلمين المجاورين له، فاستمد عتبة بن غزوان سعاداً فأمدته بجيش استطاع به . مع قوات البصرة . هزيمة الهرمزان في عدة مواقع؛ وتوسعوا في أرضه حتى اضطر إلى دفع الجزية، ولكنه عاد إلى الغدر ونقض الصلح مراراً؛ وفي كل مرة كان المسلمون يلحقون به الهزائم المتوالية فيرجع إلى الصلح والصغار، وفي هذه الفترة كان الخليفة عمر يرى عدم الانسياح في أرض الفرس ويقول: "حسبنا لأهل البصرة سوادهم والأهواز؛ وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم" (٣)، وذلك لرغبته في هضم هذه الفتوحات الواسعة، وهداية أهلها إلى الإسلام..

وكان العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين؛ وكان ينافس سعد بن أبي وقاص؛ فلما رأى انتصاراته في القادسية وغيرها انتدب أهل البحرين إلى غزو فارس فعبر بهم البحر؛ بغير إذن عمر ولا علمه - فيما يزعمون - وكان عمر لا يأذن بعبور البحر والتغريب بالمسلمين فيه؛ إذ لا عهد لهم به؛ فنزل العلاء في جنده في إصطخر جنوبي فارس فحاربوا الفرس وظفروا بهم إلا أنهم لما أرادوا العودة إلى البحرين وجدوا العدو قد أحاط بهم، وامتلك ساحل البحر وغرق سفنهم، وكان عمر لما بلغه صنيع العلاء خشي عليه وعلى جنده فأرسل إلى سعد يأمره

(١) راجع: ابن الأثير: السابق ٢ / ٣٣٤ - ٣٣٥، ٣٧٢-٣٧٨.

(٢) راجع: شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة ص ٤٢٥

(٣) الطبري: السابق ٤ / ٧٢-٧٩

بإنجاده، وكتب إلى العلاء يعزله عن البحرين ويلحقه بسعد.. واستطاعت نجدات أهل الكوفة أن تستنقذ العلاء وجنده، وذلك سنة ١٧هـ (١)..

والزعم بتحريك أحد قادة عمر في جيشه بغير علم عمر وإذنه زعم عريض، تعارضه سيرة عمر مع ولاته، وعظيم هيبتهم له، وكذلك الزعم بأن الخليفة علم بمحاصرة العدو له، فكتب إلى سعد بإنجاده، فأدركته قوات سعد وهو لا يزال محاصرًا، مما يستلزم أمداً طويلاً نسبياً، والأقرب إلى طبيعة الأمور أن نتصور تواصل الأخبار بين سعد والعلاء، وأنه أرسل لنجدته فور علمه بما يحيق به من خطر..

ولم يزل يزيدجرد ملك الفرس المهزوم يثير الفرس على المسلمين حتى أجابوه؛ وتعاقد أهل فارس والأهواز على النصر، فأمر عمر سعدًا أن يرسل جيشًا من الكوفة، وأمر أبا موسى الأشعري أمير البصرة الجديد أن يرسل جيشًا من البصرة، واستطاعت هذه القوات هزيمة الفرس سنة ١٧هـ والاستيلاء على رامهرمز وتُسْتَرَّ وغيرهما وتأسر القائد الفارسي الهرمزان، وتقدم به إلى عمر فيسلم (٢)..

٨- موقعة نهاوند :

عاد يزيدجرد يكاتب أنصاره ويحشد طاقاته لمعركة فاصلة مع المسلمين، فاجتمعوا في نهاوند، وهي مدينة عظيمة من مدن همذان ببلاد فارس، ووصلت أخبارهم إلى عمر فاهتم لها، وقيل إن بعض أصحابه أشار عليه بالسير للقاء الفرس بنفسه، مما يؤكد إحساسهم بخطورة التحركات والحشود الفارسية، وأشار عليه آخرون بتأمير رجل له رأى وخبرة لحربهم، فقرر عمر أن يسند قيادة الجيوش إلى النعمان بن مقرن المُرْزِي . من خيار الصحابة . فانتدبه لذلك من جنوب العراق

(١) السابق ٤ / ٧٩-٨٢

(٢) السابق ٤ / ٨٣-٩٥، ابن الأثير: السابق ٢ / ٣٨٩-٣٩٥

إلى نهاوند^(١).. وفي رواية أخرى أن النعمان كان عاملاً على كَشْكِر من مدن وسط العراق فكتب إلى عمر يخبره أن سعد بن أبي وقاص استعمله على جباية الخراج وأنه قد أجب الجهاد ورغب فيه، فكتب عمر إلى سعد أن " ابعث به إلى أهم وجوهك؛ نهاوند " ^(٢)، وكتب إلى قادته في الأهواز وما بين الأهواز وفارس أن يشغلوا الفرس عن إخوانهم ويقطعوا إمداداتهم عن السير إلى نهاوند ^(٣).

لما وصل النعمان وجيشه إلى نهاوند وجد الفرس قد تحصنوا منه وأحاطوا حصنهم بحسك الحديد^(٤)، فرأى أن الأمر سيطول، وأشار عليه أصحابه أن يُنْشَب القتال ثم يتظاهر بالانهزام ليتبعوه، فإذا بعدوا عن حصنهم وحسكهم كُرُوا عليهم.. فأمر القعقاع بن عمرو بأن يبدأ القتال.. وذلك في يوم جمعة وقت الزوال حيث كان رسول الله ﷺ يحب القتال وقتها، ويرى أنها ساعة إجابة ونصر، وكان النعمان يتوقع معركة فاصلة شديدة الخطر لها ما بعدها.. فقال: "إن قُتلت فالأمير بعدي حذيفة بن اليمان، وإن قتل ففلان"، حتى عد سبعة رجال، ثم دعا ربه فقال: "اللهم إني أسألك أن تفر عيني بفتح يكون فيه عز الإسلام، واقبضي شهيداً".. واحتدم قتال لم يسمع المسلمون بقتال أشد منه، وصبر المسلمون حتى كان الفتح الجليل، فانهزم الفرس وقتل منهم مقاتلة عظيمة، فلما قرى عين النعمان بالنصر جاءت الشهادة التي تمنّاها.. فأخفى أخوه سويد بن مقرن خبر قتله كيلا يُفْتَّ في أعضاد المسلمين، ولقَّه في ثوبه، وسلم رايته إلى حذيفة بن اليمان حتى تم النصر، وتبدد جيش الفرس الذي رُوي أنه كان مائة ألف وخمسين ألف مقاتل ^(٥)، وكان

(١) ابن الأثير: السابق ٢ / ٤١٣ - ٤١٤

(٢) الطبري: السابق ٤ / ١١٣

(٣) السابق ٤ / ١٢٧

(٤) الحسك: الشوك، وحسك الحديد: ما يصنع على شاكلته من الحديد

(٥) وقيل إن عدة الفرس كانت ستين ألفاً، وقيل مائة ألف (البلاذري: السابق ص ٣٠٠)

عدد المسلمين نحو ثلاثين ألفاً، وقتل الفَيْرِزَان قائد الفرس الكبير، وغنم المسلمون غنائم هائلة وافتتحت نهاوند، فلم يكن للأعاجم بعد ذلك جماعة "، ووصل الخبر إلى عمر فبكى قائده الشهيد بكاء شديداً، فلما رأى رسول الجيش بكاء عمر أشفق عليه فقال: " والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجل يُعرف وجهه، فقال عمر: " المستضعفون من المسلمين، لكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم، وما يصنعون بمعرفة عمر ابن أم عمر!!" (١)، وكان المسلمون يسمون فتح نهاوند "فتح الفتوح" لأنه لم يكن للفرس بعده اجتماع، وملك المسلمون بلادهم (٢)، واختلف الرواة حول تاريخ هذه المعركة الكبرى، فقيل: سنة ١٨ هـ أو ١٩ هـ، وقيل بل كانت سنة ٢٠ هـ أو ٢١ هـ!! (٣).

٩- الفتح بعد نهاوند:

وانساحت جيوش المسلمين بعدها فاتحة المناطق شرقي وشمال شرقي العراق، فافتتحت **همدان والري وقومس** - بين الري ونيسابور - على يد نعيم ابن مقرن (٤)، وافتتح أخوه سويد **جرجان وطبرستان** صلحاً (٥)، بينما سرح نعيم قواته ففتحت بلاد **أذربيجان** عنوة واقتهاراً (٦) ..

(١) راجع الطبري: السابق ٤/١١٥-١١٧، ١٢٨ - ١٣٥، ابن الأثير: السابق ٢ / ٤١٤-٤١٨،

ابن خلدون: العبر ٢ / ٥٣٢-٥٣٤

(٢) ابن الأثير: السابق ٢ / ٤١٩

(٣) راجع الطبري: السابق ٤ / ١١٤، البلاذري: السابق ٣٠٢، ٣٠٣.

(٤) الطبري: السابق ٤ / ١٤٧ - ١٥٢، ابن كثير السابق ٤ / ١٦٠ - ١٦١.

(٥) الطبري: السابق ٤ / ١٥٢ - ١٥٣

(٦) السابق ٤ / ١٥٣-١٥٥.

إن هذه الفتوح المتتابعة تنبئ عن تغير كبير في توجهات أمير المؤمنين عمر في حروبه ضد الفرس، فقد مر بنا أنه كان ينهى قواته عن الانسياح في أرض فارس، ويتمنى لو كان بينه وبين الفرس جبلاً من نار يحجزهم عنه.. إلا أن عمليات الانتقاض المستمرة لمدن فارس التي سلّمت للمسلمين أثارت مخاوف الخليفة من أن يكون ذلك بسبب مظالم يتعرض لها الفرس من فاتحيهم المسلمين، غير أنه تأكد من عدم حدوث ذلك، فسأل عن سبب ثورتهم المتكررة بالمسلمين فأخبره الأحنف بن قيس . وكان من أفاضل قاداته وحلمائهم . أنه وجود ملكهم يزيدجرد طليقاً، ومواصلته تحريضهم لاستعادة ملكه، فقرر عمر تعديل خطته؛ ومواصلة الفتح في أرض فارس حتى يقضى على خطر يزيدجرد..

وأمر عمر الأحنف بن قيس على رأس جيش أمره بغزو خراسان فافتتح مدنها هراة ومرو الشاهجان - وكان بها يزيدجرد - ففر عنها إلى مرو الرُوذ، وافتتح بعض قادة الأحنف نيسابور وسرخس، فاستجاش يزيدجرد عند ذلك بملوك الترك والصغد والصين بينما استمد الأحنف قاداته فجاءته أمداد أهل الكوفة، فسار نحو يزيدجرد فرحل عنه إلى بلخ، فحاربه الأحنف وهزمه ففر إلى بلاد ما وراء النهر، واستكمل الأحنف فتح خراسان وبعث يبشر عمر بذلك، فنهاه عمر عن العبور إلى بلاد ما وراء النهر والتدخل في أرض الترك، إلا أن ملك الترك وجد نفسه طرفاً في ذلك الصراع الدائر بين المسلمين ويزدجرد بعدما فر إلى بلاده فتعين عليه إنجاده على شيم الملوك، وكان قد أبطأ عليه لما استتجد به من قبل، فسار معه إلى بلخ فاسترجعها من المسلمين، ثم سار إلى مرو الروذ لحرب المسلمين بها؛ فطالت بينهم الحرب إلى حد ملّ معه ملك الترك فانصرف إلى بلاده، وبقي يزيدجرد متحيراً لا يدري أين يذهب، فقال له أهل مشورته: " إنا نرى أن تصالح المسلمين؛ فإن لهم ذمة وديناً يرجعون إليه، فنكون في بعض هذه البلاد وهم مجاورونا، فهم خير لنا من غيرهم"، فأبى عليهم، واستتجد بملك الصين فلم

ينجده، إذ خشي من إغصاب المسلمين إن هو أقحم نفسه في حروبهم، وتم بذلك فتح نواحي خراسان سنة ٢٢ هـ (١) ..

وفي سنة ٢٣ هـ افتتح المسلمون اصطخر للمرة الثانية وأجاب أهلها إلى دفع الجزية (٢)، وفيها افتتح سارية بن زُنَيْم مدينة فسا، قرب شيراز من مدن دارابجرد، بعد أن هزم جموعًا كثيفة من الفرس والأكراد، وسارية هو صاحب القصة الشهيرة التي تروىها كتب التاريخ والسير من أن عمر كان يخطب بالمدينة يوم الجمعة ففاجأ المصلين بقوله: " يا سارية الجبلَ الجبلَ "، ثم استأنف خطبته فلما أتاه رسول سارية بن زنيم ببشارة النصر سأله أهل المدينة: " هل سمعتم شيئاً يوم الواقعة ؟" فقال إنهم سمعوا: " يا سارية الجبل الجبل "، وكانوا قد كادوا يهلكون، فلجأ سارية بهم إلى الجبل فجعلوا ظهرهم إليه؛ وتلقوا أعداءهم من وجه واحد وقاتلوهم ففتح الله عليهم (٣) ..

وفي السنة نفسها افتتح سهيل بن عديّ كَرْمَانَ (٤)، وافتتح عاصم بن عمرو أراضي سَجِسْتَانَ كلها، وكانت أعظم من خراسان (٥)، وقصد الحكم بن عمرو التغلبي ولاية مُكْرَانَ الواسعة شرقي كرمان فاستولى عليها بعد أن ظفر بأهلها ومن أمدهم من جنود ملك السند، فلما قدم رسولهم بالنصر إلى عمر أمرهم ألا يجاوزوا مكران إلى غيرها من أراضي المشركين (٦) ..

وبما تقدم من الفتوح التي سردناها " سقطت مملكة فارس نهائياً بيد المسلمين، وصار لهم قطعة من الأرض يحدها من الغرب نهر الفرات والخليج

(١) الطبري: السابق ٤ / ١٦٧-١٧١، ابن الأثير: السابق ٢ / ٤٣٤-٤٣٧

(٢) ابن الأثير: السابق ٢ / ٤٣٩، ابن كثير: السابق ٤ / ١٧٢

(٣) الطبري: السابق ٤ / ١٧٩، ابن الأثير: السابق ٢ / ٤٤٢، ابن كثير: لسابق ٤ / ١٧٢-١٧٤

(٤) الطبري: السابق ٤ / ١٨٠

(٥) السابق ٤ / ١٨٠-١٨١

(٦) السابق ٤ / ١٨١-١٨٢، ابن الأثير: السابق ٢ / ٤٤٣

الفارسي، ومن الشرق نهر جيحون والسند، ومن الجنوب المحيط الهادي، ومن الشمال أرمينية، وكان افتتاح ذلك كله في زمن لا يتجاوز سبع سنين " (١) ...

ثانيًا: فتوح الشام:

وكان أبو بكر قد انتقل إلى الرفيق الأعلى والمسلمون يتأهبون لخوض معركة اليرموك واستخلف عمر بن الخطاب الذي بادر إلى عزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة للجيش، وعيّن أبا عبيدة بن الجراح مكانه، وضمّ عمر خالدًا إلى قوات أبي عبيدة، فكان قائدًا فرعيًا لجيش منها، كما أمر عمر قائده عمرو ابن العاص بمعاونة بقية زملائه في حروبهم حتى تصير الحرب إلى فلسطين فيتولى هو حربها (٢) ..

وكان أول كتاب كتبه عمر إلى قائده أبي عبيدة: "أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه... لا تُقدّم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلًا قبل أن تستريده لهم، وتعلم كيف ماتاه، ولا تبعث سرية إلا في كنف من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة، وقد أهلك الله بي وأبلاني بك؛ فغمض بصرك عن الدنيا، وألّه قلبك عنها، وإياك أن تهلك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم.." (٣) ..

١- فتح دمشق وفحل:

ترك أبو عبيدة باليرموك بعض قواته لتأمين ظهره إن هاجمه الروم من خلفه، ومضى هو في بقية الجيش يريد اتباع فلول الروم الهاربين من اليرموك؛

(١) عبد الوهاب النجار: الخلفاء الراشدون ص ٢٠٤

(٢) الطبري: السابق ٤٣٦/٣

(٣) السابق ٤٣٤/٣

وهو لا يدري أيجتمعون أم يتفرقون؛ فأتاه خبرهم بأنهم اجتمعوا بفحل من أرض الأردن، وأتاه خبر آخر بأن إمدادات الروم قد توصلت إلى دمشق... فأقام أبو عبيدة بمرج الصُّفْر وكتب إلى عمر يستأمره أيبداً بدمشق أم فحل؟ فأمره عمر أن يبدأ بدمشق فإنها "حصن الشام وبيت مملكتهم"، ومحاصرة فحل، ووضع قوات في الطرق المؤدية إلى دمشق للتصدي لقوات الروم إن حاولت نجدها أو إمدادها^(١)..

وبادر أبو عبيدة وأصحابه إلى التنفيذ، فسرح عشرة من قواده إلى فحل، فنزلوا قريباً منها، فلما رأى أهلها ذلك بتقوا الماء حول فحل، فوحلت الأراضي، وحصرهم المسلمون، فكانوا أول محصور بالشام، وبعث أبو عبيدة بقوات أخرى فكانت بين دمشق وحمص، وبعث آخرين فكانوا بين دمشق وفلسطين كي يحولوا بين الروم وإمداد دمشق عندما يتحرك إليها المسلمون، ثم سار أبو عبيدة بنفسه - وقدم خالد بن الوليد - فنزل على دمشق وضرب حولها الحصار، وامتد ذلك الحصار نحو سبعين ليلة، واشتد كرب أهل دمشق لما علموا أن نجدات هرقل - المقيم آنذاك بحمص - إليهم لن تصلهم إذ تصدت لها قوات المسلمين بين حمص ودمشق، فشغلتهم عن نجدتهم، ولم يبق لأهل الشام أمل إلا في هجوم الشتاء على المسلمين لعلهم يتراجعون بذلك عنهم كما كان شأن الغزاة لهم من قبل، ولكن المسلمين صبروا للبرد الفارس، فوهن الروم وأحيط بهم.. واستطاع خالد بن الوليد أن ينتهز فرصة انشغال حامية حصن دمشق الذي يليه، فاقتحم الحصن في عمل عسكري عبقرى^(٢)، وحطم خالد ومن معه أغلاق الباب بسيوفهم وفتحوه للمسلمين، فلما

(١) الطبري: السابق ٤٣١/٣.

(٢) يروي المؤرخون المسلمون أنه حدث في ذلك الوقت أن وُلِدَ لقائد الروم بالمدينة مولود فأولم له، فأكل الناس وشربوا وغفلوا عن مواقعهم، ولم يشعر بهم المسلمون، إلا ما كان من خالد بن الوليد، فإنه كان "لا ينام ولا ينيم" ولا يخفى عليه من أمورهم شيء، فلما علم الخبر قدّم القعقاع بن عمرو وجماعة من شجعان فرسانه ومعهم سلالم الحبال فعبروا الخندق الذي يفصلهم عن

رأى الروم ذلك سارعوا إلى أبي عبيدة بن الجراح القائد العام للجيش فبذلوا له الصلح، فقبل منهم على أن يقاسمهم أموالهم وعقارهم، ويدفعوا دينارًا على كل رأس جزية، فدخلها أبو عبيدة صلحًا، ودخلها خالد عنوة، فالتقيا في وسط المدينة، هذا قتلاً واستعراضًا، وذلك صلحًا وتسكينًا، فأجروا البلد كلها مجرى الصلح.. وأرسلوا ببشارة النصر إلى عمر، فجاءته وقد شغله أمر العراق ومن به من المسلمين وهم يتأهبون لمعركة القادسية، فأرسل إلى أبي عبيدة يأمره بصرف جند العراق الذين قدموا مع خالد من قبل إلى العراق؛ كما مر بنا.. وتولى يزيد بن أبي سفيان إمارة دمشق، فأرسل جنده للفتح ما حولها، فافتحه على مثل صلح دمشق^(١).

سار أبو عبيدة إلى فحل ومعه خالد، وكان الأمير بالأردن هو شرحبيل بن حسنة، وكتب أبو عبيدة إلى عمر يصف له حال المسلمين بفحل، وحيلولة الأحوال بينهم وبين المدينة، وأقام المسلمون ينتظرون رد الخليفة، فقرر الروم مهاجمتهم ظنًا منهم أن يجدوا فيهم غرة، فأتوهم وهم حذرون، وكان شرحبيل لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة، والتحم الجيشان، فانهزم الروم وانتهت بهم الهزيمة والدهشة إلى ما خلفهم من الأحوال التي جعلوها مكيدة للمسلمين، فلحقوا بهم وركبهم وقد وحلوا لا يمنعون يد لأمس، فوخزهم بالرماح، فقتلوا في الوحل، وكانوا

أوار المدينة، وكان الروم قد ملئوه ماء، على قِرب جعلوها لذلك، ثم أنشبوها حبالهم بشرف الأسوار المواجهة لهم، ثم صعودها ودنوا من باب الحصن، وتبعهم خالد ومعه عامة أصحابه، وهم يكبرون، ويصعدون سلالم الحبال فوصلوا أعلى الحصن ثم انحدروا إلى بابيه فقتلوا حراسه، إنها ذات الخطة العسكرية التي اتبعتها القوات المسلمة المصرية في عبور حصون خط بارليف في حرب رمضان / أكتوبر ١٩٧٣م حيث عبروا مانع قناة السويس على قوارب مطاطية، ثم تسلقوا حصون بارليف العالية على سلالم الحبال.

(١) راجع الطبري السابق ٤٣٨/٣-٤٤١، ابن الأثير: الكامل ٢٧٨/٢-٢٧٩.

نحو ثمانين ألفاً لم ينج منهم إلا الشريد.. ومضى أبو عبيدة ومعه خالد إلى فتح حمص، وتركوا شرحبيل أميراً على فحل وما حولها^(١).

مضى شرحبيل ومعه عمرو بن العاص وعدد من كبار الصحابة إلى بيسان فحاصروها أياماً ثم رضي أهلها بالصلح على مثل ما صالحت عليه دمشق^(٢)، وبلغ أهل طبرية الخبر فصالحوا من بإزائهم من المسلمين على مثل صلح دمشق.. وتم فتح سائر الأردن مدنها وقراها.. وذلك سنة ١٣هـ^(٣).

٢- معركة مرج الروم:

علم هرقل بما أصاب جيوشه في دمشق والأردن، وبمسير المسلمين نحو حمص؛ فأرسل جيشين للقائهم، وحاول أحدهما خديعة خالد غير أنه تمكن من حصره بينه وبين يزيد بن أبي سفيان وتدميره، وعاد خالد إلى أبي عبيدة لينجده في مواجهة الجيش الثاني، فوجده قد ظفر به وبدده حتى امتلأ مرج الروم من قتلاهم.. فساروا معاً نحو حمص، فافتتحوها في طريقهم بعلبك صلحاً^(٤).

فتح شمال الشام:

ولما علم هرقل بمصير جيشيه وحركة المسلمين نحو حمص غادرها إلى الرها من مدن الجزيرة العراقية، وأمر أهل حمص بالتحصن من المسلمين، وألا يقاتلوهم إلا في يوم شات شديد برده، وهو يؤمل ألا يتحمل المسلمون عناء البرد الذي لم يعهدوا مثله في تلك الأنحاء؛ فینسحبوا عنها مع امتداد المطاولة وطول الحصار.. لكن المسلمين صبروا للبرد الشديد والحصار الطويل حتى استیأس الروم الذين لم

(١) الطبري: السابق ٢٤٢/٣-٢٤٣، ابن الأثير: السابق ٢٧٩/٢، ٢٨٠.

(٢) الطبري: السابق ٢٤٣/٣، ابن الأثير: السابق ٢٨١/٢.

(٣) الطبري: السابق ٤٤٤/٣، ابن الأثير: السابق ٢٨١/٢.

(٤) الطبري: السابق ٥٩٨-٥٩٩، البلاذري: السابق ١٣٧.

تأتهم نجدات هرقل، ولم ينصرف عنهم المسلمون بل زادهم تصرُّم الشتاء جرأة، فسرت نزعة إلى السلام والمصالحة^(١)، انتهت بأن أجاب الروم إلى الصلح على مثل ما صالح عليه أهل دمشق^(٢).. وذلك سنة ١٥هـ.

وأقام أبو عبيدة حتى منتصف الربيع من السنة الخامسة عشرة للهجرة، وانضم إليه أهل القوة والجلد من عرب الشام، فاستخلف على حمص عبادة بن الصامت وسار في قواته إلى حماة؛ فتلقاه أهلها مذعنين، فصالحهم على دفع الجزية عن رؤوسهم، والخراج عن أرضهم، وكذا فعل أهل شيزر ومعرة النعمان^(٣)، فصالحوا على مثل صلح حمص، ثم اتجه إلى اللاذقية فقاتله أهلها، فخادعهم أبو عبيدة حتى فتحها عنوة^(٤).. ولما حدث ذلك جلا أهل جبلة عنها، وكذا فعل أهل أنطرسوس بعدما فتحها عبادة بن الصامت، وافتتح سلمية أيضًا، في سنة ١٥هـ^(٥).

واتجه خالد بن الوليد إلى فتح قنسرين كورة مدينة حلب، فالتقى بجيش رومي كبير يقوده مينا - أعظم قواد الروم بعد هرقل - وذلك بظاهر حلب، فاقتتلوا فظفر بهم خالد، وقتل قائدهم مينا، وأفنى جيشه، ولم يعرض خالد لأهل ظاهر حلب من العرب بعد أن اعتذروا إليه أنهم إنما حُشروا مع الروم ولم يكن من رأيهم

(١) تقول الرواية الإسلامية إن المسلمين كبروا ذات يوم بجموعهم الحاشدة فتزلزلت الروم بحمص وتصدعت حيطانهم ثم كبروا ثانية فنهاقت لتكبيرهم الدور والحيطان.

(٢) الطبري: السابق ٣/٥٥٩-٦٠٠، ابن الأثير: السابق ٢/٣٣٩.

(٣) وكان اسمها "معرة" فقط، ثم نسبت إلى النعمان بن بشر الأنصاري فقيل: معرة النعمان.

(٤) عسكر المسلمون على بعد عنها، ثم أمر فحفرت حفائر عظيمة تستر الحفرة منها الفارس راكبًا، ثم أظهروا أنهم عائدون منها، ورحلوا، فلما جنَّهم الليل عاودوا واستتروا في الحفائر، وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا عنهم، فأخرجوا سرحهم وماشيهم وانتشروا بظاهر البلدة، فلم يرعهم إلا المسلمون يصيحون بهم، ودخلوا معهم المدينة وملكوها عنوة (راجع: ابن الأثير: السابق ٢/٢٣٩-٢٤٠)

(٥) السابق ٢/٣٤٠.

الحرب، وسار خالد حتى بلغ حصون قنسرين فتحصن أهلها من الروم، فقال لهم خالد: "إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم، أو لأنزلكم الله إلينا"، فصالحوه على صلح حمص، فأبى إلا على إخراج المدينة فأخبرها كي لا يفيدوا من حصونها، وفعل خالد من المعجزات الحربية الباهرة في هذه الفتوح ما لم تسعفنا به مصادرها التاريخية إلا قليلاً، وعلى نحو مشوب بالتهويل والخرافة أغرت به بطولة خالد وأعاجيبه، فلما بلغ صنيع خالد عمر قال: "أمر خالد نفسه، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني"^(١).

وسار أبو عبيدة في جيوشه نحو حلب ففتحها صلحاً^(٢)، واتجه بعد ذلك إلى فتح أنطاكية، وكانت حتى ذلك الوقت عاصمة الإمبراطورية الرومانية في الشرق، والمدينة التي تلي فيها مدينة قسطنطين، وكان أباطرة الروم يؤثرونها على الإسكندرية لقربها، ولشعورهم بأنها أوثق ارتباطاً بهم من العاصمة المصرية التي يفصلها البحر عنهم، والتي كانت تثور حيناً بعد حين^(٣).. وكانت للمدينة مكانتها

(١) الطبري: السابق ٦٠١/٣-٦٠٢، ابن الأثير: السابق ٣٤١/٢، وزعم صاحب كتاب فتوح الشام المنسوب للواقدي (٢٥٥/٨-٢٥٦) أن خالدًا سار إلى قنسرين ومعه عشرون فقط من أبطال المسلمين، فاختلفوا بجند الروم خارج المدينة فلم يعرفوهم، وانقض خالد وصحبه على أميرهم فأخذوه أسيراً، ثم أعلنوا شعارات إسلامهم، فأحجم الروم عنهم مخافة أن يقتلوا أميرهم الذي كان قريباً لهرقل الإمبراطور، فطلبوا منهم المبارزة، فقتل خالد وصحبه منهم عددًا عظيمًا، ثم نشبت الحرب بينهم، فقتل خالد وأصحابه منهم جماعة كبيرة، لكنهم جهدوا حتى كاد عدوهم يظفر بهم، لولا أن عاجلتهم نجدات المسلمين يقودهم أبو عبيدة بعد أن أشفقوا عليهم وأبطأ عنهم خبرهم، فألقوا خالدًا وأصحابه، وفتحوا قنسرين عنوة، وبالرواية مبالغت أخرى لا يصدقها عقل، ولا نجدتها في مصدر آخر، أما البلاذري فيروي أن أبا عبيدة هو الذي صالح أهلها، وأن خالدًا كان على مقدمة جيشه (فتوح البلدان ص ١٥٠)

(٢) البلاذري: السابق ص ١٥٢، ابن الأثير: السابق ٣٤٢/٢.

(٣) د. هيكل: السابق ٢١٨

الدينية عند النصارى كافة^(١)، وكانت- فضلاً عن ذلك - تحتل موقعاً حصيناً على شاطئ البحر المتوسط، فتحيط بها الجبال من جوانبها الثلاثة والبحر من الجهة الرابعة، أما أسوارها فكانت غاية في الارتفاع والاتساع، وقد أوى إليها كثير من الروم المنهزمين في المعارك التي مرت بنا في الشام.. والبحر يمدها بكل ما يحتاجه أهلها، تحمله سفن البيزنطيين^(٢).. وكانت لذلك كله جديرة بأن يمدها هرقل - المتحصن آنذاك في الرها - بكل ما يلزمها من وسائل الصمود، وهي لحصانتها ومنعتها مرشحة لذلك، ولكنه بعدما هدّته انتصارات المسلمين خارت عزائمه لم يفعل، فتركها تقاوم وحدها حصار أبي عبيدة بن الجراح وجيوشه، ولم يجد أهلها آخر الأمر بداً من التسليم، فصالحوا المسلمين على الجزية والجلء عنها، وجلا بعضهم وأقام آخرون فأمنهم المسلمون، فلما سار المسلمون بعيداً عنهم ليواصلوا فتوحاتهم نقضوا عهدهم، فوجه إليها أبو عبيدة بعض قواته ففتحها على الصلح الأول... وكانت أنطاكية عظيمة القدر عند المسلمين أيضاً، فلما فتحت كتب عمر إلى أبي عبيدة أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين، واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء^(٣)..

ثم واصل أبو عبيدة فتوحاته شمالي الشام حتى وصلت قواته إلى أعالي الفرات ومنطقة الثغور الحاجزة بين الشام وآسيا الصغرى، بل سارت بعض قواته فعبرت

(١) فأهلها أول من أطلق عليهم اسم "المسيحيين"، وحل بها القديس بطرس، وبشر هناك بالدين الجديد، وكانت أنطاكية مقر نشاط ديني عظيم ومقام بطرك آسيا، وعُقدت بها في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي عشرة مجامع كنسية، تركت مقرراتها من الأثر في تكوين الفرق المسيحية ما يفصله تاريخ النصرانية (السابق والصفحة).

(٢) السابق ٢١٨-٢١٩

(٣) البلاذري: السابق ١٥٢، ١٥٣، ابن الأثير: السابق ٣٤٢/٢-٣٤٣.

الدروب هناك إلى أرض الروم، ثم عادت ظافرة وذلك سنة ١٥هـ^(١).. فلا عجب إذن أن يذكر الرواة أن هرقل لما أتته أخبار هزائمه المتوالية في الشام رحل عن مقره بالرها إلى القسطنطينية، ووقف على نشز من الأرض وهو في الطريق إليها قائلاً - وهو ينظر بحسرة إلى ملك عريض ضاع -: "السلام عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده"^(٢).

٥-فتح فلسطين وموقعة أجنادين:

لما انصرف أبو عبيدة وخالد من فحل إلى حمص اتجه عمرو بن العاص يعاونه شرحبيل بن حسنة لفتح فلسطين، وكان على رأس قوات الروم هناك "أرطبون" أكبر قادة الروم وأكثرهم دهاء وحكمة وغدراً، وكان قد وزع قواته في الرملة وإبلياء (بيت المقدس) ويافا وغيرها.. فوقف عمرو بن العاص في قواته مقابل "أرطبون" وكان عمرو مشهوراً بالدهاء والفتنة حتى قال عمر: "رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عم تفرج"، وقد قامت قوات إسلامية أخرى بقطع طرق الإمداد البري والبحري عن جيش أرطبون.. وعسكر عمرو قبائله في "أجنادين" لا يقدر منه على شيء، ولا تسعفه رسله بما يحتاجه من معلومات عن عدوه، فزعم سيف بن عمر أن عمرو بن العاص قرر أن يدخل معسكر أرطبون بنفسه ليرى ويسمع ما لم تسعفه به استطلاعاته.. فسار على أنه رسول من عمرو بن العاص فأبلغه ما يريد، وسمع كلامه، وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد.. وفطن به أرطبون، وقال في نفسه: "والله هذا لعمرو، أو الذي يأخذ عمرو برأيه، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله"، فدعا أحد حراسه وأمره أن يقتل عمراً إذا مر به، وفطن عمرو لفعله، فمكر به، وقال: "قد سمعت منك وسمعت مني، فأما ما قلت فقد وقع مني موقعاً، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن

(١) البلاذري: السابق ١٥٤-١٥٥، ابن الأثير: السابق ٣٤٣-٣٤٤.

(٢) الطبري: السابق ٦٠٣/٣، ابن الأثير: السابق ٣٤١/٢-٣٤٢.

الخطاب إلى هذا الوالي لنكافئه ويشهدنا أموره، فأرجع فأتيك بهم الآن، فإذا رأوا في الذي عرضته عليّ الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير، فطمع أرطوبون في أن ينال الصيد كله، فدعا حارسه وساره ونهاه أن يفعل ما كان قد أمره به من قتل عمرو إذا خرج من عنده.. وخرج عمرو وقد رأى أن لا يعود لمثلها، وعلم أرطوبون أنه خدعه، فقال: "خدعني هذا الرجل، هذا أدهى الخلق"، وبلغت القصة عمر بن الخطاب فقال: "غلبه عمرو، لله عمرو، ونشب القتال شديدًا مثل يوم اليرموك حتى كثرت القتلى بين الفريقين، وانهزم الروم وفر أرطوبون إلى إيلياء^(١).

وتلك رواية جديرة بالشك، لما تحويه من عناصر مبالغة تمتاز بها رواية سيف بن عمر في الفتوحات، فلم يكن عمرو - في حكمته ودهائه - بالذي يغامر مثل تلك المغامرة بنفسه؛ فيمكن منه عدوه، ولم يكن الخليفة عمر - وهو الحازم القوي - بالذي يقبل من عمرو مثل ذلك التغير الذي قد يترك آثارًا وخيمة على جيش المسلمين، ناهيك عن أن يمتدح صنيعه، ويطري فعله!!

وكان تفكير المسلمين آنذاك يدور حول مدينة بيت المقدس والسيطرة عليها؛ بما لها من مكانة وثيقة عند المسلمين وغيرهم، وكأنما أرادوا أن يضغطوا عليها حتى تضطر إلى الاستسلام، حفاظًا على هذه المكانة، فلجأ عمرو إلى حصارها حصارًا واسعًا وذلك بفتح ما يجاورها من معاقل الروم فتبقى وحيدة في الميدان.. فسير عمرو قواته ففتحت غزة وسبسطية ونابلس واللد وعمّواس وبيت جبرين ويافا^(٢). ثم أفرغ جهده لفتح المدينة المقدسة.

فتح بيت المقدس:

(١) الطبري: السابق ٦٠٥/٣-٦٠٦، ابن الأثير: السابق ٣٤٥/٢-٣٤٦.

(٢) البلاذري: السابق ١٤٤، ابن الأثير: السابق ٣٤٧/٢.

ويبدو أن عمراً لما رأى استحکامات الدفاع في مدينة بيت المقدس وكثافة حماتها وصمودها للحصار الذي ضربه عليها رأى أن يستمد عمر بن الخطاب فكتب إليه: "إني أعالج حرباً كئوداً صدوماً وبلاداً ادّخرت لك، فأريك"، فعرف الخليفة أنه لم يقل إلا بعلمه، فنادى في الناس للاستعداد للجهاد، فخرج بهم وكتب إلى أمراءه بالشام ليوافوه بالجابية^(١)، وسار حتى نزلها، وأقبل إليه قادته، فلما علم أرطوبون قائد الروم بذلك داخله الرعب، وعرف أن عمر لن يغادر الشام إلا إذا فتح بيت المقدس، ففر عنها خلسة، وترك أمرها للبطيريك الذي مضى فصالح عمر على أهل مدينته ومدينة الرملة، وذلك سنة ١٥هـ أو ١٦هـ^(٢).

وهذه هي أرجح الروايات في أمر فتح بيت المقدس الذي تعرض لتحريف كبير لعبت فيه الإسرائيليات والأهواء السياسية دوراً كبيراً.. فثمة رواية أخرى رواها صاحب "فتوح الشام" لا تقل عن سابقتها شهرة وتفصيلاً، تزعم أن أبا عبيدة ومعه خالد بن الوليد كانا يتوليان حصار بيت المقدس، وأن الروم لم يأبهاوا لحصار المسلمين، إذ كان عندهم علم من كتبهم الدينية أن الذي سوف يتولى فتحها رجل بعينه، لم يجدوا صفتة بين المحاصرين لهم ولا قادتهم.. حتى طال الحصار أربعة أشهر، فأعلن بطيريك المدينة لأبي عبيدة أنه لن يسلمها إلا لمن ورد وصفه في التوراة، وأن اسمه عمر، وأنه من أصحاب محمد ﷺ، وأيقن المسلمون بالفتح، وأرسلوا إلى أمير المؤمنين يخبرونه ويستقدمونه، فخرج إليهم عمر في نفر من أصحابه حتى قدم الجابية سنة ١٧هـ؛ فبادر البطيريك إلى عقد الصلح معه، ثم دعا البطيريك عمر إلى دخول المدينة، فدخلها وصلى حيث قبة الصخرة بعد أن أماط عنها الأذى وأكوام القمامة التي جعلها النصارى فوقها نكاية في اليهود، حيث

(١) الجابية: قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان (راجع ياقوت: معجم البلدان ٩١/٢)

(٢) الطبري: السابق ٦٠٧/٣-٦١٠، ابن الأثير: السابق ٣٤٧/٢-٣٤٩.

إنهم يقدسونها أيضًا، وأقبل على عمر كعب الأخبار - وكان من علماء اليهود فأسلم، وارتحل معه إلى المدينة^(١).

ويبدو أن فتح بيت المقدس بما لها من مكانة عظيمة عند أهل الكتاب والمسلمين كان عملاً ضخماً أثار الخواطر وأهاج النفوس، فسرحت خيالات بعض الرواة، وأفرزت روايات تحمل طابع المبالغة والتهويل، مع اعتماد إسرائيليات كثيرة ظاهرة الوضع والانتحال، بادر أهل الكتاب إلى إذاعتها، فشاعت عند المسلمين، وجعلوها في كتبهم بغير احتراس.

فأي علم هذا الذي كان عند أرطوبون - كما في رواية الطبري - أو بطريك بيت المقدس - كما يزعم صاحب كتاب فتوح الشام - يصل إلى حد تعيين صفات القادم إلى فتح المدينة واسمه على وجه لا يحتمل اللبس أو الإبهام، بل إن صاحب كتاب "فتوح الشام" يحكي أن المسلمين حاولوا خداع البطريك فقدموا له خالد بن الوليد على أنه عمر بن الخطاب، وخالد شديد الشبه بعمر إلى حد يورث الخلط بينهما حتى عند بعض المسلمين، ولكن الحبر النصراني بغزير علمه ودقة معرفته قال لهم: "وحق المسيح كأنه هو! ولكن باقي العلامات ما هي فيه"^(٢). بل حكى الطبري في رواية أسندها إلى سالم بن عبد الله بن عمر - دون ذكر روايته - أن يهوديًا من أهل دمشق قدم على عمر فقال: "السلام عليك يا فاروق!! أنت صاحب إيلياء، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء"^(٣)، وروى الطبري عن رجاء بن حيوة من علماء الشام "عمن شهد" فتح بيت المقدس - دون ذكر أسمائهم - أن عمر لما دخل بيت المقدس ووصل إلى الصخرة المشرفة مضى يطهرها من الأذى، فكبر كعب الأخبار، وقال: "يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبيّ

(١) فتوح الشام ٢٩٦/١-٣١٩.

(٢) السابق ٣٠٥/١.

(٣) الطبري: السابق ٦٠٨/٣.

منذ خمسمائة سنة، فقال عمر: كيف؟ فأخبره كعب أن الروم بغت على بني إسرائيل ورددت الصخرة المقدسة عندهم، فبعث الله نبيًا على الكناسة - يعني كنيسة القيامة ببيت المقدس - فقال: أبشري يا أوري شلم - يعني القدس - عليك الفاروق ينقذك مما فيك، وبعث إلى القسطنطينية نبيًا فقام على تلها فقال: يا قسطنطينية ما فعل أهلك بييتي، أخربوه وشبهوك بعوشي"! وفي رواية أن ذلك النبي قال لأورشليم: "أتاك الفاروق في جندي المطيع، ويدركون لأهلك بثأرك في الروم"^(١).

وهي روايات يمكن فهمها على أنها تصور مدى معاناة اليهود تحت حكم النصارى البيزنطيين وترقبهم الخلاص منهم، لا على أنها تحمل الصدق في تفصيلاتها وإجمالها.. وتبدو هذه المبالغات على أكثر ما تكون عند صاحب كتاب فتوح الشام في أمر كعب الأحبار وعلمه^(٢).

وقد حققت هذه الروايات الإسرائيلية هدفها، فهي توحى بصدق كتبهم التي يؤمن المسلمون بتحريفها، ويتبدى هذا الصدق إلى حد مثير في بيان أوصاف فاتح بيت المقدس، وهذه الإسرائيليات تؤكد أن بيت المقدس لم يفتح عنوة، وأن حماته من الروم ونصارى العرب ناضلوا عنه حتى عجز المسلمون عن فتحه، بما لم يحدث مثيله أبدًا في كل مدائن الشام والعراق، وأنه لولا وجود نص ديني لما سلمه حُماته إلى المسلمين طائعين لا مكرهين، متعبدين لا مقهورين، وقد سعد بعض مؤرخينا

(١) السابق ٦١١/٣-٦١٢.

(٢) راجع فتوح الشام: السابق ٣١٥-٣١٧، حيث تزعم الرواية أن والد كعب الأحبار أمره بالإسلام إذا ظهر محمد ﷺ، وعرفه أوصافه ونعوته هو وأصحابه، بما لا يدع مجالاً للشك، ورغم ذلك فهذه الرواية لا تبرر تأخر إسلام الرجل نحو ثلاثين سنة بعد ظهور الإسلام. (راجع بحثًا للمؤلف عنوانه "خطر الإسرائيليات على التاريخ الإسلامي، دراسة في مرويات كعب الأحبار")

القدماء بهذه الرواية، واحتفلوا بها، وأوسعوا لها صفحاتهم، ولم لا وهي تمجد أمر الخليفة وصحابته؟ وتعلي شأنهم وتجعلهم موضع حديث الكتب السماوية السابقة، ولم يكن عمر ولا أصحابه في حاجة إلى ذلك الادعاء، فقد صنعوا تاريخهم بأيديهم عملاً وجهاداً وعدلاً وإيماناً.

وإذا كانت روايات فتح بيت المقدس قد أفسحت صدرها للإسرائيليات على ذلك النحو، فقد ظهر بها لون آخر من ألوان التحريف والزيف التاريخي، فحملت بعض الروايات طابع الدعاية للسلطة العباسية التي حدث في عصرها تدوين التاريخ على نطاق واسع.. فتزعم رواية الطبري أن عمر لما هم بالمسير إلى الشام قال له علي: أين تخرج بنفسك؟ إنك تريد عدواً كلباً - أي شديداً - فقال عمر: إني أبادر بجهاد العدو موت العباس، إنكم لو فقدتم العباس لانتفض بكم الشر، كما ينتفض أول الحبل^(١).

والحق أنه لا صلة بين حياة أحد من الصحابة أو موته وبين استمرار الجهاد في سبيل الله، وهو شريعة ماضية إلى يوم القيامة، ولا صلة بين موته وبين انتفاض الشر بالأمة الذي يعود - حين حدوثه - إلى أسبابه الموضوعية الخاصة، وقد مات أو استشهد من هو خير من العباس عليه السلام من السابقين الأولين إلى الإسلام فلم يتوقف للمسلمين جهاد، ولا انتفض بهم شر!! وذلك لا يعني بحال الغض من شأن العباس عليه السلام وفضله..

ويبقى التساؤل: هل كان عمرو بن العاص هو قائد المسلمين في حصار بيت المقدس أم كان أبو عبيدة هو المتولي هذه المهمة؟ كما يزعم صاحب كتاب "فتوح الشام" .. يرجح د. هيكل أنه كان عمرو بن العاص، لأن أبا عبيدة وخالدًا كانا حين حصار بيت المقدس في شغل بفتح حمص وحلب وأنطاكية، وبإخضاع ما حولها

(١) الطبري: السابق ٦٠٨/٣.

من البلاد، وأن هرقل كان إزاءهما بالرها يجمع الجيوش لردهما على أعقابهما، وقد كان ذلك كله - كما كان حصار بيت المقدس - في السنة الخامسة عشرة من الهجرة.. ولأن عمرو بن العاص لم يكن دون أبي عبيدة مهارة في القيادة وقدرة عليها، وحسبه أنه فاتح مصر معقل الروم المنيع^(١).

وهذا قول لا ينهض للاحتجاج على ضعف القول بأن أبا عبيدة كان قائد الحصار^(٢)، وبخاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن الواقدي المنسوب له كتاب "فتوح الشام" له رأي في ترتيب مراحل الفتح وسنيه على نحو لا يتفق مع رؤية الطبري وروايته الأثير سيف بن عمر التي رجحها د. هيكل، فهو يرى أن أبا عبيدة لما ذهب لحصار بيت المقدس كان قد فرغ لتوه من معركة اليرموك التي جرت حسب روايته سنة ١٥هـ، وأن هرقل قد جلا بعدها إلى القسطنطينية، وأن أبا عبيدة حاصر بيت المقدس بعد ذلك أربعة أشهر فافتتحها سنة ١٦هـ..

أما القول بأن عمرو بن العاص لا يقل مهارة عن أبي عبيدة فهو قول لا منازعة فيه، ولم يقل أحد من المؤرخين إن أبا عبيدة قد تولى حصار بيت المقدس لأنه أجدر بالقيادة من عمرو.

على أنه يمكن الجمع بين الروايتين في هذه الجزئية إذا افترضنا أن عمرو ابن العاص كان هو المحاصر بيت المقدس بحكم أنه المتولي فتح فلسطين منذ أرسله أبو بكر الصديق، وقد جرت عادة عمر وأبي عبيدة على احترام ذلك التقسيم لمناطق الفتح والإدارة، وأنه إنما دخل الخلط عند المؤرخين لأن عمر ابن الخطاب لما تحرك بقواته لفتح بين المقدس بناء على كتاب عمرو بن العاص إليه: "إني

(١) هيكل: الفاروق عمر ٢٣٣

(٢) سبق أن أوضحنا ضعف رواية كتاب الواقدي لما تحمل من مبالغات وإسرائيليات لا بسبب موقفها من قيادة أبي عبيدة أو عمرو لحصار بيت المقدس.

أعالج حربًا كئودًا.. " كتب إلى ولاته يستقدمهم للقائه عند الجابية، فقدم فيهم أبو عبيدة، وقد سبقوا الخليفة في الوصول إلى الجابية فكانوا قريبين من قوات عمرو وهو يحاصر بيت المقدس، ومن المتوقع - والحال كذلك - أن يكون أبو عبيدة قد سار لمساعدة عمرو فيما هو بصدده حتى يصل الخليفة بمدده، فيكون ذلك عونًا لهم حتى تنكشف الأحداث.. ولأن أبا عبيدة هو القائد العام للجيش الإسلامية بالشام فقد نسب إليه بعض الرواة قيادة الحصار.

ثالثًا: فتح مصر:

١ - حالة مصر قبل الفتح الإسلامي:

كانت مصر ولاية بيزنطية منذ سنة ٢٨٤م حتى الفتح الإسلامي، وكانت أحوالها تسير من سيء إلى أسوأ في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إضافة إلى الاضطهاد الديني الذي حل بها بعد الجدل الديني الذي اضطرت به أنحاء الإمبراطورية حول صفات المسيح وطبيعته، فذهبت كنيسة الإسكندرية إلى القول أن للمسيح طبيعة واحدة، فيما ذهبت كنيسة القسطنطينية إلى أن له طبيعتين، وتدخل الأباطرة في ذلك النزاع الديني الصرف بغية توحيد الكلمة حول طبيعة المسيح التي باتت تهدد وحدة الكنيسة والدولة والمجتمع، وفي مجمع خلقيدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١م أُقر مذهب الطبيعتين، وقضى المجتمعون بكفر أصحاب الطبيعة الواحدة، وتقرر حرمان المخالفين أتباع كنيسة الإسكندرية وبطركها، ولم تقبل كنيسة الإسكندرية بذلك، وأطلقوا على أنفسهم اسم الأرثوذكس - أي أتباع الدين الصحيح - تمييزًا لهم عن الكاثوليك أو الملكانيين أتباع دين الملك الإمبراطور البيزنطي^(١)، وبدأت مرحلة من الاضطهاد العارم للمصريين

(١) حسن إبراهيم: السابق ٢٣٥/١-٢٣٦، سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام ص ٥، ولز: موجز تاريخ العالم ٧٠٤/٢-٧٢١.

بسبب تمردهم على المذهب الرسمي للدولة، مما أدى إلى تعدد حالات الثورة والشغب ضد السلطة البيزنطية^(١)، ولما جاء هرقل سنة ٦١٠م أصدر قراراً بأن يمتنع الناس عن الخوض في الجدل الدائر حول طبيعة المسيح، وأن يعترفوا جميعاً أن له إرادة واحدة، لكن الكنيسة المصرية رأت أن في مذهب الإرادة الواحدة بدعة وهرطقة جديدة، ووجه هرقل قيرس - الذي عرف عند مؤرخي العرب باسم "الموقس"^(٢) - ليكون حاكماً وبطركاً معاً لمصر، ففر البطريرك بنيامين، واختبأ عن الأنظار إذ توقع ما حدث بالفعل، فإن قيرس فرض نوعاً ثقيلاً من الاضطهاد الديني على أقباط مصر، ولم يجعل لهم مهرباً إلا باعتناق مذهب هرقل الجديد، وبذلك قطع سيف قيرس آخر ما كان يربط المصريين من أسباب الولاء للدولة البيزنطية^(٣)، وباتوا يتطلعون إلى تلك القوة البازغة من جزيرة العرب التي استولت جيوشها على الشام، ووصلت إلى نشارف بلادهم، عسى أن تأذن لهم الأقدار بفجر جديد.

٢- عمرو بن العاص يتجه إلى فتح مصر:

كان فتح مصر قد أضحى عملاً ضرورياً لا محيص عنه لضمان استقرار الفتح الإسلامي في الشام، فقد لجأت بعض فلول الروم المنهزمة من هناك إلى الاحتماء بمصر، ولجأ إليها أرطوبون بقواته ليتجهز لاسترداد الشام، والانتقام للروم بعد ما

(١) بتلر: فتح العرب للمصر ص ٣، ٦-٨، سيدة كاشف: السابق ص ٦.

(٢) يرى بتلر أن المقوقس هو لقب كان يطلق على كل من يحكم مصر من قبل إمبراطور الروم، ولذا فقد حدث لبس لدى المؤرخين إذا ظنوا أن المقوقس الذي أرسل النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام سنة ٦هـ هو المقوقس لذي فتحت مصر في عهده، "فتح العرب لمصر المبحث الثالث ص ٤٤٤-٤٨٨، ٥٠٢.

(٣) بتلر: السابق: ص ٦٣-١٧٠، ساويروس بن المقفع: سير الأباء البطارقة ص ٢٢٦-٢٢٨.

حل بهم من هزائم مروعة، إضافة إلى ذلك العامل العسكري كان هناك أيضًا العامل السياسي والاقتصادي، فمصر والشام يشكلان وحدة جغرافية متصلة لا تفصل بينها موانع طبيعية صعبة، ولطالما خضع كلا البلدين لحكم سياسي واحد في مختلف العصور مرتبطين بمصالح اقتصادية واحدة^(١)، وإلى تلك العوامل تشير الرواية التي ترى أنه لما قدم عمر الجابية في زيارته للشام سنة ١٨ هـ قام إليه عمرو بن العاص فخلا به، وقال: "يا أمير المؤمنين ائذن لي أن أسير إلى مصر"، وحرضه عليها، وقال: "إن فتحتها كانت قوة المسلمين وعودنا لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً، وأعجزها عن القتال والحرب"^(٢).

حول بدايات الفتح:

وتتعدد الروايات في شأن فتح مصر، وبعضها يغرق في التصنع والافتعال، ومنها ما يزعم أن عمر لما قدم الجابية كلمه عمرو بن العاص^(٣) بشأن فتح مصر، فتخوف عمر على المسلمين وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم عنده أمرها، ويخبره بحالها، ويهون عليه فتحها، حتى ركن إلى ذلك، وعقد له على نحو أربعة آلاف رجل، وقال له: "سر، وأنا مستخير في مسيرك، وسيأتيك كتابي سريعاً إن شاء الله، فإن أدركك كتابي أمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها - أو شيء من أرضها - فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض

(١) راجع سيدة كاشف: السابق ص ٩، د. شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ١/٥٨٩.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص ٥٦.

(٣) تشير إحدى الأساطير أن عمرو بن العاص دخل مصر في الجاهلية، إذ كان في تجارة ببيت المقدس فأنقذ شماساً "أحد رجال الدين النصراني" من الموت عطشاً، وأنقذه من حية كادت تقتله، فدعاه إلى زيارة مصر، وأن يعطيه ألفي درهم مكافأة له، فزارها عمرو، وترامى أهلها بالكرة في يوم عيد لهم، فهوت الكرة في كفه، مما يعني عند القوم أنه سيكون يوماً ملكهم! (ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٥٣-٥٥، ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها وخواصها ص ٢٥)

لوجهك، واستعن بالله واستتصره، فسار عمرو في جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار عمر ربه فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذاك، فكتب إلى عمرو أن ينصرف ممن معه من المسلمين، فأدرك كتابه عمرًا وهو برفح، فتخوف إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيها الانصراف كما عهد إليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول، ودافعه، وسار كما هو حتى نزل قرية بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل: إنها من أرض مصر فدعا بالكتاب وقرأه، ولما كان الناس يعلمون أنه أصبح في أرض مصر وعليه أن يتم فتحها - كما اشترط الخليفة - فقد قال لهم: امضوا على بركة الله^(١).

وهي رواية جديرة بالشك والريبة، فهي تصور الخليفة بموقف من التردد والعجز إزاء احتيال قائده وأطماعه الموهومة؛ حتى إنه يرضى بتحريك جيشه نحو مصر قبل أن يستخير ويحزم أمره بشأن فتحها، فهب أن استخارته جاءت بما لا يستريح أفلا يُعد ذلك مخاطرة لا مبرر لها؟ ولم العجلة قبل تمام العزم ووضوح الرؤية في أمر الفتح أو عدمه؟ ثم تزعم الرواية أنه رضي من عمرو أن يُسيّر آلاف المقاتلة ويعري منهم مواطن الخطر بالشام، ويتم ذلك في جوف الليل دون أن يشعر أحد من المسلمين بهذا التحرك العسكري الكثيف، فلم هذه السرية في التحرك إذا كان تحركه برضا الخليفة ومشاورته؟ ولم يكن من الممكن أن يرضى عمر عن تلعب قائده بأمره بالرجوع، واحتياله لإبطال قراره على ما تزعم الرواية، فكان أقل ما يتوقع من ابن الخطاب أن يعزل عمرًا عن قيادة جيشه ويؤمر غيره كما فعل بخالد، ثم يحاسبه على تغريبه بالمسلمين وخداعه خليفتهم.

وتمضي رواية أخرى على ذات النهج فيما يتصل بمماطلة عمرو في تسلمه كتاب الخليفة حتى حقق مراده ودخل أرض مصر، وتوغل في الخيال فتزعم أن

(١) ابن عبد الحكم: السابق ص ٥٦-٥٧.

تحرك عمرو وجيشه من الشام كان بغير إذن من الخليفة أو علمه، وأنه لما علم بذلك كتب إليه: "من عمر بن الخطاب إلى العاصي بن العاصي، أما بعد، فإنك سرت إلى مصر ومن معك، وبها جموع الروم، وإنما معك نفر يسير.. فإن لم تكن دخلت مصر فارجع"، فقال عمرو: الحمد لله، أية أرض هذه، قالوا: من مصر، فتقدم^(١).. والرواية على هذا النحو ظاهرة الوضع، وتنسب إلى الخليفة وقائده ما لا يتفق مع طبيعة كل منهما وسياسته..

وتشير رواية أخرى - عن الليث بن سعد - إلى أن عثمان بن عفان رضي الله عنه هو الذي عزز مخاوف الخليفة من جراءة عمرو ومخاطرته وحبه الإمارة، وأن عمر - الذي كان قد كتب إلى عمرو أن يندب إليه الناس إلى السير معه لفتح مصر - عاد ليكتب إلى قائده: "إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك، وإن كنت دخلت فامض لوجهك"، وكان قد دخلها بالفعل لما وصلت الرسالة، فقال: الحمد لله أية أرض هذه؟ قالوا: من مصر، فتقدم كما هو^(٢). ولعل هذه الرواية هي أخرى تلك الروايات بالقبول، وإن كانت تؤكد على وجود شيء من التردد والحذر في إذن عمر لقائده بفتح مصر^(٣)، لكن التردد - إن حدث - كان تاليًا لأمره بإياه بالتحرك، لا سابقًا عليه، كما تلمح إلى أن كتاب الخليفة إليه جاءه وقد دخل مصر بالفعل، مما ينفي عنه شبهة تعمد تأخير تسليم الكتاب، أو المكر برسول الخليفة الذي جاءه ومدافعتة حتى استوثق من أنه دخلها فعلاً..

ومن المحتمل أن تكون لدى الخليفة عمر أسباب تجعله مترددًا في فتح جبهة قتال جديدة واسعة مع الروم في مصر.. ولكن الأمر كان مفروضًا عليه على كل

(١) ابن عبد الحكم: السابق ص ٥٧، البلاذري: السابق ٢١٤، الكندي: ولاية مصر ٣٠-٣١

(٢) السابق ص ٥٧-٥٨.

(٣) سواء كان ذلك في مؤتمر الجابية الذي عقده مع قاداته بعدما تم فتح الشام، أو بكتاب منه أرسله إلى عمرو من المدينة المنورة.

حال، فإن القائد الروماني المنهزم "أرطوبون" قد فر إليها يجهز قواته لاسترداد الشام، فلا بد من مبادرته بالهجوم لتأمين فتح الشام، ونهج المبادرة لمهاجمة الأعداء وعدم الانتظار للدفاع هو النهج المفضل للجيوش الإسلامية من بداية حركة الفتوح.. غير أن الخليفة لم يكن يستطيع توفير الأعداد اللازمة من المقاتلين ليخوض بهم حرباً قد تطول في بلد متسع الأرجاء مثل مصر.. وهذه القوات التي أرسلها مع عمرو وعددها يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة آلاف قد تصلح لبدء فتح مصر، أو استطلاع أحوالها، كما حدث من قبل في فتح العراق والشام من تسيير حملات استطلاعية إليها، ولكنه قد يجد نفسه مضطراً لإرسال آلاف جديدة من الجند لتلبية متطلبات القتال المتزايدة، بينما جيوشه منشغلة بحروبها على جبهتي فارس والشام؛ إما بمواصلة الفتح أو بتأمينه، غير أن الخليفة تغلب على عوامل التخوف، ولبى حاجة ضرورية تفرض مهاجمة الروم المتحفزين في مصر، إلا أن مشاوراته المستمرة لكبار الصحابة عززت مخاوفه، وبخاصة إشارة عثمان إلى جرأة عمرو وقابليته للمخاطرة، مما خوف الخليفة على جيشه، وكان دائم الحرص على سلامة جنده، وعدم التفرير بهم، أو رميهم في مواضع الهلكة، غير أنه كان قد أمر قائده بالتحرك صوب مصر، وإن كان وصلها بالفعل ثم جاءته أوامر الخليفة بالانسحاب لعد ذلك جبناً عن لقاء الروم بها، وفراراً منه، مما قد يُضربهم على المسلمين ويطمعهم فيهم^(١)، لذلك أرسل كتابه إلى عمرو أن يتراجع إلى الشام إن لم يكن دخل مصر، فإن دخلها فلا سبيل إلى النكوص، وليتم جهاده، وليجتهد المسلمون في تلبية حاجات جهاد جديدة في ساحة جديدة ممتدة^(٢).

(١) بتلر: السابق ص ١٧٤.

(٢) يروي صاحب كتاب فتوح الشام (٤٣/٢-٤٧) أنه لما استكمل المسلمون فتح ساحل الشام أرسل أبو عبيدة إلى عمر يبشره بالفتح، فرد عليه عمر يكلفه أن يرسل عمرو بن العاص لفتح

٣- مسيرة الفتح الإسلامي لمصر:

أ- في الطريق إلى حصن بابلين:

سار عمرو من قيسرية بفلسطين في سنة ١٨هـ/٦٣٩م مخترباً صحراء سيناء حتى وصل إلى العريش أواخر تلك السنة، فاستولى عليها دون مقاومة لضعف حصونها وعدم وجود حامية رومانية هناك^(١)، وأمضى المسلمون هناك عيد الأضحى ثم واصلوا مسيرهم إلى الفرما^(٢)، ولم يذُر بخلد المقوقس والروم في مصر أن يواجهوا عمراً في الصحراء قبل العريش، أو بعد أن فتحها واتجه إلى الفرما، ذلك لأنهم كانوا يدركون خطورة مواجهة المسلمين في قتال الصحراء، وآثروا أن يتركوه يوغل فيها حتى يبتعد عن تمركز المسلمين في الشام الذين يمكن أن يمدوه بقوات إضافية آنذاك^(٣)، فكان أول موضع قوتل فيه هو الفرما، حيث قاتله الروم قتالاً شديداً نحو شهر ثم فتح الله على يديه^(٤). وكانت الفرما مدينة غاية في الحصانة، ولم يكن عمرو قد اصطحب معه ما يكفي من عدد الحصار وآلاته

مصر، ورغم وجاهة أن يكون التخاطب بين عمر وقائده العام على الشام وأن يتم تكليف عمرو بفتح مصر عن طريقه إلا أن الرواية تضم عديداً من المبالغات كشأن الكتاب كله.

(١) ابن عبد الحكم: السابق ص ٥٨، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ٢٣٨/١.

(٢) كانت الفرما حصن مصر من ناحية الحدود الشرقية، واسمها المصري القديم "بر آمن" أي مدينة الإله آمون، ومنه اشتق اسمها العبري "برامون" والقبطي "برما"، ومنه أتى الاسم العربي "الفرما" وسماها الروم "بيلوز"، ومعناها: الوحلة، لأنها كانت واقعة في منطقة من الأحوال، إذ كانت أراضيها مجاورة للبحر المتوسط، وكانت تستقي الماء قديماً من الفرع البيلوزي أحد فروع النيل آنذاك وقد اندثرت الفرما وتعرف آثارها الآن بتل الفرما على بعد ثلاثة كيلومترات من ساحل البحر، و٢٣ كم شرقي محطة الطينة الواقعة على طريق السكة الحديد بين الإسماعيلية وبورسعيد (محمد رمزي: القاموس الجغرافي، القسم الأول ص ٩١)

(٣) راجع د. هيكل: الفاروق عمر ٨٧

(٤) ابن عبد الحكم: السابق ص ٥٨، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧/١.

لتحقيق فتح سريع، كما كان الروم يحتشدون بها بأعداد ضخمة هي أضعاف أعداد المسلمين، حتى أضرهم الحصار، ولم تصلهم نجدات الروم المنتظرة، فخرجوا مستيئسين للقتال خارج حصونهم، فتلقتهم سيوف المسلمين، ففتكت بهم، فأثروا الارتداد إلى حصونهم، لكن عمرًا وقواته أعجلتهم عن ذلك وسبقتهم إلى أبواب المدينة فملكها ثم اقتحمت الأسوار والحصون، فلم يجد الروم بدًا من التسليم^(١).

وقد أثار هذا الفتح السريع لمدينة منيعة وبها حشود من المحاربين الأشداء والمتمرسين عجب المؤرخين منذ قديم، فذهب بعض المستشرقين إلى أن ذلك كان بسبب خيانة المقوقس للروم طمعًا منه في فصل بطركية الإسكندرية عن القسطنطينية، وذلك بالاتفاق مع المسلمين^(٢)، وهو رأي لا يستند إلى أدلة تاريخية، فلم يكن المقوقس قد التقى في ذلك الوقت مع عمرو أو رسله لئتم ذلك الاتفاق، وسوف نرى أن المقوقس سوف يحارب المسلمين ما وسعه ذلك حتى اضطر إلى التسليم اضطرارًا^(٣)، ولجأ بعض المؤرخين إلى تصور أن سبب ذلك الفتح السريع يرجع إلى مساعدة القبط من أهل الفرما، وذكر ابن عبد الحكم أنه كان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تقوم للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقي عمرو، فيقال أن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانًا^(٤)، وأبو ميامين هذا هو بنيامين بطرك القبط الذي كان قد فر من وجه الاضطهاد الروماني

(١) بتلر: السابق ١٨٦-١٨٧.

(٢) السابق: ١٨٧-١٨٨.

(٣) راجع هيكل: السابق ٩١.

(٤) ابن عبد الحكم: السابق ص ٥٨-٥٩، أبو المحاسن: السابق ٧/١، وروى أيضًا جماعة ممن أسلموا من الروم والفرس كانوا يصحبون عمرًا في جيشه "راجع ابن دقماق: الانتصار ٥٥٤/٤، بتلر: السابق ص ١٧٦".

الكاثوليكي إلى قوص منذ سنوات، ولم يكن بالإسكندرية آنذاك كما تزعم الرواية، ولا يُتصور أن يلجأ القبط منذ وقت مبكر إلى مساعدة المسلمين وهم في بداية مشروعهم العسكري المهدد بمخاطر شتى، مما قد يعرض الأقباط إلى تنكيل الروم وبطشهم إذا ما انهزم المسلمون، ورغم كراهية القبط البالغة للروم بسبب الاضطهاد الديني والظلم الاقتصادي الذي كانوا يتعرضون له فإن الأرجح والأكثر اتساقاً مع طبائع الأمور أن القبط قد وقفوا موقف المترقب القلق لما ستسفر عنه الأحداث، وربما لجأ بعض أفرادهم إلى مد يد العون للمسلمين خفية بتأثير الكراهية المفرطة للروم التي حدثت بهم إلى المغامرة بحريتهم وحياتهم، بينما وقف آخرون مضطرين ساخطين في معسكر الروم ضد المسلمين^(١)، حتى إذا ما اتضح تغلب المسلمين في وقت لاحق وأن ريح النصر غدت في جانبهم أفصح القبط عن مكنون صدورهم، ومقتضى مصالحتهم، وعاونوا المسلمين الذين غمروهم بعدلهم وتسامحهم.

أما تعليل ذلك النصر الكبير الذي حققه عمرو في فتح الفرما وتقاعس الروم عن مساعدة أهلها فلعله يرجع إلى رؤية عسكرية خاصة بالمقوقس والروم الذين رأوا أن يتركوا عمراً يستنزف قواته المحدودة في معارك عديدة، يعملون على إطالة عددها، لتطول معها خطوط إمداداته من الشام أو شبه الجزيرة، ولعل الروم لم يكونوا في وضع يسمح لهم ببعثرة قواتهم على المدن الحصينة، أو محاربة عمرو في صحراء مصر الشرقية بقوات كبيرة في ظل ظروف معاناتهم من عداء القبط وتمردهم، وخشيتهم من انتفاضهم وثورتهم على نحو خطير إذا أحسوا بتراخي القبضة العسكرية للروم، لهذا آثروا أن يتحصنوا بحصن بابليون على مقربة من مدينة مصر ومدينة منف - العاصمة القديمة للبلاد - ليكون النيل خندقاً بينهم

(١) راجع هيكل: السابق ٨٨-٨٩.

وبين عدوهم^(١)، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد خطورة هذه الرؤية العسكرية وخطأها.

المهم أن عمراً قد واصل تقدمه بعد استيلائه على الفرما فمضى "لا يُدافع إلا بالأمر الخفيف حتى بلبيس، فقاتلوه بها نحو شهر حتى فتح الله عليه"^(٢)، ومزق جيش القائد الرومي الشهير الأرتبون وقتله، وكان جيش الأرتبون اثني عشر ألفاً بددهم عمرو بقواته التي لا تزيد عن أربعة آلاف رجل^(٣)، ومضى عمرو بعدها "لا يُدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى "أم دُنَيْن"^(٤)، وكانت موقعاً حصيناً فيه مسلحة قوية، يجاور مرفأ على النيل فيه سفن كثيرة، ودام القتال عندها عدة أسابيع، ولما أبطأ عليه الفتح أرسل يطلب عوناً من الخليفة، وكان لابد له من إمدادات كثيفة بعدما انفسحت أمامه ساحات المواجهة، وقد بادر الخليفة بإمداده بأربعة آلاف مقاتل - وهو ما يساوي عدد جيشه الذي قدم به مصر أو يزيد - على رأسها أربعة

(١) السابق ٩١

(٢) ابن عبد الحكم: السابق ٥٩.

(٣) راجع بتلر: السابق ١٩٠-٩١، هيكل: السابق ٩٢-٩٣، ويرى الطبري: السابق ٤/١٠٧-١٠٨ أن لقاء عمرو مع قادة القبط وإصرار الأرتبون على حربه ونشوب هذه الحرب التي لقي فيها مصرعه يرى أن ذلك حدث فيما بعد عند حصار حصن بابليون، بينما يرجح بتلر حدوثه عند بلبيس، والطبري لا يولي اهتماماً كبيراً لفتح مصر وسرد روايتها مثلما فعل في فتح العراق، بل في معارك كثيرة أقل خطراً وأثراً، وفي الرواية السابق ذكرها خلط كبير؛ إذ يزعم أن فتح الفرما كان بعد فتح حصن بابليون، وأن عمراً أرسل أحد قادته ففتح الإسكندرية صلحاً وهذا ما يخالف سير الأحداث.

(٤) ابن أبي الحكم: السابق ٥٩، وأم دنين قرية عرفت فيما بعد بالمكس، حيث كانت تجبى هناك دراهم تؤخذ من الباعة في الأسواق، ثم صارت تؤخذ على الوارد من المدن من أنواع المأكولات وغيرها، وكانت تقع على شاطئ النيل في مجراه القديم الذي يقع مكانه الآن شارع عماد الدين وميدان رمسيس وشارع غمرة (راجع: محمد رمزي: السابق ١/١٢٨-١٢٩)

من كبار الصحابة هم الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد^(١)، وقيل: بل أرسل إليه الزبير على رأس اثني عشر ألفاً^(٢)، ويبدو أن ذلك هو الأرجح، وأن عمر أرسل إلى مصر اثني عشر ألفاً لما يعلمه من حرج موقف جنوده هناك، وليستطيعوا استكمال الفتح في مواجهة جنود الروم الذين تأتيهم الإمدادات عن طريق البحر، أما النص في بعض الروايات على أن المدد كان أربعة آلاف فقط فلعل هؤلاء كانوا الأسبق في الوصول إلى مصر، ثم تبعتهم بقية الإمدادات، وذلك يتيح إمكانات أفضل لحركة الجيوش الضخمة في طريق ممتد وشاق، ويساعد على التغلب على مشكلات التموين والإعاشة الخاصة بهم..

واستولت قوات عمرو وقد وصلتها مقدمة الإمدادات العسكرية على حصن أم دنين بعد أن قتلت حاميته، وأسرت من بقي فيه حياً^(٣)، ثم سار عمرو إلى هليوبوليس^(٤)، واتخذها مقرّاً له يصلح لإعاشة جنوده والدفاع عنها.

وسارت إليه قوات الروم وعلى رأسها القائد "تيودور"، فالتقت بجيش المسلمين عند هذا الموضع الذي يعرف اليوم بالعباسية، فلقيتهم كمائن عمرو وقواته من

(١) وكتب إليه عمر: "إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف منهم رجل مقام الألف، فاعلم أن معك اثني عشر ألفاً ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة".

(٢) راجع ابن عبد الحكم: السابق ٥٩، ٦١، البلاذري: فتوح البلدان ٢١٤-٢١٥، أبو المحاسن: السابق ٨/١-٩.

(٣) هيكل: السابق ٩٦.

(٤) بتلر: السابق ص ١٩٦، وهليوبوليس هو الاسم الرومي لمدينة مصرية قديمة عرفت "بأتوم" أو "رع" وعرفت بالعبرية باسم "أون" ومعناها الشمس، ومنها جاءت التسمية العربية عين شمس، حيث أضيف اللفظ العبري إلى ترجمته العربية، وقد اندثرت الآن هذه المدينة وحل محلها منطقة المطرية شمال شرق القاهرة حيث توجد إحدى المسلتين اللتين أقامهما سنوسرت الأول على باب معبد المدينة، (راجع: محمد رمزي: السابق، ق ١ ص ٣٣٩، ٣٤٠)

ثلاث جهات فصرعتهم^(١)، ولجأ عمرو إلى استثمار نتائج نصره الكبير بسرعة، فبث قواته إلى القرى والمدن القريبة، فاستولت بعض كتائبه على إقليم الفيوم كله، واستولت الأخرى على مدينة منوف وريفها، وأخذت الأعداد الغفيرة من الأعداء تنزح إلى الإسكندرية العاصمة آنذاك^(٢).

ب- سقوط حصن بابليون:

ولم يبق أمام عمرو إلا أن يخوض معركة فاصلة عند حصن بابليون الذي أوت إليه فلول الروم، ونقل عمرو معسكره من هليوبوليس إلى شمال الحصن وشرقه، وضرب حوله الحصار سنة ٢٠هـ^(٣)، وكان بابليون حصناً منيعاً تحيط به الأسوار العالية^(٤)، وقد احتشد فيه المقاتلة والأشراف والكبراء، وعلى رأسهم المقوقس حاكم مصر، ومعهم من الأغذية والذخائر ما يلزم لحصار طويل^(٥)، ولم يكن بابليون

(١) راجع بتلر: السابق ص ٢٠٢-٢٠٥.

(٢) راجع بتلر: السابق ص ٢٠٦-٢٠٨، محمود شاكر: التاريخ الإسلامي ١٦٨/٣.

(٣) أصبح مكانه يعرف فيما بعد بالفسطاط حيث ابتنى المسلمون أول عواصمهم بمصر، ويطلق عليها أيضًا باب إليون أو قصر الشمع، وإلى الجنوب منه بأميال قليلة كانت تقوم مدينة منف عاصمة البلاد القديمة قبل أن تحل الإسكندرية محلها (محمد رمزي: السابق، ص ١٣٨)

(٤) وكانت أسوار الحصن ترتفع نحو سنتين قدمًا، وسمك أحدها ثماني عشر قدمًا، وكانت صروحه تزيد على الأسوار ارتفاعًا، وفي كل صرح سلم صاعد إلى أعلى البناء، وكان النيل يبلغ باب الحصن الأكبر فكانت السفن الرومانية ترسو عنده إلى جانب درج يُهبط منه إليها، وكان هذا الباب الأكبر مصنوعًا من الحديد أو مصفحًا به، فكان اقتحامه مستحيلًا لمتانته ولحماية السفن له، هذا إلى أن جزيرة الروضة القائمة وسط النهر كانت بها حصون قوية تزيد حصن بابليون منعة وقوة، وكان داخل الحصن آبار يستقي منها حماته، كما كانت الزروع والحدائق الممتدة من حوله تمتد بالميرة، وكان يحيط بالحصن خندق عليه قنطرة متحركة لا يستطيع فتحها ولا تحريكها إلا من داخلها (هكيل: الفاروق عمر ١٠٣)

(٥) راجع بتلر: السابق ٢١٨-٢٢٠.

مجرد حصن مهم، فقد كان أهم مركز دفاعي في البلاد نظرًا لموقعه على رأس الدلتا، وكونه الطريق الموصل إلى العاصمة الإسكندرية^(١)، واستمر الحصار عدة أشهر، ورغم حلول الشتاء وفيضان النيل فإن المسلمين لم تضعف عزيمتهم عن الاستمرار في أماكنهم، فأيقن المقوقس ورؤساء الجند من الروم إصرار المسلمين على فتح الحصن وخافوا أن يدخلوه عنوة؛ فأرسلوا يفاوضونهم، وتعنى الرواية الإسلامية بتسجيل إعجاب رسل الروم بأخلاق المسلمين وعبادتهم^(٢)، وانتهت المفاوضات دون جدوى، وعاد المقوقس ومن معه إلى الحصن لينشب القتال بين الفريقين من جديد، فقتل من الروم مقتلة عظيمة، فعادوا ينشدون الصلح ويستأنفون التفاوض^(٣)، وانتفقوا على شروط الصلح^(٤)، غير أن الإمبراطور البيزنطي أرسل يستدعي المقوقس إليه، وعنفه على مسلكه في طلب الصلح والرضا به^(٥)، وتم نفيه عقوبة له على الصلح مع المسلمين، وأرسل جيوشه إلى الإسكندرية ليعزز الدفاع عنها.. وعلم المسلمون بالخبر، فعاد القتال أمام الحصن من جديد، وبادر

(١) سيدة كاشف: السابق ص ١١.

(٢) ذكر أنهم قالوا في وصف عمرو وصحابته: رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليه من الرفعة، وليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نعمة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون في صلاتهم، فقال عند ذلك المقوقس: والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقلوا الجبال لأزالوها..

(ابن عبد الحكم: السابق ص ٦٣)

(٣) ابن عبد الحكم: السابق ٦٣، أبو المحاسن: السابق ١٦/١، بتلر: السابق ٢٢٨-٢٢٩

(٤) راجعها عند ابن عبد الحكم: السابق ٦٩-٧٠، أبو المحاسن ١٧/١

(٥) ابن عبد الحكم: السابق ٧٢-٧٣، ويرى ابن عبد الحكم أن المقوقس ظل بمصر، وأن هرقل أرسل إليه ذلك القول في كتاب يعنفه فيه، بينما يرى بتلر - حسب مصادره العديدة - أن هرقل استدعى المقوقس إليه (راجع هيكل: السابق ١٠٨-١٠٩)

الزبير بن العوام وجماعة من أبطال المسلمين إلى ارتقاء أسوار الحصن وفتح بابه، واقتحمه المسلمون، فأسرع قائده إلى طلب الصلح والتسليم، فأجابه عمرو إلى ذلك رغم معارضة الزبير الذي أراد أن يتم الفتح عنوة، والرواية العربية تجعل المقوقس هو الذي عقد معاهدة التسليم مع عمرو، وقد مضى ذكر أن المقوقس قد نفاه هرقل من قبل، فبقي أن قائد الحصن هو الذي سلمه إلى المسلمين^(١)، وقد ارتكبت الحامية الرومانية قبل انسحابها عملاً مشيناً مع القبط المأسورين داخل الحصن في أثناء الحصار، حيث قطعوا أيديهم ونكلوا بهم، وكان فتح الحصن في سنة ٢١هـ/٦٤١م^(٢)..

وكان لسقوط حصن بابليون بأيدي المسلمين أثر كبير، فقد تضعفت عزائم الروم، وضريت قوة المسلمين، وكان الحصن باب إقليم الصعيد ومصر السفلى، فاتسع بسقوطه سلطان المسلمين الذين كانوا يسيطرون على شرقي مصر من عين شمس إلى الفرما، فغدوا بعد فتحهم بابليون يسيطرون على أزمنة وادي النيل الأوسط، كما أمر عمرو بإقامة جسر من السفن في النهر بين الحصن والروضة وبين الروضة والجيزة، فوصل بذلك بين شاطئ النهر، واستطاع أن يمتلك ناصيته، وأشرف على ما ينتقل فيه من السفن والبضائع^(٣).

ج-فتح الإسكندرية:

أمضى عمرو بن العاص عدة أشهر في حصن بابليون ليستجم الجنود ويصله الإذن من عمر بالسير لفتح الإسكندرية، فلما تحقق ذلك ترك عمرو بالحصن مسلحة قوية^(٤)، وفصل بجنوده من بابليون في جمادى الآخرة ٢١هـ/مايو

(١) راجع ابن عبد الحكم: السابق ٦٣-٦٤، وهيكل: السابق ١١٠-١١١.

(٢) هيكل: السابق ١١١، نقلاً عن المؤرخ القبطي المصري حنا النقيوسي.

(٣) انظر السابق: ٢٤٤-٢٤٥.

(٤) راجع: البلاذري: فتوح البلدان ص ٢١١.

٦٤١م^(١)، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط الذين اطمأنوا إلى أن مصلحتهم باتت في مساندة القوة الإسلامية المظفرة، "وقد أصلحوا لهم الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم"^(٢).

وقد آثر عمرو السير على الضفة اليسرى للنيل حيث محافظة البحيرة الآن، لتتيح له الصحراء مجالاً واسعاً للحركة، ولتجنب ما كان سيعترضه من الترع الكثيرة لو سار في دلتا النيل، وقد خاض معارك عديدة استمر بعضها بضعة عشر يوماً لم تظفر من المؤرخين العرب بكبير عناية كالتى ظفرت بها معارك العراق والشام؛ وكان انتصاره فيها حاسماً، ثم وصل إلى مشارف الإسكندرية^(٣).

وكانت الإسكندرية عند فتح المسلمين لها عاصمة البلاد، وثانية حواضر الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، وأول مدينة تجارية في العالم^(٤)، وكان البيزنطيون يدركون خطورة استيلاء المسلمين عليها، حتى قال هرقل: "لئن ظهر العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم"، وزعم الرواة أنه تجهز ليخرج إلى الإسكندرية بنفسه لياشر قتال المسلمين بها، "فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته، وكفى الله المسلمين مؤنته"^(٥).

وكانت الإسكندرية فضلاً عن متانة أسوارها وحصونها ووفرة حُماتها تمتاز بموقعها الدفاعي المميز، فالبحر يحميها من شمالها؛ حيث السيطرة آنذاك للروم،

(١) راجع: بتلر: السابق ص ٢٤٥.

(٢) ابن عبد الحكم: السابق ص ١٥٥.

(٣) السابق ٧٤، البلاذري: السابق ٢٢٢،

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ١/٢٤١.

(٥) ابن عبد الحكم: السابق ٧٦-٧٧ ويجعل وفاة هرقل سنة ١٩هـ/٦٤٠م، (السابق ٧٧)، بينما يذهب بتلر (السابق ٢٩١) إلى أنه قد مات والمسلمون يحاصرون حصن بابلون، وقبل أن يسيروا إلى الإسكندرية بأشهر، وذلك سنة ٦٤١م (وراجع هيكل: السابق ١١٧ الحاشية)

وبحيرة مريوط تحميها من جنوبها، وكان اجتيازها عسيراً، بل غير مستطاع، وإحدى تفريعات النيل قديماً - واسمها ترعة الثعبان - تدور حولها من الغرب، وبذلك لم يبق إلا طريق واحد من الشرق يصل إليها^(١)..

وطال الحصار عدة أشهر أفاد منها عمرو ببث كتائبه خلال بلاد الدلتا وقرى الصعيد^(٢)، غير أن طول حصار الإسكندرية أثار حفيظة الخليفة، ورأى أن تأخرهم في الفتح ما كان إلا "لما أحدثوا"، فأرسل إلى عمرو يلومه ويطالبه بمصادمة الروم، فلما وصلت الرسالة بادر إلى مشاوره أصحابه، وانتهى قرارهم إلى المبادرة بالهجوم، واشتد القتال حتى سقطت الإسكندرية في ذات اليوم^(٣). واستبقى عمرو أهل الإسكندرية فلم يقتل ولم ينسب، وجعلهم أهل ذمة كأهل بابلين^(٤)، ثم ترك في الإسكندرية حامية، ونشر بقية كتائبه لفتح ما بقي من حصون الروم وجيوبهم في

(١) بتلر: السابق ٢٥٥، حسن إبراهيم: السابق ٤٢/١

(٢) هيكل: السابق ١٢٨.

(٣) ابن عبد الحكم: السابق ٧٩، وذكر أنها فتحت في مستهل المحرم سنة ٢٠هـ (السابق ٨٠)، وهو ما يوافق ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠م (ويستقلد: جدول السنين الهجرية ص ١٠)، بينما انتهى بتلر إلى أن حصار المدينة قد بدأ في أواخر يونيو سنة ٦٤٠م وأنها استسلمت في ٨ نوفمبر سنة ٦٤١م، وهو ما يوافق ٧ من ذي الحجة سنة ٢١هـ (بتلر: السابق ملاحق الكتاب الملحق الرابع)، وقد يرجح هذا القول ما ورد في رسالة عمر إلى قائده عمرو ابن العاص: "إنكم تقاتلونهم منذ سنتين" فما بين وصول عمرو العريش في ديسمبر سنة ٦٣٩م وتسليم الإسكندرية في نوفمبر سنة ٦٤١م ما يعادل سنتين هلاليتين (هيكل: السابق ١٣١)

(٤) كان بعض قادة عمرو قد أرادوا قسمة الإسكندرية بينهم باعتبارها فتحت عنوة فكتب إلى عمر بن الخطاب فأرسل إليه عمر: لا تقسما وذرهم يكون خراجهم فيئاً للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم (ابن عبد الحكم: السابق ص ٨٢، وانظر البلاذري: فتوح البلدان ٢٢٢)

مصر، فاستكمل فتح ساحل البحر ومدنه الكبرى مثل رشيد ودمياط وغيرهما، وكذلك بسط سيطرته على كل دلتا مصر وصعيدها^(١).

د-فتح النوبة وبرقة وطرابلس:

وقرر عمرو تأمين قواته بمصر من ناحية الجنوب، فأرسل قائده عقبة بن نافع سنة ٢٠هـ أو ٢١هـ على رأس جيش إلى النوبة فلم يتيسر له فتحها، ولم يلح عمرو في طلب الفتح، فلم يجرّد إليهم جيشاً كبيراً بعد ذلك، ولعله أدرك أنه لا خطر منهم يهدد قواته بمصر، وأنه لا فائدة من تجشم عناء حربهم^(٢).

وسار عمرو ليؤمن فتوحه من ناحية الغرب، إذ كانت للروم قوات في برقة وطرابلس، وربما انتهت الفرصة لمهاجمة المسلمين بمصر، فاتجه في قواته إلى برقة سنة ٢٢هـ، ففتحها صلحاً^(٣)، بينما حاربه طرابلس ففتحها عنوة^(٤).. وأراد أن يسير إلى تونس وأراضي إفريقية ليفتحها، غير أن الخليفة كان يخشى على جيوش المسلمين من الانسحاب في جبهة جديدة، ولم يطمئن بعد إلى ما فتحت في زحفها السريع من الشام إلى طرابلس.. فعارض ذلك بشدة^(٥).

وبذلك امتدت دولة الإسلام في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتشمل مساحة شاسعة من الأرض يحدها من الشرق نهر جيحون والسند، ومن الغرب بلاد إفريقية، ومن الشمال جبال آسيا الصغرى وأراضي أرمينية، ومن الجنوب المحيط

(١) ابن عبد الحكم: السابق ٢٨١، البلاذري السابق ٢٢٣، بتلر: السابق ٣٠٢-٣١٠.

(٢) البلاذري: السابق ٢٣٨-٢٣٩.

(٣) السابق ٢٢٥-٢٢٦، بتلر: السابق ٣٧٢.

(٤) ابن عبد الحكم: السابق ٢٩٥-٢٩٦.

(٥) البلاذري: السابق ص ٢٢٧.

الهادي وبلاد النوبة.. في دولة عالمية واحدة، متعددة الأجناس والديانات والنحل
والعادات، عاش أهلها في عدل الإسلام ورحمته..

المبحث الثالث

استشهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ذكر الرواة أن عمر لما عاد من حجة سنة ٢٣هـ دعا ربه فقال: "اللهم كبرت سني ورق عظمي وخشيت الانتشار من رعيتي، فاقبضني إليك غير عاجز ولا ملوم"^(١)، وروى البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون خبر استشهاد عمر رضي الله عنه على نحو مفصل - حين طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة وهو قائم يصلي بالمسلمين صلاة الصبح - قال: إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب.. فما هو إلا أن كبر فسمعتة يقول: قتلني أو أكلني الكلب، حين طعنه - فطار العليج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً، فلما ظن العليج أنه مأخوذ نحر نفسه، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه.. فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا بن عباس انظر من قتلني، فجال ساعة، ثم جاء فقال: غلام المغيرة.. قال: قاتله الله لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام.. فأنتي بنبيذ فشربه، فخرج من جوفه، ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت"، ثم ذكر ثناء الناس عليه وجليل حزنهم لفقده، وأن بعضهم عدد من أفضاله ومناقبه فقال عمر: وددت أن ذلك كفاف، لا عليّ ولا لي، ثم أوصى ابنه عبد الله بسداد دينه، ثم قال له: انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فاستأذن ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢٧٧/٣.

تبكي، فأخبرها بمراده، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي، فلما علم عمر بذلك قال: "الحمد لله، ما كان من شيء أهم إلي من ذلك، فإذا أنا قضيت فأحملوني ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين"، فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف، قال: ما أجد أحدًا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فسمي عليًا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمن، وقال: "يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء"، كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمرة سعدًا فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة، وقال أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين؛ أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرًا، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم، وأن يعفو عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا، فإنهم رءى الإسلام وجباة المال وغيظ العدو، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيرًا، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، أن يؤخذ من حواشي أموالهم، ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكفوا إلا طاقتهم^(١).. وقد توفي عمر ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٣هـ ودفن بكرة يوم الأربعاء في بيت عائشة مع صاحبيه^(٢).

وقد روى الطبري رواية أخرى مفصلة عن ذلك الحدث عن المسور بن مخرمة - ابن أخت عبد الرحمن بن عوف صاحب الدور البارز في هذه الأثناء - تتفق مع رواية البخاري في بعض تفاصيلها، وتختلف معها في تفاصيل أخرى، فهي توافقها في كيفية طعن عمر ومصير قاتله وأسف المسلمين لفقده ورغبته في الدفن مع

(١) البخاري: الصحيح ٣/١٣٥٤، كتاب المناقب، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان

(٢) وقيل في تاريخ وفاته غير ذلك، (الطبري: السابق ٤/١٩٣-١٩٤)

صاحبيه وتنظيمه أمر الشورى، ووصيته بالأنصار والعرب وأهل الذمة، وهي تزيد فتقدم تفسيراً لحقد أبي لؤلؤة على عمر حيث تذكر أنه شكا إليه سيده المغيرة لأنه يحمله أداء خراج كبير، فلما سأله عما يتقن من عمل لم ير خراجه كبيراً إزاء ما يعمله، لكنها تختلف مع رواية البخاري في أمور لعل أخطرها الزعم تنبؤ كعب الأحبار بموعد قتل عمر على نحو دقيق، وإنذاره إياه بذلك، وتكراره تلك النذارة كل يوم حتى ليلة وقوع الحادثة^(١)..

هل كان قتل عمر مؤامرة؟:

لقد رأى بعض الدارسين في رواية الطبري هذه وما تحمله من ادعاء كعب الأحبار أنه يعرف موعد وفاة عمر بدقة متناهية، وأنه يجد ذلك مكتوباً في التوراة؛ ما يوحي بمؤامرة كانت تدبر في الخفاء لقتل أمير المؤمنين الذي أذل الفرس والروم، وأورثهم أحقاداً وذخولاً لا حد لها.. وكان أول أطراف هذه المؤامرة ومنفذها الفعلي هو أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وهو فارسي ظهر ما يخفيه من حقد على الإسلام لما قدم سبي نهاوند من الفرس إلى المدينة فجعل لا يلقى منهم صغيراً إلا مسح رأسه وبكى وقال: أكل عمر كبدي^(٢)!! كان ثاني هذه الأطراف جفينة، وهو نصراني من أهل الحيرة أقدمه سعد بن أبي وقاص إلى المدينة ليعلم أهلها الكتابة^(٣).. أما ثالث أطراف هذه المؤامرة فكان الهرمزان القائد الفارسي المنهزم الذي قدم على عمر بعد أن كثر انتفاضه بالمسلمين وهزائمه أمامهم.. وأنه قدر لهذه المؤامرة أن تتكشف على يد عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق الذي قال غداة طعن عمر: "مررت على أبي لؤلؤة عشي أمس ومعه جفينة والهرمزان، وهم نجى، فلما رهقتهم ثاروا، وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، فانظروا

(١) الطبري: السابق ١٩٠/٤-١٩٣

(٢) السابق ١٣٦/٤

(٣) السابق ٢٤٠/٤

بأي شيء قتل"، وكان رجل من المسلمين قد قتل أبا لؤلؤة بعد ارتكابه جريمته وجاء بالخنجر الذي وصفه عبد الرحمن، فسمع بذلك عبد الله بن عمر، فأمسك حتى مات أبوه، ثم اشتمل على السيف فأتى الهرمزان فقتله، وقبض المسلمون على جفينة النصراني^(١)، ورأوا في أقوال كعب الأخبار ما يؤكد أنه كان شريكاً أريباً لهم أجاد التخفي، أو على الأقل كان عليماً بالمؤامرة فنسب علمها إلى التوراة، وظل يرتقب قتل عمر ويتنبأ به!!.

ولقد كنت أحد هؤلاء الدارسين الذين وثقوا برواية الطبري، وأحسنوا الظن بها^(٢)، ولم أكن قد استقصيت مصادرني حول هذه الواقعة، وقد رأيت فيما بعد أن دارسين آخرين ساروا في ذات الطريق والتأويل^(٣)، لكنني حين تفرغت لدراسة مرويات كعب الأخبار وجدت أن روايات عديدة تُسبب إلى الرجل، أو نسبت إليه أقوالاً وأفعالاً هو منها براء، ومنها هذه الرواية التي تسيء إليه أعظم إساءة، ولا نسلم بصحتها، فإنها ليست الرواية الوحيدة في ذلك الباب، فهناك روايات أخرى لا تذكر دوراً لكعب في مقتل عمر، منها رواية البخاري - السابق ذكرها - التي تتحدث عن طعن عمر بيد أبي لؤلؤة، ثم قتل أبي لؤلؤة نفسه، ولم تذكر أي دور لكعب، وروايات حديثة أخرى عند غيره^(٤)، ولو صحت عندهم تلك الرواية التي

(١) الطبري: السابق ٢٤٠/٤، وقد أشار عليّ عثمان بعدما استخلف بقتل عبيد الله قصاصاً بالهرمزان الذي يقل إنه لما علاه بالسيف قال: لا إله إلا الله، وقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم، فقال عمرو بن العاص: إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك، فقال عثمان: أنا وليهم، وقد جعلتها دية، واحتملتها في مالي (الطبري السابق ٢٣٩/٤)

(٢) راجع كتابي: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ص ٢٣٥، نشر دار القاهرة ٢٠٠٣م

(٣) راجع أحمد أمين: فجر الإسلام ص ٢٥٦، وقد جزم بذلك محمود أبو رية (السابق ١٢٦-١٢٨)

(٤) ابن حبان: الصحيح ٣٣١/١٥-٣٣٢، الحاكم: المستدرک ٩٧/٣-٩٨

تشير الريب حول كعب لذكروها، ومما يؤكد الشك فيها أن كعباً عاش بعد ذلك نحو عشر سنوات، ولم يتهمه أحد بالتآمر لقتل عمر، ولو كانت تلك الرواية قد شاعت آنذاك لكانت مبرراً قوياً لاتهامه، ولوجد من يحاسبه على جريمته، بل إن المسلمين قد أغضبهم ما فعله عبد الله بن عمر من قتل الهرمزان بغير تثبت، وهو من تشير الرواية إلى مشاركته في المؤامرة، وأراد بعضهم أن يقتص من ابن عمر لذلك، لولا أن عفا ابن القتيل عنه^(١).. والعجيب أنه كما وجدت روايات تتهم كعباً بالتآمر لقتل عمر وجدت روايات أخرى تزعم حزنه الشديد على موته^(٢)، ولا تسلم هذه الروايات ولا تلك من مأخذ وشكوك.

(١) راجع: طه حسين، مقال تحت عنوان: أضواء على السنة المحمدية، بجريدة الجمهورية عدد

الثلاثاء ٢٥ نوفمبر ١٩٥٨م

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٤/٤٢١، المناوي: فيض القدير ٤/١٩٤

الفصل الثالث

خلافة عثمان بن عفان ؓ

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وأمه أروى بنت كريب بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمه النبي ﷺ^(١)، ولقب عثمان بذي النورين لزوجاه من ابنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم، فلم يغلق أحد بابه على ابنتي نبي غيره^(٢).

وأسلم عثمان قديماً، حيث أسلم مع طلحة والزبير قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم^(٣)، وذلك بدعوة أبي بكر إياه إلى الإسلام، فكان عثمان يقول: إني لرابع أربعة في الإسلام^(٤)، وتعرض عثمان للابتلاء كما تعرض هؤلاء نفر، فقد أوثقه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية وهو يقول "أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين، فيرد عليه عثمان: والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه^(٥).

ولما اشتد الإيذاء بالمسلمين هاجر عثمان مع امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ إلى الحبشة مضحياً بوطنه وتجارته النامية آنذاك بمكة، فكان الرسول ﷺ ينتبع أخبارهما ويقول: إنهما لأول من هاجر إلى الله بعد لوط^(٦)، ولكنه عاد إلى مكة مع

(١) ابن سعد: السابق ٦٠٨/٢.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٦٧/٧، ابن عساكر تاريخ دمشق ترجمة عثمان ص ٤٥.

(٣) ابن سعد: السابق ٦١٠/٢.

(٤) يعني من الرجال بعد أبي بكر وعلي وزيد بن ثابت، (القرماني: أخبار الدول وآثار الأول ٩٨-٩٩، ابن الأثير: أسد الغابة ٤٨٠/٣)

(٥) ابن سعد: السابق ٦١١/٢.

(٦) الحاكم: المستدرک ٥٠/٤، الهيثمي: مجمع الزوائد ٨١/٩، ابن سعد: السابق والصفحة.

من عاد إليها من مهاجرة الحبشة وظل قريباً من النبي ﷺ حتى هاجر عثمان إلى المدينة فكان من أصحاب الهجرتين.

وكان عثمان من خزائن الله في أرضه، فاشترى بئر رومة بالمدينة، وكان يُباع ماؤها لابن السبيل، فاشتراها وحبسها لله تعالى^(١)، ولما حث النبي ﷺ على تجهيز جيش العسرة في غزوة مؤتة جهز عثمان من ماله ثلاثمائة بغير بما تحتاج إليه، فقال النبي ﷺ: "ما على عثمان ما عمل بعد هذا"^(٢)، وكان كريم الخلال شديد الحياء حتى قال فيه النبي ﷺ: "إن الملائكة لتستحي منه"^(٣)، وشهد مع النبي ﷺ كل غزواته عدا موقعة بدر إذ كان مشغولاً بتمريض رقية ابنة النبي ﷺ، فجعل له النبي ﷺ أجر رجل شهدها وسهمه، ولم يشهد بيعة الرضوان؛ إذ كان رسول النبي ﷺ، فلما أشيع أنه قُتل دعا النبي ﷺ أصحابه إلى بيعة الرضوان، وضرب بيده اليمنى - وقال: "هذه يد عثمان" - على يده الأخرى مبايعاً له^(٤)، واستخلفه النبي ﷺ على المدينة لما خرج في بعض غزواته مثلما حدث في ذات الرقاع وفي غزوته غطفان بنواحي نجد^(٥)، وشهد له النبي ﷺ بالجنة وبشره بالشهادة^(٦)، ومات وهو عنه راض.

(١) البخاري: السابق ٨٢٩/٢، ابن خزيمة: الصحيح ١١٩/٤.

(٢) الترمذي: سنن الترمذي، باب مناقب عثمان، وانظر: البخاري: السابق ١٣٥١/٣، ابن الجوزي: السابق ١٥٨/١.

(٣) مسلم: صحيح مسلم، باب فضائل عثمان بن عفان، وانظر البخاري: صحيح البخاري، باب مناقب عثمان بن عفان.

(٤) البخاري: باب مناقب عثمان، ابن الجوزي: السابق ١٥٥/١-١٥٦.

(٥) ابن سعد: السابق ٦١٢/٢.

(٦) البخاري: السابق مناقب عثمان بن عفان، وأخرجه النسائي والترمذي وأبو داود وابن ماجه، وانظر: ابن الجوزي: السابق ١٥٦/١-١٥٧.

وكان عثمان كذلك عظيم القدر عند أبي بكر، فلما حضرته الوفاة سأله عن رأيه في استخلاف عمر، فامتدح ذلك، فقال له أبو بكر: "لو تركته ما عدوتك"، وهو الذي كتب اسم عمر في صحيفة البيعة لما أخذت أبا بكر غشية؛ فظن أنه مات، فلما أفاق الصديق وعلم بما صنع قال: "إن كنت لها لأهلاً"، وقد مر بنا ذلك، فلما استُخلف عمر كان عثمان من أقرب أصحابه إليه، واستشاره وأخذ برأيه في مواضع عديدة، فكان يسمى في عهده "رديف عمر"^(١)، فلما طعن عمر جعله ضمن أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض.

(١) الطبري: السابق ٣/٤٨٠.

المبحث الأول

استخلاف عثمان والفتوحات في عصره

أولاً: استخلاف عثمان رضي الله عنه:

(أ) روايات الحديث الصحيح:

تكمل رواية البخاري عن عمرو بن ميمون أنه فلما فرغ من دفن عمر اجتمع هؤلاء الرهط الذين سماهم، والذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه، والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه، فأسكت الشيخان - يعني عثمان وعلي - فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إليّ والله عليّ أن لا آلو عن أفضلكم؟ قالوا: نعم، فأخذ بيد أحدهما - وهو عليّ - فقال: لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والقدم في الإسلام ما قد علمت، فإله عليك لئن أمرتك لتعدلن، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه، فبايع له عليّ، وولج أهل الدار فبايعوه^(١)..

وفي رواية أخرى للبخاري عن المسور بن مخرمة أن الرهط الذين اختارهم عمر اجتمعوا فتشاوروا، فقال لهم عبد الرحمن: لست بالذي أنافسكم على هذا الأمر، ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم، فجعلوا ذلك إليه.. ومال الناس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالي؛ حتى إذا كانت الليلة التي أصبحوا منها فبايعوا عثمان قال

(١) البخاري: السابق ١٣٥٦/٣

المسور: طرقتي عبد الرحمن بعد هَجْع من الليل - يعني طائفة منه - فضرب الباب حتى استيقظت، فقال: أراك نائمًا؛ فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث بكبير نوم، انطلق فادع الزبير وسعدًا، فدعوتهما له فشاورهما، ثم دعاني فقال: ادع لي عليًا، فدعوته ففناجاه حتى إبهارَ الليل - أي انتصف - ثم قام عليّ من عنده وهو على طمع، وقد كان عبد الرحمن يخشى من عليّ شيئاً^(١)، ثم قال: ادع لي عثمان، فدعوته، ففناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح، فلما صلى للناس الصبح واجتمع أولئك الرهط ثم المنبر أرسل إلى من كان حاضرًا من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد، وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر، فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن، ثم قال: أما بعد يا عليّ إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن علي نفسك سبيلًا، فقال: (أي عبد الرحمن لعثمان) أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفين من بعده، فبايعه عبد الرحمن، وبايعه الناس: المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون^(٢)..

ولنا على هاتين الروايتين ملاحظات نجلها فيما يلي:

أولاً: إن الفاجعة التي ألمت بأمير المؤمنين لم تحل بينه - وهو وجود بأنفاسه ويعاني آلام الطعن - وبين النصح للمسلمين وترتيب أمر الخلافة والشورى بشأنها على نحو فريد، ينبئ عن تماسك عقلي وثبات جنان لم يفارق ابن الخطاب وهو يستشعر المسئولية عن المسلمين في آخر لحظات حياته.. فلم يدع النصح لهم في كل حال.. وأوصى الخليفة من بعده بالعناية بالأنصار والمهاجرين والأعراب مادة العرب والإسلام، وكذا أهل الذمة، والعدل فيهم.

(١) فسر ابن حجر ذلك بأنه ربما كان يخشى أنه إن بايع غير علي لا يطاوعه (فتح الباري

٢٠٩/١٣)

(٢) البخاري: السابق ٣٦٣٤/٦

ثانيًا: إن عمر لم يجعل لأحد من قومه من بني عدي نصيبًا في مجلس الشورى الذي آلت إليه مهمة اختيار الخليفة، فاستبعد منه ابن عمه سعيد بن زيد - وهو من العشرة المبشرين بالجنة - واستبعد منه ابنه عبد الله فلم يجعل له من الأمر شيئًا إلا أن يكون عنصر ترجيح إن تساوت كفتا الاختيار؛ واحتاج الفريقان إلى من يرجح كفة أحدهما^(١)، رغم أنه صحابي جليل ورجل يعرف المسلمون ورعه وتقواه.. وقد أراد عمر أن يمضي إلى ربه غير متهم بمحاباة أحد من أهله.

ثالثًا: تبدو روايات الحديث الصحيح - كما عهدناها في قصة السقيفة واستخلاف أبي بكر - مختصرة في بنائها، موضوعية ومتماسكة في نسيجها، تحفظ للصحابة أقدارهم، وتتسق مع المعروف من شمائلهم في صادق أخوتهم وعميق تراحمهم وتقديمهم مصلحة الأمة في مجموعها على المصالح الخاصة لأي منهم.

ب) روايات التاريخ:

ذكر الطبري روايتين في استخلاف عثمان، والغريب أنهما ترويان عن نفس الراويين اللذين رويًا عنهما البخاري روايته السابقتين، لكن فروقًا جمّة في أسلوب الرواية وتفصيلاتها والروح الغالبة عليها تفرق بين ما نجده في كلا المصدرين: الحديث والتاريخ..

وتبدو رواية المسور أقرب إلى الموضوعية والحياد من الرواية الثانية لأبي مخنف الرواية الشيعي المشهور، غير أن المسور يذكر خطبة لكل واحد من أهل الشورى الخمسة؛ إذ يؤكد أن طلحة كان غائبًا عن المدينة وقتها، وأنه لم يأت إلا بعد تمام البيعة لعثمان فبايعه، ثم ذكر تولي عبد الرحمن بن عوف أمر المشاورة بعد خلع نفسه من الأمر، وأنه أقام ثلاثًا يشاور الرعية، ثم دعا عبد الرحمن إليه

(١) وفي بعض الروايات أن عمر نهر من أشار عليه باستخلاف ولده عبد الله (ابن سعد: السابق ٢٨٩/٣)

بقية أهل الشورى فسأل كلا منهم على حدة: "إن لم أبايعك فاشر علي"، فاختر عليّ والزبير وسعد عثمان، واختر عثمان عليًا، وبعد أن مضت هذه الأيام الثلاثة لم يغمض لعبد الرحمن جفن دعا إليه عليًا وعثمان فقال لهما، إني سألت عنكما وعن غيركما، فلم أجد الناس يعدلون بكما، هل أنت يا علي مبايعي علي كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟ فقال اللهم لا، ولكن علي جهدي من ذلك وطاقتي، فالتفت إلى عثمان فسأله كما سأل عليًا، فقال: اللهم نعم، فقاموا ودخلوا المسجد ونودي للصلاة، وروى عثمان - فيما بعد - عن مشاعره في هذه الأثناء فقال: "فتأخرت والله حياء لما رأيت من إسرعه (يعني عبد الرحمن) إلى عليّ فكنت في آخر المسجد" وخرج عبد الرحمن فصعد المنبر ودعا طويلًا، ثم دعا إليه عليًا وعثمان فطرح عليهما ذات السؤال: هل أنت مبايعي علي كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟ فأجابا ذات الإجابتين، فتخرج علي وامتنع، وعزم عثمان في إجابته بنعم، فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان، وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه عند المنبر، وتباطأ عليّ، فقال عبد الرحمن: (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)، فرجع عليّ يشق صفوف الناس حتى بايع..

غير أن الرواية رغم ذلك لا تبرأ من أهواء الرواة حيث تزعم أن عليًا قال لما رأى مأل البيعة إلى عثمان: "خَدَعَة، وأيما خدعة!!"، إشارة إلى أن عمرو بن العاص خادعه وأوهمه أن إجابته على سؤال ابن عوف بأنه سيعمل بمبلغ علمه وطاقتة ستكون أَرْضَى لَهُ، بينما نصح عثمان بأن يأخذ بالعزيمة، ويتعهد بالعمل بسيرة أبي بكر وعمر، مما جعل ابن عوف يبايعه.. كما تغمز الرواية المغيرة ابن شعبة، وتتهمه بإطراء صنيع ابن عوف باختيار عثمان، وأنه ما كان يصلح

للخلافة غيره، فنهره عبد الرحمن، وقال: "ما كنت أباع أحدًا إلا قلت هذه المقالة!!"^(١).

أما رواية أبي مخنف الرواية الشيعي المتهم بالكذب فتحوي شناعات مريرة.. فهي فتزعم أولاً أن العباس نصح علياً ألا يدخل ضمن مجلس الشورى خشية مكر الصحابة الآخرين به، فأبى عليه عليّ وشاركهم، وتزعم عظيم حرص المتشاورين على الإمارة، وأنهم قد اشتد خلافهم منذ اللحظة الأولى لمجلسهم، وتعالّت أصواتهم وعمر ما زال حيّاً تنزف جراحه، حتى نهاهم عمر عن ذلك، وتفترض الرواية أن عمر كان راغباً في استخلاف عليّ، ويراه أصلح القوم لخلافته، لولا أن عاقه ورعه عن إتمام الأمر له، ثم يزعم أبو مخنف أن عمر أمر بمبايعة من يتفق أغلب المجتمعين على استخلافه، وقتل المخالفين له، وهو افتراء مخيف، إذ خالف جماعة من كبار الصحابة في استخلاف أبي بكر من قبل فلم يقل عمر ولا غيره بوجوب قتلهم أو جوازه، فمجرد الخلاف السياسي لا غضاضة فيه، وبعيد توهم أن يصل الخلاف إلى حد الثورة المسلحة على الخليفة الجديد التي تجيز للآخرين التصدي لها بالقوة، ثم تقع الرواية في تناقض غير مبرر حين تزعم أن بعض المجتمعين كالزبير وسعد قد غيرا سريعاً رأيهما في الأحق بالخلافة، فبينما أعلننا في بدء الأمر تفضيل عثمان عادا فأعلننا رغبتهما في علي!! وتصور الرواية الأمر على أنه مناورات سياسية متواصلة أفضت إلى تأمير عثمان وانتزاع حق علي في الخلافة، وسياقها ينبئ بصراعات خفية وجلية بين هؤلاء النفر من خيرة الصحابة، وأن عليّاً قال لعبد الرحمن: "حَبَّوتُه حَبُّو دهر؛ ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون"، والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك، والله كل يوم هو في شأن، ثم تزعم الرواية أن حسابات نفعية هي التي دفعت الصحابة إلى استبعاد بني هاشم من أمر الخلافة، إذ قالت

(١) الطبري: السابق ٤/٢٣٤-٢٣٨، والآية من سورة الفتح، آية ١٠

قريش: "إن وُلِّيَ عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدًا!!" وإن أقرت الرواية أن مشاوره عبد الرحمن الناس على اختلاف منازلهم وطبقاتهم كانت تميل لصالح عثمان فلم يكونوا يعدلون به أحدًا^(١).

وهذه كلها مزاعم بلا دليل، فقد كان عثمان حبيبًا إلى قريش^(٢) لئنه ورحمته التي رأوا أنهم في حاجة إليها بعد شدة عمر وصرامته.. وقد بايعه عليّ في أول من بايع، وكان يراه للخلافة أهلاً إن عدلت عنه، كما مر بنا في مشاوره عبد الرحمن بن عوف له، وكانت تجمعهما القرابة في بني عبد مناف، والمصاهرة للرسول ﷺ والسبق إلى الإسلام، فضلاً عن تاريخ طويل من الجهاد والعمل المشترك من أجل خدمة دعوة الإسلام ودولته..

أما ما يزعمه أبو مخنف ورواته من أن عبد الرحمن حابي عثمان لما بينهما من مصاهرة^(٣) فهو قول مردود، فلو كان عبد الرحمن حريصاً على نفع دنيوي من وراء الشورى لما أخرج نفسه من دائرة الاختيار - وكان مرشحاً قوياً لها - فربما وقع عليه اختيارهم، أو على الأقل سيكون بمنجاة من تحمل المسؤولية والالتزام وسوء الظن.. ولو كان عبد الرحمن سيحابي أحدًا ويجامله لحابي ابن عمه سعد بن أبي وقاص، فهما زهريان، بل إن سعدًا - في رواية أبي مخنف نفسه - عرضها على عبد الرحمن لما وجد حيرته وقلقه أثناء مشاورته الرعية، قبل أن يقع اختياره على الخليفة المنتظر، فرفض عبد الرحمن ذلك وقال: إني خلعت نفسي منها^(٤)، كما أن عثمان لم يتصور أبدًا أن يجامله عبد الرحمن، فقد ظن أنه

(١) السابق: ٢٢٧/٤-٢٣٤

(٢) كانت المرأة تُرْقَص ولدها فتقول: أحبك والرحمن حُبَّ قريش لعثمان (ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢٨٥/٤)

(٣) كان عبد الرحمن متزوجًا من أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت عثمان لأمه.

(٤) الطبري: السابق ٢٣٢/٤.

سيستخلف عليًا، ولذا فقد أخرج نفسه لما خرجوا جميعًا إلى المسجد ليختار عبد الرحمن من يراه أهلًا للخلافة، وقد بدأ عبد الرحمن بسؤال عليّ قبل عثمان: "أنت مبايعي علي كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر، ولكن عليًا تخرج من إبداء العزيمة في ذلك، إذ قد لا يستطيع أن يسير على نهج الصاحبين في السياسة والورع، وقد يخالفهما في الاجتهاد للأمة، فقال: "اللهم لا، ولكن علي جهدي من ذلك وطاقتي"، بينما قال عثمان: اللهم نعم^(١)، فمالت كفة عثمان، وبايعه عبد الرحمن لذلك، ولأنه كان قد تأكد من رضا الرعية به، وأنهم لا يعدلون به أحدًا، وقد ظل يستقصي آراءهم ثلاثة أيام، لا يغمض له فيها جفن كثير إغماض.. ولذا فقد قال الإمام أحمد بن حنبل: "ما كان في القوم أوكد بيعة من عثمان، كانت بإجماعهم" ويعقب ابن تيمية على ذلك بقوله: "وصدق أحمد، فلو قُدِّر أن عبد الرحمن بايعه ولم يبايعه علي وطلحة والزبير وأهل الشوكة لم يصِرْ إمامًا"^(٢).

وشبيهه بشبهة مجاملة عبد الرحمن بن عوف عثمان شبهة أخرى تزعم أن بني أمية - رهط عثمان - قد نظموا دعاية محبوكة في صفوف الرعية لاختياره خليفة^(٣).. وذلك ادعاء لا دليل عليه، ولم يكن رأي الرعية هو وحده الدافع لاختيار عثمان، بل كان الرأي الأول لمجلس الشورى الذي عينه عمر، فهم أهل الحل والعقد والشوكة، وقد شهد علي لعثمان بالتقى والبر، فقال: "لقد كان أوصلنا للرحم وأتقانا للرب تعالى"^(٤)، وقال فيه عبد الله بن مسعود: "استخلفنا خير من بقي ولم

(١) السابق ٢٣٨/٤.

(٢) ابن تيمية: المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٥٨-٥٩.

(٣) د. إبراهيم بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية ١٦١، العقاد: عبقرية علي ١٠١-١٠٢،

جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ٦٣/٤.

(٤) ابن الجوزي: صفة الصفوة ١/١٦٠.

نأل" (١)، وقال عبد الله بن عمر عنه: "كنا نُخِير بين الناس في أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم نترك أصحاب النبي لا نفاضل بينهم" (٢).

ثانياً: سياسة عثمان ؓ:

روى سيف بن عمر أنه لما بويع عثمان خرج وهو أشد الناس كآبة لما طُوق به من أمانة، فخطب الناس فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه: "إنكم في دار قُلْعِه (٣) وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، صُبِحْتُمْ أو مُسِيْتُمْ، ألا وإن الدنيا طُويت على الغرور، (فَلَا تَغُرَّنْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنْكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ) (٤)، اعتبروا بمن مضى، ثم جدُّوا، ولا تغفلوا، فإنه لا يُغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوتها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً؟ ألم تلفظهم؟ ارموا الدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله ضرب لها مثلاً والذي هو خير، قال الله عز وجل: (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ) إلى قوله: (أَمْلاً) (٥)، وأقبل الناس يبايعونه (٦).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٦٢١/٢، ابن عساکر: تاريخ دمشق، ترجمة عثمان ٢٠٥.

(٢) البخاري: صحيح البخاري ١٣٣٧/٣، كتاب المناقب، باب فضل أبي بكر بعد النبي صلى

الله عليه وسلم، ابن الجوزي: السابق ١٦٠/١-١٦١.

(٣) أي دار تحول وإقلاع.

(٤) سورة فاطر من الآية ٥

(٥) سورة الكهف آية ٥٤.

(٦) الطبري: السابق ٢٤٣/٤.

بينما روى ابن سعد بسنده أن عثمان لما بويع خرج إلى الناس فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أيها الناس إن أول مركب صعب، وإن بعد اليوم أيامًا، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهه، وما كنا خطباء، وسيُعلمنا الله"^(١).

وتبدو هذه الخطبة القصيرة أجدر بحياء عثمان وإقلاله من الخطابة والقول ومفاجأته بالاستخلاف، وقد كان يرى ميل عبد الرحمن بن عوف إلى علي قبل أن يستخلفه فأرتج عليه، فجاءت خطبته موجزة على ذلك النحو؛ يؤجل فيها تفصيل الكلام إلى موعد لاحق، ولا يعني ذلك استبعاد أن تكون الرواية الأولى لخطبته التي ذكرها سيف موضوعة أو مفتعلة، فقد يكون قالها في وقت تال، وفي مناسبة دينية صرفة، كصلاة الجمعة، أو في جمع من الناس "في بقية أعمار"؛ يتخولهم بالموعظة الرقيقة.

وقد نظر بعض المؤرخين إلى تلك الخطبة فرأوا أنها لا تزيد عن كونها موعظة دينية لشيخ جاوز الستين^(٢)، لم يوضح فيها منهجه ولا خطة حكمة كما كان يفعل الخليفتان من قبله، مما ينبئ عن ضعف في السياسة، وغفلة عن مقتضى الإدارة العامة لدولة مترامية الأطراف.. وليس بالضرورة أن تكون أول خطبة للخليفة هي ما يشبه اليوم البيان السياسي للحاكم الجديد، وقد رأينا أن عمر بن الخطاب أفصح عن برنامجه السياسي في عدة خطب ومواقف.. وقد استترك عثمان ذلك في وقت تال، فأفصح عن خطته في الحكم في عدة رسائل بعثها إلى عماله على الولايات وأمراء الأجناد وعمال الخراج وعامة الناس في الأمصار.

(١) الطبقات الكبرى ٦٢١/٢.

(٢) قتل عثمان وهو ابن اثنتين وثمانين سنة أو خمس وسبعين سنة، (ابن سعد: السابق ٦٤١/٢)، وذلك في ذي الحجة سنة ٣٦هـ بعدما حكم اثنتي عشرة سنة إلا أيامًا.

وقال في أول كتاب كتبه إلى عماله: "فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يُخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يكونوا جباة ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم، فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تُثنُّوا بالذمة؛ فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تتتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء"^(١).

وفي أول كتاب كتبه إلى أمراء الجند قال: "أما بعد، فإنكم حُماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يرغب عنا، بل كان على ملامنا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإنني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه"^(٢).

وكان أول كتاب كتبه إلى عمال الخراج: "أما بعد، فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم"^(٣).

وكان كتابه إلى العامة: "أما بعد فإنكم إنما بلغت ما بلغت بالافتداء والاتباع، فلا تلتفتكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن"^(٤)..

(١) الطبري: السابق ٢٤٤/٤-٢٤٥.

(٢) السابق ٢٤٥/٤.

(٣) السابق والصفحة.

(٤) السابق والصفحة.

هذا وقد حفظ لنا سيف بن عمر رواية فريدة عن خطبة قال إنها كانت أول خطبة له بعدما بويغ، وهي: "أما بعد فإنني قد حُمِلت وقد قبلت، ألا وإنني متبع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليّ بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ثلاثاً: اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسنّ سنة الخير فيما لم تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم، ألا وإن الدنيا خضرة وقد شُهِيت إلى الناس، ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا، ولا تتقوا بها، فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها"^(١).

ويمكن أن نستخلص مما سبق ملامح منهج عثمان رضي الله عنه في الحكم:

١- السير على سياسة عمر التي وضعها بمشورة كبار الصحابة ومنهم عثمان، فهم شركاء فيها، وقد أكد عثمان على ذلك في كتابه إلى معاوية وسائر عماله: "أما بعد، فقوموا على ما فارقكم عليه عمر، ولا تبدلوا، ومهما أشكل عليكم فردوه إلينا نجمع عليه الأمة، ثم نرده عليكم، وإياكم أن تغيروا، فإنني لست قابلاً منكم إلا ما كان عمر يقبل"^(٢).

١- التركيز على قيم العدل السياسي والاجتماعي والاقتصادي بإعطاء ذوي الحقوق حقوقهم، وأخذ ما عليهم، وإعلاء شأن مبدأ الرعاية السياسية لا الجباية وتكثير الأموال.. والعدل مع الضعفاء واليتامى وأهل الذمة.

٢- الحفاظ على الإطار الأخلاقي للدولة والقائمين على الصدارة فيها، من حياء وأمانة ووفاء وجدية وتدين.

٣- التحذير من التغيرات الاجتماعية التي بدت بوادرها آنذاك؛ من تكامل النعم وبلوغ أولاد السبايا الذين يشبون في أحضان تأثيرات وافدة، أتتهم من أمهات

(١) السابق ٤/٢٢٢.

(٢) السابق ٤/٢٦١-٢٦٢.

سببًا، لم يعرفن الإسلام معرفة كافية، ولم ينشأن في بلاد العرب.. مما يهدد بعجمة اللسان وتضاؤل فهم القرآن ودخول تفسيرات غريبة في معين عطائه الصافي الذي يفهمه العربي الفصيح.

وقد بدأ عثمان خلافته بإظهار ما جُبل عليه من كرم ولين، فزاد في أعطيات الناس مائة درهم، وأبقى على سنة عمر في التوسعة على الناس في رمضان بإعطاء كل نفس درهماً في كل يوم، وإعطاء أزواج النبي ﷺ درهمين درهمين، وزاد عثمان على ذلك فجعل للناس طعاماً يوضع في المساجد للعباد الذين يتخلفون فيه وابن السبيل والفقراء والمعتزين^(١).

وأقر قيمة العدل التي عهداها الناس في الفاروق مع أقرب القريبين إليه، فقد أعطى القمادبان بن الهرمزان القتل الحق في القصاص من عبيد الله بن عمر قاتل أبيه، فخرج للقصاص منه، والناس من حوله، يعترفون له بحقه في القصاص ويناشدونه العفو عنه، فيقول: 'فقلت لهم: إليّ قتله؟ قالوا: نعم، وسبوا عبيد الله، قلت: أفلكم أن تمنعوه، قالوا: لا، وسبوه، فتركته لله ولهم، فاحتملوني، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم^(٢).

وذكر الواقدي أن عثمان أمضى وصية عمر.. أن يُقر عماله سنة، ولعل عمر قد رأى ألا يكون التغيير في المناصب السياسية كاملاً ومباغتاً بدءاً من الخلافة حتى ولاية الأمصار.. فأبقى عثمان عمال عمر سنة، ثم عزل من رأى عزله منهم، وكان لا يعزل أحداً إلا عن شكاة أو استعفاء من غير شكاة^(٣)، فعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة، واستعمل سعد بن أبي وقاص بناء على وصية عمر أيضاً

(١) السابق ٢٤٥/٤-٢٤٦.

(٢) السابق ٢٤٣/٤-٢٤٤.

(٣) السابق ٢٥٣/٤.

للخليفة من بعده أن يستعمل سعدًا، إذ لم يعزله عمر عن خيانة أو سوء، ثم عزل عثمان سعدًا لما نشب خلاف بينه وبين عبد الله بن مسعود العامل على بيت مال الكوفة، وولى الوليد بن عقبة؛ وكان عاملاً على الجزيرة العراقية من قبل في خلافة عمر^(١).

وكان الوليد "أحب الناس في الناس، وأرفقهم بهم، فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب"^(٢)، ثم نشب نزاع بينه وبين بعض رعيته فرموه بشرب الخمر، وطالبوا عثمان بالقصاص منه وعزله، وأقاموا الشهادة على ذلك، فعزله عثمان، وأقام عليه الحد، رغم شكه في صدق هؤلاء الشهود، وولى مكانه سعيد ابن العاص^(٣)، وذلك سنة ٣٠هـ، بينما احتفظ بأبي موسى الأشعري والياً على البصرة ثلاث سنوات ثم عزله سنة ٢٦هـ لما شكاه أهل البصرة وقالوا: "قد أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا! واستعمل عليهم عبد الله بن عامر بن كُريز وهو ابن خال عثمان، وكان شاباً في الخامسة والعشرين، فكان فيهم حسن السيرة"^(٤) مجاهدًا عدوه ميمون النقيبة، وكانت فارس وخراسان وغيرها من الولايات الفارسية قد انتقضت عقب وفاة أمير المؤمنين عمر، فأعاد عبد الله بن عامر فتحها وفرض كلمة الإسلام فيها.. كما سيأتي بيانه عند الحديث عن الفتوحات الإسلامية في عصر عثمان رضي الله عنه، وجمع عثمان لمعاوية بن أبي سفيان الشام كلها.. وكان يلي لعمر دمشق بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان في طاعون عمّواس سنة ١٨هـ والأردن، وضم إليه عثمان لما ولي الخلافة إمارة حمص وقنسرين بعد أن استعفى أميرها

(١) السابق ٢٤٤/٤، أما سيف بن عمر فيروي أن عثمان عزل المغيرة وولى سعدًا بعد توليه الخلافة، فمكث على الكوفة سنة، ثم عزله وولى الوليد بن عقبة.

(٢) السابق ٢٤١-٢٥٢، ٢٧١.

(٣) السابق ٢٧٢-٢٧٧، ابن الأثير: السابق ٣/٣-٤.

(٤) السابق ٢٦٤-٢٦٦.

عمير بن سعد لما طُعن، ومات عامل فلسطين عبد الرحمن بن علقمة فضمها
عثمان إلى معاوية، فاجتمعت له إمارة الشام لسنتين من خلافة عثمان^(١).

ثالثاً: الفتوحات في عصر عثمان:

أولاً: الفتوح في جبهة العراق:

انتقض أهل أذربيجان بعد وفاة عمر، فحبسوا الجزية التي كانوا صالحوا عليها
حذيفة بن اليمان سنة ٢هـ، فغزاهم الوليد بن عقبة أمير الكوفة فأجابوا إلى الصلح
وانقادوا له، فصالحهم على صلح حذيفة - ثمانمائة ألف درهم - وأرسل قائده
سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أرمينية في اثني عشر ألفاً فقاتلهم وسبي وغنم، وعاد
مظفراً على الوليد، وكان ذلك حسب رواية أبي مخنف سنة ٢٤هـ، أما غيره فيجعل
هذه الحروب سنة ٢٦هـ^(٢)، وربما كان ذلك هو الأرجح، إذا حسبنا إمارة المغيرة ثم
سعد بن أبي وقاص على الكوفة أول خلافة عثمان سنة ٢٤هـ ثم تولية الوليد من
بعدهما، فلما فرغ الوليد من غزو أذربيجان وأرمينية أتته رسالة الخليفة عثمان يأمره
بتوجيه نحو ثمانية آلاف إلى عشرة آلاف من جنده ليعون أهل الشام في حروبهم
ضد الروم، وكان حبيب بن مسلمة الفهري قائد معاوية بن أبي سفيان قد غزا أرض
الروم، فأرسل الوليد سلمان بن ربيعة الباهلي على رأس ثمانية آلاف من أهل
الكوفة فشاركوا إخوانهم الشاميين في الجهاد، وافتتحوا حصوناً عدة، وغنموا ما
شاءوا^(٣).

(١) السابق ٨٨/٢-٢٨٩.

(٢) السابق ٢٤٦/٤-٢٤٧.

(٣) السابق ٢٤٧/٤-٢٤٨، وزعم الواقدي أن الذي أمد قوات الشام كان سعيد بن العاص أمير
الكوفة بعد عزل الوليد بن عتبة عنها، السابق ٢٤٨/٤-٢٤٩.

وفي سنة ٣٠هـ خرج سعيد بن العاص أمير الكوفة غازيًا ومعه حذيفة بن اليمان والحسن والحسين ابنا علي وعبد الله بن عباس وابن عمر وابن الزبير وعبد الله بن عمرو، فغزا جرجان فصالحه أهلها، وغزا طبرستان ففتحها عنوة بعد قتال شديد صلى فيه المسلمون صلاة الخوف، ثم أنزل الله نصره عليهم^(١).

وفي سنة ٣١هـ قُتل يزيدجرد ملك الفرس طريدًا شريدًا بيد بعض رجاله شر قتلة، واختلف في سبب ذلك وكيفيته اختلافًا لا طائل من ورائه^(٢)، وسار عبد الله بن عامر في جيش من البصرة إلى خراسان بعدما انتقضت على المسلمين ففتح أَبْرَشَهْرَ وَبِيورْدَ وَنَسَا وَسَرْخَسَ وَصَالِحَ أَهْلِ مَرُو^(٣)، وسير جيوشه سنة ٣٢هـ فافتتح قائدها الأحنف بن قيس مرو الروذ بعد أن هزم أهلها حتى اضطّروهم إلى حصنهم فصالحوه، واستولت قواته على الجوزجان عنوة؛ وهي كورة واسعة بين مروالروذ وبلخ، وافتتح الأحنف بن قيس الطالقان صلحًا كما فتح الفارياب، واستولى صلحًا على بلخ، وهي مدينة طخارستان، وأعادت جيوش ابن عامر فتح كرمان وسجستان وغيرها^(٤).

وفي السنة ٣٢هـ تحالفت الترك والخزر على قتال المسلمين بعد أن أحلوا بهم الهزائم المتتابعات، وصدّموا المسلمين فهزموهم، وقتلوا قائدهم عبد الرحمن ابن ربيعة فجعلوه في تابوت فكانوا يستسقون به ويستتصرون به أمداً طويلاً وكادت

(١) السابق ٢٦٩/٤-٢٧١.

(٢) السابق ٢٩٣/٤-٣٠٠، ابن الأثير: الكامل ١٤/٣-١٨.

(٣) الطبري: السابق ٣٠٠/٤-٣٠٣.

(٤) السابق ٣٠٩/٤-٣١٥، ابن الأثير: السابق ٢٢/٣-٢٣.

تحيط بالجند الكارثة^(١).. ولما بلغت أخبار الهزيمة عثمان رد ذلك إلى تشعُّب أهواء أهل الكوفة وقلوبهم، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، انتكث أهل الكوفة، اللهم تب عليهم واقبل بهم، وأرسل الخليفة إليهم مددًا من أهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة الفهري، فأراد سلمان أن يتأمر على الجند كلهم، وأبى حبيب بن مسلمة فتنازعا، حتى قال أهل الشام لقد هممنا بضرب سلمان، فرد عليهم أهل الكوفة، إذن والله نضرب حبيبًا ونحبسه، وإن أبيتم كثرت القتل بيننا وبينكم، إلا أن حذيفة بن اليمان الذي أمره سعيد على القيادة العامة للجيش استطاع أن يئد الفتنة والخلاف، ويوجه الصدور المتنافرة إلى حرب الكافرين، فغزا هذه البلاد ثلاث مرات حتى أتاه نبأ مقتل عثمان فيما بعد^(٢).

ثانيًا الفتوح في جبهة الشام:

مر بنا أن الروم أجلبت على المسلمين بالشام بجموع عظيمة أول خلافة عثمان، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة بالكوفة أن يمد إخوانه بالشام فأمدهم بثمانية آلاف عليهم سلمان بن ربيعة الباهلي، فظفر المسلمون بعودهم فأسروا منهم وغنموا، وقيل إن ذلك كان في إمارة سعيد بن العاص على الكوفة (تولى سنة ٣٠هـ)، فهو إذن الذي أمد مسلمي الشام وليس الوليد.

وتحالف الروم والترك لملاقاة المسلمين الذين غزوا أرمينية من ناحية الشام، وكان على المسلمين حبيب بن مسلمة، وكان صاحب كيد لعدوه، فأجمع أن يبيت قائدهم الموريان - أي يباغتهم ليلاً - فسمعت امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبية يذكر ذلك، فقالت: فأين موعدك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة.. ثم بيّتهم فغلبهم،

(١) وقد بلغ رعبهم من المسلمين في زعم بعض الرواة أنهم كانوا لا يتصورون أن المسلمين يقتلون كسائر البشر إذ أن أحدًا منهم لم يقتل في حروبهم معهم، فقال بعضهم: ألا تجربون؟ فكننوا لنفر من الجند فرموهم فقتلوهم، فتحزبوا عند ذاك القتال..

(٢) الطبري: السابق ٤/٤-٣٠٧-٣٠٤، ابن الأثير: الكامل ٣/٢٥-٢٧.

وأتى سرداق الموريان فوجد امرأته قد سبقتة إليه^(١)، وواصل حبيب حروبه وانتصاراته المتوالية في أراضي أرمينية وأذربيجان ففتحها إما صلحاً أو عنوة، كما غزا ما يلي ثغور الجزيرة العراقية من أرض الروم فافتتح عدة حصون هناك، مثل شمشاط ومَلطية وغيرهما^(٢).

وفي سنة ٢٥ هـ غزا معاوية الروم فبلغ عمورية فوجد الحصون التي بين أنطاكية وطرسوس خالية، فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة، وواصل قائده يزيد بن الحر العبسي الغزو في الصيف التالي، ولما فرغ هدم بعض الحصون القريبة من أنطاكية كي لا يفيد منها الروم^(٣).

فجر البحرية الإسلامية وفتح قبرس:

وفي سنة ٢٧ هـ كان المسلمون في الشام يعانون أشد العناء من وجود الأساطيل البيزنطية بالقرب من سواحل الشام، مما يمثل تهديداً مستمراً للوجود الإسلامي هناك، وكان قد عانوا من قبل في فتح هذه البلاد بسبب الدعم البحري البيزنطي لها في ظل عدم وجود بحرية إسلامية حتى إن فتح قيسارية سنة ١٩ هـ أو ٢٠ هـ^(٤) قد استغرق سبع سنين بسبب تواصل الإمدادات البحرية لأهلها.

واستعصت طرابلس على المسلمين حتى فتحها معاوية في أول خلافة عثمان^(٥)، بل إن الروم استطاعوا أن يعيدوا سيطرتهم على بعض مدن الساحل في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان رضي الله عنه فقصد إليهم معاوية حتى فتحها، ثم

(١) الطبري: السابق ٢٤٧/٤-٢٤٨، البلاذري: السابق ٢٠٠-٢٠٢.

(٢) البلاذري: السابق ٢٠٤/٤-٢٠٦، ابن الأثير: الكامل ٤٧٩/٢-٣٨٠.

(٣) البلاذري: السابق ١٨٨-١٨٩.

(٤) السابق ١٤٦، ١٤٨.

(٥) للسابق ١٣٣.

رمّها، وشحنها بالمقاتلة، وأعطاهم القطائع لتكون دافعًا إلى الإقامة الدائمة هناك وتعمير الأرض^(١)، واستطاع البيزنطيون أيضًا احتلال الإسكندرية سنة ٢٥ هـ بفضل أساطيلهم البحرية حتى تمكن عمرو بن العاص من تحريرها كما سيأتي..

وكانت سياسة عمر إزاء هذه المخاطر تقوم على تحصين هذه المدن الساحلية بشتى السبل مع عدم إغزاء المسلمين في البحر، لما يخافه عليهم من خطره، ولقلة خبرتهم به، وقد كتب إليه معاوية يصف حال السواحل الإسلامية وخطر بحرية الروم فكتب إليه عمر: "في مرمة حصونها، وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على مناظرها، واتخاذ المواقيد^(٢) لها، ولم يأذن له في غزو البحر^(٣)، كما اهتم عمر بتحصين الإسكندرية وتنظيم أمور الحراسة والمرابطة بها^(٤)..

ولم تكن هذه الاحتياطات كافية في رأي معاوية لحماية السواحل الإسلامية، فكان يرى ضرورة إيجاد بحرية إسلامية قوية قادرة على فرض سيطرتها على السواحل الإسلامية، وإنهاء السيطرة البيزنطية على مياه البحر المتوسط (بحر الروم كما كان يعرف آنذاك)، فكتب معاوية إلى أمير المؤمنين عمر بأهمية الغزو في البحر وفتح الجزر القريبة من سواحل الشام وبخاصة قبرس قائلاً: "يا أمير المؤمنين، إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص" فاتهمه عمر لأنه المشير، وكتب إلى عمرو ابن العاص أمير مصر يأمره أن يصف له البحر، فكتب إليه عمرو: "يا أمير المؤمنين، إنني رأيت خلقًا عظيمًا يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، وإنما هم كدود على

(١) السابق والصفحة.

(٢) وهي أماكن لإيقاد النيران أعلى الحصون، حيث يشعلها المسلمون إن أحسوا خطر هجوم الأعداء عليهم فتأتيهم النجدات، (د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية ١٦/١)

(٣) البلاذري: السابق ١٣٤/١.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ٧٩/١.

عود، إن مال غرق، وإن نجا برق"^(١)، فكتب عمر إلى معاوية: "كيف أحمل الجنود في هذا البحر الكافر المستصعب؟ وتالله لمسلم واحد أحب إلي مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي وقد تقدمت إليك.." ^(٢)، فلما ولي عثمان بن عفان كتب إليه معاوية يستأذنه في غزو قبرس، ويُعلمه قربها وسهولة الأمر فيها، فكتب إليه أن قد شهدت ما رد عليك عمر - رحمه الله - حين استأمرته في غزو البحر، فلما فصلت سنة ٢٧هـ كتب معاوية إليه مرة أخرى يهون عليه ركوب البحر إلى قبرس، فكتب إليه عثمان: فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذونًا لك، وإلا فلا^(٣)، وكان مما أمره به قوله: "لا تنتخب الناس ولا تُقرع بينهم، خيّرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه"^(٤)، فبدا بذلك حرص عثمان رضي الله عنه على جنوده، وتهديئة حماسة أميره معاوية، وتحميله عبء المخاطرة بنفسه وأهله، مع تخيير جنوده في الوقت نفسه، وكان ذلك القرار الخطير بغزو البحر فاتحة عهد جديد يُحسب فخاره للخليفة وقائده البصير وجنوده الذين بادروا بالمشاركة في ذلك الحدث الجليل.

فقد شارك في غزو قبرس جماعة من أكابر الصحابة مثل أبي ذر وأبي أيوب الأنصاري وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وفضالة بن عبيد وعمير بن سعد الأنصاري وشداد بن أوس وغيرهم، واصطحب معاوية معه زوجته فاخنة بنت قرظة، واصطحب عبادة بن الصامت معه امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية، فشاركت المرأة المسلمة في هذه الفضيلة الكبرى، وكان ذلك سنة ٢٨هـ أو ٢٩هـ، وأذعن القبارسة للصلح والجزية، واشترط عليهم المسلمون ألا يعينوا الروم إن أرادوا غزؤهم، ويُعلموا المسلمين أخبارهم، واشترطوا هم على المسلمين ألا يمنعوهم دفع

(١) الطبري: السابق ٢٥٩/٤، ومعنى برق: تحير واندهش (لسان العرب)

(٢) الطبري: السابق والصفحة.

(٣) البلاذري: السابق ١٥٧.

(٤) الطبري: السابق ٢٦٠/٤.

جزية مماثلة للروم ليأمنوا شرهم، واستشهدت في هذه الغزوة أم حرام بنت ملحان، عثرت بها دابتها، فسقطت عنها، فعرف قبرها بقبرس بقبر المرأة الصالحة، وكان أمير مصر عبد الله بن سعد قد تحرك في سفن مصرية لمعاونة معاوية في الفتح، وكان معاوية هو الأمير العام للجيشين الشامي والمصري^(١)، وفي سنة ٣٢ هـ أعان القبارسة الروم على غزو المسلمين بمراكبهم، فحاربهم معاوية في السنة التالية، وفتح الجزيرة عنوة، ثم أقرهم على الجزية، وأرسل إليهم اثني عشر ألفاً من المسلمين يأخذون عطاءهم ليقيموا في الجزيرة، ونقل إليها جماعة من بعلبك فبنوا المساجد والبيوت^(٢).

ثالثاً الفتوح في الجبهة المصرية:

أبقى عثمان عمرو بن العاص أميراً على مصر، لكنه نزعه عن ولاية الخراج فيها واستعمل عليه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فنشب نزاع بين عمرو - أمير الجند - وابن سعد - أمير الخراج - فكتب عبد الله بن سعد إلى عثمان يقول: إن عمرًا كسر الخراج، وكتب عمرو: إن عبد الله كسر عليّ حيلة الحرب، فصرف عثمان عمرًا عن ولاية مصر، وأسندها إلى عبد الله بن سعد^(٣)، وتاريخ ذلك التغيير في إمارة مصر غير محدد بدقة فبينما يروي الطبري أن ذلك كان سنة ٢٧ هـ^(٤)، يروي البلاذري أن ذلك كان سنة ٢٥ هـ^(٥)، وذلك الخلاف يثير تساؤلاً آخر عمن كان والي مصر لما انتقضت الإسكندرية وسيطر عليها الروم سنة ٢٥ هـ، فالبلاذري يروي أن عمرو بن العاص كان والي مصر آنذاك، وأنه لما سار إلى

(١) السابق ٢٦٢/٤.

(٢) البلاذري: السابق ١٥٨.

(٣) الطبري السابق ٢٥٦/٤، البلاذري: السابق ٢٢٤.

(٤) الطبري: السابق ٢٥٣/٤.

(٥) البلاذري: السابق ٢٢٤، ويوافقه الكندي: ولاية مصر ٣٥.

الفسطاط تاركًا حامية بالإسكندرية على رأسها عبد الله بن حذافة السهمي كتب الروم بها إلى قسطنطين ابن هرقل إمبراطور الروم في القسطنطينية يخبرونه بقله أعداد المسلمين بالمدينة وضعف رابطتهم، فأرسل قائده مانويل على رأس حملة بحرية كبيرة تضم ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة، فدخل الإسكندرية وقتل حاميتها الإسلامية، وبلغ الخبر عمرو بن العاص فسار إليهم في خمسة عشر ألفًا فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يعيثون فيما يلي الإسكندرية من قرى مصر، فلقيهم المسلمون ونشب قتال ضار أسفر عن هزيمتهم وفرارهم إلى الإسكندرية، فتحصنوا بها، وحاصروهم المسلمون، ونصبوا عليهم المنجنيقات حتى دخلوها عنوة فقتلوا المقاتلة، وسبوا الذرية، وقتل قائدهم مانويل، وهرب من استطاع الهرب من الروم، وهدم عمرو أسوار المدينة كي لا يعود الروم إلى التحصن بها^(١)، ثم إنه لما فتحها وعاد إلى الفسطاط لم يلبث إلا قليلاً حتى أتاه عزله وتولية عبد الله بن سعد ولاية مصر^(٢)، بينما يروي البلاذري أن عثمان عزل عمرًا عن مصر وولى مكانه ابن سعد، فلما نزلت الروم الإسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرًا حتى يفرغ من قتال الروم لأن له معرفة بالحرب وهيبة في أنفس العدو، ففعل حتى هزمهم الله، فأراد عثمان أن يجعل عمرًا على إمارة الحرب وابن سعد على الخراج فأبى عمرو، فولى عثمان ابن سعد أميرًا على مصر^(٣).

ولما ولي عبد الله بن سعد مصر بعث المسلمين في جرائد خيل فأصابوا من أطراف أفريقية وغنموا، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه متوقفًا في غزوها مثل عمر ابن

(١) البلاذري: السابق ٢٢٣.

(٢) السابق ٢٢٤.

(٣) السابق ٢٢٥، ويرى الكندي (ولاية مصر ٣٥) أن عثمان رد عمرو واليًا على الإسكندرية فقط لما غزاها الروم وكلمة أهلها في رده، وظل ابن سعد أميرًا على الفسطاط وبقية مصر فلما حدث النصر على الروم جمع لابن سعد ولاية مصر كلها.

الخطاب، ثم إنه عزم على ذلك بعد أن استشار فيه، فغزاها ابن سعد سنة ٢٧ أو ٢٨ هـ وأمه الخليفة بجيش عظيم فيه أمثال عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وعبد الرحمن بن أبي بكر فالتقوا مع جيش الروم بها، فمزقوه وقتلوا قائده، وفرق عبد الله بن سعد سراياه في البلاد فأصابوا من الغنائم والمواشي ما قدروا عليه، فلما رأى ذلك عظماء إفريقية اجتمعوا فطلبوا من عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من الذهب على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فأجابهم إلى ذلك^(١)، ويبدو من هذه النتيجة أن تلك الحملة كانت استطلاعية، وأن المسلمين لم يقصدوا في هذه الفترة تحقيق استقرار دائم في هذه المنطقة، فأثروا التريث ريثما تنتهي الظروف المناسبة لذلك بعد أن استكشفوا هذه الجهات وعرفوا إمكاناتها.

وفي سنة ٣١ هـ غزا عبد الله بن سعد غزوة الأسود ببلاد النوبة حتى بلغ دُمقلة (دنقلة الآن) فقاتلهم قتالاً شديداً، فسألوه الصلح والموادعة، فأجابهم إلى ذلك بغير أن يضطروهم إلى دفع الجزية، ولكن على تقديم عدة مئات من الرقيق ويأخذون طعاماً بقدر ذلك^(٢).

وفي سنة ٣٤ هـ حدثت معركة ذات الصواري بين الأسطول الإسلامي الناشئ في مصر والشام والأسطول البيزنطي.. وقد اختلف المؤرخون في دوافع هذه المعركة، فيروي الطبري أن قسطنطين بن هرقل إمبراطور الروم خرج لمهاجمة المسلمين بسبب ما أصابه المسلمون منهم بإفريقية^(٣)، وهو الدافع الذي يستبعده

(١) البلاذري: السابق ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) السابق ٢٣٨-٢٣٩، الكندي: السابق ٣٥-٣٦.

(٣) الطبري: السابق ٤/٢٩٠.

بعض المؤرخين المحدثين، إذ لم تتشب معارك إسلامية ضد البيزنطيين بإفريقية منذ سنة ٢٨ هـ لما غزا عبد الله بن سعد إفريقية كما مر بنا^(١)..

غير إننا لا ينبغي أن نستبعد فكرة الانتقام هذه، وهو ما قد يكون تأخر بسبب اضطراب الأحوال الداخلية في الدولة البيزنطية نفسها، وإن أمكننا أن نضيف إلى ذلك رغبة البيزنطيين في الثأر من المسلمين بسبب هجماتهم المستمرة على أراضي الروم في آسيا الصغرى كما مر بنا، ويذهب مؤرخون آخرون إلى أن الحشد البيزنطي البحري إنما كان بسبب ما تزامى إلى علم البيزنطيين من استعدادات بحرية يقوم بها معاوية أمير الشام لضرب العاصمة البيزنطية نفسها، وهو ما يبدو بعيداً إذ لا يعتمد ذلك الرأي على أسانيد وثائقية أو استدلالات منطقية، فقد كانت البحرية الإسلامية ما زالت في طور التكوين مما لا يعطي معاوية الطموح إلى غزو القسطنطينية نفسها بما لها من منعة وحصانة^(٢)، ولما كانت هذه المعركة قد حدثت بالقرب من ساحل ليكيا بآسيا الصغرى فإن مؤرخين آخرين يرون أن المعركة قد نشبت لمنع المسلمين من الحصول على الأخشاب اللازمة لبناء قواتهم البحرية من هذه المناطق الغنية بالأخشاب، وقد دأبوا على ذلك في الفترة السابقة، وذلك هو ما أعطى هذه المعركة اسمها "ذات الصواري" حيث يشير ذلك الاسم إلى موضع على الساحل البيزنطي غني بالأخشاب التي تصنع منها صواري السفن^(٣)، وليس كما ذهب المؤرخون القدماء إلى أنها سميت بذلك لكثرة صواري السفن في ساحة القتال^(٤).

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية ٢٨/١-٢٩.

(٢) السابق ٢٩/١.

(٣) السابق ٢٩/١-٣٠، وانظر: الطبري: السابق ٢٩١/٤.

(٤) الكندي: السابق ٣٦-٣٧.

ويبدو أن أيًا من هذه الاجتهادات لا يلغي الآخر، فقد كان الحقد البيزنطي عظيمًا على المسلمين الذين استولوا على بعض أغنى أقاليم بلادهم: الشام ومصر.. وامتدت فتوحاتهم إلى إفريقية وآسيا الصغرى، وكانوا يتوجسون شرًا من الجهود الإسلامية التي كان معاوية يقف خلفها بقوة لبناء بحرية إسلامية قوية توشك أن تتازع البيزنطيين سيطرتهم على البحر، وقد يمتد طموح معاوية وأمثاله إلى غزو العاصمة البيزنطية نفسها أو تهديدها، وهو ما حدث بعد زمن ليس بالبعيد^(١)، وكانت جزأة المسلمين تمتد إلى حد الحصول على الأخشاب الضخمة اللازمة لبناء سفنهم من السواحل البيزنطية نفسها في آسيا الصغرى.

كانت أعداد السفن البيزنطية في معركة ذات الصواري هذه تصل إلى خمسمائة مركب، أو سبعمائة أو ألف، وكان المسلمون في نحو مائتي مركب^(٢) وكان ذلك الجمع من السفن في أعين المسلمين - الذين لم يعتادوا هذا الحشد البحري - عظيمًا، قال الواقدي: "فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الإسلام"، وقال أحد المشاركين في المعركة: "فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط"^(٣) ويبدو أن المسلمين أدركوا أن خوض قتال بحري ضد هذه الأعداد الضخمة من السفن المدربة مخاطرة غير مأمونة، فاختاروا أن يجعلوها حربًا برية في البحر، فربطوا سفنهم المتقاربة في سفن الأعداء فجعلوا من ظهور السفن ميدانًا بريًا للقتال، وهو ما يدل على استخدام أمثل للقدرات القتالية من جانب المسلمين الذين

(١) قيل ابن معاوية أرسل قائده بسر بن أبي أرطأة فغزا الروم حتى وصل إلى القسطنطينية سنة ٤٣ هـ (ابن الأثير: الكامل ٢٨٧/٣)، وغزاها بحرًا في السنة التالية ٤٤ هـ (السابق ٢٩٨/٣) وتلتها عدة غزوات بحرية حتى كان الحصار الأول للقسطنطينية سنة ٤٩ هـ، ٥٠ هـ (السابق ٣١٤/٣، د. سالم: السابق ٣١-٣٢)

(٢) الطبري: السابق ٢٩٠/٤، الكندي: السابق ٣٦.

(٣) الكندي السابق ٣٦.

اعتادوا القتال على سهوات خيولهم في ميدان يتسع للكر والفر والمناورة، فنشب القتال بين الفريقين بالسيوف والخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركامًا، وقتل من المسلمين يومئذ بشر كثير، وقتل من الروم ما لا يحصى، وصبروا يومئذ صبرًا لم يصبروا في موطن قط مثله، ثم أنزل الله نصره على أهل الإسلام، وانهزم قسطنطين مدبرًا، وقد أجهضته الجراح التي لبث يعالج منها أمدًا^(١)، وكان هذا الانتصار الهائل بداية تطور بحري جديد سيطر المسلمون فيه على حوض البحر المتوسط على حساب البحرية البيزنطية^(٢)، ولو كان النصر من نصيب الروم لقضوا على البحرية الإسلامية الناشئة، وظلت السيادة لهم في البحر المتوسط - أو حوضه الشرقي على الأقل - مدة أخرى من الزمن^(٣).

(١) الطبري: السابق ٤/٢٩٠-٢٩١.

(٢) د. إبراهيم العدوي: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ٦٤.

(٣) د. فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية ٢/٣٣٨.

المبحث الثاني

الثورة على عثمان: الوقائع والأسباب

أولاً: تمرد الأمصار على الولاية:

بدأت نذر الانتقاد ضد عثمان تتجمع في العراق، وبخاصة في الكوفة؛ تلك المدينة التي أعيت من قبل عمر بن الخطاب، وكثرت اعتراضات أهلها على ولايتهم في عصره - مع شديد تحرّزه واحتياطه في اختيار هؤلاء الولاة ومراقبتهم - فشغبوا على سعد بن أبي وقاص، واتهمه بعضهم أنه لا يحسن الصلاة، وأنه "لا يقسم بالسوية ولا يعدل في الرعية ولا يغزو في السرية، ولم يمنعهم من ذلك أن جيوش المسلمين كانت تتجمع آنذاك لخوض معركة نهاوند سنة ٢١هـ^(١)، وشكوا عاملهم عمار بن ياسر، واتهموه أنه لا يدري علام استعمله أمير المؤمنين^(٢)، حتى اغتم بهم عمر بن الخطاب وقال: "وأي نائب أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير، ولا يرضى عنهم أمير"^(٣)، وقال الشعبي: إن الكوفة أول مصر نزع الشيطان بينهم في الإسلام^(٤)، وقد ذكر ذلك في معرض حديثه عن اختلاف سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة مع ابن مسعود عامل الخراج بها، وقد عزل عثمان سعداً لذلك، وولاهما الوليد بن عقبة سنة ٢٦هـ، وكان عاملاً لعمر على الجزيرة من قبل^(٥).

(١) الطبري: السابق ٤/١٢٠-١٢١.

(٢) السابق ٤/١٦٤.

(٣) السابق ٤/١٦٥.

(٤) السابق ٤/٢٥١.

(٥) السابق ٤/٢٥٢.

ولم يكن حال أهل البصرة أفضل كثيرًا من أهل الكوفة، فقد شكوا بعض أهلها عاملهم المغيرة بن شعبه زمن عمر، واتهموه بالزنا، كما مر بنا، ثم عادوا فاتهموا أبا موسى الأشعري زمن عثمان - وكان عمر ولاء عليهم - فقال بعض أهل البصرة لعثمان: "حتى متى يلي هذا الشيخ البصرة؟" واتهموه أنه حرضهم على الجهاد رجالة بغير خيل، وذكر لهم فضل ذلك، ثم خرج ليجاهد بهم وهو راكب، وطلبوا من عثمان بديلاً له، فسألهم: من يحبون؟ فقالوا: في كل أحد عوض عن هذا العبد الذي أكل أرضنا، وأحيا أمر الجاهلية فينا"، فاستعمل عليهم عبد الله بن عامر، وذلك سنة ٢٩هـ^(١).

ومكّر أهل الكوفة بالوليد بن عقبة واليهم نموذج لما آل إليه أمر هذا الثغر من اضطراب وخلل، وظهور جماعات من رجال القبائل على أولي النهى والرأي من أهله، فقد ارتكب جماعة من شباب الكوفة جريمة قتل فأقام عليهم الوليد - بأمر عثمان - الحد، فثار لذلك أهلهم، ولم يمكنهم أن يعترضوا علانية على إقامة حد من حدود الإسلام، فذهبوا إلى الكيد سرًا لوالدهم، رغم أنه كان "أحب الناس في الناس، وأرفقهم بهم، فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب"^(٢)، وكان "قد أدخل على الناس خيرًا حتى كان يقسم للولائد والعبيد"^(٣)، فاتهموه بشرب الخمر، وأذاعوا في الناس ذلك، وانتهزوا ألا حاجب لداره ولا باب فدخلوا عليه وهو نائم، وانتزعوا خاتمه، وذهبوا به إلى المدينة، ليزعموا أن الوليد شرب وسكر، فلم يدر بهم وهم ينزعون خاتمه، وقال بعضهم - في روايات أخرى - إنه صلى بهم الصبح أربعًا من السكر، فأمر عثمان بجلده؛ فحلف أن شهوده خصوم له، وأخبره خبرهم،

(١) السابق ٢٦٥/٤.

(٢) السابق ٢٧١/٤.

(٣) السابق ٢٧٧/٤-٢٧٨.

فلم يمنع ذلك الخليفة من جلده لإبراء ذمته وقال: "تقيم الحدود، ويبوء شاهد الزور بالنار، فاصبر يا أخي"، وعزله وولى مكانه سعيد بن العاص، وذلك سنة ٣٠هـ^(١). ولما وصل سعيد الكوفة قام على منبرها فقال: "والله لقد بُعثت إليكم وإني لكاره، ولكني لم أجد بداً إذا أمرت أن أئتم، ألا إن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها، ووالله لأضربن وجهها حتى أقمعها أو تعييني، وإني لرائد نفسي اليوم"، وسأل عن الكوفة وأهلها فعرفه، وكتب به إلى عثمان يشرح له ذلك، وأنه قد اضطرب أمرهم، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة، والغالب على تلك البلاد روادف ردت، وأعراب لحقت، حتى ما يُنظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتها^(٢)، فكتب إليه عثمان: "أما بعد، ففضّل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليهم تلك البلاد، وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم، إلا أن يكونوا تتاقلوا عن الحق، وتركوا القيام به، وقام به هؤلاء، واحفظ لكل منزلته، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق"، ففعل سعيد ذلك، فغضب أصحاب الفتنة، وأفشوا شائعات السوء ضده^(٣).

ومعنى ذلك أن بوادر الفتنة التي ظهرت بالعراق وبخاصة الكوفة كانت تعود إلى أسباب اجتماعية وسياسية.. وليس لمجرد النعمة على ولاة عثمان، أو النعمة على عثمان لأنه ولى أقاربه، كما يشيع عند كثير من المؤرخين.

وقد حاول عثمان علاج ذلك الخل في إطار سياسته العامة القائمة على تقديم أهل السابقة والدين، فأراد أن يزيد عددهم في الكوفة ويعزز أوضاعهم بها، فاقترح لذلك أن ينتقل من شاء من الصحابة إلى العراق، وأن يتخذوا بها معاش ثابتة،

(١) راجع السابق ٢٧١/٤-٢٧٨.

(٢) يعني بالروادف الطارئین على البلاد ممن ليس من أهلها السابقين، ويعني بالنابئة الجيل التالي من أهل الكوفة.

(٣) السابق ٢٧٩/٤.

وذلك بأن يشتروا لهم أراضي هناك، إما بأموالهم السائلة أو باستبدال أراضيهم بالحجاز بممتلكات من شاء من العراق، فسر ذلك الصحابة ووجدوا فيه فرجاً لهم^(١)، إذ كان ذلك نقلة كبيرة عن سياسة الفاروق عمر الذي حجزهم بجواره لحاجته إليهم، ولتخوفه من تشعب الأمر بانقسام الناس حولهم - إن جاورهم بالأمصار - وفتنتهم بهم.

أ- التمرد في الكوفة:

ولا ريب أن الاجتهاد السياسي لعثمان كان يتوخى تهدئة الأوضاع في الكوفة، والإقلال من خطر التخلخل الاجتماعي بها، لكن نجاحه في ذلك لم يكن على المستوى الذي أمّله، فإن رجال القبائل الطموحين إلى دور سياسي واقتصادي أكبر لم يستريحوا لمجاورة أصحاب رءوس الأموال الضخمة من رجال قريش، فظلوا على تذرهم من عثمان وولاته، يثيرون من حولهم الإشاعات، وكانوا هم في زيادة بما يتساقط إليهم من الأعراب والطارئين على العراق، "حتى غلب الشر"^(٢)، وفي مجلس سعيد بن العاص أثار بعضهم فتنة لأسباب واهية، مما كاد يهدد بالافتتال بين مختلف القبائل بها، فأقسم سعيد - الذي نجح في تهدئة الأوضاع - ألا يجالسه هؤلاء السفهاء مرة أخرى، فلما انقطع رجاؤهم من مجلس سعيد قعدوا في بيوتهم يذيعون الاتهامات له وعثمان، حتى لامه أهل الكوفة في تركه إياهم، فاعتذر إليهم بأن الخليفة أمره ألا يحرك شيئاً في هذه الفتنة، فكتب أشرف أهل الكوفة إلى الخليفة يطلبون إخراج هؤلاء النفر من قادة الشغب عن الكوفة، فأخرجهم عثمان إلى الشام وبها معاوية بن أبي سفيان، وكتب إليه: "إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفرًا خلّقوا للفتنة فرعهم، وقم عليهم، فإن أنست منهم رشداً فاقبل

(١) الطبري: السابق ٤/٢٨٠-٢٨١.

(٢) السابق ٤/٢٨١.

منهم، وإن أعيوك فردهم إليهم"^(١)، فاخْتُلِفَ في أمرهم بعد ذلك فقيل: إنهم أظهروا صلاحًا بعد مدة من استصلاح معاوية لهم^(٢)، وقيل: بل استمروا في غيهم وأحقادهم على قريش وما آلت إليه من عز وسؤدد وغنى وثروة لم تصل إليها قبائلهم، فأعياى أمرهم معاوية فأوكل بهم عامله على حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فعنف بهم حتى استقاموا، وأعلنوا توبتهم، وآثروا الإقامة بجواره، وكان ذلك سنة ٣٣هـ، وكان من هؤلاء نفر الأشتر النخعي وكميل بن زياد وعمير بن ضابئ وغيرهم ممن اتهم بعدُ بقتل عثمان^(٣).

ب- عبد الله بن سبأ ودوره:

وفي هذه الأجواء المتفجرة بالشائعات والثورة بها ظهر عبد الله بن سبأ المكنى بابن السوداء، وهو يهودي من أهل صنعاء ادعى الإسلام، وأراد الكيد له من داخله، فوجد بيئة سالحة في العراق، وقد نزل في البصرة على رجل يدعى حُكيم بن جبلة، وهو لص شهير بها شكاه منه أهل الذمة وأهل القبلة على السواء، ووصلت الشكوى منه إلى عثمان فكتب إلى عبد الله بن عامر أمير البصرة أن "احبسه ومن كان مثله، فلا يخرج من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً"، فحبسه بالبصرة، فكان لا يخرج منها حتى نزل عليه ابن سبأ، واجتمع إليه نفر آخرون فمضى يبيثهم آراءه بحذر ولا يصرح، فقبلوا منه واستعظموه، ووصل خبره عبد الله بن عامر فأخرجه من الكوفة، فخرج إلى الشام، فلم يقدر على ما يريد في بلاد معاوية، ثم استقر بمصر، وجعل يكاذب أنصاره بالعراق ويكاذبونه، ويختلف الرجال بينهم، وذلك سنة ٣٣هـ^(٤).

(١) السابق ٣١٨-٣١٩.

(٢) السابق ٣٢٨-٣٢٩.

(٣) السابق ٣١٨-٣١٩.

(٤) السابق ٣٢٦-٣٢٧، ٣٤٠.

ج- التمرد في مصر:

وفي مصر كانت بذور الفتنة تجد لها أرضًا خصبة أيضًا.. وجاءت أول بوادرها من محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، ربيب عثمان الذي كفله وهو يتيم، فسأله محمد أن يوليه ولاية فرفض إذ لم يره رضا لذلك، وكذا محمد ابن أبي بكر الصديق، فذهبا إلى مصر ليؤلبا أهلها على عثمان^(١) ولم يمنعهما من ذلك ما كان فيه أهل مصر من جهاد الروم، فكان في موقعة ذات الصواري سنة ٣٤هـ يحرض الناس ومعه محمد بن أبي بكر؛ يقول للرجل من الغزاة: "أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقًا" فيقول الرجل: "وأى جهاد؟ فيقول: "عثمان لبن عفان، فعل كذا وكذا، وفعل كذا وكذا"، حتى أفسد الناس^(٢).

وقد حاول عبد الله بن سعد عزلهما عن بقية الجيش، لكنهما استمرا في سعيهما وتألبيهما، فأرسل عبد الله بن سعد إليهما ينهاهما أشد النهي، وقال: "والله لولا أنني لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين لعاقبتكما وحبستكما"^(٣)، وكتب ابن سعد إلى عثمان بخبرهما فقال: "إن محمدًا قد أفسد علي البلاد هو ومحمد بن أبي بكر"، فرد عليه عثمان: "أما ابن أبي بكر فإنه يوهب لأبيه وعائشة، وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي ورببي، وهو فرخ قريش"، فكتب إليه ابن سعد: "إن هذا الفرخ قد استوى ريشه، ولم يبق إلا أن يطير"^(٤).

نشاط ابن سبأ بمصر:

(١) السابق ٣٩٩/٤.

(٢) السابق ٢٩٢/٤، والطبري يجعل تاريخ الغزوة سنة ٣١هـ، والأرجح أنها سنة ٣٤هـ.

(٣) السابق والصفحة.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٥١/٣.

وتواصل في مصر نشاط ابن سبأ بعد وصوله إليها، فكان يقول لأهلها: "لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمد يرجع، وقد قال الله عز وجل: (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيَّ مَعَادٍ) (١)، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، فقبل ذلك عنه، ووضع لهم بذلك فكرة الرجعة، فتكلموا فيها ثم قال لهم بعد ذلك: "إنه كان ألف نبي، لكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد"، ثم قال: "محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء" ثم قال بعد ذلك: "من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ، ووثب على وصي رسول الله، وتناول أمر الأمة"، ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله، فانهمضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدءوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر" (٢).

وهكذا وضع ابن سبأ الأساس النظري للتحرك وخطته، وكان يمتلك - فيما يرى بعض المؤرخين - وسائل التنفيذ في ذلك التنظيم السري الذي جهزه في جولاته بالأمصار البصرة والكوفة ومصر، وفي سنة ٣٥هـ رأى الرجل أن الفرصة مواتية لتنفيذ خطته، "قبث دعائه، وكاتب من استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبذون" (٣).

ويذكر الكندي رواية مهمة عن كيفية اختراع هذه الكتب وإقناع العامة والأغرار بها، فيروي بسنده عن الليث بن سعد فقيه مصر عن عبد الكريم بن الحارث

(١) سورة القصص آية ٨٥.

(٢) الطبري: السابق ٤/٣٤٠-٣٤١.

(٣) السابق ٤/٣٤١.

الحضرمي أن محمد بن أبي حذيفة - كبير المحرضين على عثمان بمصر - كان يكتب الكتب على أسنة أزواج النبي ﷺ، ثم يأخذ الرواحل فيضمّرها، ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث بذلك معهم فيجعلهم على ظهور البيوت، فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلّوِّحهم تلويح المسافر، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر (أي المؤدي المدينة) ثم يرسلون رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم، وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا: ليس عندنا خبر، الخبر في الكتب، ثم يخرج محمد بن أبي حذيفة والناس كأنه يتلقى رسل أزواج النبي عليه السلام، فإذا لقوهم قالوا: لا خبر عندنا، عليكم بالمسجد، فيقرأ عليهم كتب أزواج النبي (المزعومة) فيجتمع الناس في المسجد اجتماعاً ليس فيه تقصير، ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول: إنا نشكو إلى الله وإليكم ما عمل في الإسلام، وما صنع في الإسلام، فيقوم أولئك الشيوخ في نواحي المسجد بالبكاء.. وينفر الناس مما قرئ عليهم^(١).

عثمان يحقق في الشائعات عن ولاته:

وأنت بعض الكتب المزورة إلى أهل المدينة فذهبوا يسألون عنها عثمان فقال: "أنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا علي"، فأشاروا عليه أن يرسل رسلاً من عنده للتحقيق في هذه الشكايات والمظالم المزعومة، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة، وعمار بن ياسر إلى مصر، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وفرق رجالاً غيرهم، فرجعوا جميعاً قبل عمار يقولون: "ما أنكرنا شيئاً، ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم"، بينما استطاع السبئيون أن يستميلوا إليهم عمار بن ياسر فيما يزعم الرواة^(٢).

وكتب عثمان إلى الأمصار كتاباً يبرأ فيه من كل سوء ارتكبه عماله، ويدعو كل صاحب مظلمة إلى الموافاة في الموسم لرفع شكايته إلى الخليفة واستخلاص

(١) الكندي: ولاة مصر ٣٨.

(٢) الطبري: السابق ٣٤١/٤.

حقه حيث كان، منه أو من عماله، فلما قرئ الكتاب في الأمصار أبكى الناس، ودعوا لعثمان وقالوا: "إن الأمة لتمخّض بالشعر"^(١).

عثمان يدعو ولاته للتشاور معه:

ودعا عثمان الخليفة ولاته إلى اجتماع لتدارس الأمر والتشاور فيه، وكان ذلك سنة ٣٤ أو ٣٥هـ على اختلاف الروايات^(٢)، ولعله كان بعد انقضاء موسم الحج سنة ٣٤هـ وأول سنة ٣٥هـ^(٣)، وقد حضر سعيد بن العاص ذلك الاجتماع مما يوحي بأنه كان لا يزال أمير الكوفة، لم يخلع عنها.. كما حضره عمرو بن العاص، وقد أدخله عثمان في المشاورة ليفيد من رأيه، وقد انتهزت بعض الروايات الشيعية فرصة وجوده في ذلك الاجتماع لتنسب إليه هجوماً قاسياً على عثمان، وذلك ما يتسق مع الرؤى الشيعية التي تصور كبار الصحابة في صورة المتآمرين على عثمان أو المحرضين عليه^(٤)، وهي الروايات نفسها التي تزعم أن عثمان أوصى عماله في ذلك الاجتماع بالتنسيق على من قبلهم من الثائرين، ومنعهم أعطياتهم، وتجميرهم في البعوث^(٥)، مما لا يتفق مع طبيعة عثمان ولينه الذي اشتهر به حتى عيب عليه، ولا يتفق مع ما سارت عليه الأمور في أعقاب ذلك، إذ واصل عثمان اللين معهم، وواصلوا الجرأة عليه.

(١) السابق ٣٤٢/٤.

(٢) راجع السابق ٣٣١-٣٣٢، ٣٤٢.

(٣) يؤيد ذلك قول بعض الرواة عما حدث بعد الاجتماع: فلما ورد عثمان المدينة رد الأمراء إلى أعمالهم (السابق ٣٤٣-٣٤٤).

(٤) وزعموا أن ذلك كان بهدف أن يسمع السبئية قوله فيقود بذلك إلى الخليفة خيراً أو يصرف عنه شراً، (راجع: السابق ٣٣٤-٣٣٥).

(٥) السابق ٣٣٥/٤.

ولا شك أن طبيعة الاجتماع وما حاطه من سرية متوقعة لا يورث الطمأنينة تجاه ما يرد في هذه الروايات من أقوال منسوبة إلى الحضور فيه، وعند سيف ابن عمر أن عثمان استشار ولاته فإشار عليه سعيد بن العاص بالشدة على الثائرين الذين يتحقق تأمرهم، وأشار عبد الله بن سعد بن أبي السرح بأن يأخذ من الناس الذي عليهم إن أعطاهم الذي لهم، وقال معاوية: إن الرأي عنده حسن الأدب معهم، بينما قال عمرو بن العاص: "أرى أنك قد لنت لهم، وتراخيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريق صاحبك، فتشددت في موضع الشدة وتلين في موضع اللين، إن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شرًا، واللين لمن يختلف الناس بالنصح، وقد فرشتها جميعًا باللين" .. وقد انتهى الاجتماع بوصية عثمان أمراءه بالرفق بالرعية حتى تصل الأمور إلى نهايتها التي قدرت لها، وقال: "والله إن رحا الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها، كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم، واغترفوا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تُدهنوا فيها"^(١).

مسألة عثمان في مواجهة زعماء الفتنة وسببها:

ولا ريب أن حديث عثمان رضي الله عنه عن حتمية حدوث الفتنة يثير الدهشة التي لا يذهبها إلا رد الأمور إلى علم خاص علمه عثمان من النبي ﷺ بالشهادة في سبيل الله على بلوى تصيبه^(٢)، وقد كانت كل تصرفاته في أثناء هذه الفتنة وفي وقت حصره وقتله تؤكد إيثاره العافية، ويقينه بنهاية الأحداث على ذلك النحو.. وليس رد بعض السلوك إلى عوامل غيبية محاولة للهروب من تعليلها بما يقتضيه البحث العلمي الرصين، بل إن ذلك البحث العلمي يقر بالدوافع النفسية للسلوك الإنساني ولا يقلل منها.

(١) السابق ٣٤٢/٤-٣٤٣.

(٢) البخاري: الصحيح، كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، وكتاب المناقب، باب مناقب عثمان، مسلم: الصحيح كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل عثمان.

وقد كان معاوية بن أبي سفيان أمير الشام أحد الحاضرين في ذلك الاجتماع، وكان بلا ريب يشعر بحسّه السياسي الواعي بالخطر الجاثم من حول الخليفة، الذي لم يكن أقل إدراكًا له، كما مر بنا، ولكنه كان يؤثر العافية والكف.. فدعا معاوية ابن عمه الخليفة الشيخ إلى المضي معه إلى الشام فأهلها أهل طاعة ونجدة فقال عثمان رضي الله عنه: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء، وإن كان فيه قطع خيط عنقي، قال معاوية: فأبعث إليك جنّدًا منهم يقيمون بين ظهراني أهل المدينة لئلا نأبى المدينة أو إياك، قال: أنا لا أقتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند يساكنهم؟ وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة؟ فقال معاوية: والله يا أمير المؤمنين لتُغتالن أو لتُعزّين، فقال عثمان رضي الله عنه: حسبني الله ونعم الوكيل، فمضى معاوية إلى الشام بعد أن أوصى بخليفته جماعة من كبار الصحابة بالمدينة^(١).

نجاح الفتنة في بعض الأمصار:

وقد استطاع بعض الناقمين على الخليفة من السبئية وغيرهم منع سعيد بن العاص أمير الكوفة من العودة إليها، وأظهروا أنهم يريدون واليًا بدله، واختاروا أبا موسى الأشعري فلما علم الخليفة ذلك أجاب طلبهم وأرسل إليهم يقول: "أما بعد، فقد أمرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشنكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدني، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه - لا يعصى الله فيه - إلا سألتهم، ولا شيئاً كرهتموه - لا يعصى الله فيه - إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببتهم، حتى لا يكون لكم عليّ حجة" .. وكتب بمثل ذلك إلى الأمصار^(٢) ..

الثائرون بمصر يخلعون واليهم:

(١) الطبري السابق ٣٤٤/٤-٣٤٥.

(٢) السابق ٣٣٦/٤

وانتهز الثائرون بمصر فرصة غياب واليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح في المدينة^(١)، فانتزى محمد بن أبي حذيفة ربيب عثمان العاق على عقبة بن عامر خليفة ابن سعد بمصر، فأخرجه من الفسطاط، "ودعا إلى خلع عثمان، وحررض عليه بكل شيء يقدر عليه"^(٢)، فلما أقبل عبد الله بن سعد عائداً إلى ولايته منعتة خيل محمد بن أبي حذيفة عند القلزم من الدخول، ويبدو أنه قد جاء من عند عثمان ببعض ما يفتأ فتننهم، أو يفرق المخدوعين بدعايتهم عنهم، فقال ابن سعد: ويلكم، دعوني أدخل على جندي فأعلمهم بما جئت به، فإني قد جئتكم بخير، فأبوا أن يدعوه فقال: "والله لوددت أني دخلت عليهم فأعلمتهم بما جئت به ثم مت"، وانصرف إلى عسقلان بأرض فلسطين، وكره أن يرجع إلى عثمان، وظل بها حتى قتل الخليفة، ثم لحقته هو الوفاة^(٣).

ولما ترامت أنباء استيلاء ابن أبي حذيفة على مصر إلى الخليفة أرسل سعد ابن أبي وقاص إلى أهل مصر يعطيهم ما سألوا، ولعله كان إلى هذا الوقت يظن إمكان استصلاح ربيبه ابن أبي حذيفة، فبلغ محمداً خبر بعثة سعد إليه فقال: "إن الكذاب - يعني أمير المؤمنين - قد بعث إليكم سعد بن مالك (بن أبي وقاص) ليفلّ جماعتكم، ويشتت كلمتكم، ويوقع التخاذل فيكم، فانفروا إليه"، فخرج إليه بمائة أو نحوهم فلقوه وقد ضرب فسطاطه، وهو قائل، فقلبوا عليه فسطاطه، وشجّوه، وسبّوه، فركب راحلته ودعا عليهم، وعاد من حيث جاء^(٤).

(١) لا تفصح الروايات بشكل صريح عن سبب تواجد ابن سعد بالمدينة وتاريخه، وهل كان ذلك في مجلس الشورى الذي عقده عثمان وسبق ذكره - كما نرجحه - أم لمشاورة أخرى.

(٢) الكندي: ولاة مصر ٣٨.

(٣) الكندي: السابق ٤٠.

(٤) السابق والصفحة.

ثانيًا: حصار عثمان ؓ واستشهاده:

وفي شوال سنة ٣٥ هـ جهز ابن أبي حذيفة من مصر جيشًا لغزو الخليفة في مدينة النبي ﷺ، وكانوا نحو ستمائة رجل يقودهم الغافقي بن حرب العكبي ومعه عبد الرحمن بن عديس البلوي وكنانة بن بشر التجيبي وسودان بن حمران، وقد خرجوا كهيئة الحجاج ومعهم عبد الله بن سبأ، وخرج أهل الكوفة يقودهم الأشتر النخعي، وأهل البصرة يقودهم حرقوص بن زهير السعدي، وهم في مثل عدد أهل مصر، وقد اتفقوا على عزل عثمان، واختلفوا بعد ذلك فيمن يكون الخليفة الجديد، فأهل مصر يهونون عليًا، وأهل البصرة يريدون طلحة وأهل الكوفة يبغون الزبير، ونزلوا على ثلاث مراحل من المدينة عند الأعوص وذو خشب وذو المروة، وأرسلوا ليرتادوا الطريق، ويقابلوا كبار الصحابة، فزعموا أنهم ما أتوا إلا حجاجًا يستغفون من عمالهم، واستأذنهم في الدخول إلى المدينة، وكان هؤلاء الصحابة قد عسكروا عند موضع يعرف بأحجار الزيت ليمنعوهم من دخولها، وأرسل كبارهم أولادهم ليكونوا قريبين من الخليفة، ولم يأذن لهم علي ولا طلحة ولا الزبير في دخول المدينة، وقالوا: "لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذو خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ، فخرج الوفد إلى عساكرهم، وأظهروا الانصراف عن المدينة حتى اطمأن أهل المدينة وصرفوا حشودهم، فكر السبئية راجعين، وبغتهم بالتكبير في طرقات المدينة، وأحاطوا بعثمان فحصره^(١).

وقدم عليهم علي كرم الله وجهه فسألهم: "ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟" فقال أهل مصر إنهم لقوا في طريقهم غلامًا لعثمان ومعه كتاب يقتلهم، وصدّقهم البصريون والكوفيون، وقالوا: إنما جننا لنمنع إخواننا وننصرهم، فقال لهم علي: "كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سرتهم

(١) الطبري: السابق ٣٤٨/٤-٣٥١.

مراحل ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة"، يعني أنهم اتفقوا عليه قبل تظاهرهم بالمسير عنها، فقالوا: ضعوه حيث شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا^(١).

وتتص رواية أخرى أن هؤلاء الثائرين إنما لقوا عثمان نفسه خارج المدينة، أول مرة قدموا فيها إليها، فحاوروه وناقشوه في أمور أنكروها عليه ففسرها لهم، ثم إنهم قالوا: نريد ألا يأخذ أهل المدينة عطاء، فإنما هذا المال لمن قاتل عليه وهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ، فرضي بذلك، وأعطوا عثمان الموائيق ألا يشقوا عصا، ولا يفارقوا جماعة، وقدم معه قادتهم إلى داخل المدينة فخطب عثمان الناس وقال: ألا من كان له زرع فليلحق بزرعه، ومن كان له ضرع فليحتلب، إنما هذا المال لمن قاتل عليه وهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ، فغضب الناس وقالوا: "هذا مكر بني أمية".

ولكننا لا نرى بعد ذلك أثراً لهذا القرار الخطير - إن صحت الرواية - في مسيرة الأحداث التالية..

ثم رجع الثائرون من المصريين، وبينما هم في طريقهم إذا براكب يتعرض لهم ثم يفارقهم، ثم يرجع إليهم ثم يفارقهم، وكأنه يقول لهم: أنا مريب فخذوني، فقالوا: إن لك لأمرًا، فقال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان، عليه خاتمه، إلى عامله بمصر؛ أن يصلبهم أو يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فكرُّوا إلى المدينة، حتى دخلوا إلى عثمان فقالوا: كتبت بكذا وكذا؟ قال: ما كتبت ولا أملت ولا علمت، وقد تعلمون أن الكتاب يُكتب على لسان الرجل، وقد يُنقش الخاتم على الخاتم، فقالوا: قد والله أحل

(١) السابق ٣٥١/٤.

الله دمك، ونقضت العهد والميثاق فحصره^(١)، وفي رواية ثالثة ينص الكتاب المزعوم على قتل بعضهم وعقوبة بعضهم الآخر في أنفسهم وأموالهم^(٢).

ولا ريب أن السبئية - كما رأينا فيما مضى - قد برعوا في اختلاق الكتب وتزييفها، ونسبتها إلى كبار الصحابة، ولكن المثير هنا هو اختلاف مضمون الكتاب - الذي ينسب إلى عثمان - في رواية عن أخرى، ويثور التساؤل: لمن كتب عثمان هذا الكتاب؟ إن بعض الدارسين يطعن في أمر الكتاب بدعوى أنه لا يمكن إغفال أن الأمير على مصر آنذاك كان هو محمد بن أبي حذيفة زعيم الثائرين أنفسهم الذي تغلب عليها، وهو الذي حرضهم ونظم سيرهم لحصار عثمان، ولا يمكن أن نفترض بقاء ابن أبي سرح والياً آنذاك على مصر، إذ لو كان كذلك لما سمح بمسير ستمائة من جندها إلى حصار الخليفة والتأمر عليه، ولو كان هو واليها لحاربهم، ولحملت إلينا الروايات أخبار ذلك الاقتتال، وبخاصة أن بمصر كثيراً من أنصار عثمان من ذوي الشوكة والعصبية الذين تحدوا السبئية بها بعد مقتل عثمان، ورفضوا البيعة لعلي عليه السلام كما سوف نرى.. وأنه من الصعب كذلك افتراض أن عثمان أرسل الكتاب إلى أوليائه وأنصاره بمصر يأمرهم بقتل الثائرين، فهم ليسوا ولاة الأمور ليوكل إليهم إقامة الحدود، فضلاً عن أنهم لا يقدرّون على ذلك لو أرادوا.. فلم يبق إلا أن نفترض أن المزورين الذين زوروا الكتاب على أمير المؤمنين لم يتقنوا التخفي والكذب، لظنهم أن لا أحد في أجواء الدعاية المغرضة التي أشاعوها ضد عثمان سوف يتوقف أمام دعواهم تلك بالبحث والتتقيب، وهو ما فعله علي عليه السلام لما سأل أهل البصرة وأهل الكوفة: ما قدم بكم، وكيف علمتم بأمر الكتاب وقد افترقتم وسرتم مراحل؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة.. غير أن التناقض قد يزول أو يختفي إذا افترضنا أن الكتاب وُجه إلى نائب ابن

(١) السابق ٣٥٤/٤-٣٥٦.

(٢) السابق ٣٦٧/٤.

سعد على مصر، الذي تركه عليها في أثناء تواجده بالمدينة، أو إلى ابن سعد نفسه الذي لم يكن القائمون في المدينة يعلمون خبر نجاح الثوار في عزله، وبخاصة إذا تصورنا أن هؤلاء الثوار بادروا إلى الذهاب إلى المدينة فور نجاحهم في خلعه وتولي زعيمهم ابن أبي حذيفة مكانه.. ولو كان من بالمدينة يعلمون بما حدث بمصر لواجهوا التأثيرين بذلك وهو يفندون أمر الكتاب..

هل طلب عثمان النجدات من الأمصار في حصاره:

أحكم الثوار سيطرتهم على المدينة، ومنعوا أهلها من الاجتماع^(١)، وكانت مدة نزولهم بها سبعين ليلة، أما مدة حصارهم عثمان فكانت أربعين، وقد ظل يصلي بهم نحو عشرين يومًا من مدة الحصر، ثم إنهم منعوه ذلك، بل "منعوه كل شيء حتى الماء" لما سمعوا أخبار تحرك جيوش الأمصار لنجده^(٢)، وكانوا يريدونه أن يخلع نفسه من الخلافة، فأبى عليهم ذلك، فليسوا من أهل الحل والعقد الذين يملكون الخلع والتأثير، بل هم جماعات من رجال القبائل ومن أوى إليهم من الموالي والعبيد، ونزاع الآفاق، ومثيري الفتن، وقد أيد عبد الله بن عمر رأي الخليفة أن لا يخلع نفسه، "فيكون ذلك سنة كلما كره قوم خليفتهم خلعه"؛ حتى لا يقوم لله دين، ولا للمسلمين نظام^(٣)، وكان ذلك تصديقًا لحديث النبي ﷺ: "يا عثمان إن ولاء الله هذا الأمر يومًا فأرداك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه"^(٤)، فلما أبى أن يخلع نفسه قتله.

(١) سيف بن عمر: الفتنة ووقعة الجمل ٥٧-٦١، الطبري: السابق ٤/٣٤٨-٣٥١

(٢) سيف بن عمر: السابق ٦٥-٦٧، الطبري: السابق ٤/٣٥١-٣٥٤، ٣٨٤-٣٨٥

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٥/٧٦، ابن العربي: العواصم من القواصم ١٣٧

(٤) رواه ابن ماجة في سننه ١/٤١، الطبراني: مسند الشاميين ٢/٢٢٦، أبو يعلى: المسند

١٢/٤٧٤، الحميدي: المسند ١/١٣٠

تكاد تجتمع كلمة المؤرخين على أن عثمان أرسل في أثناء حصاره يستمد معاوية وغيره من أمراء الأمصار، ويستجد بهم، ولكن تختلف رواياتهم حول تفصيلات ذلك، فهي تختلف حول نصوص الرسالة التي أرسلها عثمان إلى الأمصار، وهل هي رسالة واحدة أرسل نسًا منها إلى البصرة والكوفة ومصر؟ أم هي رسائل شتى؟ وهل كتب إليهم مرة واحدة أم أكثر من مرة؟

فقد روى سيف بن عمر وغيره أنه كتب إلى الأمصار فذكر حال الأمة على عهد نبيها ﷺ وخليفته أبي بكر وعمر، وأوضح كيف آلت الأمور إليه حين استخلف بالشورى الكاملة من الأمة وقياداتها، "على غير طلب مني ولا محبة"، فعمل في رعيته بمقتضى الإسلام حتى استقوى أهل الضغائن والأهواء، "قطبوا أمراء، وأعلنوا غيره، بغير حجة ولا عذر"، ثم ذكر صبره عليهم "حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله ﷺ وحرمه، وأرض الهجرة، وثابت إليهم الأعراب.. فمن قدر على اللحاق بنا فليلق"، فأتى الكتاب أهل الأمصار، فخرجوا على الصعوبة والذل، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وبعث عبد الله بن سعد معاوية بن حديج السكوني، وخرج من الكوفة القعقاع بن عمرو^(١).

ويصيب الوهن هذه الرواية حين تزعم أن عبد الله بن سعد والي مصر آنذاك أرسل نجدة إلى الخليفة بقيادة معاوية بن حديج، فإن المؤرخ المصري الكندي يذكر أن والي مصر آنذاك كان محمد بن أبي حذيفة، وقد تغلب على البلاد في غيبة أميرها عبد الله بن سعد^(٢)، فمستبعد أن يتمكن معاوية بن حديج من الخروج من مصر على رأس جيش لنجدة عثمان، وحسب رواية الكندي فإنه اعتزل في جماعة

(١) سيف بن عمر: السابق ٦١-٦٢، ابن الأثير: الكامل ٥٢/٣، الذهبي: تاريخ الإسلام ١٧٢/٢، المالقي: التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان ١١٢/١-١١٣، ابن الجوزي: المنتظم

٥٠/٥

(٢) ولاية مصر ٣٨-٤٠

من شيعة عثمان بمصر، واستطاعوا أن يهزموا جيوش واليها ابن أبي حذيفة عدة مرات^(١)؛ ويبدو أن ذلك هو الأرجح، إذ إن الكندي مؤرخ مصري، وهو أعلم بأخبار بلده ورواته أوثق من سيف العراقي، ولو كان ابن سعد هو الوالي كما يزعم سيف لكان من العسير على جماعة الثوار أن يخرجوا من مصر لغزو الخليفة دون علم منه ومقاومة، أو دون أن يحذر الخليفة إن كان غلب على أمره، ولم يقدر على منعهم..

وثمة رواية أخرى أن عثمان عاد إلى مكاتبة أمرائه مرة أخرى، فوصف لهم تردّي الأحوال بالمدينة تحت سيطرة الثوار، وأنهم منعه الصلاة بالمسجد، وطالبوه بالاعتزال، ثم قال: "فأدركوا الفتنة قبل تدفقها"، فقام معاوية في أهل الشام يطالبهم بنصرة الخليفة، وفعل مثل ذلك واليا البصرة والكوفة، فتجهزت الجيوش لنجدة الخليفة بالمدينة^(٢).

وروى الواقدي من أن عثمان أمر عبد الله بن عباس على الحج حين منعه الحصار منه، وكتب معه كتابًا إلى أهل الموسم يسألهم النصرة^(٣)، وأكد صاحب الإمامة والسياسة إرسال عثمان رسالة استمداد إلى من بمكة من أهل الموسم، وأضاف أنه كتب إلى أهل الشام عامة وإلى معاوية وأهل دمشق خاصة يستجد بهم^(٤)، بينما يروي ابن عساكر نص خطاب مفصل أرسله عثمان إلى أهل الشام يذكر فيه تطور الأحداث، وما دار من جدال بينه وبين الثائرين، وينتهي إلى طلب تدخل أهل الشام لينصروا الحق، ويردوا البغي^(٥).

(١) السابق ٤٢

(٢) المالقي: السابق ١١٧/١

(٣) الطبري: السابق ٣٨٧/٤

(٤) الإمامة والسياسة ٣٨١-٣٩

(٥) تاريخ دمشق ٣٧٦-٣٧٣/٣٩

ومن الطبيعي والمتوقع أن تتواصل الرسائل بين عثمان وولاته تطلعهم على ما يجدر من الأمور، وبخاصة إبان هذه المحنة^(١)، ولكن من المستبعد أن تتكرر رسائل الخليفة إلى ولاته بطلب النصر وإرسال النجدة إليه، إذ من غير المتصور أن يبادر إلى طلب إرسال الجيوش إليه بمجرد نزول الثوار بالمدينة، وبخاصة أن عثمان كان يؤثر العافية، وقد رفض من قبل اقتراح معاوية بإرسال جند من الشام لحمايته، وأبى التضييق على أهل المدينة بجند يساكنهم، ولم يكن أحد يتوقع أن تمضي الأمور على النحو الذي مضت إليه، وكانت محاولات إقناع الثائرين بخطئهم قائمة، ويرجى نجاحها، فالأرجح أنه أرسل يطلب النجدة لما استبان له الخطر، وشدت الثائرون عليه الحصار، ومنعوا عنه الماء والطعام، ولم تطل مدة تضييق الحصار إلى الحد الذي يسمح بتكرار المراسلة من الخليفة، أو التباطؤ في النجدة من الأمراء.. ولكن بعض الرواة توهم تكرار الرسائل بتعدد صيغها الواردة.

ويلاحظ من هذه الرسائل أن عثمان لم يدع أمراء الأنصار وأجنادهم لمجرد إنقاذه وحمايته، بل لإقامة العدل، ومنع التعدي، وهو يرى أن مقتضى العدل قمع هؤلاء الخارجين على الخلافة، وبخاصة بعدما جادلهم، وأقام الحجة عليهم، أو أعلن توبته مما ظنوه معصية منه ومخالفة، فما بقي عندهم مبرر للعدوان.

إن هذه النجدة تحركت بالفعل من الأمصار، متجهة إلى المدينة، لكن أخبار تحركها أثارت هلع المحاصرين، فقد أدركوا أنهم لا قبل لهم بها مع ما ستجده من عون أنصار الخليفة من أهل المدينة، فأشار زعمائهم بتصعيد المواجهة مع الخليفة المحاصر، والتعجيل بالهجوم عليه وقتله، إذ إن ذلك سوف يخلق واقعًا جديدًا ينتج عنه غياب الخلافة الشرعية التي تتحرك هذه الجيوش بأمرها، والبحث عن خليفة جديد تختلف حول اختياره المشارب والأهواء، مما سوف يدخل قادة الرأي في الأمة مرحلة من الاختلاف يتفرق معه دم الخليفة المقتول، وقد ينجو قتلته، فاحتمالات

(١) المالقي: السابق ١٠٧/١-١٠٩

نجاتهم إن قتلوا الخليفة أعظم من احتمالات نجاتهم إن هاجمتهم جيوش الأمصار الزاحفة نحوهم. وقد روى سيف بن عمر وغيره أنه قد وصلت أخبار تحرك الحجيج إلى المدينة لنجدة الخليفة، " فلما أتاهم ذلك مع ما بلغهم من نفور أهل الأمصار أعلقهم الشيطان، وقالوا: لا يخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل، فيشتغل بذلك الناس عنا، ولم يبق خصلة يرجون بها النجاة إلا قتله"^(١).

كيف يستمد عثمان معاوية في حين يرفض الدفاع عن نفسه؟:

إن ثمة تعارضًا ظاهريًا بين طلب عثمان النجدة من الأمصار وامتناعه عن الدفاع عن نفسه، ومنعه أنصاره من ذلك^(٢)، وبسبب ذلك التعارض نفى بعض المؤرخين أن يكون عثمان قد استنجد بأمرء الأمصار، من ذلك ما يرويهِ ابن الأثير من أن الثوار طالبوا الخليفة أن يخلع نفسه من الخلافة وقالوا له: "ولسنا

(١) سيف بن عمر: السابق ٢٦٨، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧١/٣، الطبري: السابق

٣٨٧/٤، ابن الجوزي: المنتظم ٥٤/٥

(٢) بينما تتكاثف الروايات الدالة على استنجد عثمان بالأمصار - كما مر بنا - تروي روايات أخرى أن عثمان رفض رفضًا حاسمًا الدفاع عن نفسه، وأمر أصحابه ومواليه بألا يرفع أحدهم سيفًا ولا يريق دمًا من أجله.. من ذلك أن زيد بن ثابت الأنصاري جاءه وهو محصور فقال: هذه الأنصار بالباب يقولون: "إن شئت كنا أنصارًا لله مرتين"، فقال عثمان: أما القتال فلا، وجاءه أبو هريرة يوم الدار - اليوم الذي قتل فيه - ليدافع عنه فقال: يا أبا هريرة أيسرك أن تقتل الناس جميعًا وإياي؟ قال: لا، قال: فإنك والله إن قتلت رجلاً واحدًا فكأنما قتلت الناس جميعًا، فرجع ولم يقاتل، وذكروا أنه كان معه يومئذ في الدار سبعمائة مقاتل؛ لو يدعهم لضربوهم حتى يخرجوهم من أقطارها، منهم ابن عمر والحسن بن علي وابن الزبير، ورغم ذلك فقد حدث قتال بين بعض أصحابه ومواليه وخصومهم، ولكنه كان على غير إرادته، وذلك بعد اقتحام الثوار داره (ابن سعد: السابق ٧٠-٧١، خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ١٧٣/١-١٧٤، سيف بن عمر: السابق ٦٨، ابن عساکر: السابق ٣٩-٣٨٢/٣٩-٣٩٠، الذهبي: تاريخ الإسلام ١٧٣/٢، ١٧٨-١٧٩، ابن العماد: شذرات الذهب ٤٠/١، ابن الأثير: الكامل ٦٤-٦٥/٣، المالقي: التمهيد والبيان ١١٨/١، ابن ظاهر المقدسي: البدء والتاريخ ٢٠٦/٥)

منصرفين عنك حتى نخلعك أو نقتلك، أو تلحق أرواحنا بالله تعالى، وإن منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك، فقال: أما أن أتبرأ من خلافة الله فالقتل أحب إليّ من ذلك، وأما قولكم: تقاتلون من منعني فأني لا أمر أحدًا بقتالكم، فمن قاتلكم فبغير أمري قاتل، وإن أردت قتالكم لكتبت إلى الأجناد فقدموا عليّ، أو لحقت ببعض أطرافي"^(١).

ويمكن الجمع بين هذه الروايات التي تؤكد أنه طلب النجدة من الأمصار وتلك التي تنفي دفاعه عن نفسه؛ وتثبت أنه طلب من أتباعه ألا يقاتلوا دونه، إذا تصورنا أن عثمان قرر الدفاع عن نفسه فنظم المدافعين عنه في داره، وطلب النجدة من الأمصار مؤملاً أن يردع ذلك الثائرين، وربما يدفعهم إلى الفرار خوفاً من إراقة الدماء المسلمة - وبخاصة أن بعضهم كان يرفع رايات الورع والديانة - أو الاستسلام لجيوش الخلافة، إذا تيقنوا أن مطلبهم الرئيس باعترال الخليفة لن يتحقق.. لكن العكس من ذلك تماماً هو الذي حدث، فقد جرأ ذلك الثائرين عليه، ودفعهم إلى اقتحام داره وقتله، ولما أيقن الخليفة مواصلة الثائرين الاعتداء عليه، وأنهم يستبقون وصول النجدة إليه، وأنه سيقتل لا محالة، وأن قوات المدافعين عنه بالمدينة لن تستطيع مقاومة أعداد الثائرين وأحقادهم؛ أثر أن يلقي مصيره راضياً، وألا يريق دماء المسلمين بسببه دون طائل.

ومما يرجح ذلك ما رواه ابن عساكر من أن عثمان استمد أهل الشام، فأرسل إليه معاوية جيشاً من أربعة آلاف، فلما تحرك الجيش وعلم الثائرون بخبره سارعوا إلى مهاجمة دار الخليفة لقتله، وأحرقوا بابه، وكان معه قريب من مائتي رجل قد هياهم للقتال، وأمر عليهم عبد الله بن الزبير، فلما رأى الحال قد آلت إلى ما آلت إليه، واستيأس من النجاة، خرج إليهم فقال: "جزاكم الله خيراً، قد وفيتم بالبيعة، وقد

(١) الكامل ٨٥/٣

بدا لي أن لا أقاتل، ولا يُراق في محجمة دم، وفتح لهم سدّة في داره، فخرجوا منها"^(١).

فما يؤكد أن عثمان كان ينوي في البداية الدفاع عن نفسه، أو التظاهر بذلك - ليقبل من اجترأ الثائرين عليه، ويعطلهم حتى تقدم نجدات الأمصار - تنظيمه المدافعين عنه بالدار، وتأمير عبد الله بن الزبير عليهم، كما أنه واعد الزبير ابن العوام أن يأتيه مع بني عمرو بن عوف من الأنصار للدفاع عنه، لكن هجوم الثوار استيق ذلك الموعد بينهم واستبقوا قدوم النجدات إلى المدينة لما وصلتهم أخبار تحركها.. فاختار عثمان التضحية بنفسه بدل القتال العقيم^(٢).

ولعل ما ثبتت عثمان على أمر التضحية بنفسه بدل أن يكون أول من سنّ إراقة دماء المسلمين فيما بينهم، ما روي من طرق عديدة من أن رسول الله ﷺ كان قد بشره بالشهادة في سبيل الله على بلوى تصيبه^(٣)، وقد رأى عثمان ليلة قتل رؤيا فيها رسول الله ﷺ وصاحباؤه أبو بكر وعمر، والنبي ﷺ يقول له: "إنك مقتول غدًا"^(٤)، أو أنه قال له: "إنك تفطر عندنا الليلة"^(٥).

تشديد الحصار على عثمان رضي الله عنه:

فرض الثائرون على المدينة حكماً ثقيلاً من الإرهاب والخوف، في حين ظل عثمان يصلي بالناس، ويخطب الثائرين عليه ويعظهم، فلا يستمعون إليه، ويعنفون

^(١) تاريخ دمشق ٤٠٢/٣٩

^(٢) ابن عساكر: السابق ٣٧٣/٣٩

^(٣) البخاري: الصحيح ١٣٤٣/٣ حديث ٣٤٧١، والأحاديث أرقام ٣٤٩٠ - ٣٤٩٢ - ٥٨٦٢ - ٦٦٨٤ - ٦٨٣٤، مسلم: الصحيح ١٨٦٨/٤، أحمد: المسند ٤٠٦/٤، الترمذي: السنن ٦٣١/٥،

الطبراني: المعجم الأوسط ٢٠٥/٤، ابن الجوزي صفة الصفوة ٢٩٩/١

^(٤) أحمد: فضائل الصحابة ٤٨٥/١، ابن الجوزي: السابق ٢٩٨/١ - ٣٠٠

^(٥) أحمد: المسند ٧٢/١، فضائل الصحابة ٤٩٧/١ - ٥٠٠، ابن سعد: السابق ٧٤/٣

بمن يقوم لتصديقه، حتى حصبوا عثمان يوماً لما قام على المنبر يدعوهم، فسقط مغشياً عليه، فاحتمل فأدخل إلى داره، وشمر أناس من الصحابة ليدفعوا عنه، منهم أبو هريرة وسعد بن أبي وقاص وزيد بن ثابت والحسن بن علي وغيرهم، فعزم عليهم عثمان أن ينصرفوا، وأقبل علي وطلحة والزبير يعودونه ويشكون إليه بنهم، ثم رجعوا إلى منازلهم.. وظل عثمان رغم ذلك يصلي بالناس ثلاثين يوماً منذ بدء الحصار الذي استمر أربعين يوماً، ثم إنهم منعه الصلاة وصلى بهم الغافقي بن حرب أمير أهل الفتنة من مصر، وتفرق أهل المدينة إلى مزارعهم، "ولزموا بيوتهم، لا يخرج منهم أحد ولا يجلس إلا وعليه سيفه، يمتنع به من رهق القوم".. فلما وصلت إلى مسامع الثائرين أخبار تحرك جيوش الأمصار التي أرسل عثمان في استمداها شددوا الحصار عليه وحالوا بينه وبين الناس، ومنعوه كل شيء حتى الماء، ومضوا يلتمسون العلل التي يحتجون بها لقتله^(١).

وأشرف عثمان على جيرانه من آل حزم فسرح أحد أبناءهم إلى علي وطلحة والزبير وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم يُعلمهم أنهم منعه الماء، "فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئاً من الماء فافعلوا"، فكان أولهم إنجاذاً له علي وأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ، فمنعهما الثوار، ولم نقلح معهم مجادلة علي، ولا مكانة أم حبيبة التي ضربوا وجهه بغلتها ليرجعوها، فقالت: "إن وصايا بني أمية إلى هذا الرجل، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل"، فقالوا: كاذبة، وقطعوا حبل بغلتها بالسيف فسقطت عنها وتلقاها الناس، وقد كادت تقتل؛ فرجعت إلى بيتها^(٢).. وعند ذلك تجهزت عائشة خارجة إلى الحج؛ هاربة من جحيم السبئية وحماقتهم، واستتبت أخاها محمد بن أبي بكر وهو معهم فأبى عليها، فمضت إلى مكة، فلقياها مروان بن الحكم فقال: يا أم المؤمنين، لو أقمتم

(١) الطبري: السابق ٤/٣٥٢-٣٤٥، ٣٨٥.

(٢) السابق ٤/٣٨٥-٣٨٦.

كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل، فقالت: أتريد أن يُصنع بي كما صُنِعَ بأم حبيبة؛ ثم لا أجد من يمنعني؟ وسمع طلحة والزبير بما لقيت أم حبيبة فلزموا بيوتهم، وبقي عثمان محصورًا يسقيه جيرانه من آل حزم الماء في الغفلات، عليهم الرقباء، وأشرف عثمان على الناس فأراد أن يصرف عنه من يريد القتال؛ كي لا يكون هناك قتال بسبب، وأراد أن ينهض بحق الأمة وهو محصور، فقال: يا ابن عباس اذهب فأنت على الموسم، وولاه إمارة الحج، فقال: والله يا أمير المؤمنين لجهاد هؤلاء أحب إليّ من الحج، فأقسم عثمان لينطلقن، ففعل ورمى عثمان إلى الزبير بوصيته^(١).

استشهاد عثمان رضي الله عنه بعد رفضه الدفاع عنه:

وفضلاً عن تحرك جيوش الأمصار لنجدة الخليفة كانت أيام الحج تنقضي سريعاً وتوشك جماعات من هؤلاء الحجيج أن تزحف إلى المدينة لنجدة الخليفة، وبخاصة مع وجود عبد الله بن عباس وعائشة وغيرهما من المدافعين عن عثمان بينهم، فقدمت الأخبار إلى الثوار بأن أهل الموسم يريدون جميعاً المصريين وأشياعهم، وأنهم يريدون أن يجمعوا ذلك إلى حجهم، فقالوا: لا يُخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل، فيشتغل بذلك الناس عنا، فهاجموا الدار فتصدى لهم الحسن بن علي وعبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان معهم من أبناء الصحابة فنشب قتال فناداهم عثمان: الله الله أنتم في حلٍّ من نصرتي، فأبوا^(٢)، ولا تبرير لذلك إلا بأن عثمان كان واثقاً من استشهاده بشهادة النبي ﷺ له بذلك، ولذا أراد ألا تراق بسببه الدماء؛ وتقوم بسببه فتنة بين المسلمين.

(١) السابق ٣٨٦/٤-٣٨٧.

(٢) الطبري: السابق ٣٨٧/٤-٣٨٨.

وكان المغيرة بن الأخنس بن شريق فيمن حج ثم تعجل في نفر حجوا معه، فأدرك عثمان قبل أن يقتل، ودخل الدار يحمي عنه، وقال: ما عذرنا عند الله إن تركناك ونحن نستطيع ألا ندعهم حتى نموت؟ فأقدم الثائرون على حرق الباب والسقيفة؛ فثار أهل الدار - وعثمان يصلي - حتى منعوهم الدخول، وقاتل المغيرة بن الأخنس والحسن بن علي ومحمد بن طلحة وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم وأبو هريرة، فألبوا أحسن البلاء، وعثمان يرسل إليهم في الانصراف دون قتال، ثم يفتل إلى صلاته، فاستفتح قوله تعالى: (طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)^(١)، وكان سريع القراءة فما أزعجه ما سمع، ومضى في قراءته ما يخطئ وما يتعنع، حتى أتى إلى نهايتها قبل أن يصلوا إليه، ثم عاد فجلس وقرأ (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)^(٢)، وأصيب يومئذ مروان وقتل المغيرة بن الأخنس، واقتحم الثائرون الدار من الدور التي حولها، وانتدبوا رجالاً لقتل الخليفة، وكلهم يدخل عليه ثم يهاب قتله فينصرف، ورجع محمد بن أبي بكر فيمن تردد في قتله، فضربه الغافقي بن حرب وسودان بن حمران، فانكبت عليه امرأته نائلة تحميه؛ واتقت السيف بيدها فقطع أصابع يدها، وجزءاً من كفها، فولت، فغمز القاتل أوراكها وقال: إنها لكبيرة العجيزة، مما يدل على سوء طوية هؤلاء المدعين التقوى، ودخل غلمان عثمان فلما رأوا مقتله ضربوا سودان بن حمران فقتلوه، وانتهب الثائرون ما في البيت حتى تناولوا ما على النساء، وأخذ رجل ملاءة نائلة، وتنادوا: أدركوا بيت المال، لا تُسبقوا إليه، وأتوا بيت المال فانتهبوه^(٣).

(١) سورة طه آية ١، ٢.

(٢) سورة آل عمران آية ١٧٣.

(٣) الطبري: السابق ٤/٣٨٧-٣٩٣.

قُتل عثمان إذن وبقي أن يُدفن في جو مشحون بالإرهاب والخطر، فرجت امرأته نائلة عبد الرحمن بن عُديس أن يسمح لها بدفنه، فشتمها وزجرها، حتى إذا كانوا بجوف الليل خرج مروان وهو جريح حتى أتى دار عثمان، فأتاه زيد بن ثابت وطلحة بن عبيدالله وعلي وابنه الحسن وكعب بن مالك الأنصاري وعدد من الصحابة فأخرج جثمان الخليفة ف صلى عليه مروان، ثم خرجوا به حتى انتهوا إلى البقيع - مقابر المسلمين - فدفنوه مما يلي حش كوكب^(١).. أما غلاماه اللذان قتلا معه فلم يسمح السبئية بدفنهما بل جروا بهما إلى الطريق فأكلتهما الكلاب فيما يزعمون!!.. وكان مقتل عثمان لثمان عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة ٣٥هـ على رأي جمهور المؤرخين، وكان عمره يوم قتل نحو اثنتين وثمانين سنة بعد أن ظل خليفة اثنا عشر عامًا^(٢).

نظرة عامة على أسباب الفتنة وبواعثها:

إن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى الثورة على عثمان لم تنته بقتله، بل ظلت تأثيراتها وظلالها تتسحب على الحياة الإسلامية بشكل ظاهر في الفترة التي تلت ذلك، وشهدت استخلاف علي بن أبي طالب، ورفض معاوية البيعة له وصراعه ضده، حتى قتل علي ودانت بلاد الإسلام لمعاوية.. إذ إن أسباب الثورة لم تكن - كما ظهرت في شكلها البسيط - ترجع إلى غضب جماعة من الرعية من بعض تصرفات الخليفة أو عماله على الولايات.. بل تعود إلى تغيرات اجتماعية عميقة، ظلت تعمل في صمت وقوة، لا يلاحظها كثير من الناس، حتى ظهرت على ذلك الشكل العنيف المتفجر بدءًا من النصف الثاني من خلافة عثمان، وبلغت قمة فورانها في الثورة التي أدت إلى استشهاده.

(١) حش كوكب: موضع عند البقيع اشتراه عثمان وزاده في البقيع، فلما قتل دفن إلى جنبه، (ياقوت: معجم البلدان)

(٢) الطبري: السابق ٤/٤١٥-٤١٨.

فالدولة الإسلامية التي كانت على عهد الرسول الكريم ﷺ وقبل فتح مكة - مترابطة متجانسة، تلتقي فيها رغبات القيادة والأمة، ويلتف أفرادها حول عقيدة واحدة، يحاولون جاهدين التمثل الكامل لها، لم تعد كذلك، فهي لم تعد تشمل جماعة المهاجرين والأنصار فقط، بل دخل الناس في دين الله أفواجًا بعد فتح مكة، ودفعت الفتوحات في عهد أبي بكر وعمر وعثمان بالأعداد الغفيرة من البشر إلى الإسلام، وهم من أجناس شتى وأمم مختلفة، فالتقى هؤلاء وهؤلاء وتأثر بعضهم بأنماط معيشتهم وألوان حضارتهم.. لقد أصبحت دولة الإسلام دولة عالمية بما تحوي هذه الكلمة من تغيرات ومسئوليات.

والعامل العقدي الذي كان صاحب الكلمة الأولى والدور الأكبر في البناء النفسي للأمة لم يعد في مثل قوته وحيويته، إذ تقلص عدد رواده بمضي الزمن، وأصبحوا في الناس كأنهم شامة، وأين أعداد الفئة الممتازة من المهاجرين والأنصار الذي تحملوا التضحيات الأولى الجسيمة من أجل الإسلام، في أعداد القبائل الضخمة التي دخلت في الإسلام بعد ذلك، والتي سرعان ما ارتدت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وسرعان ما عادت أيضًا إلى الإسلام من جديد، ولم يطل بهم الوقت حتى كانوا هم أبطال الفتوحات الكبرى، وأهل الأمصار الجديدة، وأصحاب الفضل الأول في فيض الغنائم الهائل الذي سال على المسلمين والدولة، ومارس دوره في تغيير كثير من النفوس التي تراوحت بين التشبث بقيم الزهد والتمتع بالرزق الحلال.. فظهرت ضروب من الترف والتنعيم لم يكن للمسلمين والعرب فيما مضى علم بها.

ورغم خطورة الدور الذي بدأت تمارسه هذه القبائل في تلك الأمصار فإن "أولي الأمر" في الدولة الإسلامية آنذاك لم تكن استجابتهم لذلك التطور على ذات المستوى المطلوب، فلم تبذل جهود موازية لتربية أفراد هذه القبائل على قيم الإسلام

الأصيلة، وروح العقيدة المتوهجة، ومعاني النظام والجماعة، وضرورة الطاعة،
وأساليب الحكم في الدولة لا القبيلة.

ولم تبذل جهود موازية لإشراك هذه القوى الجديدة في إدارة الأمور، حيث ظل
أهل الحل والعقد والأمر والنهي - كما كانوا من قبل - من تلك الجماعة الممتازة
من أصحاب النبي ﷺ الأولين، وظلت قريش تتمتع إلى جانب الإدارة السياسية
للدولة بالنصيب الأكبر من الغنائم وثمار الفتح، إذ إن نظام العطاء الذي وضعه
عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقضي بتفضيل السابقين إلى الإسلام
والأقربين إلى رسول الله ﷺ، وكلا الصنفين من قريش، وهذا النظام - وإن بدا
صالحًا وقته - كان يجب أن يتطور بعد ذلك حتى لا تثور نقمة تلك القبائل على
قريش وخلفائها، فعند بعض أفراد هذه القبائل "كانت عروق الجاهلية تنبض،
ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين والأنصار من قريش وسواهم، فأنفقت نفوسهم
منهم، ووافق أيام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمصار، والمؤاخذاة
لهم باللحظات والخطرات والاستبطاء عليهم في الطاعات، والتجني بسؤال
الاستبدال منهم والعزل، ويفيضون في النكير على عثمان^(١).

هذه العوامل كما هو واضح غير مرتبطة بشخص عثمان وحده ولكن حدثها
صادفت وجوده خليفة فقد كانت تلك الأسباب وراء تملل عمر بن الخطاب من
رعيته أواخر حياته وتململهم منه، وكانت وراء قتل عثمان، وكانت وراء بعض
سلوك علي لما استخلف، وفشل سياسته في العراق ووراء امتناع معاوية عن بيعته
والصراع بينهما.

(١) ابن خلدون: العبر ٥٦٠/٢-٥٦١.

دعوى تفضيل عثمان أقاربه:

يكثر في كتابات بعض المؤرخين اتهام عثمان بأنه فضل أقاربه فولاهم الولايات، وأغدق عليهم العطايا من أموال المسلمين مما كان سبباً في الثورة عليه.. ولهذه الدعوى أصل تستند عليه، وإن لم تستهدف الحقيقة، فلا سبيل إلى إنكار أن عثمان ولى بعض أقاربه من بني أمية بعض الولايات، ولكن لا يمكن إغفال المكانة العالية التي كان يتمتع بها بنو أمية قبل الإسلام وبعده في قريش وعند العرب.. بما يتجاوز كثيراً مكانة بني تيم رهط أبي بكر أو بني عدي رهط عمر.. وقد ولاهم النبي ﷺ بعض الولايات في دولته المحدودة الاتساع آنذاك، وزادهم أبو بكر ثم عمر.. وقد كان في قرابة عثمان من هو ألصق به رحماً ممن ولاهم لو أنه كان يستهدف القرابة وحدها، ولكنه كان في الحقيقة يولي بعض الأفراد ذوي الكفاءة العالية والتميزة منهم، في الأماكن المتفجرة التي يصعب حكمها، وقد رأينا جهود معاوية والوليد بن عقبة وعبد الله بن سعد في ولاياتهم سواء في الفتح أو الإدارة، كما أنه لم يولّ ربيبه وقريبه محمد بن أبي حذيفة لأنه كان لا يراه أهلاً للولاية، وتحمل في سبيل ذلك نغمته وتأميره ضده^(١)، ويوماً وقف أبو سفيان بباب عثمان - وقد اشتغل ببعض مصالح المسلمين - فحجبه فقال له رجل - وأراد أن يغريه - : "يا أبا سفيان ما كنت أرى أن تقف بباب مضري فيحجبك"، فقال شيخ بني أمية: لا عدمت من قومي من أقف ببابه فيحجبنى^(٢)، ومما يسترعي الانتباه أيضاً أن عثمان ولى ثلاثة منهم البصرة والكوفة؛ أشد الأمصار تفجراً وشكوى منذ عصر عمر، ولو كان يستهدف إرضاءهم لولاهم ولايات أخرى أكثر أمناً وعافية وانقياداً، أو لأغدق عليهم الإقطاعات وهم آمنون مستورون في بلادهم..

(١) الطبري: السابق ١٣٥/٣، العقاد: ذو النورين عثمان ٢٢٨.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٨٣/١.

ومما يلاحظ أيضًا أن عليًا ولى أقاربه بكثرة، مما يوحي بوجود دوافع أخرى - فضلًا عن القرابة - حدثت بهما إلى ذلك، ولعل الأمر كان مرتبطًا بثقة كل منهم فيمن حوله في هذه الأجواء التي تنبض بالشك والخصومة والشكوى المستمرة؛ فلم يجد كلاهما أخلص له ولقضيته - في بعض الأوقات والمواطن - من بعض أهله. وقد كان عمر بن الخطاب يعرف بنظرته الملهمة هذه السجية في عثمان، كما عرفها في علي، وكان يخشى إن تولى أحدهما خلافة المسلمين أن يصل به بره بأهله إلى تفضيلهم على سواهم، وتقريبهم عن عداهم، وحملهم على رقاب الناس، وقد حذرهما ذلك بعدما طعن، وفي وصاته لهما^(١)، وغير أن عثمان بعد مضي فترة من خلافته، وعلي منذ بداية استخلافه قد ولى بعضًا من أقاربه، وإذا كان ذلك مشهورًا عن عثمان للدعاية السبئية والشيعية ضده فإن عليًا عليه السلام قد ولى في خلافته ابن عمه قثم بن العباس على مكة وعبيد الله بن العباس على اليمن^(٢)، وعبد الله بن عباس على البصرة، وولى ربيبه وابن زوجته محمد بن أبي بكر على مصر^(٣)، وولى صهره وابن أخته جعدة بن هبيرة على خراسان^(٤)، كما كان على عسكريه ابنه محمد بن الحنفية، وكان علي نفسه بالكوفة، وقد ناب عنه في الحج سنة ٣٦هـ عبد الله بن عباس، وسنة ٣٧هـ قثم بن عباس وسنة ٣٨هـ عبيد الله بن عباس^(٥)، وهؤلاء أكثر ممن استعملهم عثمان وهو يلي بلاد الإسلام كلها، وعلي عليه السلام لما رفض معاوية وأهل الشام بيعته لم يكن يحكم سوى العراق والمشرق والحجاز، ولم يدم له حكم مصر، ولا استقام له حكم الحجاز، وقد لحظ أحد الثائرين على عثمان

(١) الإمامة والسياسة ٢٥/١.

(٢) اليعقوبي ١٧٩/٢.

(٣) أمه: أسماء بنت عميس الخثعمية كانت زوجة لأبي بكر ثم تزوجها علي عليه السلام فيما بعد.

(٤) أمه أم هاني بنت أبي طالب.

(٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي / ٢١٣.

وكبار أعوان علي ذلك، وهو الأشر النخعي، فقال متعجبًا متضجرًا: "علام قتلنا الشيخ - يعني عثمان - إذ اليمن لعبيد الله والحجاز لقتم والبصرة لعبد الله والكوفة لعلي؟

أما ادعاء أن عثمان أغدق على أقاربه من بيت مال المسلمين، وأن ذلك كان من أسباب الثورة ضده فزعم لا ينهض به دليل ثابت، بل تتناقض بشأنه المرويات إلى الحد الذي يؤكد الشك فيها جميعًا، ويجعلنا نفترض أنها من أراجيف السبئية التي شنعوا بها على عثمان، ولا يعني ذلك أن عثمان لم يكن يعطي أقاربه ويصل رحمه، بل كان يصلهم من ماله الخاص، وقد دافع عن نفسه في ذلك فقال: "وقالوا: إني أحب أهل بيتي وأعطيتهم، فأما حبي فإنه لم يمل معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم فإني إنما أعطيتهم من مالي، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي، ولا لأحد من الناس، ولقد كنت أعطيت العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي زمان الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر ؓ وأنا يومئذ شحيح حريص - أفحين أتت علي أسنان أهل بيتي، وفني عمري، وودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا"^(١).

ومما يؤكد أن عثمان كان حريصًا على أموال المسلمين؛ وكان يفرق بين حقه وحق أهله منه وبين أموال الأمة وحقها أنه كان يقترض أحيانًا من بيت المال، ويكتب على نفسه "ذكر حق للمسلمين"^(٢).

(١) الطبري: السابق ٣٤٧/٤-٣٤٨، وانظر ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ٣/١٩٠-١٩١، الديار بكري: تاريخ الخميس ٢/٢٦٧-٢٦٨.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٥/٥٨، وقد روى البلاذري بعد ذلك ما شوه هذه الصورة الوضيئة للخليفة الراشد، وذلك بلا ريب من أكاذيب خصومه التي لم يتحقق منها الرواة.

تشويه مواقف الصحابة تجاه الثورة على عثمان:

وقد تعرضت سيرة عثمان وموقف الصحابة منه إلى تشويه كبير.. حيث زعمت بعض الروايات الشيعية أن كبار الصحابة كانوا من الممالئين عليه والمتآمرين ضده، وذكروا من هؤلاء عليًا وعائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص.. وفيما ذكرنا كفاية في بيان موقف الصحابة من هذه الفتنة وإنكارهم الثورة عليه وقتله، ولا يصح الاحتجاج في هذا المقام بروايات الشيعة المتحاملين ضد عثمان وبنو أمية جميعًا، والذين ينتهجون الكذب عليهم ليسقطوا من أقدارهم.. ولقد صحت الأخبار بخلاف ذلك، وأكدت حوادث التاريخ من بعد براءة كبار الصحابة من التحريض على عثمان أو المشاركة في الفتنة ضده.. فقد روى قيس بن عباد قال: سمعت عليًا يوم الجمل يقول: "اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، وقد طاش عقلي يوم قتل عثمان، وأنكرت نفسي، وجاءوني للبيعة فقلت: ألا أستحيي من الله أن أبايع قومًا قتلوا رجلاً قال له رسول الله: "ألا أستحيي من رجل تستحي منه الملائكة"^(١)، وقال سعيد الخزاعي: لقيت عليًا بعد الجمل فقلت له: إني سائلك عن مسألة كانت منك ومن عثمان، فإن نجوت اليوم نجوت غدًا إن شاء الله، قالت: سل عما بدا لك، قلت: أخبرني أي منزلة وسعتك إذ قتل عثمان ولم تتصره؟ قال: إن عثمان كان إمامًا، وإنه نهى عن القتال وقال: من سل سيفه فليس مني، فلو قاتلنا دونه عصيناه، قال: فأي منزلة وسعت عثمان إذ استسلم؟ قال: المنزلة التي وسعت ابن آدم إذ قال لأخيه: (لئن بسطت إلي يدي لئنقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين)^(٢).

أما موقف عائشة وطلحة والزبير فإنما شوّهه رواة الشيعة الكذابون ليبتلوا حُجّتهم في النهوض للمطالبة بئثار عثمان فيما بعد، والقصاص من قاتليه، ولو

(١) ابن العربي: السابق ص ١٤٠ الحاشية.

(٢) سورة المائدة آية ٢٨.

كانوا على ما يصفونهم ما استجاب لهم آلاف الخلق في سعيهم إلى قتل قتلة عثمان، وكان أهون ما يحتجون به عليهم أنهم هم قتلته، كما حاول رواة الشيعة بالفعل أن يسوقوا ذلك على السنة بعض الناس في حواراتهم مع عائشة وطلحة والزبير.. والأمر كذلك فيما يخص عمرو بن العاص، إذ لو كان مشاركاً في التحريض على قتل عثمان ما وسع معاوية أن يقبله في صفوفه، ويقدمه في حروبه في صفين وغيرها، ولأنكر عليه المسلمون في الشام أيما إنكار، وإنما استهدف الشيعة التشنيع على عمرو لمعاونته معاوية في حرب عليّ، وللتشنيع على معاوية الذي يرفع شعار القصاص من قتلة عثمان ثم يؤوي إليه عمرو بن العاص، وهو من المؤلّبين عليه بزعمهم.. وقد ذكر سيف بن عمر الرواية المحايدة التي تتصف عمراً، فقال: إنه خرج أثناء حصار عثمان إلى الشام وقال: والله يا أهل المدينة، ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله عز وجل بذل، من لم يستطع نصره فليهرب، فسار وسار معه ابنه عبد الله ومحمد، فلما علم بقتل عثمان قال: "أنا أبو عبد الله، تكون حرب من حكّ فيها قرحة نكأها، رحم الله عثمان ورضي الله عنه وغفر له"، ثم ارتحل راجلاً يبكي كما تبكي المرأة، ويقول: واعثماناه! أنعى الحياء والدين، حتى قدم دمشق..

وقد حرف الرواة مقولته تلك، فزعموا أنه تأمر على عثمان ثم مضى إلى الشام يتربص به، فلما علم بقتله قال: أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها^(١). وعلى ذلك فإنه يجب الحذر من مرويات هذه الفترة، وكان ذلك الحذر قديماً حتى عند مؤرخ كالطبري الذي أسس منهجه على رواية ما وصل إليه من أخبار، بغض النظر عن صحتها أو تحيز روايتها، فقد قال وهو يروي روايات الواقدي المشحونة بالافتراء: "... ومنها ما عرضت عن ذكره كراهة مني لبشاعته"^(٢).

(١) الطبري: السابق ٥٥٨/٤-٥٥٩، والطبري رواية الواقدي ٣٥٧/٤

(٢) الطبري: السابق ٣٥٦/٤.

الفصل الرابع

خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام ونهاية عصر الراشدين

أولاً: ترجمة علي عليه السلام:

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، ابن عم النبي صلى الله عليه وآله، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وكان علي أول هاشمي ولد من أبوين هاشميين، وكنيته أبو الحسن.

أسلم صبيًا منذ بداية الإسلام، فهو أول الناس إسلامًا مع خديجة وأبي بكر وزيد بن حارثة، ويات في فراش النبي صلى الله عليه وآله ليلة الهجرة؛ ليعمّي على قريش، وليؤدي أمانات قريش التي كانت عند النبي صلى الله عليه وآله إليها بعد هجرته، ثم تبعه مهاجرًا، وزوجه النبي صلى الله عليه وآله ابنته فاطمة، فرزق منها بالحسن والحسين سبطي النبي صلى الله عليه وآله، وشهد معه المشاهد كلها عدا تبوك التي خلفه فيها رسول الله صلى الله عليه وآله لرعاية أهله، وحمل لواءه صلى الله عليه وآله في أكثر من غزوة، وأبلى فيها كلها أحسن البلاء، وامتدحه النبي صلى الله عليه وآله في أحاديث كثيرة صحيحة، ووضع الشيعة في مناقبه أحاديث أخرى عديدة، ويكفي ما صح من حديث النبي صلى الله عليه وآله لبيان عظيم فضله، منها قوله صلى الله عليه وآله عنه في غزوة خيبر: "لأعطين الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله"، فتناول إليها كبار الصحابة فأعطاها عليًا رضي الله عنه^(١)، ولما خلفه النبي صلى الله عليه وآله في المدينة في غزوة تبوك تكلم جماعة من المنافقين فقالوا: ما تركه إلا لشيء كرهه منه، فأسرع علي حتى لحق النبي صلى الله عليه وآله في طريقه فأخبره بما يقولون،

(١) رواه أحمد.

فقال له: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي" فمضى عليّ إلى المدينة بهذا الفضل السابق^(١).

وظل علي قريبًا من الخلفاء الثلاثة الأولين يستشيرونه ويجلوناه، حتى قتل عثمان فبويح بالخلافة.

ثانيًا: استخلاف علي عليه السلام:

تختلف الروايات حول موقف كبار الصحابة من البيعة لعلي بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه، فذكر بعضهم أن عددًا منهم تخلف عن بيعته، مثل سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وزيد بن ثابت وغيرهم^(٢)، بينما أكدت روايات أخرى أنهم بايعوه جميعًا؛ ما تخلف منهم رجل واحد^(٣)، ولا حرج على أية حال في تخلف بعض الصحابة عن بيعته، إذ انعقدت البيعة وصحت برضا معظمهم، وقد قيل من قبل إن عليًا ونفرًا من الصحابة تخلفوا عن بيعة أبي بكر الصديق عليه السلام ولم يقدح ذلك في خلافته.. وتختلف الروايات أيضًا في كيفية بيعته، فيذكر بعضها أنه بعدما قتل عثمان قام علي فدخل بيته، ودخل عليه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل؛ ولا بد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحدًا أحق بهذا الأمر منك، فقال: لا تفعلوا؛ فإني أكون وزيرًا خيرًا من أن أكون أميرًا، فأبوا إلا أن يبايعوه، فقال: "ففي المسجد فإن بيعتي لا تكن خفيًا، ولا

(١) رواه البخاري: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب، مسلم: الصحيح، باب فضائل علي، والترمذي في سننه حديث رقم ٣٨١٣، وابن ماجه في مقدمة كتابه حديث رقم ١٢١.

(٢) الطبري: السابق ٩٢٩/٤-٩٣١.

(٣) ابن سعد: السابق ٥٧٨/٢، ابن الأثير: أسد الغابة ٦٠٩/٣، ٦١٠.

تكون إلا عن رضا المسلمين "قبايعوه هناك"^(١)، وروى عمر بن شبة أن هذه البيعة تمت في أحد حيطان (بساتين) المدينة"، وأن أول من بايعه كان طلحة بن عبيد الله، فاعتاف أحد الحاضرين لما رآه يبايعه بيده الشلاء، وهو تشاؤم في غير موضعه، إذ شلت يمين طلحة يوم أحد وهو يقاتل دون رسول الله ﷺ^(٢).. وذكر آخرون أن طلحة بايع مكرهاً لما هدده الأشر النخعي أن يضربه بسيفه إن لم يبايع^(٣)..

وروى سيف بن عمر أن المدينة ظلت بعد مقتل عثمان خمسة أيام وأميرها الغافقي بن حرب أمير الثائرين على عثمان، وهم يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه، وتهرب منهم علي وطلحة والزبير، فكانوا إذا لقوهم باعدوهم وتبرأوا منهم، فذهبوا إلى سعد بن أبي وقاص فقالوا: إنك من أهل الشورى؛ فرأينا فيك مجتمع، فاقدم نبايعك فأبى عليهم، وكذا فعل عبد الله بن عمر وقال: "إن لهذا الأمر انتقاماً؛ والله لا أتعرض له؛ فالتمسوا غيري"، فظلوا حيارى لا يدرون ما يصنعون، فجمعوا إليهم أهل المدينة فقالوا: أنتم أهل الشورى؛ وأنتم تعقدون الإمامة، وأمركم عابر على الأمة، فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع^(٤)، فقال الجمهور: علي بن أبي طالب، نحن به راضون، وقيل: إن السبئية أجلوا أهل المدينة يومين، وقالوا: والله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيراً، فغشي الناس علياً فقالوا: نبايعك، فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به، فقال علي: دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان، لا تقوم

(١) الطبري: السابق ٤/٢٧٤.

(٢) الطبري: السابق ٤/٢٨-٤٣١.

(٣) السابق ٤/٢٩٤.

(٤) فأين كان هذا الإجلال لأهل المدينة والسبئية يعدون على عثمان في المدينة فيقتلوه؟!.

له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، فما زالوا به حتى قبل، وأقبل أهل البصرة والكوفة بطلحة والزبير يتلونهما تلاً عنيفاً فبايعا^(١).

أول خطبة لعلي:

بويع لعلي يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة سنة ٣٥هـ فكان أول ما خطب أن قال: "إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر: فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة، إن الله حرم حرمًا غير مجهولة؛ وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق، ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة وخاصة أمر الموت.. اتقوا الله عباده في عباده وبلاده، إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه، (وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ)^(٢).

ثالثاً: المشكلات التي واجهها علي في خلافته:

١- موقف علي من قتلة عثمان وعذره:

كانت المعضلة الكبرى التي تواجه الخليفة الجديد هي القصاص من قتلة سلفه عثمان، فاجتمع إليه بعدما دخل بيته طلحة والزبير وعدد من الصحابة فقالوا: يا علي؛ إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل، فأحلوا بأنفسهم، فقال لهم: يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم أولاء قد ثارت معهم عبداًكم وثارت إليهم

(١) السابق ٤/٤٣٢-٤٣٦.

(٢) السابق ٤/٤٣٦ والآية من سورة الأنفال آية ٤١.

أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا، قال: فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله، إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادة.. إن الناس من هذا الأمر إن حُرِّك على أمور، فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا، حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها، وتتوخذ الحقوق، فاهدءوا وانظروا ماذا يأتكم ثم عودوا"^(١).

ومعنى ذلك أن علياً كان يرى ضرورة القصاص لعثمان، لكن هذه الخطوة كان يجب - فيما يرى - أن تسبقها خطوة أخرى هي تسكين الأمر ريثما يستقر الحكم الجديد، ويشتد عوده، ويقوى على إقامة الحدود دون أن يتسبب ذلك في فتنة أكبر وأشد هولاً.. بينما سرت في بعض النفوس مخاوف من مهادنة هؤلاء المفتونين خشية أن ينتشر الأمر، وتموت القضية باستمرار التهدة، وكان السبئية من جهتهم يثيرون الشائعات المضطربة عن مدى قوتهم وسيطرتهم على الخليفة الجديد وموافقته لهم، حتى قال بعضهم مهدداً:

خذها إليك واحذرن أبا الحسن إنا نُمرُّ الأمرُ إمْرارَ الرِّسَنِ^(٢)

وهربت جماعات من بني أمية خشية أن ينالهم الأذى من السبئية فذهبوا إلى مكة وغيرها، مما أزعج علياً فحال بين قريش وبين الخروج من المدينة، فبهم يتقوى على من خالفهم، وبهجرهم المدينة بتركونها لسيطرة الثائرين، واختلف الناس، فبعضهم يقول: "والله لئن زاد الأمر لا قدرنا على انتصارٍ من هؤلاء الأشرار، لترك هذا إلى ما قال علي أمثل"، وبعضهم يقول: "تقضي الذي علينا ولا نؤخره، والله إن علياً لمستغن برأيه وأمره عنا، ولا نراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره، فذكر

(١) السابق ٤/٤٣٧.

(٢) السابق ٤/٤٣٦.

ذلك لعلّي فقام وحمد الله وأثنى عليه وذكر فضلهم وحاجته إليهم، وأراد أن يتخذ إجراء يطمئنهم إلى جديته في التصدي للسبئية، وكان قد انتوى تقليد أظافرهم وتجفيف مادتهم من الأعراب والعبيد، فنادى: "برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه"، وقال: "أيها الناس أخرجوا عنكم الأعراب.. يا معشر الأعراب الحقوا بمياهم"، فأبّت السبئية وأطاعهم العبيد والأعراب، وأدرك كبار الصحابة صعوبة الموقف وقوة بأس السبئية في المدينة، فاقترح طلحة على علي أن يوليّه البصرة، واقترح الزبير أن يوليّه الكوفة، ليقدّموا عليه بالخيال والرجال، فيعيدوا الأمور إلى نصابها، ولكن علياً استمهلهم^(١)، ولعله كان يخشى من قيام منازعات أخرى في البصرة والكوفة من السبئية وقبائلهم بها، فلا يتم الإصلاح المنشود.

٢- عزل عمال عثمان:

وأمام الثقة المفقودة بين علي وعمال عثمان في بعض الأمصار بفعل الدعاية السبئية واختلاف سمته في الحكم عن سمت عثمان ﷺ وجد علي أنه من اللازم عزل عمال عثمان وتعيين آخرين يثق بهم ويتقون به، وقد خالفه بعض الصحابة في التسرع باتخاذ هذه الخطوة إذ ستضيف إلى رصيده مزيداً من الأعداء في وقت يحتاج فيه إلى كل نصير، فنصحته المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عباس بأن يقر عمال عثمان حتى تستبين الأمور، وتأتيه طاعتهم وطاعة أمصارهم، ثم ليعزل بعد ذلك أو يدع، بل زاد ابن عباس بأن رفض أن يتولى الشام بدل معاوية لخشيته أن يأخذه بقرابته من علي، واتهامه بممالة قتلة عثمان^(٢).

(١) السابق ٤/٤٣٨.

(٢) السابق ٤/٤٣٨، ٤٤٠.

وفي مطلع العام الجديد ٣٦ هـ أرسل علي عماله: عثمان بن حنيف على البصرة
وعُمارة بن شهاب على الكوفة وعبيد الله بن عباس على اليمن وقيس بن سعد على
مصر وسهل بن حنيف على الشام^(١).

وقد مضى عبيد الله بن عباس إلى اليمن فأثر واليها يعلى بن أمية أن لا يثير
فتنة بها، فتركها إلى مكة بعد أن جمع جبايتها فأفادت بعد ذلك في تجهيز جيش
طلحة والزبير وعائشة في موقعة الجمل كما سيأتي.. وكذا مضى عثمان بن
حنيف إلى البصرة فلم يرده عنها أحد، ومضى عنها واليها عبد الله بن عامر إلى
مكة، أما أهلها فدخل بعضهم في طاعة علي، وتربص آخرون ينتظرون ما ستسفر
عنه الأحداث.. وسار عمارة بن شهاب إلى الكوفة فلقيه في الطريق طليحة بن
خويلد من زعمائها - وقد خرج للطلب بدم عثمان - فقال له: "ارجع فإن القوم لا
يريدون بأمرهم بدلاً، وإن أبيت ضربت عنقك"، مما يدل على وجود تيار له وزنه
من الناقلين على السبئية بالكوفة.. أما سهل بن حنيف فقد سار إلى الشام فلقيته
خيل لمعاوية في الطريق - لا يعلمون بمقتل عثمان - فقالوا: إن كان عثمان بعثك
فحيهلا، وإن كان بعثك غيره فارجع، فرجع إلى علي.. وأما قيس بن سعد فقد
تحايل ونجح في دخول مصر، حسب رواية سيف ابن عمر^(٢)، أما الكندي فيرى
أن توليته مصر كان في ربيع الأول سنة ٣٧ هـ بعدما غزا معاوية مصر من الشام،
وأخذ زعيم الثائرين بها والمتغلب عليها محمد بن أبي حذيفة وجماعة من أصحابه
رهناً، ليضمن ألا يشاركوا في عون علي ضده فيقع بين جيشيهما، وظلت طائفة
من جند مصر وزعمائهم ممتنعين بها عن البيعة لعلي، يقودهم معاوية بن حديج،
وقد بايعوه على الطلب بدم عثمان^(٣).

(١) السابق ٤٤٢/٤.

(٢) السابق ٤٤٢/٤-٤٤٣.

(٣) الكندي: ولاة مصر ص ٤٢-٤٤.

وأراد علي أن يعالج أمر الانتكاسة التي تعرض لها عاملاه اللذان أرسلهما إلى الكوفة والشام؛ فكتب إلى أبي موسى الأشعري أمير الكوفة وإلى معاوية بالشام كتابين يتعلقان بأمر البيعة له - على ما يبدو - وقد بادر أبو موسى فأخذ البيعة له من أهل الكوفة، أما الشام فكانت تمثل تحديًا حقيقيًا أمامه لقوة واليها معاوية، وطول حكمه بها منذ خلافة عمر، ورضا أهلها به، وانقيادهم إليه، وتقربته لعثمان، ونظره لنفسه على أنه وليه المطالب بدمه، ونستطيع أن نضيف عاملاً آخر هو قوة قبيلة كلب بالشام وتأييدها لمعاوية الذي تزوج منهم، وهو التأييد الذي ستظهر آثاره فيما بعد، وكلب أيضًا هي قبيلة نائلة بنت الفرافصة زوج عثمان التي دافعت عنه أعداءه وهم يقتلونه حتى أطاروا أصابعها وجزءًا من كفها..

فلما كتب علي إلى معاوية بالبيعة استنظر معاوية رسوله، ولم يكتب جواب رسالته، حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان - صفر سنة ٣٦ هـ - دعا معاوية رجالاً من بني عبيس فدفع إليه طوارًا مختومًا عنوانه: "من معاوية إلى علي"، وقال: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار، ثم أوصاه بما يقول، وسرّحه إلى علي مع رسوله، فلما دخل المدينة ورفع الطومار للناس فرأوا عنوانه فعلموا أن معاوية يأبى البيعة، وقال رسوله لعلي: "إني تركت قومًا لا يرضون إلا بالقود، فقال علي: ممن؟ قال: من خيط نفسك، وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان، وهو منصوب لهم؛ قد ألبسوه منبر دمشق، فقال علي: مني يطلبون دم عثمان؟ ألسنت موتورًا كثرّة عثمان؟ اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله، فخرج الرسول فاعترضه السبئية يصيحون: هذا الكلب، هذا وafd الكلاب، اقتلوه، فنادى الرجل: "يا آل مُضَر، فحمته مضر، وجعل يقول لهم: "إني أحلف بالله جل اسمه ليردّنها عليكم أربعة آلاف خصي، فانظروا كم الفُحولة والركاب"، والمصريون يسكتونه فلا يسكت، وجعل يهتف بهم: لا والله

لا يفلح هؤلاء أبداً، فلقد أتاهم ما يوعدون، وقد حل بهم ما يحذرون.. فما زال بهم حتى عرف الذل فيهم^(١).

موقعة الجمل:

استعد علي لوضع حد لعصيان معاوية بالشام، لكن الأخبار توافدت عليه أن جمعاً من الصحابة بمكة على رأسهم عائشة وطلحة والزبير ومن اجتمع إليهم من بني أمية - رهط عثمان - قد قر قرارهم على وجوب المطالبة بدم عثمان، وأهمية ألا يؤخر ذلك، فاهتم علي بذلك التطور الجديد.

وقد تغلب المجتمعون بمكة على مشكلة تمويل جيشهم لما أعلمهم يعلى بن أمية - أمير اليمن الذي عزله علي - أن معه من الأموال ما يكفي لذلك، وتشاور القوم في اتجاه خطوتهم التالية فرأوا أن الشام قد كفوا أمرها بمعاوية، وأن أفضل الجهات التي يقصدونها هي البصرة، إذ لعبد الله بن عامر بها صنائع، ولأهلها في طلحة هوى ورغبة، ودعوا أم المؤمنين عائشة إلى السير معهم فوافقتهم، في حين منع عبد الله بن عمر أخته حفصة من متابعتها، وبلغت أعدادهم ألف رجل، واتفق الجماعة على تولية عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد الصلاة بهم، وأوضح الزبير أهداف تحركهم فقال لبعض من لقيه: "ننهض الناس فيدرك بهذا الدم - يعني دم عثمان - لئلا يبطل، فإن في إبطاله توهين سلطان الله بيننا أبداً، وإذا لم يُعظم الناس عن أمثالها لم يبق إمام إلا قتله هذا الضرب" (أي النوع من السفهاء والمتأمرين)^(٢).

وساروا في طريق غير معهودة إلى البصرة كي يفلتوا من جيش علي الذي كان يترصدهم في الطريق، واستطاعوا السيطرة على البصرة، وخطبت أم المؤمنين فيمن

(١) راجع عن مبايعة أبي موسى وموقف معاوية ورسوله (الطبري: السابق ٤/٤٤٣-٤٤٤)

(٢) السابق ٤/٤٤٨-٤٦١.

جاءهم من أهلها فقالت توضح أهدافها: "كان الناس يتجنّون على عثمان، ويُزرون على عماله، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم، ويرون حسنًا من كلامنا في صلاح بينهم، فننظر في ذلك فنجده برًا تقياً وفتياً، ونجدهم فجرة كذبة، يحاولون غير ما يظهرون، فلما قووا على المكاثرة كاثروه، فاقتموا عليه داره، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام، بلا ترة ولا عذر، ألا إن مما ينبغي - ولا ينبغي لكم غيره - أخذ قتلة عثمان، وإقامة كتاب الله عز وجل: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) (١).

ومعنى ذلك أن الخارجين مع أم المؤمنين لم يخلعوا ببيعة علي، ولم يطلب أحدهم الخلافة لنفسه، بل كان طلبهم محددًا في الثأر لعثمان من قتلته، وقد حاول هؤلاء السبئية أن يستبقوا الأحداث بمجرد وصول عائشة وجيشها إلى البصرة، فحرضوا بالجيش، وحاولوا أن يُنشبوا القتال، فكانوا يتحاجزون عنهم حتى يشرحوا قضيتهم للناس، فلما استبان الأمر لأهل البصرة أمرهم طلحة والزبير ومن معهما بأن يسلموهم قتلة عثمان من قبائلهم، فأقبلوا بهم يجرونهم جر الكلاب حتى قتلوا، إلا أن أحدهم وهو حرقوص بن زهير منعه قبيلته بنو سعد من تميم، وغضبت له، فغضب لهم سائر بني تميم واعتزلوهم، ومضوا إلى خارج البصرة (٢).

خرج علي من المدينة في نحو سبعمائة رجل، جلهم من الثائرين على عثمان، وأقلهم من أهل المدينة الذي يصف الشعبي موقفهم فيقول: "والله الذي لا إله إلا هو ما نهض في تلك الفتنة إلا ستة نفر بدرين ما لهم سابع أو سبعة ما لهم ثامن" (٣).. وتوقف قريبًا من الكوفة وأرسل يستهض أهلها ليكونوا في جيشه، واعترضته إرادة أميرها أبي موسى الأشعري الذي كان يرى الكف، والبعد عن

(١) سورة آل عمران آية ٢٣، والرواية في الطبري: السابق ٤٦٣/٤-٤٦٤.

(٢) راجع السابق ٤٦١/٤-٤٧٤.

(٣) السابق ٤٤٧/٤

المشاركة في هذه الفتنة، ويقول لأهل الكوفة ناصحًا: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي خير من الراكب"، غير أن رسل علي - وعلى رأسها ولده الحسن - استطاعوا إقناع أبي موسى بترك أهل الكوفة يفعلون ما يقتنعون به، ومضوا يحرضوتهم حتى خرج منهم نحو تسعة آلاف، وانضموا إلى جيش علي^(١)، ليشهدوا محاولات الصلح والتوفيق التي كان يرفع شعارها عليّ أيضًا، وقد أرسل القعقاع بن عمرو لمحاروة أم المؤمنين ومن معها، فكان مما قاله لهم: "قد قتلتم قتلة عثمان من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة إلا رجلاً - يعني حرقوص بن زهير - فغضبت لهم ستة آلاف واعتزلوكم - وخرجوا من بين أظهركم.."، فسأله: فتقول أنت ماذا؟ قال: أقول هذا الأمر دواؤه التسكين، وإذا سكن اختلجوا، فإن هذا الأمر الذي حدث ليس يُقدر، وليس كالأمر، ولا كقتل الرجل الرجل، ولا النفر الرجل، ولا القبيلة الرجل، فقالوا: نعم، إذاً قد أحسنت وأصبت المقالة، فارجع، فإن قدم عليّ وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر، فرجع إلى علي فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح^(٢)، وكانت وفود من أهل البصرة قد قدمت إلى علي فأخبرهم بمثل ذلك، وخطب علي أصحابه فقال: "... ألا وإني راحل غدًا فارتحلوا، ألا ولا يرتحلن غدًا أحد أعان علي عثمان بشيء، وليُغن السفهاء عني أنفسهم"، فارتاع لذلك السبئية وتشاوروا، فانتهدت آراؤهم إلى قول ابن سبأ: "يا قوم إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم، وإذا التقى الناس غدًا فأنشبو القتال، ولا تفرغوهم للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجد بدءًا من أن يمتنع، ويشغل الله عليًا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون"^(٣).

(١) السابق ٤/٤٤٧، ٤٧٨-٤٨٥.

(٢) السابق ٤/٤٨٨-٤٨٩.

(٣) السابق ٤/٤٩٣-٤٩٤.

وأُنشِب السبئية القتال على حين غرة، وعلى غير ترقب من قادة الجيشين، ولم تجد صيحات هؤلاء القادة بالناس ألا ينساقوا وراء دعاة الحرب، وقتل قاضي البصرة كعب بن سور وهو يرفع المصحف بين الصفيين ليحتكموا إلى كتاب الله، قتله السبئية فتفجر القتال، فقتل عدة آلاف - ولا يخلو هذا التقدير من مبالغة كبيرة - وتراوح النصر الكئيب بين كلا الجيشين، وانهزم أصحاب الجمل الذين عُرفوا بذلك نسبة إلى الجمل الذي كانت تركبه أم المؤمنين، وقتل الزبير وهو منسحب من ساحة القتال، وقتل طلحة بعدما نزفته جروحه، وأصيب مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وغيرهم من رجالات المسلمين في كلا الجيشين.

وكانت مشاعر الأسي والمرارة تعنصر القادة في المعسكرين لما آلت إليه الأمور، فقالت عائشة: والله لو ددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة، وجعلت تترحم على القتلى من جندها وجند عليّ على السواء، وجعل عليّ يتفقد القتلى، وكلما مر على رجل من أصحاب الجمل له دين وشرف قال: "زعم من زعم أنه لم يخرج معهم إلا الغوغاء؛ هذا العابد المجتهد" وصلى على القتلى جميعاً من كلا العسكرين دون تفريق، وكان يشهد أن كل من لقي الله منهم بنية صالحة من أهل الجنة.. ورثى الزبير - ابن عمته صفية - رثاء حاراً، وحرّم اتباع المنهزمين من خصومه، كما حرّم أموالهم وأعراضهم، وأكرم عائشة رضي الله عنها، وأرسلها في صحبة جماعة من نساء أهل البصرة وأخيها محمد بن أبي بكر، وأرسل معها ابنه محمد بن الحنفية يشيعها إلى مسافة من البصرة؛ وجهازها بكل ما يلزمها، وامتدحت هي موقفه، وشهدت له بالخير وقالت: ما كان بيني وبينه إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي - على معتبتي - من الأخيار، فقال عليّ: "صدقت والله وبرّت، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ^(١).

(١) راجع هذه الوقائع ومزيداً من التفاصيل عند الطبري: السابق ٣٩٥/٤-٥٤٤.

رابعاً: صراع علي ومعاوية: الأسباب والنتائج:

١- ظروف بيعة علي وامتناع معاوية وحجته:

كانت بيعة علي بالخلافة تختلف اختلافاً كبيراً - في الظروف المحيطة بها - عن بيعة الخلفاء السابقين؛ أبي بكر وعمر وعثمان، الذين تمت بيعتهم في جو من الشورى والسكينة والرضا.. فقد أدى دور قتلة عثمان في إتمام البيعة لعلي إلى نفرة جماعة من كبار الصحابة من البيعة له، لا غصاً من شأنه، ولكن تخوفاً من الدخول تحت سيطرة هذه العصابة دخولاً يتعذر الخروج منه، ومن هؤلاء الصحابة من المهاجرين والأنصار: عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص وصهيب بن سنان الرومي وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد وقدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري والنعمان بن بشير ورافع بن حديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة، ناهيك عن فر من بني أمية بعد سيطرة الثوار على المدينة ومقتل عثمان؛ مثل مروان بن الحكم والوليد بن عقبة وسعيد بن العاص وآخرون^(١).

ولما عظمت الفتنة وكان القتال بين علي وأصحاب الجمل وبينه وبين أهل الشام تخلف عن علي رضي الله عنه كثير من المهاجرين والأنصار وأعيان الصحابة حتى إنه يروى عن محمد بن سيرين قوله: "هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف فما حضرها منهم مائة؛ بل لم يبلغوا ثلاثين"^(٢)، وقال الشعبي كما مر بنا: "ما نهض في تلك الفتنة إلا ستة نفر بدريون ما لهم سابع" ..

(١) راجع: السابق ٤/٤٢٩-٤٣١.

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة ٣/١٨٦.

وذلك مما يدل على عظيم فضل عليّ وسعة صدره، وإيمانه بحق قادة الأمة في اختيار خليفتهم أو رفضه، أو الامتناع عن بيعته، ما دام هؤلاء الممتنعون والمعارضون لا يشقون عصا الطاعة، ولا يخلعون يدًا من الجماعة، وقد كان هؤلاء الأعلام - أو جلهم - يرون أن بيعة عليّ تلزمهم وإن لم يبايعوا، إذ بايعه جمهرة الصحابة الآخرين..

ولا ريب أن معاوية في تخليه عن البيعة لعلي يسعه ما وسع هؤلاء المتخلفين عنها من الحجة والعدر، وقد كانت حجته في ذلك ترتكز إلى أساسين: الأول: هو اتهامه عليًا بالتستر على قتلة عثمان، وهم قادة جيشه وأبرز رجاله، والثاني: أنه يرى أن بيعة علي لم تتعد بشكل يلزمه، لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق والأمصار، فلم يحضرها إلا قليل منهم، وقد امتنع عليه بعض كبار الصحابة كما رأينا..

وقد لخص معاوية وجهة نظره هذه في حوار مع رسل علي ﷺ لما دعوه إلى الطاعة والجماعة، فقال: "فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي، وأما الطاعة لصاحبكم فإننا لا نراها، إن صاحبكم قتل خليفتنا، وفرق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقتلتنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نرد ذلك عليه، أرايتم قتلة صاحبنا؟ أستم تزعمون أنهم أصحاب صاحبكم؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة"^(١).

وقال رسول معاوية حبيب بن مسلمة الفهري لعلي موضحًا موقف معاوية: "فادفع إلينا قتلة عثمان - إن زعمت أنك لم تقتله - نقتلهم به، ثم اعتزل أمر الناس؛ فيكون أمرهم شوري بينهم، يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم"^(٢).

(١) الطبري: السابق ٦/٥.

(٢) السابق ٧/٥.

ومن المؤكد أن عليًا رضي الله عنه كان بريئًا من دم عثمان، وأنه أعلن ذلك عدة مرات بعد استخلافه وعلى منبر الكوفة^(١)، وفي بعض مراسلاته مع معاوية^(٢)، وقد كان معاوية نفسه لا يقطع بالقول باتهام علي - كما نلاحظ فيما مضى من حديثه مع رسله ﷺ، وحديث حبيب بن مسلمة - رسول معاوية - مع عليّ، ولا يظن ذلك بعلي ﷺ، إلا أن الذي أساء إلى موقفه هو ذلك الدور الذي لعبه قتلة عثمان في استخلافه، حيث كانوا أبرز المرشحين له، والقائمين على إتمام بيعته، أو هكذا أظهروا للناس، وأرادوا أن يعرف الخاصة والعامة من المسلمين أن اختيار علي تم برأيهم، وتحت ضغط وتهديد منهم، فيعمل الجميع حسابًا لنفوذهم وقوتهم، وهم قد خاطبوا عليًا متباهين بما تحقق لهم من هذا النفوذ، مزهوين بنجاح خطتهم كما رسموها وقدروها، فقالوا - كما رأينا -: "خذها إليك واحذرن أبا الحسن" .. واستمرت جهودهم بعد مقتل عثمان من أجل تجذير الفرقة في المجتمع الإسلامي، وإبقاء الصراع والحروب بين المسلمين، فأثاروا الغبار حول مواقف بعض الصحابة من قتل عثمان، كما أشاعوا أن عليًا وبني هاشم حرضوا على قتل الخليفة الأموي وغنموا سيفه ونفائسه بعد قتله^(٣) .. وإن قدم هذه الاتهامات لعلي منذ حصر عثمان^(٤) تمنعًا من افتراض شيوعها بعد تمنع معاوية عن بيعة علي ليتخذ من هذه الاتهامات ستارًا لسعيه.

وبعد أن لعب قتلة عثمان الدور الأكبر في استخلاف عليّ أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، فحجبه عن خيرة أصحاب النبي ﷺ، ثم ما لبثوا أن حققوا نجاحًا باهرًا في مسعاهم حين نجحوا في إخراج علي من المدينة - موطن المهاجرين

(١) السابق ٤/٤٤٤، ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/٣٠٢.

(٢) الإمامة والسياسة ١/٢٠١.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ط بغداد ٥٨١.

(٤) السابق ٥/٩٩، الطبري: السابق ٤/٣٦٤-٣٦٥.

والأنصار - إلى الكوفة بلد السبئيين الأصيل، وموئل الثوار والمتمردين، صحيح أن خروجه من المدينة جاء اعترافاً بانتهاء الدور القيادي الذي لعبته في عصر النبي ﷺ وخلفائه الماضين، وإقراراً بانتقال مركز الثقل السياسي إلى الأمصار الجديدة^(١)، وقد كان حصار عثمان وقتله والبيعة لعلي ترجمة عملية لهذه التغيرات الجديدة، ولكن ذلك كان يعني أيضاً مزيداً من سيطرة أهل الكوفة من قتلة عثمان وأنصارهم على مجريات الأمور في بلادهم، والخليفة عندهم في رحالهم، وخسارة للناصحين من مجربي الصحابة بالمدينة، لقد كان الخليفة نفسه يعرف مدى سيطرة هؤلاء الثوار، وأنهم "يملكوننا ولا نملكهم"، ويطالب القائلين بالتأثر لعثمان بالتريث حتى يتمكن منهم، ولكن ذلك لم يبدُ مقنعاً لهم وهم يرون قتلة عثمان أبرز مساعدي عليّ وأعوانه ورجاله، ويرون حوله وفي مجلسه وعلى قيادة جيشه وفي جملة ولاته أمثال الأشتر النخعي ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة ويزيد بن قيس وغيرهم.. ويرصدون عن قرب محاولات هؤلاء الرجال تفريق المتعقلين من حول علي وإفرادهم له، مثلما فعل الأشتر مع جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله علي إلى معاوية، فعاد من عنده ينصحه بالتريث عن قتاله، ويخبره بعذره واجتماع أهل الشام حوله، فما كان من الأشتر إلا أن سب الصحابي الجليل، واتهمه في ولائه، وحرّض علياً على حبسه وأشباهه من الناصحين، فخرج جرير من الكوفة ماضياً إلى قرقيسيا وما زال الأشتر بعلي ﷺ حتى ركب إلى دار جرير فأحرق مجلساً له، ومضى إلى دار ابن عم له - قد خرج معه - فشعث فيها شيئاً - بزعمهم - وانصرف^(٢).

(١) وقد ناشد بعض الصحابة مثل عبد الله بن سلام وعقبة بن عامر علياً ألا يدع المدينة فقال: "إن الأموال والرجال بالعراق"، ونال ابن سلام من السبئية التهجم والشر(راجع الدينوري: الأخبار الطوال ص ١٤٣)

(٢) الطبري: السابق ٥٦٢/٤، الدينوري: السابق ١٥٦، ١٦١، ١٦٤.

فهل كان بوسع معاوية أن يتجاهل ذلك كله وأهل بيته من بني أمية يتهمونه بالتخاذل والضعف^(١)، وأهل الشام قد التقوا حول قميص الخليفة يبكون ويقسمون على الثأر له، وهو نفسه يعلم أنه ولي الخليفة المقتول، وأحق الناس بالطلب بدمه لقدرتة على ذلك، والقرآن الكريم يعده النصر في قوله تعالى: (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا)^(٢)، وهل كان بوسعه أن يجلس ساكنًا في الوقت الذي نهض فيه طلحة والزبير وعائشة وهم أبعد منه صلة بعثمان، يطالبون بدمه، ويخرجون من مكة في جيشهم متجهين إلى البصرة ليقتلوا قتلة عثمان، وهو يرى قريبًا منه بمصر جماعة من شيعة عثمان قد أمروا عليهم معاوية بن حديج السكوني، وكانوا أول من بايع على الطلب بدم عثمان، وهزموا من بعثه إليهم والي علي على مصر محمد بن أبي حذيفة من جند عدة مرات؟؟^(٣).

ومما زاد الأمور تعقيدًا ودفع بها إلى القتال وإراقة الدماء أن بعض رسل عليّ إلى معاوية كانوا من المتهمين عنده بقتل عثمان أو التحريض عليه، مثل عدي بن حاتم ويزيد بن قيس^(٤)، وكان بعضهم يفتقد الحكمة في الحديث وعرض القضية وتسكين الفتنة، بل عمد بعضهم إلى الإساءة إلى معاوية في مجلسه وشتمه! مثلما حدث من شبت بن ريعي التميمي^(٥).

وكانت ممارسات بعض هؤلاء الثائرين تدفع بالأمور إلى حافة الهاوية، وتؤكد في حس معاوية وأهل الشام مسئولية هؤلاء عن قتل عثمان واستخفافهم بدمه، فقد

(١) الطبري: السابق ٥٦٤/٤.

(٢) سورة الإسراء آية ٣٣.

(٣) الكندي: ولاة مصر ص ٤٢.

(٤) الدبري: السابق ٥/٥-٦.

(٥) السابق: ٥٧٣/٤-٥٧٤، ٦/٥.

أرسل معاوية إلى ابن خاله محمد بن أبي حذيفة عامل علي على مصر يطلب منه أن يدفع إليه عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر، وكلاهما ممن قتل عثمان، فأرسل إليه ابن أبي حذيفة يقول: لو طلبت منا جدياً رطب السرة بعثمان ما دفعناه إليك^(١)، وكان أحدهم واسمه عبد الرحمن بن الحنبل يرتجز يوم صفين وهو يقول:

إن تقتلوني فأنا ابن حنبل أنا الذي قد قلت فيكم نعثل^(٢)

وقد بلغ من سيطرة هؤلاء السفهاء على مجريات الأمور بالكوفة أن الناس كانوا إذا سمعوا أحداً يذكر عثمان بخير ضربوه، وأن علياً عليه السلام لما علم ذلك نهاهم عنه^(٣).

ولعل مما زاد في شكوك معاوية تجاه علي وأصحابه أن علياً رضي الله عنه أول ما تولى الخلافة بادر إلى عزل عمال عثمان وفي مقدمتهم معاوية، وكان معاوية قد ولاه عمر، وزاد في ولايته ثقة به، وازدادت مكانته في عهد عثمان، فظل عشرين سنة والياً على الشام - كله أو بعضه - قائماً بأمره مجاهدًا عدوه براءً وبحراً، ولم تصل إلى أحد منه شكاية معتبرة، وكان أهل ولايته راضين عنه لا يريدون به بديلاً، وقتالهم علياً في صفه - فيما بعد - أصدق دليل على ذلك، وكان فيمن ولاهم علي من كان معاوية خيراً منه كالأشتر ومحمد بن أبي بكر.. ومن المؤكد أن هذه الخطوة قد زادت مخاوف معاوية، الذي أيقن أن عزله عن الشام سوف يخسره قوته في المطالبة بالثأر لعثمان، في الوقت الذي ينبغي أن

(١) الكندي: السابق ٤٢.

(٢) الطبري: السابق ٤٦/٥، كان أعداء عثمان يسمونه نَعَثَلًا تشبيهاً برجل من مصر كان طويل اللحية اسمه نَعَثَل، وقيل: النَعَثَلُ الشيخ الأحمق (ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث ٧٩/٥)

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٩٤/٤٠.

تتضام جهود المسلمين وولادة الأمصار من أجل تطبيق حدود الله على هؤلاء المعتدين، ولذلك قال ابن تيمية: "فليت عليًا تألف معاوية وأمره الشام وحقن الدماء"^(١)، ومن المثير أننا نجد روايات تدل على أن حجة معاوية كانت تجد أصداء لها حتى في معسكر علي وبين أقرب الناس إليه، فولده الحسن يقول: "وأيم الله يا أبت ليظهرن عليك معاوية، لأن الله تعالى قال: (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا)^(٢)، وكان ابن عمه عبد الله بن العباس يحتج بهذه الآية ويقول: "ما زلت موقنًا أن معاوية يلي الملك من هذه الآية"^(٣)، وكان ابن عباس يخطب فيقول: "لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء"^(٤).. ولقد كان الحسن وابن عباس من أكابر العقلاء في معسكر علي، والحريصين على ترك إراقة الدماء، ولما أتحت للحسن الفرصة بعد وفاة أبيه بادر إلى صلح معاوية، والتسليم له بالخلافة..

٢- حول ظروف بدء القتال بين علي ومعاوية:

تعتمد روايات الطبري - وعنه أخذ كثير من المؤرخين التاليين - في أحداث هذه المرحلة على رواية أبي مخنف الشيعي المحترق - وهي تصل إلى الطبري عن طريق هشام الكلبي، وهو رافضي كذاب، وذلك يعني مزيدًا من الحذر في تناولها ودراستها.

لما انتصر علي أصحاب الجمل بدأ يستعد للاتجاه إلى معاوية وأهل الشام، وكانت النوايا تنحصر - مثلما حدث في موقعة الجمل - في محاولات الإصلاح، والضغط على معاوية بكل سبيل لإجباره على الطاعة والجماعة، مع

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٢٦٢.

(٢) سورة الإسراء آية ٣٣.

(٣) ابن عبد ربه: السابق ٤/٢٩٩، ابن عساکر: السابق ٤٠/٤٨٧.

(٤) ابن عساکر: السابق ٤٠/٤٥٩.

تأخير الخيار المسلح ليكون آخر الحلول الممكنة، ومنذ البداية استأذن نحو أربعمئة رجل من القراء من أصحاب عبد الله بن مسعود عليًا فقالوا: يا أمير المؤمنين، قد شككنا في هذا القتال، مع معرفتنا فضلك، وطلبوا أن يأذن لهم بعد ذلك بالذهاب إلى بعض الثغور لقتال المشركين، فوجههم نحو قزوين والري^(١).

وسار علي بجيوشه نحو الشام فعبر الفرات حتى وصل إلى صفين، ثم أرسل رسله إلى معاوية يدعونه إلى الطاعة والجماعة، وكان بعضهم من المتهمين عنده بقتل عثمان، وبعضهم ممن استثار غضبه بسوء حديثه وتعالیه كما سبق القول، وكان هؤلاء السبئية يبحثون دائمًا عما يؤجج الخصومة ويدفع إلى الحرب، فأرسل إليه معاوية من يدعو إلى تسليمه قتلة عثمان من جيشه، ولكن عليًا كان لا يستطيع ذلك، فلما انتهت هذه المفاوضات بالفشل أمر علي مناديه أن ينادي في معسكر معاوية أنه قد نبذ إليهم على سواء، فكان كل فريق من الجيش يخرج ليلًا فريقيًا من الجيش الآخر، إلى أن قال علي: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا؟ فكانت الحرب الشاملة.

لقد بدأ علي بالقتال، وقدم بجيشه إلى حدود الشام، رغم أنه لم يقاتل هؤلاء الذين امتنعوا عن بيعته بالمدنية من قبل، فالأمر مع معاوية كان مختلفًا، إذ إنه ليس مجرد رجل يمتنع عن البيعة، ويمارس حقه الأصيل في الشورى، بقبول أو رفض الخليفة، ولكنه والٍ قوي لإحدى أعظم الولايات الإسلامية، يستعصم بقوة مسلحة ضارية، فهو عند علي من البغاة الذين يخرجون عن طاعة الإمام، ويمتنعون عنها بالقوة المسلحة، ولكن رؤية معاوية وأهل الشام كانت مختلفة عن ذلك، فهو لا يبادر عليًا بالقتال، ويطالبه بإقامة حد شرعي، ويعلق أمر بيعته على تحقيق ذلك الحد الشرعي بالقصاص ممن قتلوا ابن عمه وخليفة المسلمين، وقد

(١) الدينوري: السابق ١٦٤-١٦٥.

أدى بدء علي القتال على ذلك النحو إلى تكتل أهل الشام خلف معاوية، رغم أنه آنذاك لم يكن قد ادعى الخلافة ولم يكن قد تسمى بأمر المؤمنين، فقد قاتلوا معه لظنهم أن عسكر علي فيهم ظلمة يعتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان من قبل، وأنهم يقاتلونهم دفعاً لصيلهم عليهم، وقاتل الصائل جائر، لهذا لم يبدءوهم بالقتال حتى بدأهم أولئك، ولهذا قال الأشتر: إنهم ينصرون علينا لأننا نحن بدأناهم بالقتال^(١).

التحكيم:

ولما استعر القتال بين الفريقين لجأ أهل الشام إلى رفع المصاحف على أسنة الرماح طلباً لتحكيم القرآن فيما هم بصدده من خلاف^(٢)، وتفترض الروايات الشيعية لأبي مخنف وغيره أن السبب في التحكيم والباعث إليه كان إشراف جند الشام على الهزيمة، مما دفع عمرو بن العاص إلى تدبير هذه "الخدعة" للخروج من مأزق الحرب والهزيمة^(٣).

والحقيقة أن الحرب كانت سجالاً بين الفريقين^(٤)، وسقط من كلا الفريقين قادة أعلام، ففقد أهل العراق عمار بن ياسر وعبد الله بن بديل وهاشم بن عتبة المرقال، وفقد أهل الشام عبيد الله بن عمر بن الخطاب وابن ذي الكلاع الحميري وغيرهما^(٥).

(١) ابن تيمية: منهاج السنة ٢/٢٠٢-٢٠٣، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٥/٧٢.

(٢) راجع عن تفاصيل القتال الطبري: السابق ٤/٥٦٣-٥٧٥، ٥/٥٨-٥٨.

(٣) السابق ٤/٤٨-٥٧.

(٤) السابق ٥/١٥-٣٤.

(٥) السابق ٥/٣٦-٣٧، ٤١-٤٤.

كما أن التحكيم لم يكن مبادرة السلام الوحيدة في هذه المعركة؛ فقبل القتال كانت الرسل تترى بين الفريقين هادفة إلى تحقيق المصالحة والسلام، فلما فشلت هذه المحاولات وقرر أمير المؤمنين بدء المواجهة الشاملة مع أهل الشام نظر كعب بن جميل إلى هذه الحشود وهو يقول مشفقاً:

أصبحت الأمة في أمر عجب والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلام العرب^(١)

وكان علي قد ندب في تنظيم الجيش كل قبيلة من العراق لأختها من أهل الشام؛ فكان أزد العراق في مواجهة أزد الشام، فوقف مخنف بن سليم الأزدي العراقي خطيباً، وقال بعد حمد الله والثناء عليه: "إن من الخطأ الجليل والبلاء العظيم أنا صُرفنا إلى قومنا وصرفوا إلينا، والله ما هي إلا أيدينا نقطعها بأيدينا، وما هي إلا أجنحتنا نجدُّها بأسيافنا، فإن نحن لم نواسِ جماعتنا، ولم نناصح صاحبنا كفرنا، وإن نحن فعلنا فعزنا أبغنا، وثارنا أخدمنا.. اللهم أن تعافي أحب إلينا من أن تبتلى"^(٢).

وإذا كان مثل ذلك قد ظهر في معسكر العراقيين - والمرجع أن الرواية العراقية أخفت بعضه - فقد ظهر مثله في معسكر الشام.. فإن يزيد بن أسد القسري وقف يخطب في الناس، فقال: "وقد كان قضاء الله جل وعز أن جمعنا وأهل ديننا في هذه البقعة من الأرض، والله يعلم أنني كنت لذلك كارهاً، ولكنهم لم يُبلعوننا ريقنا، ولم يدعونا نرتاد لديننا، وننظر لمعادنا، حتى نزلوا في حريمنا وبيضتنا، وقد علمنا أن في القوم حكماً وطغماً، فلسنا نأمن طغامهم على ذرارينا ونسائنا، وقد كنا لا نحب أن نقاتل أهل ديننا، فأخرجونا، حتى صارت الأمور إلى أن يصير قتالنا غداً

(١) السابق ١٤/٥.

(٢) السابق ١٤/٥، ٢٦-٢٧.

حمية، فإننا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، والذي بعث محمدًا ﷺ
بالحق نبياً لوددت أني مت قبل هذا.."(١).

وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله يومذاك، وهو يسترجع: "والله ما هذا بيوم
ذات السلاسل ولا بيوم اليرموك ولا يوم أجنادين، وددت أن بيني وبين موقفي بعد
المشرقين"(٢).

ولكن القتال استمر حتى تكسرت الرماح، وتقطعت السيوف، فكانوا يتنادون من
كل جانب يا معشر العرب، من للنساء والأولاد، الله الله في الحرمات"(٣)، وأرسل
معاوية إلى علي يقول: "أما بعد فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم
يجنّها بعضنا على بعض، وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها من
نرّم به ما مضى، ونصلح به ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على أن لا تلزمني
لك طاعة، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإنك لا ترجو من البقاء إلا
ما أرجو، ولا تخاف من القتال إلا ما أخاف، وقد والله رقت الأجناد، وذهب
الرجال، ونحن بنو عبد مناف، وليس لبعضنا على بعض فضل يُستدل به عزيز،
ويُسترق به حر والسلام"(٤).

بل إن الدعوة الواضحة للسلام التي تثبت أن ما وصل إليه حال الجيشين لم
يكن يحتمل مزيد قتال؛ وأنه لم يكن هناك إلا المكابرة التي تمنع أحد الطرفين من
قبول الهزيمة، هذه الدعوة جاءت من معسكر العراق!! فقد خطب الأشعث ابن
قيس زعيم كندة أصحابه ليلة الهرير فقال: "قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان
في يومكم الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء

(١) الأصفهاني: الأغاني ١١/٢٢، والأصفهاني علوي الهوى فلا يُتهم في مثل هذه الرواية.

(٢) البيهقي: المحاسن والمساوي ٥٤/١.

(٣) الدينوري: السابق ١٨٣.

(٤) السابق ١٨٧، المسعودي: مروج الذهب ٢٢/٣.

الله أن أبلغ، فما رأيت مثل هذا اليوم قط، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، إن نحن توافقنا غدًا إنه لفناء العرب، وضیعة الحرمات، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعًا من الحرب، ولكني رجل مسنّ، أخاف على النساء والذراري غدًا إذا نحن فنینا.."، وجاء خبر ذلك إلى معاوية فقال: "أصاب ورب الكعبة، لئن نحن التقينا غدًا لتميلن الروم على ذراري أهل الشام ونسائهم، ولتميلن فارس على ذراري أهل العراق ونسائهم، إنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهي"، ثم قال لأصحابه: "اربطوا المصاحف على أطراف القنا"^(١).

وتلك رواية عراقية - في أولها وآخرها - تثبت أن المواعدة كانت رغبة كلا الفريقين، ولن يضير معاوية أو عمرو أن تأتي أحدهما الشجاعة فيبادر بذلك؛ وينقذ ما بقي من قوى الأمة المتصارعة، إنما يزج ذلك السبئية الذين أشعلوا نيران هذه الفتنة، وتركوا لنا ركامًا من الروايات المضللة بشأنها، تحيل الحق باطلاً، وتجعل الفضل - كالمناداة بتحكيم القرآن لصون الدماء المسلمة - جريمة ومؤامرة، أما استمرار جريان هذه الدماء في حرب داخلية تبدد قوى الأمة وتوقف حركة جهادها ضد أعدائها، وتطمع هؤلاء الأعداء فيها فهو - في عرفهم النكد - شجاعة وبطولة ورشد!!

حول موقف علي من التحكيم:

ورواية أبي مخنف تقتض أن عليًا رفض تحكيم القرآن لما اقترحه أهل الشام، ثم استجاب بعد ذلك له تحت ضغط القراء؛ الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد^(٢)، وهذه الرواية تحوي سبًا من علي لمعاوية وصحبه؛ يبتزّه عنه أهل هذا الجيل، وهي لا

(١) نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٤٧-٥٤٩، الدينوري: السابق ١٨٨-١٨٩، ابن أبي الحديد:

شرح نهج البلاغة ٢/٢١٤-٢١٥.

(٢) الطبري: السابق ٤٨/٥-٥٩.

تصمد للبحث النزيه، ولا تقف أمام روايات أخرى لا يُتهم أصحابها بهوى، مثل ما يرويه الإمام أحمد بن حنبل عن طريق حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبا وائل - أحد رجال علي بن أبي طالب - فقال: كنا بصفين، فلما استحر القتل بأهل الشام قال عمرو لمعاوية: أرسل إلي عليّ المصحف، فادعه إلى كتاب الله، فإنه لا يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ)، فقال علي: نعم، أنا أولى بذلك، فقال القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج: يا أمير المؤمنين ما ننتظر بهؤلاء القوم؟ ألا نغشى عليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا، فقال سهل بن حنيف: يا أيها الناس اتهموا أنفسكم؛ فقد رأيتنا يوم الحديبية (فذكر قصة الصلح مع المشركين لما وافق رسول الله ﷺ عليه وعارضه عمر بن الخطاب، حتى لقد رضي رسول الله ﷺ أن يزيل اسمه من وثيقة الهدنة لما صمم على ذلك المشركون)^(١).

إن هذه الرواية الصادرة عن أحد أفراد جيش علي أولى بالقبول من رواية أبي مخنف؛ فهي وإن كانت تقدم بعض الرؤى العراقية مثل جعلها التحكيم آتياً بسبب اشتداد الضرر بالمعسكر الشامي إلا أنها تبدو أكثر إقناعاً في تبرير موقف الخوارج من علي، ذلك الموقف الذي يبدو متسقاً مع ما عرف عن هذه الطائفة التي لم تنبت فجأة، وإنما تمتد جذورها الفكرية، ورموزها القيادية، إلى جماعة الثائرين على عثمان، والحاملين فكر ابن سبأ، ومتوافقاً مع موقفهم الراض للمصالحة والتفاهم والذي يرى أن عزهم في انشباب القتال كيلا يفرغ لهم المسلمون، ولسنا ننسى أنهم قتلوا من قبل كعب بن سور قاضي البصرة لما رفع المصاحب يوم الجمل طالباً التحكيم، والأمر يختلف الآن في صفين عنه يوم الجمل، فلم ترفع المصاحب إلا بعد أن عض القوم القتال، وأصبح كلا الفريقين يرجو حلاً مشرفاً لهذا المأزق

(١) ابن حجر: فتح الباري ٨٦/١٢.

الرهيب، وكان جيش عليّ يحوي كثيرًا من أهل البصرة الذين أوذوا كثيرًا يوم الجمل نتيجة القتال بين المسلمين، ويحوي كثيرًا من العناصر القبلية التي لا ترضى عن قتال نظائرها في الجيش الآخر.

ورغم كل ذلك فقد كان الأشتر النخعي أحد قادة السبئية يصبر على تفجير الموقف ومواصلة الحرب - رغم استدعائه من قبل عليّ مرات - بزعم أنه أوشك على النصر، حتى أرغم أخيرًا على وقف القتال^(١).

نهاية التحكيم:

وأخيرًا تنتهي رواية أبي مخنف عن التحكيم بزعم مؤداه أن الحكمين عمرو ابن العاص وأبا موسى الأشعري سب كل منهما صاحبه على نحو مقذع، يخجل منه آحاد الناس الذين لم تؤدبهم صحبة للرسول ﷺ؛ ولم تؤثر فيهم أخلاق الدين، بعد أن خدع عمرو أبا موسى، وكانا قد اتفقا على خلع الرجلين: عليّ ومعاوية، وترك الأمر شورى بين المسلمين، فقدم عمرو أبا موسى ليخبر الناس بذلك، فخلع أبو موسى صاحبه عليًا، وقام عمرو فخلع عليًا وثبت معاوية، فقال أبو موسى: ما لك؟ لا وفقك الله، غدرت وفجرت، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، قال عمرو: إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارًا^(٢).

ومما يرثى له أن هذه الرواية قد شاعت، وتناقلها كثيرون، بل إن أحد كبار مفكرينا المعاصرين يحكيها ثم يقول: "كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه، وانتهت المأساة بهذه المهزلة، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة!!"^(٣)، مع أن هذه الرواية ليست الوحيدة في

(١) الطبري: ٤٩/٥-٥١.

(٢) السابق ٦٨/٥-٧١.

(٣) العقاد: عبقرية عليّ ص ٧٠.

هذا الشأن، ولا أجدر تلك الروايات بالقبول؛ فقد أورد الطبري رواية مبتورة للشعبي تذكر أن أبا موسى اعترف لعمر بن عثمان بقتل مظلوماً، وأن معاوية هو وليه الطالب بدمه، وأن أبا موسى قد اقترح اسم عبد الله بن عمر للخلافة، ثم ينتهي الأخذ من هذه الرواية إلى هذا الحد^(١)، ومن الأرجح أن نهايتها تختلف عن نهاية رواية أبي مخنف^(٢)، وذكر المسعودي روايات أخرى للتحكيم يتفق بعضها مع أبي مخنف ويختلف بعضها معه^(٣)، والرؤية الجديدة التي يقدمها المسعودي تتمثل في أن الحكيم لم يكتفيا بالخطب المتبادلة وكلمات السباب، لينهيا بذلك التحكيم الذي أصبح يمثل أمل الأمة في اجتياز هذه الأزمة، فقد اتفق الحكمان - فيما يروي المسعودي - على كتابة ما يتفقان عليه في وثيقة بينهما، ختماها بخاتميتهما، وذلك هو المرجح في مثل تلك الأحوال وهذا النوع من الوثائق المهمة، وهو ما رأيناه في سيرة النبي ﷺ في اتفاقته مع اليهود حين هاجر إلى المدينة، وفي صلح الحديبية، وفي عهد أبي بكر لعمر بالخلافة، وفي معاهدات الصلح التي كان يوقعها القادة المسلمون في فتوحاتهم على مختلف الجبهات.. وذكر المسعودي أنهما اتفقا على خلع علي ومعاوية، وترك الأمر شورى بين المسلمين، ولم يخطبا ولم يتسابا، ومما يعزز من قوة ذلك الرأي أننا نعلم أن أبا موسى لم يكن ذلك الشخص الساذج كما يزعم الرواة، وأن صنيعه في التحكيم عدّه بعض الناس وقتها عملاً مجيداً، وكان مثار فخر لأولاده، مما دفع ذا الرمة الشاعر إلى مدح بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري بقوله:

أبوك تلافى الدين والناس بعدما تساءوا وبيت الدين منقطع الكسر

(١) السابق ٦٧-٦٨.

(٢) فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص ٨٥.

(٣) مروج الذهب ٢/٤٠٧-٤١٢.

فشد إصار الدين أيام أذرح ورد حروبًا قد لقحن إلى عقر^(١)

وقد أكدت بعض روايات الحديث الموثوق بها أن الحكمين قد خلعا عليًا ومعاوية وتركوا أمر الخلافة شورى بين المسلمين، وأن عمرًا بذلك قد تعرض لسخط معاوية إذ لم يتحقق هدفه، وبقي الأشر ورفاقه من قتلة عثمان أحرارًا في معسكر علي، ثم غفر له معاوية، وأبقاه إلى جانبه معاونًا ومشيرًا^(٢).. إلا أن التحكيم - من الناحية السياسية - بدا كما لو كان نصرًا لمعاوية، فهو القوة الكبيرة التي استطاعت أن تتنازع عليًا، وإن كان إلى هذا الوقت لم يدع الخلافة، وقد انتهى التحكيم إلى خلع كلا الرجلين: علي عن خلافته، ومعاوية عن إمارته، وترك الأمر شورى، مما عادل بين موقف الخليفة والوالي، وقدمهما كفرسي رهان متعادلين.. والذي يظل غامضًا في هذا الموقف هو تعيين أهل الحل والعقد الذين يمكن أن يناط بهم اختيار الخليفة الجديد، وهذا السكوت عن تحديد المراد بهذا المصطلح يحمل في طياته الإحساس بصعوبة تولية خليفة جديد قادر على فرض سلطته الكاملة على بلاد الإسلام، بإجماع الأمة كلها، في هذه الظروف المضطربة، كما يحمل في طياته بذور الفشل للتحكيم ذاته، "إذ لم يكن من وراء الحكمين قوة من المسلمين تستطيع تنفيذ حكمها"^(٣).

ظهور الخوارج ونهاية عصر الراشدين:

كان من نتائج التحكيم أمر آخر لم يحسب له أحد حسابًا، وكان في صالح معاوية وأهل الشام، ذلك أن جماعة من السبئية خرجوا على علي واتهموه بالكفر إذ

(١) ياقوت: معجم البلدان ١/١٣٠، مادة: أذرح.

(٢) ابن العربي: السابق ص ١٨٠-١٨١.

(٣) د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ١/٣٨٤.

حَكَّم في كتاب الله الرجال^(١)، وقد حاورهم علي وابن عمه عبد الله بن عباس، وأوضحوا أن القرآن - لا يمكن من الناحية العملية - أن يحكم بنفسه، بل لأبد من حكم من يفهمه ويفقه أحكامه^(٢)، وذلك الأمر البدهي استعصى على فهم الخوارج؛ فأصروا على اتهام علي بالكفر، وقد تركهم ما تركوه، واقتصر على نصحهم بالحسنى كلما جبهوه بشعارهم "لا حكم إلا لله"، وقد قال عنه علي: "إنها قولة حق يراد بها باطل"، ولكنهم عاثوا في الأرض فسادًا، وقاموا يستعرضون الناس، فمن وافقهم على رأيهم فذلكم المؤمن، ومن خالفهم فهو كافر حلال الدم، ولما ارتكبوا بعض جرائم القتل ضد مخالفيهم^(٣) حاربهم علي، فانتصر عليهم في موقعة النهروان سنة ٣٧هـ أو ٣٨هـ وقتل منهم مقتلة عظيمة^(٤).

لكن بقايا منهم اتفقت على قتل رءوس المسلمين المتنازعين الثلاثة؛ علي ومعاوية وعمرو بن العاص، وقد فشل الرجلان الموكلان بقتل عمرو ومعاوية، فلم يخرج عمرو يومها لصلاة الفجر لعذر ألمَّ به، وأتاب عنه خارجة بن حذافة، فقتله الرجل في غلس الفجر؛ وهو يظنه عمرو بن العاص، أما معاوية فقد أصابه الخارجي إصابة برئ منها فيما بعد، وأما علي فقد نجح عبد الرحمن بن ملجم الخارجي في قتله في رمضان سنة ٤٠هـ^(٥).

بايع أهل العراق الحسن بن علي بالخلافة، ولم يكن رجل قتال، بل كان يؤثر السلم والعافية للمسلمين، ولم يكن بينه وبين معاوية صراع تاريخي، ولا دماء كالتي كانت بين أبيه وبينه، وكان يدرك أن أهل العراق ليسوا بالذين يقيمون دولة له، وقد

(١) الطبري: السابق ٧٢/٥-٧٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٣٦٥/٤-٣٦٧.

(٣) السابق ٨٢/٥.

(٤) السابق ٨٤/٥-٩٢.

(٥) الطبري: السابق ١٤٣/٥-١٥١.

عانى أبوه منهم ثم قُتل بيد أحدهم، فأرسل الحسن إلى معاوية في الصلح، وبعد
مفاوضات محمودة تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة سنة ٤١هـ^(١)؛ ففاز بهذه
المكرمة التي تنبأ بها رسول الله ﷺ لما قال: "إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح
به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين"^(٢).. وبذا انقضى عصر الراشدين لتبدأ
صفحة جديدة في تاريخنا عرفت بالعصر الأموي..

(١) السابق ١٥٨/٥-١٦٠، ابن الأثير: الكامل ٢٧١/٣-٢٧٤.

(٢) البخاري: الصحيح ٩٦٢/٢، ابن حبان: الصحيح ٤١٩/١٥، أبو داود: السنن ٢١٦/٤

المصادر والمراجع

- د. إبراهيم بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية.
- د. إبراهيم العدوي: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم.
- ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة
الكامل في التاريخ.
- د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ج ١.
- أحمد محمد شاكر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير.
- إلياس شوفاني: حروب الردة، دراسة نقدية في المصادر.
- بتلر: فتح العرب لمصر.
- البخاري: الجامع الصحيح.
- البلاذري: أنساب الأشراف.
- فتوح البلدان.
- البيهقي: المحاسن والمساوي.
- الترمذي: الجامع الصحيح.
- ابن تيمية: مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية.
- المنتقى من منهاج الاعتدال.
- الجاحظ: البيان والتبيين.
- التاج في أخلاق الملوك.
- جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي.
- ابن الجوزي: سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

صفة الصفوة

الحاكم: المستدرک.

ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة.

فتح الباري بشرح صحيح البخاري.

ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة.

ابن حزم: المحلى.

الفصل في الملل والأهواء والنحل.

د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي.

حسن محمد المشاط: التقريرات السنوية شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.

الحلي علي برهان الدين: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون.

د. حمدي شاهين: تاريخ الدولة الأموية بين التحريف والإنصاف.

ابن حنبل: الإمام أحمد: المسند.

ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر.

المقدمة.

ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار.

الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس.

الدينوري: أبو حنيفة: الأخبار الطوال.

ابن رجب الحنبلي: الاستخراج في أحكام الخراج.

رفيق العظم: أشهر مشاهير الإسلام.

الزبيرى: مصعب: نسب قریش.

ساويروس ين المققع سير الآباء البطارقة.

- ابن سعد: الطبقات الكبرى.
- د. سليمان الطماوي: عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة.
- د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية.
- د. سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام.
- السيوطي؛ جلال الدين: تاريخ الخلفاء.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.
- الطبري؛ محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك.
- ابن عبد الحكم؛ أبو محمد: فتوح مصر وأخبارها.
- ابن عبد ربه: العقد الفريد.
- عبد الرحمن الجزيري: كتاب الفقه على المذاهب الأربعة.
- عبد الرازق السنهوري: فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبية أمم شرقية.
- عبد الوهاب النجار: الخلفاء الراشدون.
- ابن العربي؛ القاضي أبو بكر: العواصم من القواصم.
- ابن عساكر؛ أبو القاسم: تاريخ دمشق.
- العقاد: عثمان بن عفان ذو النورين.
- عبقريّة خالد.
- عبقريّة علي.
- عبقريّة عمر.
- عمر بن شبة: تاريخ المدينة.
- فاروق المجدلوي: الإدارة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب.
- د. فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري.

أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني.
فلهوزن: تاريخ الدولة العربية.
ابن قتيبة "ينسب إليه": الإمامة والسياسة.
القرماني: أخبار الدول وآثار الأول.
القلقشندي: مآثر الإنفاة في معالم الخلافة.
ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد.
الكاندهلوي: حياة الصحابة.
ابن كثير: البداية والنهاية.
تفسير القرآن العظيم.
الكندي: ولاة مصر.
ابن ماجه: سنن ابن ماجه.
أبو المحاسن بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.
المحب الطبري: الرياض النضرة في مناقب العشرة.
محمد رضا: أبو بكر الصديق.
د. محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر.
الفاروق عمر.
محمد محمد شراب: المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي.
محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية.
محمود شاكر: التاريخ الإسلامي.
محمود شيت خطاب "اللواء الركن": قادة فتح العراق والجزيرة.
المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر.

مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم.
النسائي: سنن النسائي.
نصر بن مزاحم: وقعة صفين.
ابن هشام: السيرة النبوية.
الهندي: كنز العمال.
الواقدي: فتوح الشام.
ولز موجز تاريخ العالم.
ويستقلد: جدول السنين الهجرية.
ياقوت الحموي: معجم البلدان.
يحيى بن آدم: كتاب الخراج.
اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي.
أبو يوسف: كتاب الخراج.

الفهرست

مقدمة

٨-١

النميد

دراسة نقدية للمصادر التاريخية الأولى لعصر الراشدين

٣٥-٨

الفصل الأول

خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

١٥٤-٣٦

٣٦	المبحث الأول: أبو بكر: إسلامه واستخلافه
٣٦	أولاً: أبو بكر قبل استخلافه ..
٤٠	ثانياً: إشارات من الرسول <small>ﷺ</small> باستخلاف أبي بكر
٥٢	ثالثاً: وفاة النبي <small>ﷺ</small> واستخلاف أبي بكر <small>رضي الله عنه</small> ..
٥٧	نظرة تحليلية لواقعة استخلاف أبي بكر
٦٨	رابعاً: من تخلف عن بيعة أبي بكر ...
٨٢	نظرة تحليلية لمواقف الممتنعين عن بيعة الصديق ...
٩٢	خامساً: منهج أبي بكر في الحكم والإدارة
١٠٤	المبحث الثاني: حركات الردة: عرض تاريخي
١٠٥	عوامل ظهور حركة الردة ..
١١٠	حركة الجهاد ضد المرتدين ..
١٣٣	المبحث الثالث: الفتوحات الإسلامية من أبي بكر الصديق <small>رضي الله عنه</small>
١٣٣	حول دوافع الفتوحات الإسلامية

١٣٤	أولاً: فتوح العراق ..
١٤٥	ثانياً: فتوح الشام ...
١٥٤	- وفاة أبي بكر <small>رضي الله عنه</small> ..

الفصل الثاني

خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

١٥٥-٢٦٦

المبحث الأول: عمر بن الخطاب واستخلافه ومنهجه في الحكم والإدارة ١٥٥

١٥٥	أولاً: عمر بن الخطاب قبل الخلافة..
١٥٩	ثانياً: استخلاف عمر <small>رضي الله عنه</small> ...
١٦١	ثالثاً: منهج عمر بن الخطاب في الحكم والإدارة ...
٢٠٥	المبحث الثاني: الفتوحات الإسلامية في خلافة عمر بن الخطاب <small>رضي الله عنه</small> ..
٢٠٥	أولاً : فتوح العراق وفارس ...
٢٢٧	ثانياً : فتوح الشام ...
٢٤١	ثالثاً : فتح مصر ...

الفصل الثالث

خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

٢٦٧-٣٢٤

٢٦٧	المبحث الأول: استخلاف عثمان والفتوحات في عصره
٢٦٧	أولاً: استخلاف عثمان
٢٧٤	ثانياً: سياسة عثمان
٢٨٠	ثالثاً: الفتوح في عصر عثمان
٢٨٠	١- الفتوح في جبهة العراق ...
٢٨٢	٢- الفتوح في جبهة الشام ...

٢٨٦	٣- الفتوح في الجبهة المصرية
٢٩٢	المبحث الثاني: الثورة على عثمان الوقائع والأسباب
٢٩٢	أولاً: تمرد الأمصار على الولاية وأسبابه
٣٠٤	ثانياً: حصار عثمان واستشهاده
٣١٧	نظرة عامة على أسباب الفتنة وبواعثها

الفصل الرابع

خلافة علي بن أبي طالب ونهاية عصر الراشدين

٣٥٤-٣٢٥

٣٢٥	أولاً: ترجمة علي ؑ
٣٢٦	ثانياً: استخلاف علي ؑ
٣٢٨	ثالثاً: المشكلات التي واجهها علي في خلافته
٣٣٧	رابعاً: صراع علي ومعاوية: الأسباب والنتائج
٣٣٧	١- ظروف بيعة علي وامتناع معاوية وحجته
٣٤٣	٢- حول ظروف بدء القتال بين علي ومعاوية
٣٥٢	٣- ظهور الخوارج ونهاية عصر الراشدين
٣٥٥	المصادر والمراجع
٣٦٠	الفهرست